

رسالة اللؤلؤة

تأليف
السيد مجتبی الموسوي اللاذري

الدار الإسلامية







رِسَالَةُ اللهِ مُخْلَصَةٌ

رسالة الله خلده

تأليف
السيد مجتبی الموسوي اللاری

إعداد
لجنة التعريب والتحقيق في الدار الإسلامية
محمد عبد النعم الخاقاني

الدار الإسلامية

حقوق الطبع والنشر محفوظة

الطبعة الأولى

١٤١٠ هـ - ١٩٨٩ م

كُوريش المزرعة، بناية المحسن سنتر، الطابق الثاني، هاتف: ٨١٦٦٢٧
فزع شالي، حارة حريك، شارع دكاش، هاتف: ٨٣٥٦٧٠
صرب: ١٤٥٦٨ - تلکس: ٢٣٢١٢ - غدير



كلمة الناشر

بسم الله الرحمن الرحيم

الأخلاق مجموعة من التصورات والمفاهيم ، تقود
الأحاسيس والعواطف ، وهي عوامل عظيمة ، مؤثرة ،
وبوضوح في نظام حياة الأمم . لذلك فإن مسألة قيادة
الأحاسيس والعواطف ، والحيلولة دونها ، من أن تفرط أو
تفرط ، من أهم الأمور الأساسية في حياة الإنسان .

وإذا عرفنا أن الإنسان يعيش باستعداداته النفسية في كل
لحظة من حياته ، وأن العقل الذي يضيء صعيد حياة
الإنسان ، من الممكن أن تخرج الغرائز الأصلية التي هي
المصدر لحركة الإنسانية ، عن أن تكون وسائل تنفيذ ، ليكون
إنحرافها محددًا مدار نفوذ العقل .

وإذا عرفنا مدى المسؤولية الكبرى التي يتحملها
الأخلاقيون ، في قيادة أحاسيسهم ، وعواطفهم ،
والآخرين .

إذا عرفنا كل ذلك ، إنكشف لنا الدور المهم للأخلاق في
الحياة ، كما اتضح لنا بعدها ، أن التربية من دون رصيد
معنوي ، لا تستطيع دفع مصادمات الغرائز للأخلاق ومن
هنا ، وجب التحصن المعنوي ، الذي يتوفر عن طريق الترجمة

العملية لما يؤمن به الإنسان من مبادئ ، علماً أن أهم ضمان لتنفيذ الأصول الإنسانية ، وأكبر رصيد للفضائل الأخلاقية ورأس كل المبادئ هو الإيمان الديني الحقيقي الذي يؤمن للإنسان القدرة والمناعة ، في مقاومة الغرائز والأحاسيس .

إن الإيمان بالله الخالق ، العالم بالسرائر والضمائر ، والاعتقاد بالشواب والعقاب ، وبالأفكار والمفاهيم الطاهرة السليمة ، يمكن الإنسان من إطلاقه لإقامة الشخصية الخيرة والمجتمع السليم ، بعيداً عن الدوافع الشريرة المضرة .

ومن هنا كانت بعثة الأنبياء لا سيما رسول الله (ص) ، من أجل تربية الإنسان ، وتعليمه ، للوصول به إلى الأهداف العالية ، وتزكية فكره من الدنس والأرجاس .

وها هي الدار الإسلامية ، التي عودت القراء على نشر كل ما يخدم الإسلام والمسلمين ، تضع هذا الكتاب (رسالة الأخلاق) لمؤلفه السيد مجتبي الموسوي اللاري ، بين يديك ، آملاً منها أن تكون ساهمت الآن ، كما ساهمت من قبل ، في المشاركة بتحسين أوضاع البيئة البشرية ، بدءاً من إصلاح النفس ، والإستزادة من الخصال الخيرة الطاهرة ، بالاستعدادات والقوى النفسية ، آملاً بالوصول إلى تكامل النوع الإنساني ، وإصلاح المجتمع إنما هو ثمرة تكامل أفراد .

إن الدار الإسلامية ، وهي تنشر هذا الكتاب ترحو من الله سبحانه أن يتقبله الناس بقبول حسن والله من وراء القصد .

الدار الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

« إِنِّي بَعَثْتُ لَأَتَمَّ لَكُمْ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ »

(حديث شريف)

تقديم

نحن ندرك بل نُجسّ بوضوح أنّ كل شيء في هذا العالم في حالة تحوّل وتغيّر ، وأنّ عامل التجديد في الحياة أصل ابتنى عليه نظام قانون الخلق .

وكما نعتقد بثبات قانون التطوّر في الحياة ، علينا أن نؤمن بثبات نوع من المعاني ومفاهيم خاصة في هذا العالم ، وأنها ثابتة لا تزول . وهذه الأصول الثابتة هي قوانين الفضائل الأخلاقية ، التي لا بدّ لنا - بحكم عقولنا - من اتّباعها ، بل نحن مكلفون - عقلاً - بأن تكون عيشتنا في هذه الحياة في ظلّها .

إنّ من أهمّ العوامل التي تكمن وراء توفيق المجتمعات البشرية وانتصاراتها وانتكاساتها هي العوامل الأخلاقية ، بل لها من الآثار الحاسمة والواضحة والظاهرة في نظام حياة الأمم بحيث لا تُبقي لأحد مجالاً للتشكيك والترديد .

إنّ الطبيعة الحقيقية للإنسان مستعدة للتكامل إلى ما لا نهاية له ، وإنّ قواه واستعداداته وإرادته وكرامته قد أودعت وتحمّرت فيه من أن يدرك الإنسان شخصيته الواقعية .

إنّ مسألة قيادة الأحاسيس والعواطف ، والحيولة دونها من أن تُفترط أو تُفترط ، من أهمّ الأمور الأساسية في حياة الإنسان بنظر التربويين الأخصائيين .

- وإنّ التكامل في الإستعدادات النفسية للإنسان كـرأسال لا ينفد عنده ، وإنّ تربيتها ونمّوها لأهم بكثير من كل ما يتعلمه من العلوم والمعارف على مختلف المستويات ، فإنّه إنّما يعيش باستعداداته النفسية في كل لحظة من حياته .

وإنّ العقل وإن كان يضيء صعيد حياة الإنسان بنوره الطبيعيّ الوضاء ، إلّا أن من الممكن أن تخرج الغرائز الأصيلة ، وهي مغروزة في ذات الإنسان ، والتي هي المصدر لكل حركة في حياته ، تخرج عن أن تكون وسائل تنفيذ للعقل ، فيكون انحرافها عن وضعها الطبيعيّ يحدّد مدار نفوذ العقل ، بحيث يتابع الإنسان ميولاً له هي على خلاف العقل ، بل حتى مصالحه الشخصية . من هنا بإمكاننا أن ندرك الدور المهم للأخلاق في الحياة ، ومدى المسؤولية الكبرى للمسؤولين عن الأمور التربوية .

نعم إنّ العمل بالأصول الأخلاقية - من ناحية أخرى - تستلزم تحمّل سلسلة من المناظرات والحرمان ، ففي كثير من الموارد يقع التضادّ بين ميول الإنسان وبين تلك الأصول ، ولا يمكن إشباع تلك الميول إلّا بالإعراض عن تلك المقررات الأخلاقية بل سحقها ، وهنا نقول : أجل ، إنّ التربية من دون رصيد معنوي لا تستطيع دفع مصادمات الغرائز للأخلاق ، فالذين ليسوا في حصن من المعنويات سيسقطون صرعى ضحايا الضغط الشديد لميولهم وأهوائهم ؛ وذلك لأنّ قوّة هذه التربية غير المعنوية سوف لا تكون راسخة مقاومة بحيث تتمكن من أن تتقدم بصاحبها في كل حال على خلاف مجاري دوافعه الغريزية .

إن أهم ضمان لتنفيذ الأصول الإنسانية ، وأكبر رصيد للفضائل الأخلاقية هو « الإيمان الديني » الذي يؤمّن الإنسان في ميدان مقاومة الغرائز والأحاسيس .

أجل ، بالإيمان بالله الخالق النافذ حكمه في جميع الوجود ، والعالم بسرّائير الضمائر ، وبالاعتقاد بالثواب والعقاب في يوم المعاد ، وبالأفكار والمفاهيم

الطاهرة والسليمة ، يتمكن الإنسان من أن يطلق ربقته من دوافعه الشريرة والمضرة .

وإنَّ الهدف من بعثة الأنبياء ولا سيما رسول الإسلام (صلى الله عليه وآله وسلم) ، إنّما هو تربية الإنسان وتعليمه للوصول به إلى الأهداف العالية ، وتزكية فكره من الأرجاس والأنجاس .

إنَّ الثورة الأخلاقية في الإسلام التي قامت على يد الرسول الكريم كانت ثورة لوحدها ولا نظير لها من حيث البناء والعمق والأصالة . كانت لوحدها من جهة شمولها واستيعابها لجميع الجوانب الدقيقة واللطيفة للنفس الإنسانية ، وأنّها تبذل عناية خاصة بكل حركة وفكر وإدراك نابع من دخيلة نفسه . وقد كان الأثر الذي انتجته هذه البعثة الأخلاقية على النفس الإنسانية وواقع الحياة ، هو أن انتشلت تلك الأمة الدليلة التي لم تكن لها أية قيمة من حضيض المذلة إلى أوج السموات ، وبلغت بذلك المجتمع المنحط إلى أن حمل بيده مشعل الهداية إلى الإيمان وبه أسّس أسس حياة جديدة في العالم ، وأخذ يخطو في طريق الرقي والكمال حتى أصبح النموذج الأخلاقي للإنسان ، نموذجاً لم نجد في طول التاريخ له مثيلاً .

وحقّ اليوم - حيث يسود الغرب في القرن العشرين الخواء والفراغ وضياح المعنويات حينما يلجأ إلى الإسلام من يحاول أن يجد إلى التربية الروحية سبيلاً ، يحدث الإسلام فيهم ثورة روحية بحيث يعترف العلماء الأمريكيون بأنّه حينما يعتنق السود في تلك القارة الإسلام يحدث به في جميع شؤون حياتهم ثورة عميقة وبناءة . بينما نعلم نحن أن إيمانهم لا يخلو من نقصان .

من ذلك ما قاله البروفيسور (اريك لينكلن) رئيس الفرع الديني من علوم الاجتماع بالجامعة الأمريكية ، بشأن أثر الإسلام في أمريكا :

« إنّ أثر الإسلام في السود بأمريكا كان أثراً خارقاً للعادة ؛ فإنّهم قبل أن

يسلموا كانوا يعيشون في أسوأ الأوضاع ، بينما هم الآن بحالة اقتصادية واجتماعية راقية .

فلا أثر في أسر السود المسلمين لما نجده في الشباب الأمريكي من الفساد والانحراف الذي قد أوحش المجتمع الأمريكي ، بل إن أفراداً من المعتادين غير المسلمين الذين اعتنقوا الإسلام تلقوا من التعليمات بعد أن أسلموا ما توفقوا معها إلى أن يتركوا اعتيادهم ، وبنوا منهم أفراداً يُرجى منهم الخير في المجتمع . إن السود المسلمين في أمريكا لا يحاولون إيذاء الآخرين ، وإنما هم إذا أحسوا بخطر يهددهم يدافعون عن أنفسهم بما أوتوا من حول وقوة وبشدة تامة ، وهم موقفون في ذلك دائماً»^(١) .

إن القوانين والأنظمة الوضعية في العالم ، لا تتمكن من أن تنفذ إلى أعماق ضمير الإنسان والذي هو مصدر كل حركاته ومسايعه ، لتعبيء طاقاته لبناء مجتمع سالم ، ولتربي الإنسان على الأوصاف السماوية بحيث تصبح الآفاق في نظره وسعة بعيدة مترامية الأطراف .

إن الإنسان قد تركب من قوتين مختلفتين متفاوتتين : الجسم والروح ، فله جانب سماوي وآخر أرضي ، فهو أبدي خالد وهو فانٍ ميت أيضاً .

إن الذين يفكرون بأسلوب التفكير العلمي والتجريبي العملي ، يعلمون جيداً أن هذين الجانبين متقاربان بحيث إذا حدث أي انحراف في أحدهما ظهر أثره في الجانب الآخر . وعلى هذا فأى برنامج كان متوجهاً إلى جانب واحد من وجوده ، لم يضمن السعادة الشاملة للبشر ، وذلك لعدم انطباقه مع واقعه القائم .

نحن اليوم لا نرى في النظام الفكري للمجتمعات البشرية تعادلاً وتوازناً ، بل نراهم جميعاً على اتجاهات منحرفة إفراطاً أو تفريطاً ؛ فإنهم

(١) نقلاً عن جريدة اطلاعات - الإيرانية - الصادرة في ٢٦ شهرير ١٣٥٤ هـ ش برقم ١٤٨١٢ .

يتجهون إمّا إلى الجانب المحسوس والماديّ لذواتهم أو إلى الجانب العقلي والنفسي لها فحسب ، فهم إمّا على أصالة وجود الإنسان أو أصالة المادة .

بينما التفت النظام التربوي في الإسلام إلى طبيعة البشر حسب فطرته وخلقته الأزلية كما هي ، فهو يعرف الإنسان بواجباته وتكاليفه أكثر من أي مدرسة تربوية أو أخلاقية . وإن هذه المدرسة الأخلاقية الأصيلة والشاملة ، مجموعة من قوانين عامة وخاصة كلية وجزئية للحياة الفردية والاجتماعية ، بأبعادها المادية والمعنوية ، تضمن إنقاذ البشر وانتصارهم ، وبذلك يتمكن أفراد المجتمع من أن يصبحوا باتباعها من السعداء ذوي القيم السامية .

ومن أجل تحسين أوضاع البيئة البشرية ، يجب أن نبدأ بالإصلاح من أنفسنا . ولا ريب في أنّ الإنسان لو تصدّى لإصلاح ذاته بصفته خلية من خلايا المجتمع ، وسعى بغاية الأناة والشهامة في الإستزادة من الخصال الخيرة الطاهرة ، واستعداداته وقواه النفسانية ، كان من المجاهدين في سبيل تكامل النوع الإنساني ؛ فإنّ إصلاح المجتمع إنّما هو ثمرة تكامل أفرادهِ .

وأنا آمل أن تكون مواضيع هذا الكتاب الذي أخذ رصيده من المصادر الإسلامية الثرية ، وفي ضمن ذلك عرض نظريات وآراء علماء الغرب على الأحاديث الدينية مرشداً أخلاقياً مفيداً ، وأن يكون مفيداً لتسليط الأضواء على الأهداف التربوية الأصيلة . فإن يكن حالفني التوفيق في أن أكون في هذه المجموعة عارضاً لطرف من الحقائق العظيمة التي وصلتنا من قادة الأخلاق والإنسانية ، فأنا جدّ سعيد بذلك .

ولا يفوتني القول بأنّ خلاصة من هذا الكتاب - ولعلّه أقل من ثلث المجموع - قد طبعت سابقاً في المجلة القيّمة (مكتب اسلام) العلمية الدينية (بالفارسية) وها هو بمجموعه اليوم بين يدي القراء الأعزّاء .

أسأل الله العليّ القدير الذي منه كل شيء ، ولسنا نحن منه إلّا كظل على

جدار ، أسأله التوفيق والسعادة للبشرية في ظل تعاليم الإسلام المتكفلة بسعادة الإنسانية .

صيف عام ١٣٥٣هـ ش
السيد مجتبی الموسوي اللّاري

طبيعة الإنسان والقوى المودعة فيه

- ✳ اتجاه الإنسان إلى الكمال .
- ✳ تزكية النفس عامل الكمال .
- ✳ دراسة عوامل الجرائم .
- ✳ أسمى تكاليف الإنسان .
- ✳ هل في البشر مجرمون بالفطرة ؟
- ✳ الفطرة الطاهرة غير الملوثة .
- ✳ الحرية ، والقيود .
- ✳ العادات ودورها البناء والهدّام .
- ✳ النظام التربوي في الإسلام .
- ✳ الطفولة والعادات .

إتجاه الإنسان إلى الكمال

إنّ كل إنسان يفتح عينيه على هذا العالم الواسع ، وفي أيّ نوع من الأوضاع والأحوال الفردية والاجتماعية ، يحبّ الكمال لنفسه بحكم فطرته وبمقتضى عقله . فهو يهوّن على نفسه الآلام والأتعاب بأمل المستقبل الأفضل ، يتّجه من نقطة البداية الناقصة نحو الكمال ، وكل خطوة يخطوها يتكامل فيها ، وهو بما يحمل من أبعاد أفكاره وروحه سوف يكون تكامله جذرياً وقوياً وسريعاً بحيث يحاول التقدم نحو الأبدية .

إنّ غريزة حبّ الكمال ليست قويّة في الإنسان فقط ، بل هي مودعة حتى في وجود الحيوانات ، فهي أيضاً تحاول طرد جميع الموانع عن طريقها نحوه ، ومن ذلك فرارها عمّا يضرّها لتطرد نحو هدفها الغريزي لها . بل إنّ جميع ظواهر الحياة الطبيعية من الذرة الصغيرة جدّاً إلى عالم الكواكب والمجرات ، كلها أعضاء لهذه القافلة العظيمة نحو الكمال .

كتب أحد العلماء يقول :

« قد أودع في الحنطة حركة ذاتية نحو العطاء الأكثر ، وفي الورد الأحمر ما يزيد في جماله وعطره ، وللبشر حركة حسب اللبّ والحبّ . فإذا رأينا آفة في نتائج القمح أو جمال الورد وعطره أو طهارة روح البشر ، لم يكن لنا أن نرى ذلك على حساب الحركات الذاتية لهذه الوجودات ، بل إنّما هي بعلة خلاف عارض على تلك الحركة الذاتية .

والآن نستطيع أن ندرك أنّ كلمة الهدف إلى أيّ مدى تساعدنا في تشكيل

الفكر الصحيح ، فهي التي تجعلنا ندرك أنّ هذا العالم الذي لا نرى أنفسنا إلا من الأعضاء الصغار فيه ، عالم أخلاقي هادف ، وأننا لسنا نعيش أبداً في عالم مضطرب مظلم . وعلينا أن نعلم أنّ وراء هذه الحركات محرّكاً ، وأنّ وراء كل شيء شعوراً وفكراً عظيماً ، ويكفي أن نعتقد بأنّ الحياة أمر عظيم جليل . وعندئذٍ - وعلى الأقل - نستطيع أن نستعد للمواكبة والانسجام مع تلك الروح العامة في العالم ، ونعلم أنّ خلافه يضرّنا في حياتنا هذه»^(١) .

إنّ التكامل المادّي للإنسان خارج عن حدود اختياره ، بينما الكمال النفسي في اختياره ، وعلى هذا فلا ينبغي للبشر أن ينحرف عن سنّة التكامل في هذه الحياة المتكاملة ، فيبقى ناقصاً في نظام تكامل العالم . ومن البديهي أن كمال النفس أمر غير مادي ، وأنّ الإنسان يتوفّق إلى الاكتشافات المادية بوسيلة التجربة والدراسة ، ولكنّه قط لا يستطيع أن يجعل نفسه على سبيل الكمال فيرتقي بها إلى أوج الرقي بأساليب مادية .

من اجل أن يصل الشجر إلى كماله عليه أن يكافح ما يعترض طريقه من الأحجار والآفات الأرضية والساوية ممّا يسدّ دربه إلى الكمال ، وينتفع ممّا يسبّب رشدّه ونموّه كالماء والشمس والهواء . والإنسان كذلك عليه أن يجهّز نفسه في مسيرة الكمال لأبعاده الوجودية (الجسم والروح والفكر) بالعوامل والدوافع التي من شأنها أن تسوقه أو تقوده إلى الأبدية واللانهاية ، فيستخدمها للتوصل إلى ذلك الهدف ، وأن يستعدّ لمكافحة تلك العوامل التي من شأنها أن تعرقل مسيرته للتوصل إلى ذلك المقصد .

إن أبعاد وجود الإنسان يجب أن تنظّم بحيث يستطيع معها أن يقضي جميع حاجاته المادية والمعنوية ، وبانتظام أمره بمقياس صحيح ودقيق يعيش عيشة لائقة به ، فيتشكّل به وبأضرابه مجتمع منظم بعيد عن الصندام والظلم والعدوان

(١) نقلاً عن « دائرة المعارف البريطانية » .

والجهل والجريمة ، وبذلك يصل الإنسان إلى الطهر والنور والرفي الفكري وقمة الإنسانية السامية .

إنّ الوجود الإنساني كأنه نظام يضحّ بأنواع الغرائز ، هذه الميول لو كانت على طبيعتها المعتدلة لم تكن ضارّة يجب أن تُحمل ، بل لكل ميل من هذه الميول وكل دافع من هذه الدوافع في نظام الوجود الإنساني دور حيوي مهم جداً . أجل إنّ إشباع الغرائز بصورة مطلقة مهمة من دون أيّ قيد أو شرط سيكون ضد تكامل أصحابها ، فإنّ غرائز الإنسان لو كانت حرة لا قيد عليها أصبح صاحبها عبداً لثمنياته وشهواته الوحشية وميوله الأولية الخام من دون تربية ، وبذلك يسقط من قمة الإنسانية والفضيلة والحرية إلى حضيض المذلة والضياع ، تماماً كالحيوان المطيع لميوله الهوجاء ، في حين أنّ الإنسان المطيع لعقله والمراعي لمصالحه بإمكانه أن يعرض عن شهواته الضارّة ويستجيب لميوله النافعة المفيدة ؛ فإنّه كما أنّ في الإنسان غرائز مادية تتطلّع فيه ، كذلك فيه غرائز مفيدة وإيجابية بالنسبة إلى الحقائق الواقعية تترأى لأصحابها ، وتبدي من نفسها أقوى الطاقات المعنوية التي بإمكانها أن تخلق الطهر والشرف والصدق والكمال .

تزكية النفس عامل الكمال

لا ريب في أنّ الإنسان إذ يريد أن يتّبع في حياته أصولاً خاصة ، سواء أكانت أصولاً دينية أو غيرها ، لزم أن يكون له خطّ سير معيّن . ولازمة اتّخاذ ذلك الخط هي أن يسير إلى جهة الهدف ، وأن يباعد أموراً توافق أبهواء الزائلة ولكنها تباين الأصول التي اتّخذها وهدفه في الحياة .

وعلى هذا فإنّ تزكية النفس وامتلاك زمامها من لوازم وضروريات حياة الإنسان الذي يريد أن تكون له حياة إنسانية معقولة ، إنّ الإنسان موجود له ميول لا نهاية لها ، وهو معها مجهّز بقوة الفكر ، فلو لم يعترف لنفسه في حياته

بضوابط وقيود لأصبح وحشاً مفترساً سفاكاً بل مصاصاً للدماء ، يورث الدمار والضّيع .

إنّ تكامل الإنسان وعظمته لا ترتبط بأمور مادية لا تُحدث أثراً سوى بعض الأثر في مشاعره ، وحتى الرّقي العلمي لا يمنح الإنسان كمالاً من جميع الجهات ، بل إنّ الكمال الحقيقي للإنسان إنّما يحصل حينما ينقذ نفسه من مضائق الشهوات واللذائذ الجسمانية، ويخطو خطوات جادة في سبيل الإنسانية والارتقاء بمستوى شعوره وتهذيبه لنفسه ، ويحاول التعرّف على الفكر الأسمى والأفق الأوسع من منفعه ومصالحه الشخصية .

إنّ لفكرة الكمال المطلوب جذوراً عميقة في نفس الإنسان وإلاّ لما كان يفتش عنه وهو في دور الطفولة ، وإنّ أشعة القيم السامية من الجاذبية بحيث ينجذب الإنسان إليها بإرادته واختياره ، إنّ حبّ الكمال ينبع من عمق الباطن ثم يبدأ السعي وراءه للحصول عليه ، كل هذا سمة أنّ حبّ الكمال قاعدة في باطن الضمير ، وما إن يجد فرصة مناسبة يبدأ بالتجلى والظهور .

إنّ عضلات الجسم تتقوى بالرياضة ، والخصائص النفسانية كذلك ، إذا أردناها أن تتقوى كان علينا أن نحملها على الرياضة وبذل الجهد ، مع فارق هو أنّ القوّة الجسدية البشرية محدودة بحدود تتناهب مع قوى عضلات البدن وقدرة خلاياها ، في حين أنّ ما يُرى في تاريخ البشر ممّا يعجز العقل عن تعقّله ، كل ذلك من آثار قوّة الروح المتكاملة ، والتي هي عظيمة ومحيرة في قدرتها في ظلّ التحرّر التدريجي من القيود والموانع المادية ، وعلى أثر اتّساع أفق الفكر والمعرفة . والحقّ أنّ الروح الإنسانية خلقة عظيمة ومحيرة ، وهي تبدي نفسها باقتدارها وفعاليتها وتفوّقها على المادّيات ، ولا سيما بقدرتها على أن تبلغ بالإنسان من حضيض الضعف والقصور إلى أوج التعلّق بالقدرة الإلهية .

طبيعي كما أنّه لا بدّ للجسم من تحمّل شيء من الصعوبة ومشقة في أدائه

لبعض وظائفه الحيوية ، كذلك على الروح أن تتقبل تعباً وألماً في سبيل تكامل الأخلاق والنماذج العالية منها .

إنّ كل الأفكار والعقائد والنظريات المختلفة بشأن التربية ، تدور حول محور النفس الإنسانية ، إذ هي التي تتقبل التهذيب ، تتعالى وتكتسب الصفات الإنسانية السامية ومبادئ الفضائل ، وتعشق الكمال المعنوي ؛ وأخيراً فالروح الإنسانية هي التي وضعت للإنسان سلسلة من القواعد الأخلاقية التي لا حظّ لسائر الحيوانات فيها ولا حاجة لها فيها .

يقول العالم الفرنسي (الدكتور كارل) :

« يجب أن نتعوّد لنكون كما نعرف النور من الظلمة والصوت عن السكوت بكل دقة ، أن نتميّز الخير عن الشر ، ثم نلتزم بفعل الخير وترك الشر ولكن ترك الشر يستلزم نظاماً جسدانياً ونفسانياً خيراً . ولا يمكن الكمال الأسمى للجسم والروح إلّا بمساعدة تركية النفس فلا يجوز أيّ إفراط في قضاء أوطار النفس على من يريد تكاملها . إنّ هذا الوضع النفسي (الفسيولوجي) هو ما يُبني عليه الركن الأساسي للشخصية الإنسانية ، وهو كقاعدة أو مطار لتسامي الروح الإنسانية منها .

إنّ طريق الكمال يتّجه إلى أعلى دائماً طوال القرون ، ولذلك ينزلق منه في أثناء الرحلة كثير من المسافرين ، فإمّا إلى الأهوار ، أو المهاوي السحيقة ، أو على ضفاف الحقول أو على شواطئ الأنهار ، فينامون إلى الأبد ، في فرح وترح ، وغنا وفقر ، وسلامة ومرض ، ومع هذا عليهم أن يداوموا مسعاهم فيقوموا بعد كل سقوط ، فيحاولوا الحصول على الإيمان والشوق وطلب الإرادة ، وروحية التعاون وحبّ الآخرين ، وأخيراً البساطة والوضوح^(١) .

إنّ الإنسان اليوم في عيشته الفردية والاجتماعية ، الجسمية والنفسية ، يفقد

(١) بالفارسية : راه ورسم زندگي : ٩٩ - ١٠٠ .

التقدير والنظام والتوازن الدقيق . وإذا عطلّ البشر خصائصه الإنسانية ، وأهمّل بل قمع جوانبه اللطيفة والحساسة والحياة في كيانه - والتي هي من لوازم خلافته البديعة في سعيد الحياة - أنكر أو تنكّر لكرامة الإنسانية ، وحطّم فطرته وطيّنته الطبيعية . ونظّم برنامج حياته على أساس الهوى والإحساس . . ففي هذه الحالة وقد نقض وانحرف عن المنطق الصحيح لوجوده . . فإنّ فطرته الإلهية ستغرّمه على أسلوب تفكيره هذا وسلوكه غير الأصولي ، غرامة كبرى قطعاً ، وستنتقم منه بشدّة .

بل ها هي البشرية اليوم تدفع غرامة كبرى لجريمتها هذه ، على حساب راحتها وسعادتها وخصائصها . وقد ظهر أثر هذه الإضطرابات والانحرافات على صورة جرائم مختلفة ، فلعلّه لا تمضي على المجتمعات البشرية دقيقة واحدة لا تحدث فيها جريمة كبرى من السرقة والعدوان و . . . وهذه مسألة هي إحدى أكبر مشاكل أمم العالم ، وعلينا أن نعدّها مشكلة الإنسانية الكبرى ، والتي ملأت الدنيا ظلماً وجوراً ، وإنّ ما يُصرف سنوياً للحدّ من الجرائم والجنایات أو تعقيب المجرمين وعقوبتهم ، يشكّل رقماً هائلاً جداً . .

وعلينا أن نفثّش عن إحدى العوامل في شيوع القساوة واللامبالاة في العلاقات الإنسانية ، وفقدان الشعور بالمسؤولية في الضمير الأخلاقي الإنساني في المجتمع الغربي . . نفثّش عنه في أسلوب تفكير بعض فلاسفتهم ومربيهم . إنّ (نيتشه) الفيلسوف الألماني المعروف قد بنى فلسفته على أساس التفوّق العنصري والقسوة ، وكم حدث من جرّاء هذا سفك موحش للدماء في حروب مدمّرة في هذا القرن الأخير .

يقول هذا الفيلسوف الغربي :

« علينا أن نقذف بالرفقة والرّقة من قلوبنا جانباً ؛ فإنّ الرّافة من العجز ، وإنّ التواضع والطاعة من الذلّة ، وإنّ الحلم والعفو والإغضاء من الوهن وفقدان الهمّة . فلماذا نقتل نفوسنا ؟ بل علينا أن نربّيها فنقدّسها ونعبدها ، أما

الضعيف والعاجز فعلينا أن نتركه ليموت وحده»^(١) .

دراسة علل الجرائم

بدراسة علل ارتكاب الجرائم ونفسيّات المجرمين ، علينا أن نرى هل خلق هؤلاء الجُناة كذلك بالفطرة ؟ هل أنّ المتلوثين بأنواع المفسد وهم دائماً يزاولون ويمارسون الجرائم ولدوا مع هذه الروحية كرأسمال لحياتهم ؟ أو أنّ مصدر مفسد هم أمراضاً نفسية ؟ وما هي طرق علاجها ؟ .

نعم ، بعض الأخصائيّين في هذا الفنّ ذهبوا إلى أنّ طائفة من الأفراد المفسدين والجُناة قد وُلدوا كذلك جُناةً ، وأنّ ارتكاب الجريمة قد أودع كوديعة في طبيعتهم ، ول هؤلاء الأفراد خصائص ظاهرية غير طبيعية ، فبالإمكان أن نشخصهم ونميزهم عن سائر الأفراد ، فهم كما يقولون « جُناة بالفطرة » . كان يُصرّ كثيراً على هذه النظرية عالم الجرائم الإيطالي الشهير (لومبروزو) وقد وجدت نظريته هذه هواةً كثيرين ، وكانت قد اجتذبت إليها للدفاع عنها كثيراً من كتّاب عصره .

ولا شك أنّ الإنسان موجود يتقبّل النصيحة ، وهو بإرادته واختياره يقوم بتنفيذ شطر من الأمور الخيرة ، ويكفّ نفسه عن ارتكاب سلسلة من أمور أخرى ، وتحكم الضرورة بأنّ هذا الموجود لا بدّ وأن يكون ذا إرادة واختيار ، وإلاّ كان لغواً توجيه أي نصّح وموعظة أو هداية إلى موجود مقهور مجبور ليس له أيّ اختيار ولا يحكم مصيره بنفسه . والعلماء ذوو الصلاحية قد عرفوا البشري حرّاً ومسؤولاً عن أعماله .

إنّ علماء الأخلاق الذين يعقّبون مساعيهم الإرشادية لإسعاد الإنسان ، والذين يرون ذلك الهدف الغائي لهم ، هؤلاء قد قرروا جميع تعاليمهم الأخلاقية

(١) بالفارسية : سرحمت در أوروبا . المجلد الثالث .

على أساس الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فيكلفونه بأن يتعلّم أموراً تؤثر في نجاح سعيه لتحقيق السعادة ، وأن يجتنب سلسلة من الأعمال السيئة .

إنّنا إذا جعلنا أوضاع الأطفال الذين يعيشون في المصحّات العقلية والسجون ودور تربية الأحداث ، موضع التحقيق والدراسة ، يتّضح لنا أن هؤلاء قد تربّوا في أحضان أسر ملوّثة أو غافلة عن واجباتها ، وهم بدورهم لم يتعرفوا على الطهارة والنزاهة بتجربتهم .

إنّ أكثر الذين لا يُعرضون عن ارتكاب أيّ جرم ، ويلوّثون أيديهم بالجنايات والجرائم ، هم ممّن كان مسقط رؤوسهم في عوائل لم تتصف بالفضائل الأخلاقية ولم تتمتع بالعواطف الحيّاشة والدافئة ، بل كانت متلوّثة بأنواع المفسد ، أو ممن عاش في مجتمع منحط أخلاقياً ، فالعوامل والدوافع العائلية والاجتماعية هي التي تسبّبت في ترجيحهم للشرّ على الخير ، وأن يختاروا طريق الفساد على طريق الطهر والنزاهة .

أسمى تكاليف الإنسان

إنّ أهمّ وأقوم وظيفة للإنسان هي التربية ، وقد أدرك قيمتها منذ بدء فجر الحياة ولهذا فهو بنسبة إدراكه لحقيقة وظيفته ورسالته في الحياة اتّخذ لنفسه أهدافاً وقواعد متناسبة مع جوّه النفسي الذي يعيش فيه ، مهما كانت أهدافه تلك أو قواعدها صحيحة أو باطلة .

نحن نشاهد اليوم جيداً ما أوجدته المدارس المختلفة في العالم من تحولات وتغييرات عجيبة في طول الزمان وفي تاريخ البشر ، والتي قد غيّرت صورة حياتهم ، والذي نجده في الواقع الخارجي بالدراسة والمطالعة هو أنّ البشر لم يخلق في ذاته شرّيراً وشيطانياً ، ولو كان في أصل خلقته مخلوقاً شرّيراً لكانت كل المساعي التربوية باطلة وبلا ثمر ، ولذهبت مساعي جميع الأنبياء الإلهيين ، والقادة التربويين ، أدراج الرياح . ولو كان القتل وسفك الدم قد عجن بطينة

الناس في « جزيرة العرب » فكيف كان يمكن لرسول الإسلام (صلى الله عليه وآله وسلم) أن يحدث ثورة شاملة في روحيات الناس هناك ، وأن يغيّر ذواتهم وماهياتهم ؟ ! .

صحيح أن الإنسان في المراحل الأولى من وجوده إنما هو بقواه وميوله المادية ، فقواه البدنية هي التي تظهر إحداها بعد الأخرى وتبدأ بفعاليتها من حين أن يفتح عينه على هذه الحياة ، ولكنه بإزاء القوى المادية له إمكانيات واستعدادات وسيعة للتكامل والتعالي المعنوي ، وقد تمكنت لذلك في وجوده مقدرات وأشواق أقوى من الضرورات المادية ، والقوى في صرفها تتلون بألوان مختلفة وتعمل في مجاري مختلفة كذلك . وإن كانت هذه المرحلة لا تتجلى إلا بعد سائر المراحل الطبيعية في الإنسان ، ولكنها من طبيعته على أي حال ، فإنه بإمكان الأهداف السامية أن تسخر سائر القوى وتستخدمها لأهدافها . ولكن ذلك بحاجة إلى مساعدات مؤثرة من الخارج وقيادة وعناية ، ولولا ذلك لابتلت أيضاً بالإنحراف .

والعون المساعد من الخارج ليس أمراً افتراضياً غير طبيعي ، بل هو جزء من الفطرة الطبيعية البشرية ، تماماً كتعليم الطفل ليتكلم ، في حين أنه يستصحب معه الاستعداد للكلام منذ يوم ولادته ، وهوله قدرة طبيعية .

والقرآن الكريم يرسم للإنسان - بوصفه أكرم مخلوق - مسار خطاه إلى التكامل بقوله سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ ﴾ (١) . و ﴿ وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُتَّبَعُ ﴾ (٢) .

على الإنسان في سعة الحياة للعروج إلى الحياة الخالدة اللانهائية ، أن يستلهم من برامج الأنبياء الإلهيين ، وهي مدرسة تربوية أصيلة وثقافة جامعة

(١) سورة الانشقاق : الآية ٦ .

(٢) سورة النجم : الآية ٤١ .

شاملة كاملة ، وذلك لكي تتقد في باطنه الإمكانيات الربانية ، وبها يتمكن من أن ينال الانتصار والنجاة والكمال .

كتب (غوستاف لوبون) يقول :

« لقد عرفت الفلسفة بعد معاناة طويلة أن لا طريق لها إلى ما وراء الطبيعة ، وعلى هذا فلا بدّ لنا من اتّباع أوامر الأطباء النفسانيين ، العالمين بخصائص الروح الإنسانية ، وهم يتكفلون بتكامله الروحي والمعنوي . وهؤلاء الأطباء النفسانيين والروحانيين هم الأنبياء الإلهيون ورسّل الله تعالى ، فهم الذين يعرضون على البشر ما يحملونه لإصلاحه من منبع الوحي والإلهام من برامج السعادة ، كي يبلغوا به إلى كماله اللائق به » .

للتعريف بالإنسان يذكر القرآن الكريم بكلا جانبي الطبيعة الإنسانية^(١) .

والقرآن الكريم يشير إلى حقيقة : أن الإنسان إن لم يكن نحت تربية أساسية ، تقدّمت عليه القوى الجياشة وأضعفت وجدانه وضميره والقوة العقلية فيه ، وسخرت سائر أحاسيسه النفسية واستخدمتها لأغراضها ومقاصدها ، إنّ أكبر معجزة جرت في تكوين الإنسان هي أنه ذو طبيعة ذات جانبيين ، ولهذا فلا ينبغي أن نغفل عن طاقته لتقبّل ألوان مختلفة ، وإمكانية قيادته في مسيرة خاصّة .

قال علي (عليه السلام) :

« إنّ بذوي العقول من الحاجة إلى الأدب كما يظمأ الزرع إلى المطر »^(٢) .

إنّ أسس التربية إن لم تُبتنّ على أساس عناصر تقوم بتعديله ، بل كانت

(١) سورة الزخرف : الآية ١٤ . سورة إبراهيم : الآية ٣٣ . سورة التين : الآية ٤ . وسورة الإسراء : الآية ٦٩ .

(٢) غرر الحكم : ص ٢٢٤ .

قوى الإنسان متحررة عن كل لون من ألوان التربية والتعديل ، لبقى الإنسان وللأبد تحت وطأة الضرورات البدائية .

من هنا فإن كل أعمال الإنسان إما هي صالحة أو طالحة سيئة ، فهو إما يُثاب عليها أو يجازى ويعاقب ، والقرآن الكريم يقول : ﴿ قد أفلح من زكّاه ﴾ وقد خاب من دسّاه ﴿^(١)﴾ .

والجزء يبتنى على أساس إمكانية تمييز الإنسان بين الخير والشر ، كما تسقط عنه المسؤولية فيما لو كان فيه نقص بالنظر إلى قواه البدنية أو الفكرية . أما نظرية بعض المدارس الفكرية الحديثة التي تبرئ المجرم بسبب أنه يقع ضحية مفسد المجتمع أو القيادة المنحرفة والفسادة ، والتي تنظر إلى الإنسان مع ما له من قوة الإدراك الفطري مخلوقاً سلبياً ضعيفاً ، أما هذه النظرية فلا يمكن أن نحسبها حقيقة علمية . أجل ليس لأحد أن ينكر خطر التربية وأهمية القيادة ، وأن يغض النظر عن المسؤولية الكبرى التي هي على عاتق المجتمع والبيئة ، ومع أن المسؤولية تنقسم على مختلف العلل التي ترتبط بارتكاب الجريمة ، مع ذلك لا يعني هذا أن ننفي المسؤولية عن عامل الجريمة ومرتكبها .

لا شك أن هناك عدداً من المجرمين يتقبلون الإصلاح بشيء من الإرشاد والهداية ، هؤلاء هم الذين يصابون بشيء من الأمراض النفسية ، وتنبعث جرائمهم من أمراضهم النفسية هذه الخفيفة ، أو قد يصابون بهذه الحالات على أثر مجالسة أناس متلوثين . هؤلاء يجب أن يعالجوا بأسرع ما يمكن .

ولكن بصورة عامة لا يمكن لردود الفعل القوية والضغط الشديد في مكافحة الجرائم أن تكون السبب الكافي لاقتلاع جذور الجرائم . نعم من الضروري أن يعاقب المجرم لحصانة الفرد والمجتمع عن عدواه ، فإن العقوبة هي النتيجة وردّ الفعل الطبيعي لعمل المجرم نفسه ، وهي ضرورة لاستقرار

(١) سورة الشمس : الآيات ٨ - ٩ .

التوازن والعدالة في المجتمع الإنساني ومن أجل أن لا تبطل الحياة الاجتماعية بالمخاطر . ولكنها ليست كافية لوحدها . فأكثر ضرورة منها هو إعادة النظر في تربية المجرمين تربية جديدة ، من أجل أن يتغير خط سيرهم السيء في الحياة بفضل ثمار التربية المفيدة ، ولكي لا تسري منهم روح التعدي عن حدود القوانين إلى سائر أفراد المجتمع .

هل يوجد في البشر مجرمون بالفطرة ؟

يردّ العلماء اليوم ما كان يعتقد (لوم بروزو) وأتباعه الذين كانوا يقولون بوجود الجنّة بالفطرة بين البشر . إنّ (لوم بروزو) كان طبيباً يخدم في الجيش الإيطالي ، واسترعت انتباهه كثرة الوشم « بالخال » على أبدان الجنّة والمجرمين ، واستنبط من هنا أنّ لأبدان المجرمين درجة أقل من الحساسية بالنسبة إلى سائر الأفراد العاديين ، وأنّ نقص الحساسية الأخلاقية فيهم إنّما هو نتيجة نقصان الحساسية البدنية . ثم شرّح مخّ أحد قُطاع الطرق وتوصّل إلى أنّ هناك بين مخّه ومخّ الحيوانات الفقيرة مشابهة من عدّة جهات . وكان هذا من مقدّمات ظهور نظرية « ظهور الصفات الوراثية الكامنة » . ويرى (لوم بروزو) عدّة خصائص تدلّ على الصفة الخاصة بالإجرام الفطري ، والرؤوس غير الطبيعية في الكبر أو الصغر ، والشعر المجعد ، وعدم توازن الرؤوس مع الوجوه ، والجباه المنحدرة إلى الوراء ، والحواجب المدوّرة ، والعيون الغائرة ، والأذان الكبيرة ، والأذقان الناتئة المتقدمة إلى الأمام .

فإذا اجتمعت عدّة من هذه الصفات والخصائص في إنسان ما كان لنا أن نحكم عليه بأنّه جانّ ومجرم بالفطرة بالقطع واليقين ! وكان هو يسمّى هذه الخصائص بإسم : « سمات الانحطاط » .

ويقول الدكتور (كارل الفرينسي) :

« لا يوجد في البشر مجرم بفطرته كما يقول به (لوم بروزو) ، بل الحقيقة

هي أنّ كثيراً من المجرمين أناس طبيعيون وعاديّون ، بل لبعضهم ذكاء خارق للعادة ! بحيث عجز علماء الاجتماع عن مقابلة هؤلاء والسيطرة عليهم في السجون . إنّ لكثير من قُطاع الطرق الذين تنشر المجلات عنهم كل يوم أخباراً جديدة عن سرقاتهم ، لكثير منهم ذكاء وعواطف وجمال طبيعي ، بل قد يفوق بعضهم الحدّ الطبيعي ، ولكنهم محرومون من المواهب الأخلاقية . وكثير منّا أيضاً من يظهر فيهم بعض العوارض النفسية .

إنّ هذا الإضطراب وفقدان التوازن في عالم الفكر والشعور ، هو من أبرز مظاهر العصر الحاضر . ومع وجود بعض الموقّية في سبيل ضمان السلامة البدنية والجسمية لسكّان المدن الكبار ، مع ذلك لم يمكن تنمية النشاطات الفكرية والأخلاقية مع كل ما يصرفونه من المبالغ الطائلة للتربية والتعليم . إنّ مظاهر الشعور تفتقد التوازن حتى في كثير من الشخصيات الاجتماعية البارزة ! فالأعمال الأصلية لهم لم تنتظم فيهم على أحسن ما يُرام ، فليس فيها القوة اللازمة بل وحتى جودة الماهية ، بل قد يفتقدون واحدة أو عدّة من خصائصهم .

إنّ أكثر الناس فائدة وأسعد الناس ، إنّما هم الذين تنسجم وتتوازن وتتعدل فيهم نشاطاتهم الفكرية والأخلاقية بعضها مع بعض . وإنّ عنصر التفوّق المعنويّ في هؤلاء على غيرهم إنّما يكمن في كيفية نشاطاتهم وتعادله . يجب أن يكون هدفنا من التعليم هو تربية أفراد متعادلين في أفكارهم ، فإننا إنّما نتمكن من أن نؤسس الحضارة الكبرى على أكتاف هؤلاء الناس المتعادلين»^(١) .

وكتب أحد علماء النفس المعاصرين يقول :

« لقد أصبح اليوم من الثابت المتفق عليه والذي لم يبق فيه أقل مجال للتشكيك هو أنّه لا يوجد في البشر إنسان شرير بالذات ، نعم يوجد أناس مرضى النفوس .

(١) بالفارسية : إنسان موجودنا شناخته : ١٥٠ . معرّب كتاب : الإنسان ذلك المجهول .

إن إدراك هذا المعنى من الأهمية بحيث نستطيع معها القول بدون أية
مبالغة :

إنه ليس هناك أي اختراع أو كشف منذ بداية خلقة البشر وحتى الآن أكثر
أثراً في سعادة البشر من معرفة هذه الحقيقة . بمعنى أن الناس إذ يدركون هذه
الحقيقة بصورة واقعية ، وإذ تبتنى أسس نظام المجتمع وأجهزة الإدارة فيه على
أساس هذه الحقيقة ، حينذاك يعتدل ويتوازن القسم الأعظم من الآلام ،
والشقاء ، والعداء ، والمنازعات فيهم . وذلك لأنه حينما يعلم الجميع بأن :
البخل ، والحسد ، والجبن ، والتزوير ، والإجحاف ، والتلون والنفاق ، ومئات
العيوب الأخرى من هذا القبيل ، إنما هي نتائج منطقية « للآلام النفسية » وأنها
قابلة للعلاج كالزكام وآلام الحنجرة وسوء الهضم وغيرها . . .

حينئذٍ نحصل على فائدتين مهمتين قطعاً :

إحدهما : إنه حينئذٍ سيقوم نفس هؤلاء المرضى « مرضى النفوس » الذين
يصفونهم اليوم بأنهم « أشرار » سيقومون بمعالجة نفوسهم بكل أمل ،
وسيصبحون أناساً صالحين .

ثانيهما : إنه سوف لا ينظر الناس إلى هؤلاء الأشخاص المرضى « مرضى
النفوس » بنظرة سيئة وبغیضة ، بل على أنهم « مرضى » يجب العطف عليهم .
ومن نافلة القول أن نقول بأن البون بين هاتين النظرتين وآثارهما ونتائجهما كالبون
بين الأرض عن السماء .

هذه المعاني هي المعاني التي تسود في أكثر مدارس الأمم الراقية بل وحتى
في سجونها ، وتعمل عليها تدريجياً ، وتصل بها إلى نتائج مفيدة للغاية . وإن
من وظيفة الكتاب الذين يريدون الخير للإنسانية أن يقوموا بنشر هذه الحقائق
المفيدة جداً أكثر فأكثر ، كي يفيد منها جميع جوامع العالم اليوم»^(١) .

(١) بالفارسية : روان كاوی : ٧ .

إن هذه النظرية العلمية والفلسفية التي تُنسب إلى العلوم الحديثة اليوم ، لها في النصوص الدينية الإسلامية سابقة ترجع إلى قبل أربعة عشر قرناً من الزمان :

فإن القرآن الكريم يصف جماعة المنافقين في نفاقهم وأحقادهم وأذاهم بأنهم مرضى : ﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾^(١) .

بينما كان أتباع الأديان وبعض الأخلاقيين يصفون ضمير الإنسان بأنه رجس نجس متلوّث .

ويقول (جان ديوي) : « هناك مثل معروف يقول : شوّهوا سمعة الكلب ثم اصلبوه شنعاً فإنه سوف لا يعترض عليكم أحد ! والأخلاقيون المحترفون كذلك لا زالوا يصفون الطبيعة الإنسانية وكأنها كلبة مكلوبة عُرفت بسوء السمعة ، وقد جعلوها معرضاً لأنواع اللوم والعتاب ، من دون أن يعترض عليهم أحد . إنكم إذا نظرتهم إلى تاريخ علم الأخلاق شاهدتم أنه قد نظر إلى طبع الإنسان بالتشكيك بل الوحشة منها وسوء النظرة إليها ، وأن طبع الإنسان وصف لديهم منذ البدء بهذه الصورة القبيحة والوقحة !! .

وقد أصبح البحث عن سُبُل الاستيلاء على هذه الطبيعة الجامعة الشغل الشاغل والوحيد للأخلاق ، بحيث اعتقد البعض بأن طبيعة الإنسان لو لم تكن بهذه المثابة من النقص والضعف والانحطاط ، لما كانت الأخلاق تجد لها وجوداً وكياناً .

وأخذ بعض الكتاب ذوي الأفكار الأكثر نضوجاً ، ينسبون هذه النظرة القائمة إلى طبع الإنسان ، ينسبونها إلى أتباع الأديان والمتعصّبين من المؤمنين بها ، ويقولون :

إن هؤلاء من أجل أن يعظّموا الخالق أكثر فأكثر ، قاموا بوصف الإنسان

(١) سورة البقرة : الآية ١٠ .

مهما أمكن بالخفة والدناءة . ومن الإنصاف أن نعترف بأن هذا الكلام صحيح إلى حد ما ، فإنه لا شبهة في أن أهل الديانة ينظرون إلى نفس الإنسان بنظرة أكثر ازدراءً من الكفار وغير المتدينين . والحال أن هذه النظرة السيئة في غير محلها جدّاً ، فإنه إذا كانت النفس الإنسانية من السوء والشر إلى هذه الدرجة ، فكيف هم يقومون بتركية أنفسهم كما يدعون ، ثم يقومون بإرشاد الآخرين «^(١)» .

الفطرة الطاهرة غير الملوثة

قال رسول الإسلام (صلى الله عليه وآله وسلم) :
« كل مولود يولد على الفطرة حتى يكون أبواه يهودانه أو ينصرّانه »^(١) .

وقال علي (عليه السلام) في وصيته لولده :
« وإنما قلب الحدث كالأرض الخالية ، ما ألقى فيها من شيء قبلته ، فبادرتك بالأدب قبل أن يقسو قلبك ويشغل لبك »^(٢) .

ففضلاً عن أن الإنسان لا يولد مجرمًا ، هناك في نظام وجود أي إنسان قوة مودعة تجرّه إلى جانب الخير والصلاح ، وكلما انحرف عن مساره الأصلي ردّته إلى حالته الأولى . وكما يصطلح الفلاسفة : كل طبيعة تبتلى بما يقهرها يقوى فيها ميل شديد للعودة إلى الحالة الطبيعية .

كان جماعة من الفلاسفة منذ القدم يقولون بأن العقل النظريّ أسمى القوى البشرية ، في حين أن مستوى الإدراك لهذه القوة محدود ، وليست لها ضمانات كثيرة للتنفيذ ؛ فإنّ العقل النظريّ لا نفوذ له في بعض الأمور ؛

(١) بالفارسية : أخلاق وشخصيت ١٨ .

(١) بحار الأنوار : ٢ : ٨٧ .

(٢) نهج البلاغة .

كالأحكام العادة ، وإدانة المجرمين والمذنبين ، وإصدار الأوامر في سبيل إسعاد الآخرين . ولهذا فإنه يجب أن يكون في ضمير الإنسان قوة أخرى مستقلة عن العقل النظري ، تكون منشأً لكثير من أحاسيس الخير والإيثار وحبّ الكمال ، كي نتمكن أن نفسر بها ما يقوم به من عمل أخلاقي .

والقرآن الكريم يعلن : أن حبّ الإيمان ، وكذلك كراهية الكفر والفسوق والعصيان ، مستودع في ضمير الإنسان ؛ وأنّ الله تعالى لم يخلق طينة الإنسان مختمراً بالعقيدة بالمبدأ ومعرفته سبحانه فحسب ، بل زين قلوب البشر بحبّ الخير والصلاح ، وأبلغه أن كراهيته للكفر والفسوق والعصيان والشرور من فطرته ، بحيث تنجذب روحه لا شعورياً - تقريباً - إلى سلسلة من الفضائل الإنسانية : ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ ، وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ﴾ .

أي كما قال الشاعر الشيرازي حافظ :

« كُلَّ حَبٍّ فِي ضَمِيرِي نَحْوَرِيَّ

إِنَّمَا جِئْتُ بِهِ مِنْهُ ، بَلَا أَيْ تَكَلَّفُ »^(١)

ويقول (برتراند راسل) :

« في القديم كانوا يفكرون أنّ الفضائل تبتنى على أساس الإرادة ، وكانوا يفترضون أنّ وجود الإنسان مليء من الميول الشريرة ، وإنّما نشرف عليها بقوة مجردة هي الإرادة ، وكان يبدو للنظر أنّ اجتثاث هذه الميول الشريرة من المستحيلات ، وأنّ ما نستطيعه بهذا الصدد إنّما هو الإشراف عليها بالإرادة فقط .

(١) الأصل :

اینهمه مهرو وفائی که میان من وتوست

باخود آوردم از آنجا نه به خود برسم

والتعريب للمعرب .

كان حال الإنسان لديهم يُشبه بالمجرم والبوليس تماماً ، وكأنّه لم يتصوّر أحدهم أن يخلو المجتمع يوماً ممّن يستعدّون بطبيعتهم للإجرام ، ولذلك كان أفضل ما كانوا يقومون به هو تأسيس العدد الكافي من مراكز البوليس ، بحيث يخاف أكثر الناس من أن يرتكبوا الجرائم ، وإذا وُجد من نشز من هذا الخوف وارتكب الجرم ابتلي بالجزاء .

بينما لا يعتقد بهذه النظرية « علم النفس الجنائي » بل يرى أن بالإمكان في كثير من الأحوال أن نحول دون طغيان الميول الشرّيرة عن طريق التربية اللائقة . وكل ما يمكن تطبيقه في المجتمع كان بالإمكان تطبيقه على نفوس الأفراد أيضاً^(١) .

ويقول (جان جاك روسو) :

« إنّ الشاب الناشئ في سعادة ساذجة ، سوف ينجذب في نموه الطبيعي إلى جهة الأحاسيس الناعمة واللذيذة ، وسوف يرقّ قلبه كذلك لآلام أبناء نوعه من البشر . إنّه يلتذّ برؤية صديقه ، ويحبّ الإنسانية من شغاف قلبه ، ولا يكون مستعداً لأن يفعل فعلاً يؤذي به الآخرين . نعم من الممكن أن يغضب أحياناً ، إلّا أنّه يكون سريع الرضا بعد الغضب ، وسيجبر ما كسر ، وكما يجبر ما قام به من إساءة ، كذلك يعفو عن أخطاء الآخرين بسرعة .

إنّ دور المراهقة ليس دور الحقد والإنقام ، بل هو دور المواساة والعطاء والسخاء . أجل إنّني أوكد على هذا وأنا مطمئن إلى أنّ التجربة أيضاً ستؤيّد هذا . إنّ الطفل لا يولد شرّيراً ، فهو إن حافظ على عصمته الأولى إلى العشرين من عمره ، كان أفضل وأسخى وأحبّ وأعطف إنسان . وأنا أعلم أنّك لم تسمع مثل هذا الكلام حتى اليوم ، وليس هذا من جرم الفلاسفة ، فإنهم قد ابتلوا في حياتهم الدراسية بكل فساد ، ولذلك فهم لا يدركون مثل هذا الكلام^(١) .

(١) بالفارسية : در تربيت : ٢٥ .

(١) نقلاً عن الترجمة الفارسية لكتاب : أميل : ٢٩ .

وكتب (والدوأمرسون) يقول :

« إن الفضائل موجودة في النفوس القوية ، وهي محيطة بها ، فالنفس الإنسانية تسعى وراء الطهر والعدل والخير ، وهي أسمى من كل ذلك . وعلى هذا فنحن إذ نريد الدّعوة إلى الفضيلة وتركنا الكلام عن طبيعة الروح الإنسانية ، لكنّا قد حططنا من مكانتها . إنّ الطفل الذي يتربّ تربية حسنة ، يتّصف بجميع الفضائل الطبيعية ، دون أن يكون قد جهد في الحصول عليها . أنتم تكلموا مع قلب الإنسان فإنكم ستجدونه ذا فضيلة لا محالة »^(١) .

بناءً على هذا ، طبقاً لنظرية الإسلام ، والعلماء الواقعيين اليوم ، فإنّ الإنسان إنّما يولد بفطرة طاهرة ونفس سليمة حسب قوانين الوراثة ، وإنّ حالات الفساد فيه عارضة عليه وغير أصيلة فيه . وإنّ العدول عن الطرق الطبيعية الأصيلة ، والانحراف في العمل بالغرائز لا يؤدّي إلى ظهور الأمراض النفسية فيه فحسب ، بل سوف يؤدّي إلى سدّ السبّل على مسار النفس بعقد خاصّة ، وإلاّ فإنّ الإنسان حسب ميوله الأصلية مستعدّ لأن يسير نحو كماله بخطوات سريعة وصریحة .

ويجب أن نلفت إلى أنّ للمحيط أثراً مختلفاً على خلايا المخّ ، تماماً كاختلاف أثر المحيط في نموّ النباتات المختلفة .

إنّ كل إنسان يعيش بخلايا مخّ يخصّه هو منتقلاً إليه من آبائه وأمهاته وفقاً لقانون الوراثة ، ولا يستوي نوع خلايا المخّ وكيفية تركيبها في أيّ إنسان في العالم ، بل الاختلاف فيها بين من حيث الفسلجة ونوع الهرمونات الداخلية .

إنّ المحيط كما يؤثر على بذرة آية نبتة أثراً خاصّاً ، كذلك لا يكون أثره على خلايا المخّ أثراً واحداً ، بمعنى أنّ العيش في محيط خاص سيؤثر بأثر خاصّ ، وستتشكل فيه بذلك شخصية خاصة ، لا يمكن قياسها بشخصية

(١) بالفارسية : فلسفة اجتماعي : ٣٥٠ .

أخرى . وحتى نرى أنّ ابنين من أب وأم واحدة ، مع أنّ المتوقع فيهما - بفعل اشتراكهما في الوراثة والمحيط بحسب الظاهر - أن يكون لهما خصائص مشتركة ، مع ذلك نرى نوعاً من التباين العجيب من حيث الخصائص فيهما .

إنّ دعوة الأنبياء الإلهيين تبتنى على أساس الفطرة التوحيدية والفطرة الأخلاقية ، فإنّ هذه الأصول الطبيعية هي التي تشكّل القاعدة الأساس لتربية الإنسان بمساعدة عقله . وإنّ الدور الكبير للأنبياء الإلهيين في رسالتهم وبرامجهم التبليغية ، إنّما هو في إيقاظهم للفطرة في أفراد الإنسان كرأس مال مدخّر فيهم ؛ فمن الممكن أن تصبح أشعة الإندفاعات الفطرية ذات شعاع ضعيف حسب المواقع الخاصّة وعلى أثر مختلف العوامل في كيان الإنسان ، لكن لا يمكن أن تموت الواقعية الفطرية فيه ، بل بقيت ماهيّة الفطرة ثابتة مستقرة فيه رغم جميع المشاكل والموانع التي عرضت لها في طول التاريخ ، وعلى أيّ حال فإنّ الانحراف عن مسيرة الفطرة لا علاقة له بأصل نظام الفطرة وما لها من طبيعية واقعية .

إنّ هذا الموضوع في غاية الأهميّة لنا، وهو أنّنا بمساعدة فطرتنا بإمكاننا أن نحاول تربية أنفسنا وتزكيتها ، ولكن علينا أن لا ننسى أنّ الغرائز الجاححة تؤثر بقدرتها وخشونتها في فطرتنا ضعفاً وفتوراً ، فنحن إن لم نتمكّن من أن نجري بها في مسارها الصحيح ، وأن نفيد منها بصورة معتدلة ، وأن نكبح ما فيها من جُحاح . . إن لم نستطع ذلك فإنّها سوف تحلّل قوانا الفطرية وسوف لا نقدر على أن نستثمر من ذلك الرأسمال الباطني المثمر .

وإنّ إيجاد التوازن في الأحاسيس والأعمال يستلزم أن نعرف نقطة الاعتدال ، وكذلك يستلزم السعي المتواصل والدؤوب والتضحية الكثيرة .

كما يقول (أرسطو) :

« إنّ الفضيلة هي الحدّ الوسط بين رذيلتين إحداهما الإفراط والآخر التفريط ، وذلك أنّ ميزة الفضيلة هي ذلك الحدّ الوسط في الأفعال أو

الإنفعالات . ولهذا فإنّ الصّلاح ليس أمراً سهلاً ، فإنّ معرفة الحدّ الوسط في كل شيء أمر شائك ، كما أنّ معرفة مركز الدائرة ليس أمراً سهلاً لكل أحد إلّا أن يكون عارفاً بالأمر . فإنّه وإن كان يبدو لكل أحد أن التّأثر والغضب ، وكذلك صرف المال ، أمور اعتيادية ميسورة ، إلّا أنّ القيام بها بالنسبة إلى الطرف المناسب ، وبالمقدار المناسب ، وفي الوقت المناسب ، وحسب المحرك والدافع المناسب ، ليس أمراً سهلاً لكل أحد ، ولهذا فإنّ الصّلاح قليل وشريف جليل .

فمن كان يهدف الوصول إلى الحدّ الوسط كان عليه قبل كل شيء أن يبتعد عن كل ما له مضادة أكثر وأكبر مع ذلك الوسط . كما يقول (كاليبسو) في موعظته :

« إبتعدوا بالسفينة عن المستنقعات ذات الزبد والوعف » كذلك علينا أن نميل بأنفسنا إلى جانب الضدّ عما نشتهي ، كي نكون بالإبتعاد عن خطر الخطأ نقترّب من الحدّ الوسط ، تماماً كما يفعل النّجار بالأعواد والأخشاب المحدودة . علينا في كل شيء أن نحذر مما يلدّ لنا أكثر من أي شيء آخر ، فإنّ حكمنا بشأن ما نشتهي سوف يكون حكماً محايداً عادلاً ، أمّا إذا ابتعدنا عن ملذّاتنا كان احتمال الضلال فينا أقلّ الجملة . بهذه الطريقة فقط نكون قادرين - أفضل ما يكون - على أن نصل إلى الحدّ الوسط «^(١)» .

إنّ تربية الروح وتكاملها يجب أن يصبح هدفنا الأهمّ في الحياة ، وإنّ من تكليفنا أن نفتح نوافذ قلوبنا وعقولنا لتقبّل الخير والصدق والحبّ والرحمة ، فإنّ هذه أمور تمنحنا الوضوح والجلاء ، وترضي عنّا الله سبحانه وتعالى .

إنّ أكثر الناس يسعون ويضحّون من أجل أن يُعدّوا لأنفسهم أنواع وسائل لراحة في الحياة ، ومن أجل الحصول على الأمور المادية ، وهم في هذا التعب

(١) بالفارسية : فلسفة اجتماعي : ٤٧ ، ٤٨ .

والعناء حتى عتبة الموت ، وحتى أنهم يحرمون على أنفسهم في ذلك الراحة التي هم يسعون لها ، وهم يتصورون في كل ذلك أن تلك الوسائل المادية ستكون هي وسائل السعادة لهم .

في حين أن هذه الفكرة سهو وخطأ بل إن السبب في شقاء أكثر الناس هو هذه الفكرة الخاطئة ، على هؤلاء أن يصدقوا أنهم قد تاهوا عن الطريق وأنهم قد ابتعدوا عن سبيل السعادة والموفقية ، فإنه لا يتمكن أحد من أن يحصل على حياة هادئة بدون اضطراب بالسعي وراء اللذائذ العابرة وحتى الثروة غير المحدودة . إن الحياة الإنسانية لا تتواجد من هذه الطريقة ولا تصبح على نشاط ونضارة ، بل العكس الصحيح ، فإنها سوف تذبل بذلك وتنفى ! .

إن الذي يسعى وراء السعادة من خلال اللذات سوف لا يتمتع بشيء سوى الحيرة والضلال والضياع والاضطراب ، إن الشهوات النارية والميول الصبائية التي تطفئ في كل آن في كيان الإنسان ، إن لم نقيدها بسلاسل العقول ، فإنها سوف تتغلب على ضئائنا فتستعبدنا لغاياتها ، وكلما قللنا من أهوائنا الهوجاء اقتربنا بنفس النسبة نحو السعادة . وبكلمة نقول : إن الشقاء ، والآلام ، والحيرة والضياع وكل ما يعتّم آفاق حياتنا فإنما هي من جرّاء استيلاء الأهواء على كياننا ووجودنا .

الحرية والقيود

في هذه الموارد لا معنى للتفاضل بين الحرية والقيود ، بل التفاضل إنما هو بين قيد وقيد آخر . وبعبارة أخرى : ليست الحرية في كفة ميزان والقيد في كفة أخرى من الميزان ، بل يمكن أن نقول إنما هي حرية وحرية أخرى ؛ فالبشر حرّ أن يختار بين الحرية الإنسانية والحيوانية أو أحدهما . نعم قيود الإنسان هي العقيدة والأخلاق والفضائل ، وقيود الحيوان هي الغرائز والشهوات غير المتناهية . فالذي يستجيب لنداء الأهواء النفسانية فيطيعها وينقاد لها دون

الالتفات إلى عواقب الأمر ، يكون قد توصل إلى حرية بمعنى أنه قد تحرر من أزمة الضوابط الإنسانية ، وتحرر من قيود الدين والأخلاق . إنه قد فقد قدرة المقاومة أمام مغريات النفس ، ولا يتمكن من المقاومة أمام قوى الغرائز . ولكن هذا المنطق المغري أي التحرر من كل القيود من أجل تحقيق الشهوات الغريزية ، ليس منطقاً حقيقياً ، بل إن الإنسان بفعله هذا يكون قد نقض وجوده من دون التفات وشعور ، فإنه يكون قد انحرف عن الغاية المنطقية لوجوده ، وسوف لا يكون مصيره في نهاية الطريق سوى السقوط والهلاك .

أما ذلك الإنسان الذي يعقد مع الله عقداً ثم لا يفكر مدى حياته في نقضه ، يكون قد صرف قواه في مسار صحيح قد أراده بعزم راسخ وقلب قوي ، وكلما كان الإيمان فيه راسخاً كان أشد ثباتاً على عهده وميثاقه ، وهو يُحسّ بالحرية الواقعية أمام أقوى الدوافع وأغراها ، أي يكون محرراً من ضغط الأهواء ، متحرراً من الانقياد والاستسلام أمام جاذبيتها . وإذا أراد الإنسان أن يعمل جاهداً في سبيل الحصول على شرف حريته الواقعية والحقيقية ، كي يصبح قوة فاعلة في عالم الوجود ، فيبلغ بسيره على طريق الكمال إلى ما يليق به منه ، فإنه سوف لا يخضع لمنطق لا ينسجم مع المكانة الواقعية للإنسان .

إن شطراً مهماً من الأحكام الدينية تتعلق بتحديد الغرائز وتعديلها ، وتنمية المعنويات العالية ، وأي قوة ما عدا الإيمان الذي يستقر في قلب المؤمن المتدين يمكنها أن تقوم بتعديل الغرائز الحيويّة ، وأن تمنع البشر عن الانحراف بفضل أثرها المعنوي فيهم ؟ .

من أجل الحدّ دون اختلال النظام وتوسّع الجرائم ، ولكي يصاب المجتمع من آثار الجرائم والتعدّي على حدود القوانين ، لا بدّ من إيجاد إحساس باطنيّ بالمسؤوليّة ، ولا ينشأ هذا الإحساس بالمسؤولية إلّا عن الإيمان ، الذي بإمكانه أن ينظّم سلوك الإنسان وأفكاره وحالاته . وإنّ الإسلام - عن طريق الإيمان بالله - قد اتخذ التدابير اللازمة لتربية الناس وإصلاح أوضاع الحياة الاجتماعية

والإقتصادية ، من أجل المنع من حدوث الجرائم والضلالات ، ولذلك في الإسلام أحسن الأساليب : فهو من ناحية يعد الصالحين أفضل المواعيد ، ومن ناحية أخرى : ينبه على أشد العقوبات لمن يخضع لعتو الغرائز فيتلوّث بأرجاس المعاصي وأنجاسها . إنّ هذا الأسلوب يسبّب في أن يسلك الإنسان سبيل الكمال الأخلاقي باندفاع كثير ، وإنّ خوفه من العقاب سيمنعه من التلوّث بالصفات القبيحة والذميمة .

العادات ، ودورها المخرب أو البناء

إنّ للجوانب الإيجابية أو السلبية للعادات دوراً أساسياً في تقدم الإنسان وتكامله ، أو انحرافه وانحطاطه ، وبالسير والدراسة في التواريخ بإمكاننا أن نقف على حقيقة ما في العادات من عوامل مهمة ومؤثرة في تعيين مصائر الأمم والمجتمعات البشرية .

إنّ قوة المقاومة المعنوية أمام الحوادث المؤلة والمشاكل والمصاعب ، وإنّ الحصانة الطبيعية أمام الجوانب السلبية للحوادث وإحباط آثارها ، كل ذلك من نتائج الجوانب الإيجابية للعادات النفسانية .

ولكن ما أوسع الأضرار الناجمة عن الجوانب السلبية للعادات ، وكم لها من خسائر لا تُحصى . فكلما أنّ العادة تمثّل دوراً مهماً في تذليل المصائب المؤلة يمكن تحمّلها ، وفي إحباط جوانبها السلبية ؛ فهي أيضاً تعدّ عاملاً قوياً في إحباط الآثار الإيجابية والمفيدة للحقائق والواقعات بالنسبة إلى النفس الإنسانية .

إنّ العادة تمنع من إدراك القيمة الواقعية للأشياء ، وكثير من الأصول والسنن المادية والمعنوية ، وكثير من النقاط المفيدة والإرشادية . إنّها لا تدع الإنسان ليصير الواقع ببصيرته ويحسّ بأهميتها . ولا حاجة لبيان هذا الموضوع إلى ذكر أمور علمية دقيقة وعميقة . إنّ كثيراً من أهم وأظهر المظاهر الغريبة في نظام الخلقة ، بقيت غير معروفة للبشر عدّة قرون طويلة ، لا شيء سوى اعتياد

الرأي العام بمظاهر تلك القوانين الطبيعية . وكثيراً ما اتفق - في المقابل - أن ظفر الإنسان بمقاليده نجاحات كبرى وانفتحت له طرق التقدم والرقى بفضل تفكير ساعة أو حتى إلتفاتة خاصّة على خلاف الجري العادي .

ومن الممكن أن يواجه العلم أيضاً موانع نفسية يفقد العلم مع ما له من قيمة وفعالية ، حتى يكون من حيث أثره هو والجهل على مستوى واحد، إذ أنّ العادة السلبية توجب انحراف صاحبها في العمل ، وتمنع من استمرار الآثار المعنوية والضمانات التنفيذية للعلوم ! هناك كثير من العلماء يصبحون أسراء في محاصرة عاداتهم بحيث لا يقدرّون على العمل بعلومهم وبصائرهم وعلى تنفيذها في أعمالهم وأفعالهم في صعيد الحياة ، أو أن يعملوا بها في سبيل إصلاح أوضاع الآخرين ، أو أن يمينعوا أو يمتنعوا عن العمل بأمر يعلمون بمفاسدها وأضرارها مئة بالمئة ، ومع ما لهم من قوة مقاومة كافية . إنّ هذا الضلال والضياع والغفلة إنّما ينجم عن العادات النفسانية التي تؤدي إلى المقاومة السلبية أمام العقل والعلم ، وتقف بصاحبها في مسيرة الكمال في الحياة الروحية .

كم هناك من الأطباء الأخصائيين من توصل في اختصاصه إلى تقدم كبير بينما أصبح علمه بالنسبة إليه من حيث الأثر الروحي صفراً أي بلا أثر ، فلا ضمان لتنفيذ علمه في مقام تعديل سلوكه .

لا يحصر الإسلام كل ميزة في العلم ، بل إنّما يجعل العلم سبيلاً إلى المعرفة بالخالق ، ثم وسيلة لنيل الكمال والرقى المعنوي ؛ فإنّ هذه الفضيلة (العلمية) من دون الوصول إلى رتبة المعرفة بالخالق وطيّ مراحل الكمال ، لا يمكنها أن تكون فاعلة مؤثرة في صعيد الكمال الروحي . ولذلك نرى القرآن الكريم ينتقد العلماء غير العاملين بعلمهم بقوله سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَمْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ؟ كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ (١) .

(١) سورة الصف : الآيتان ٢ ، ٣ .

إن تأكيد الإسلام على التعقل والتفكير في كل موطن وموقف ، لما يبين أهمية التفكير في الوقاية من احتمال الابتلاء بالعادات السلبية ، وكذلك في تصعيد قوة المقاومة أمام العادات الذميمة ومكافحة آثارها السيئة . إن التفكير في مقابلة أية عادة لهو جهاد مشمر وفعال ، يوسع في دائرة بصيرة الإنسان ، وعامل مهم في تقوية الإرادة .

وبما أن كثيراً من أنواع الانحرافات في مختلف الأصعدة ، إنما هي نتائج عدم التفكير المنطقي والصحيح ، وإن كثيراً ممن تركوا طريق الهداية والرشاد إلى سبل الضلال إنما هو لمساحتهم في التفكير وعدم دقتهم في ذلك ؛ لذلك بإمكاننا أن ندرك جيداً لماذا قرّر الإسلام أن يعلن بأن « تفكر ساعة خير من عبادة سبعين سنة »^(١) .

إن هذا الأسلوب من الفكر هو العامل الأساس في تحطيم أساس الغفلة والجهالة ، ورفع ما هنالك من حُجب بين الحق والحقيقة والروح الإنسانية ، وهو مما يرسّخ الإيمان ويجذّره في أعماق قلب الإنسان ، وهكذا لا يبقى مجال لورود البدع والسنن الخاطئة إلى باطن كيان الإنسان .

حينما يصل الإنسان على أثر التعقل والتفكير إلى معنى حقيقة مسلمة ، فالإرادة التي تتكوّن له كنتيجة لتفكيره الصحيح لا الخيالات الواهية ، تستطيع أن تجعل كل أعماله وأفعاله تحت مراقبة تامة .

إن العلم غير الفعال ، يمكنه عن طريق التفكير أن يتبدّل إلى علم فعال ، ويجد حياته كمعاني ومفاهيم مؤثرة ، تكون مصدر آثار وافرة كثيرة مفيدة .

إن الصفات الذميمة ، أو المزايا الأخلاقية السامية ، إذا تجذّرت في باطن كيان الإنسان عن طريق الممارسة والتدريب ، تصبح كالخصائص الطبيعية والذاتية النافذة ، فمع أنها عادات مكتسبة مع ذلك إذا أصبحت كالأخلاق

(١) حديث نبوي شريف .

والسجايَا الثابتة ، وجرت في مجاري الإنسان كغرائزه الطبيعية أخذت تحرّك وتُدفع الفعاليات الباطنية ، واجتذبت صاحبها إلى طريقها بكل شدّة واقتدار .

وروي عن الإمام الحسن العسكري (عليه السلام) أنّه كان يقول :
« ردّ المعتاد عن عادته كالمعجز »^(١) .

ويقول (مان) في كتابه عن (أصول علم النفس) :

« إنّ العادات التي وجدت في البداية تحت تأثير دافع خاص ، من الممكن أن تثبت هي بعد أن ينعدم ذلك الدافع . وهنا علينا أن نقول : إنّ العادة أصبحت تسوق نفسها بنفسها (أي تندفع بذاتها) وقد اصطَلَحوا على هذا باسم : الذاتية الفعّالة ، أو الفعل الذاتي ؛ إذ بدل أن تكون العادات تابعة للحاجات أو ميول أو آمال الإنسان ، تكون تاركة لها ومنفصلة عنها بنوع من الاستقلال .

نحن نتعلم أن نقضي حاجتنا باستعمال طريقة خاصة ، ومن الممكن أن تترسّخ لدينا هذه الطريقة الخاصة بحيث كأننا لا نتمكن نحن من أن نقضي حاجتنا بطريقة أخرى مهما كانت تلك أيضاً ممكنة في حدّ ذاتها ، وحينئذٍ نقول : إنّنا قد اعتدنا على تلك الطريقة الخاصة . إنّ العادة تجعلنا على طريقة معيّنة كأننا نضطر أن نسير عليها ، وفي كثير من الأحيان يكون الخروج عنها شاقاً علينا . هذه الظاهرة يقال لها : العادة ، وكأنّ العادة أصبحت هي دافعاً من الدوافع أو باعثاً ثانوياً في النفس .

إنّ بعض الناس قد يغيّرون من عاداتهم ، وقد تغيّر الحوادث الطارئة مسيرة حياتهم إلى مسيرة جديدة ، ولكن لا يمكننا أن ننكر أنّ النفس الإنسانية تقاوم ما هو جديد عليها وكأنّها تستوحش من التغيّر والتبديل ؛ وعلى الذين يريدون أن يغيّروا سلوك كبار السن أن لا يغفلوا عن هذه النقطة »^(١) .

(١) بحار الأنوار ١٧ : ٢١٧ ط قديم .

(١) بالفارسية : أصول روانشناسی : ١٣٩ ، ١٤٠ .

النظام التربوي في الإسلام

مع أن العادة في فطرة الإنسان موهبة إلهية تنفذ شطراً مهماً من مساعيه في الإبداع والاختراع ، ومع كل ما لها من عظمة في الآثار ، فإنها إن لم يتصف صاحبها بثقافة كافية بل كاملة ، فمن الممكن أن تصبح اندفاعاً خداعاً مضللاً يؤدي بروح الإنسان إلى الفساد .

حينما طلع الإسلام في الحياة الجاهلية ، كانت تحكمها أنواع من العادات الضارة ، مما كان يعدّ كل واحدة منها لوحدها سبباً لضياح أمة وسقوطها .

في ذلك العصر المظلم حيث كان إدراك الإنسان وشعوره قد مُسِخ تحت وطأة العادات الباطلة والأخلاق القبيحة والنجسة ، أيقظ الإسلام - بنهضته الكبرى والتي لم يسبق لها مثيل - ذلك المجتمع الغافل بل النائم ، ودعا الناس إلى ترك تلك العادات والمراسم الخاطئة والبدع المخالفة للعقل والوجدان .

وترك ذلك المجتمع الذي كان يسبح في أنواع الموهومات والسنن الجاهلية كل تلك المراسم والعادات والتقاليد البالية التي دأب عليها آباؤه وأجداده ، واتخذ طريقة جديدة تخلو من ظل تلك السنن والبدع الاجتماعية الباطلة ، وتحفل بكل ما فيه سعادته ، وذلك على أثر تلقّيه لتعاليم رسول الإسلام (صلى الله عليه وآله وسلم) . الذي كان قد تربّى بعيداً عن استيلاء أي نوع من أنواع العادات الإكسبائية ، حرّاً من قيود تلك السنن الباطلة التي لا أساس لها .

وكان أسلوب قائد الإسلام العظيم في إنقاذه لذلك المجتمع من أسر المراسم والسنن الباطلة ، والذي كانت قد مُسِخت حواسه الظاهرة والباطنة وذلك باعتياده بتلك العادات الباطلة ؛ بحيث كانت قد انسَدّت في وجوههم طرق الكمال . . كان أسلوبه بعبارة واضحة : أن رفع عن أعينهم تلك الحجب والموانع التي كانت تمنع اندفاع نفوسهم ، واجتذب التفاتهم إلى ما في المحسوسات والمشاهدات من دلائل ، وبهزة عنيفة لأفكارهم وعقولهم أعاد ارتباط

ما انفرط من حلقات أفكارهم بمساعدة بعض البراهين والدلائل المتقنة ، وبهذه الطريقة أرشدتهم إلى إدراك الواقع وكشف الحقائق والمسلّمات العقلية .

وكان أخيراً أن أزال عن عقولهم ما كان قد علق بها من تلوّث الخرافات والأوهام ، وأنقذ البشرية من تلك الجهالة والضلالة الشاملة ، بتلك النهضة التاريخية الكبرى .

لم يكن هناك في ذلك العصر المظلم أيّ عامل أمام تلك البدع الضارة ، يقوم بقطع سلسلة الأوهام السائدة ، ويمكّن الإنسان من أن يقوم بدراسة خلفيات تلك السنن الرائجة ، ويربط بين بصيرة الإنسان وعقله وواقعيّات الحياة .

أمّا الإسلام فإنّه وقبل أن يبدأ ببناء مجتمع سعيد ، اتخذ تكتيكاً خاصّاً ، فقد بدأ بالعوادات - سواء ما كان يرتبط منها بأساس الفكر والعقائد ، أو التي كانت تتعلق بالأعمال والسلوك - فذوّبها وأفناها ، وقطع جذورها بنسبة ما كانت تحمل من مخاطر وأضرار: فبدأ ببعضها بضربة قاضية كالشرك بالله وما يتعلق به من آثار .

أمّا بالنسبة إلى العادات الاجتماعية الدّميمة التي كانت ترتبط بأوضاعهم المعيشية والمالية والإقتصادية ، كالرقّ والرّبا وشرب الخمر ، مع ما لها من سلطة على أفكارهم وإدراكاتهم ، أمّا بالنسبة إلى هذه فقد اتخذ طريقة الإدارة والتدرّج ، وأقدم على تنفيذها حسب المراحل مرحلة. فمرحلة . وهكذا ملك الناس أنفسهم وحصلت الأرضية الكافية لتزكيّتها والتسامي بها بصورة كاملة . وهذه هي أثمر الطرق والأساليب لبناء مجتمع جديد بأفراده وأحواله .

كتب البروفيسور (كارل) العالم الفرنسي الشهير يقول بهذا الشأن :

« قبل كل شيء يجب أن نرفع الموانع التي تمنع من تربيتنا الروحية ، وقبل أن نتقدّم في طريق السموّ النفساني علينا أن نترك العادات والعيوب التي تعوق

تسامي نفوسنا ، أمّا بعد أن نرفع هذه الموانع عن طريقنا فعلينا أن نبدأ بالتسامي الروحي حسب طبيعة الحياة الأصيلة .

يمتاز الإنسان بميزة عجيبة هي أن بإمكانه - إن أراد - أن يبني بدنه وروحه بمساعدة شعوره الحيّ واليقظ ، ولكن لا بدّ لهذا البناء من تقنية خاصة ، إنّ بإمكاننا أن نتعلم طريقة إدارتنا لأنفسنا كما بإمكاننا أن نتعلم طريقة قيادة الطائرات ، ولكن إنّما يتمكن من ذلك من كان يمتلك نفسه . ليس ضرورياً أن نكون علماء أو أذكىاء جدّاً من أجل أن نزاوّل التسامي الروحي ، بل يكفي أن نريد ذلك فقط . ولا شك أنّه لا يمكن لأحد أن يسلك هذا السبيل لوحده ، بل كل إنسان يمكن أن يصبح في لحظات من حياته بحاجة إلى الهداية والموعظة من قبل الآخرين ، إلّا أنّه لا يمكن أن نستمدّ من أحد في تربية وتنظيم الفعاليات الفكرية والعاطفية والتي هي جوهرية شخصية الإنسان .

وليس الأصل الأول في ذلك تربية القوى العقلية ، بل هو إحكام نسيج العاطفة في النفس لحمةً وسدى ، فإنّ العواطف هي التي تستند إليها سائر العوامل النفسانية الأخرى . وإنّ ضرورة الحسّ الخلقي في الإنسان ليست بأقل من ضرورة حواس السمع والبصر»^(١) .

ويقول علي (عليه السلام) :

« غالبوا أنفسكم على ترك المعاصي ، يسهل لكم مقادتها إلى الطاعات »^(٢) .

وقال (عليه السلام) أيضاً :

« غالبوا أنفسكم على ترك العادات ، وجاهدوا أهواءكم ، تملكوها »^(٣) .

(١) بالفارسية : راه ورسم زندگي : ٩٨ ، ٩٩ .

(٢) (٣، ٢) غرر الحكم : ٥٠٨ .

إنّ الإسلام يفيد من العادة كوسيلة مؤثرة في تربية نفوس البشر وتنفيذ البرامج التي تحفل بسعادة الإنسان ، فهو حينما يوجد علاقة حيّة بين قلوب الناس مع ربّهم ويبتدّر فيهم بذور الخير والفضيلة ، أبدلها فيهم إلى عادة جارية ، والعادات الدينية تنبع من عمق العلاقة القلبية ومن باطن الضمير ، ثم تتبدّل هذه الإرادة القلبية إلى أعمال معيّنة لها حدودها وخصوصيات الواضحة ، ثم تتحوّل تدريجيّاً إلى عادات عن كامل الإدراك والوعي والدّقة ، وهي مع ذلك لا تحمل على الإنسان ضغطاً لا يطاق .

الطفولة والعادات

تُعدّ الوصايا الإسلامية بصدد تعويد الأطفال على العبادات والفضائل الإنسانية ، وإبعادهم عن التلوّث بالذنوب والمعاصي ، عاملاً قوياً في تثبيت أساس الإيمان والطهارة ودعمهما في كيان نفوسهم . وإنّ تطبيق هذا البرنامج التربويّ الخاصّ سيحبط فيما بعد إلى حدّ بعيد تلك الآثار الضارّة الناجمة عن مفاسد المحيط والبيئة في نفوس الأطفال .

قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) :

« مروا صبيانكم بالصلاة إذا بلغوا سبعاً »^(١) .

وكان الإمام السّجّاد (عليه السلام) يقول وهو ينصح أبناءه :

« إتّقوا الكذب الصغير منه والكبير في كل جدّ وهزل ، فإنّ الرجل

إذا كذب في الصغير اجترأ على الكبير »^(٢) .

وكان الإمام الصادق (عليه السلام) يقول :

(١) مستدرک الوسائل ١ : ١٧١ ط قديم .

(٢) وسائل الشيعة ٣ : ٢٣٢ ط قديم .

« بادروا أولادكم بالحديث قبل أن يسبقكم إليهم المرجئة »^(١) .

ويقول (برتراند راسل) :

« إن اكتساب أية عادة سيئة سيكون سداً دون اكتساب العادات الحسنة في أوان الطفولة ، ولهذا فإنّ تكوّن العادات في أوان الطفولة يعدّ أمراً مهماً جداً ؛ فإنّ عاداتنا الأولية لو كانت حسنة كنّا عن سماع اللوم والتفريع بمنجاة ومنأى . أضف إلى ذلك إنّ العادات المكتسبة في أوائل الأعمار سوف تكون في الأدوار اللاحقة من الحياة كالغرائز تماماً في أثرها واستيلائها ، أما العادات المضادة لها التي قد نكتسبها فيما بعد لا يمكن أن تصل إلى تلك الدرجة من الأثر والاستيلاء على صاحبها . وهكذا وبهذا الدليل يجب أن نجعل موضوع العادات الأولى مورد العناية الكاملة »^(٢) .

(١) فروع الكافي ٦ : ٤٧ .

(٢) بالفارسية : در تربيت : ٥٨ .

لسعادة الإنسان رصيدان : هما العقل والوجدان

- * الميزة الكبرى للبشر .
- * أبعاد العقل .
- * هل الضمير هو الغرائز المكبوتة ؟ .
- * أبعاد أحكام الوجدان .
- * القرآن الكريم ، ونداء الفطرة .
- * رصيد العقل والضمير .
- * السفسطة وأخلاق الذرائع والحجج .

الميزة الكبرى للبشر

لقد زرع الله في كيان الإنسان بذور ميول مختلفة ، لكل واحدة منها دور مهم في ضمان رقي الإنسان وسعادته في الحياة ، وإنّ أكبر قوة محرّكة في إطارات الحياة وحركات الأفراد هي تلك الميول النابعة من باطن كيان الإنسان .

وما دامت علاقة الإنسان بالحياة ثابتة فإنّ فؤاده لا يزال يتمنّى عليه الأمان والآمال ، ولا تزال تستعر في كانون فؤاده دائماً شعل الشهوات والآمال ، وإنّ ما يذلّه على نفسه من الآلام المتوالية والمشاق القائمة إنّما هو من أجل إقناع وأشباع تلك الأهواء النفسية ، وكلما حقّق إحدى آماله نبتت في قلبه شهوة أخرى فنفتخت في جسمه روح الحركة والنشاط ، وحملته على فعّالية جديدة .

إنّ الإنسان لا يستطيع أن يعرف طريق السعادة بالهداية الطبيعية في ذاته ، فيسلك سبيلها . نعم بإمكان الحيوان أن يطوي طريق كماله بما له من هداية تكوينية ، وهو من أجل وصوله إلى كماله اللائق به يعتمد على غرائزه التي بمساعدتها يمنح حياته الانضباط والنظام ، وقد تعيّن حدود تكاليف كل طائفة منها على أساس قانون الغرائز ، وهي في غنى عن التربية والتعليم للتعرف على طريقة عيشتها في الحياة . ولكن الغريزة لا يمكنها أن تتكفّل بدور قيادة الإنسان كالحيوان ، فتمنعه من الانحراف والسقوط ، بل إنّ العقل هو أول هادٍ للإنسان مميّزه عن صفوف الحيوانات ، وهو الذي يفتح أمامه طريقة حياته الكريمة ، فهو عن طريق عقله وفكره يمكنه أن يعرف سبيل سعادته ، فيخطو في طريق السعادة بخطوات ثابتة حتى يصل إلى كماله اللائق به .

إنّ قافلة البشرية إنّما تتقدم نحو الكمال في ظلال العقول والأفكار ، وهي تحلّ مشاكلها في الحياة بمساعدة العقول ، وبفضلها تسخّر كل يوم متراًساً من متاريس الحياة في ساحة مواجهة مشاكل الطبيعة .

إنّ هناك في ساحة باطن الإنسان حرب سجال بين الأهواء والعقل ، وتحاول كل واحدة من هاتين القوتين جاهدة أن تهزم الأخرى . ونحن من أجل أن نتمتع بمنافع القوى الباطنة ونبقى في أمن من أضرارها علينا أن نجعل أزمة أهوائنا بيد العقل ، وأن نحمل سائر غرائزنا وقوانا على الطاعة الكاملة للعقل ؛ فإن هذا الرأسمال الخطير والثمين يعرّفنا المخاطر على ما هي عليها وبصورة واقعية ، وبتعليمنا طريقة الاستفادة الصحيحة من القوى المودعة فينا يمنح حياتنا نظاماً وانضباطاً كما ينبغي .

طبيعي أن مستوى الأهواء ليس على نمط واحد في مختلف فصول عمر البشر ، بل تختلف الميول والغرائز في الإنسان على مدى حياته وحسب اختلاف أوضاعه وأحواله .

وكما يمكن للإنسان أن يؤسس أساس سعادته في ظل عقله بإرادة قوية ، وأن لا يدع ذلك العدو الداخلي الخطر يستولي على روحه ؛ كذلك من الممكن أن يركع أمام عتوّ الغرائز ، فيسقط في نهاية أمره في المهاوي المظلمة والموحشة من الفساد والضلال . فهو إن كان يريد سعادته عليه أن يصنع لنفسه أمام الأهواء الفاتنة « درعاً حصيناً » . فيرسم لنفسه مسيرته منذ البداية ، ويعلم إلى أين ينتهي هذا الخط الملتوي مثلاً ، ويقرر النظام في أفكاره يستمرّ ربيع حياته في ظلال التقى والفضائل ، وبدون « التضحية والفداء » كضرورة في الحياة لا يتيسّر للإنسان أن يقضي عمره طاهراً وفخوراً .

إنّ من يولي أصول الفضائل الإنسانية منذ بداية حياته العقلانية عناية خاصة ، فيعوّد نفسه على الإجتنب عن الرذائل ، فإنّ طاقاته الروحية ستتموّه على أحسن نظام ، وسيتميّز له الإستمرار على هذه المسيرة في المراحل الآتية من

عمره ، وبالعُبور عن الحدود الدقيقة والحسّاسة لمرحلة الشباب ، سيقَل خطر الانحراف ، وسيجد الإنسان نوعاً من الحصانة دون المفاصد إلى بعض الحدود .

إنّ الحرية المطلقة في إشباع الشهوات بالإضافة إلى أنها تترك آثاراً سيئة على شخصية الإنسان ونفسيته ، تزلزل أساس الأمن في المجتمع أيضاً ؛ ولهذا فنحن إن أردنا أن نحافظ على نظام المجتمع ونصل بأنفسنا إلى سعادتها ، كان علينا أن نغضّ النظر عن شطر من أهوائنا .

يقول البروفيسور (كارل) :

« نحن لم نتعلّم بعدُ أنّنا كما نخضع لقوانين النقل والفيزياء ، كذلك علينا أن نستسلم أمام قوانين الحياة ؛ وهناك كفاحاً مريراً بين حرية الإنسان والقوانين الطبيعية ، كفاح نرى إنسان اليوم ضحيةً له ، فإن الإنسان يريد استقلاليةً مطلقةً كما يشاء ، ولكنّه لا يستطيع أن يفيد من حرّيته في حدود المناطق الممنوعة بدون أيّ خطر يهدّده .

إنّ الحرية تشبه الديناميت ، فهي وسيلة مفيدة ومؤثرة ولكنها خطيرة أيضاً فعلى من يُريد الاستفادة منها أن يتعلّم طريقة استعمالها ، والذي يمكنه أن يفيد منها هو العاقل ذو الإرادة القوية . ولهذا نقول : إنّ العمل وفق القوانين الطبيعية يستلزم تحديد نطاق الحرية ، وكذلك لا يمكن الحصول على الموفّية في الحياة من دون انتظام وانضباط ذاتيين .

إنّ المنافاة الموجودة بين حرية الإنسان والقوانين الطبيعية تستوجب التدريب على تركية النفس ، من أجل أن ننقذ أنفسنا وما يتعلق بنا من أخطار حوادث الحياة . علينا أن نقاوم كثيراً من ميولنا وتمنّياتنا ، وبدون التضحية ببعض ما نريد لا يمكن أن ننسجم مع نظام العالم ، وكأنّ التضحية قانون من قوانين الحياة ، فبالإمتناع عن إشباع بعض الأمنيات نتمكّن أن نضمن سلامة قدراتنا وقوانا ، وبدون العفو والتضحية ببعض الأغراض فلا جمال ولا قدس ولا عظمة للحياة .

على الجميع أن يضخّوا ببعض ما يريدون ، فإنّ التضحية بذلك إحدى ضرورات حياة الإنسان ، ولقد تجلّت هذه الضرورة منذ أن استخلف العقل الحرّ بدل الغريزة المندفعة ذاتياً في أسلوب أجدادنا القدماء (؟) إنّ الإنسان مهما أراد أن يفيد من كل حرّيته سحق حرمة القوانين الطبيعية ، وواجه بذلك عقوبة شاقّة» (١) .

أبعاد العقل

إنّ العقل من أكبر النعم التي وهبها الله للإنسان فجعله مرفوع الرأس كريماً : ﴿ قل هو الذي أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة ، قليلاً ما تشكرون ﴾ (٢) .

وقال أمير المؤمنين (عليه السلام) :

« أفضل حظّ الرجل عقله ، إن ذلّ أعزّه ، وإن سقط رفعه ، وإن ضلّ أرشده ، وإن تكلم سدّده » (٣) .

وقد وصف الإسلام العقل بأنّه حجة باطنة ، فقد قال الإمام الكاظم (عليه السلام) :

« إنّ لله على الناس حجّتين: حجة ظاهرة وحجة باطنة: فأما الظاهرة: فالرسل والأنبياء والأئمة. وأما الباطنة : فالعقول » (٤) .

ولعدم التساوي في عقول الناس ، واختلافهم في مراتب إدراكاتهم ، لذلك سوف لا يكون أي واحد منهم مسؤولاً يوم القيامة إلّا بمقتضى عقله فقط ؛ كما قال الإمام الباقر (عليه السلام) :

(١) بالفارسية : راه ورسم زندگى : ٣٨ ، ٣٩ .

(٢) سورة الملك : الآية ٢٣ .

(٣) غرر الحكم : ٢١٢ .

(٤) أصول الكافي ١ : ١٦ .

« إِنَّمَا يَدَاقُ اللَّهُ الْعِبَادَ فِي الْحِسَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى قَدَرِ مَا آتَاهُمْ مِنَ الْعُقُولِ فِي الدُّنْيَا » (١) .

إِنَّ البشرية اليوم بما رأت من العقل من نتائج عجيبة وثمرات غريبة فإنها افتتنت به ، وجعلت الاكتشافات العلمية هي الأهداف النهائية لحياتها ، ومن هنا فقد أوردت ضربة لا تُجبر على دور العقل في حياة الإنسان . إِنَّ هذا الافتتان صار سبباً في إهمال القوة التي تتعلّق بمبدأ الوجود وسائر الأمور غير المحسوسة . ولو كان هذا الإنسان المفتون المخدوع يرى الآفاق البعيدة ، ويطوي الساحات الواسعة غير المحسوسة بخطوات أخرى لما كان يفتنع قطعاً بما يرى من عجائب العقول وغرائبها .

والإسلام له الإمام التام بقيمة العقل وميدان عمله ، ولذلك فهو يجعله تحت عنايته التربوية ، ويُرشده ليفكر في حقائق الوجود بكل دقة وإمعان . إِنَّ القرآن يأمر العقل أن لا يتبع شيئاً ما لم يثبت له بصورة يقينية ، وما لم يكن له دليل واضح فلا يقبله : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً ﴾ (٢) .

إِنَّ هذا التصريح يؤكد على ضرورة التحقيق الكافي في الإقتناع بأيّ موضوع ، وكذلك ينبّه على خطأ أولئك الذين لا يبنون أفكارهم على أساس العلم واليقين بل يتبعون الظنون والأوهام : ﴿ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ الظَّنُّ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ الْحَقُّ شَيْئاً ﴾ (٣) .

وبأسلوب الإستدلال العلمي الرّصين يهدم أسس المعقولات المبنية على التقليد الأعمى والظنون ، وينبّه المقلّدين إلى أنّ التقليد الأعمى لسيرة الآباء والأجداد ضلال مبین :

(١) أصول الكافي :

(٢) سورة الإسراء : الآية ٣٦ .

(٣) سورة البقرة : الآية ١٧٠ .

﴿ قالوا : بل نتبع ما الفينا عليه آباءنا * أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون ﴾^(١) .

إنّ هذا الإرشاد وهذه الهداية هي من أجل فتح العيون وتصحيح مسير العقل وطرد الظنون ، وهكذا يعود العقل على الانضباط في نشاطاته ، لينظّم بدوره مختلف القوى والأفكار التي هي تحت إرادته .

إنّ ما يريده الإسلام من التفكير ليس هو التفكير الذهني المجرد والبعيد عن الواقع المحسوس ، أي الفكر الفلسفيّ الصّرف . إنّ القرآن يذكره لآيات الخلقة ومظاهرها يوقظ العقل ، ليستخدم الإنسان قواه الشاعرة للتفكير العميق بشأن آيات حكمة الله وعظمته في نظام الكون ، فيدرك الحقيقة بفكر حرّ وبعيد عن الخيالات ، ولا يتيه في وادي الأوهام ، بل يتصل إدراكه بالحق المطلق المحيط على جميع عالم الوجود . وهذه هي الفضيلة العليا للعقول .

وبهذا الصدد كتب (أسبينوزا) الفيلسوف الأوروبي يقول :

« إنّ أعلى ما تقوى أذهاننا على تفهمه هي فكرة وجود « الله » أي ذلك الوجود المطلق اللانهائي الذي لا شيء بدونه بل ولا يتصور شيء من دونه . ولهذا فإنّ ما يفيد الأذهان ، أو قل ما هو أكبر خير لها ، هو العلم بوجود الباري تعالى . وكذلك إنّما يعمل الفكر بما يفهمه ، وهنا يمكننا أن نقول : إنّ عمل بما فيه فضيلته ، فالفضيلة المطلقة للأذهان هي الفهم أو قل التفهم ، ولكن قد أثبتنا آنفاً إنّ أسمى ما يمكن للذهن أن يتوصل إليه هو فكرة « الله » ولذلك نقول : إنّ أسمى فضيلة للفكر هي معرفة الباري تعالى »^(٢) .

إنّ الهدف من التفكير في الإسلام هو إصلاح عقل الإنسان وبناء أساس الحياة على قواعد الحق والعدل ؛ فحينما يحصل الإنسان على نتيجة فكرية يكون

(١) سورة البقرة : الآية ١٧٠ .

(٢) بالفارسية : فلسفة نظري : ٩٧ .

قد توصل إليها بعمق فكره ، عليه أن ينقلها من القوة إلى الفعل ، وأن يفيد منها في حياته الواقعية والعملية ، فيجب أن يستوعب ذلك الإيمان المحرك مجموعة أفعاله ومشاعره وأفكاره ، فيقوم بالجهاد الجاد للانتصار على كل أمر باطل يذهب بالقيمة الواقعية للإنسان .

مع أن العقل خير هادٍ وأكبر ملاكٍ للتشخيص ، مع هذا نجده يقلّ ضوءه ببعض الكدورات فإنّ الأهواء حينما تستر العقل بستارها الصفيق فتمنع عن انتشار أشعته ، فإنّه يفتقد قدرة القيادة حينئذٍ . والقرآن الكريم ينبّه إلى الدور المخرب للأهواء في العقول فيقول : ﴿ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ، وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾^(١) .

وقال تعالى : ﴿ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾^(٢) .

وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ﴾^(٣) .

وقال تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ ، وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ ﴾^(٤) .

لا شك أنّ الإستيلاء على الأهواء أمر صعب جدّاً ، فلا يمكننا أن نحول دون طغيانها ونخضعها لعقولنا إلّا بالمجاهدات والمسااعي المتواصلة ، وبهذا الطريق فقط نتمكن من أن نعدّل الميول النفسانية وشهواتها ، فنسمح لأنفسنا أن تتمتع ببعض ذلك بطريقة صحيحة ومناسبة .

روى الشيخ الصدوق في كتابه (معاني الأخبار) أنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) خاطب أصحابه الراجعين من جبهة القتال فقال :

(١) سورة القصص : الآية ٤٩ .

(٢) سورة الروم : الآية ٢٨ .

(٣) سورة المؤمنون : الآية ٧٠ .

(٤) سورة الجاثية : الآية ٢٢ .

« مرحباً بقومٍ قضوا الجهاد الأصغر وبقي عليهم الجهاد الأكبر »
 قيل : يا رسول الله وما الجهاد الأكبر ؟ قال : « جهاد النفس »^(١) .

إنما ينال مقام جوار رحمة الله من يكون رقيقاً على ميوله الجامحة والخطرة ،
 فلا يدع هواه يتسلط على عقله فيجرّه أو ينحرف به إلى طرق غير نظيفة وغير
 طاهرة : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ
 الْمَأْوَىٰ ﴾^(٢) .

هل الضمير هو الغرائز المكبوتة ؟

إنّ الضمير الأخلاقي عامل مهمّ في تعديل الغرائز النفسانية ، كان الإنسان
 من أول يوم أن قدم فيه إلى هذه الكرة الترابية وبدأ الحياة ، وحتى اليوم ، وقد
 مضى على خلقه زمان طويل ، كان ولا يزال يميل إلى حسن الفعال وينفر من
 سيئاتها ، وهو يصغي في ذلك إلى نداء باطني يُدعى : الضمير الأخلاقي ؛
 فحياته العقلانية كانت مسيرة لحياة ضميره ووجدانه في طول زمانه .

فهو منذ أن عرف الأشواك عن الأزهار أبعد تلك عن نفسه وتمتّع بهذه ،
 ومنذ أن كان يُميّز بين الطاهر النظيف والنجس المتلوث ، كذلك كان لا يخطيء
 في معرفة الخير والشر .

إنّ طبيعة الضمير الإنساني هي من أروع ظواهر عالم الطبيعة في خلقه الله
 تعالى .

إنّ الإنسان في حال اعتداله النفسي يفرح بالعدل والأمانة ، وينفر من
 الظلم والخيانة ، وحتى إنّ اليقين الوجداني أكثر وضوحاً من اليقين العقلاني
 الذي هو مظهر للكشف عن الواقع ، فإنّ الأمور التي يدركها الإنسان خارج

(١) معاني الأخبار : ١٦٠ .

(٢) سورة النازعات : الآيتان ٣٩ ، ٤٠ .

وجوده فيعكسها على مرآة ذهنه ويضفي عليها ضوء اليقين بعقله ، يعلم هو جيداً أنها أرقام من الواقع الخارجي البعيد عن ذهنه . في حين أن هذا اليقين حينما يتواجد بوجوده وضميره فهو أكثر قرباً والتصاقاً من مظهر المشاهدة والعيان ، وكأنه يُحسّ بأن الموضوع المعلوم له بضميره هو جزء من وجوده وكيانه تماماً .

بينما نرى بعض العلماء النفسانيين مثل (فرويد) وأتباعه ، ينكرون فطرية الضمير الأخلاقي ، ويرون أن ما يُسمّى بالضمير الأخلاقي إنما هو مجموعة الميول المكبوتة في طول الحياة الاجتماعية والتي تكسدت في باطن الإنسان . وبعبارة أخرى يقولون : ليس الضمير الأخلاقي شيئاً سوى مكبوتات الرقابة الاجتماعية وإلاّ فهي ليست لها جذور عميقة في باطن ذات الإنسان .

كان (فرويد) في دراساته النفسية التحليلية يبحث عن الجذور الجنسية ، ولا يلتفت إلى العوامل الأخرى كمصادر للحركات والنشاطات الشريرة والخيرة .

إننا لم نجد في العالم أمة ترى الخيانة ونقض العهود والمواثيق والظلم والجور شرفاً ونزاهة ، والأمانة والوفاء بالعهد والوعد والعدل شراً وحراماً ، وتبحث عن سعادتها في ظل الرذائل والسيئات وسوء الأخلاق .

ولأنما يمكن افتراض صحة نظرية (فرويد) فيما إذا كان الإنسان قد تعلم الخير والشر من مظاهر هذا العالم ، ولا يمكن أن نرى أن ما يذعن به كل إنسان على الأرض من الصالحات والسيئات ، وحتى من لم تصله أشعة تعاليم الأنبياء والمصلحين ، نراها وليدة الميول المكبوتة بالرقابة الاجتماعية .

إن (فرويد) حينما أنكر الضمير الأخلاقي حسب ما هو مذكور في البحوث الأخلاقية ، وحينما أهان الإنسان حيث رآه مجموعة من الغرائز والميول ، فقد أنكر طبعاً جميع القيم الأخلاقية ، بل قد سحق المعنويات والاتجاهات النبيلة التي لها نشاط جدي في أعماق النفس الإنسانية ، ورأى أن نتائجها الصادرة عنها التي هي عبارة عن العدالة والرحمة والخير والبر والتعاون ومساعدة

القوي للضعيف والعاجز ، رآها ألفاظاً فارغة وغير مفهومة .

وعلى أساس هذه النظرية فمن دون أن تكون الميول الغريزية والدوافع الفطرية الطبيعية مكبوتة مغموعة في الإنسان فإنه لا يستطيع أن يخطو إلى عالم المعنويات خطوة واحدة ولا يتمكن من أن يغضّ النظر عن اللذائذ بإرادته ، بل إنّما يمتنع بضغط القوى الخارجة عن نفسه فحسب .

إنّ الضمير الأخلاقيّ لو كان ظاهرة منعكسة عن القوى الخارجة عن وجود الإنسان ، لما وجدنا أي تفسير لما يقوم به من يغضّ نظره عن كثير من لذائذه بل يتحمل الآلام والمشاقّ في سبيل الصالح العام أو المصالح العالية ، والوصول إلى أفكاره والنيل بأهدافه السامية ، ممّا ليس له فيه أية منفعة فردية أو مصلحة شخصية ؛ فإنّ ذلك لا ينسجم مع تفسير (فرويد) لأمثال هذه التضحيات بأنّها خداع اللاشعور البشريّ لمواكبة الميول المكبوتة ! ومع هذا التفسير السخيف ستبقى عظمة الإنقياد أمام الضمير والوجدان كطلسم معقّد لا ينحلّ بأي تحليل .

إنّ أبطال قيادة الإصلاح في التاريخ البشري كانوا يسوقون الناس إلى عالم النزاهة الإنسانية ، فهم بدورهم لم يكونوا ينفادوا لطاعة قادتهم بضغط أقوىاء المجتمع عليهم أبداً ، بل إنّما كان ذلك بإرادتهم .

إنّ الإنسان بإرادته واختياره وبحبّه للكمال يطوي طريق الفضائل الإنسانية ، وكذلك يصرف نظره عن تنفيذ بعض رغباته الشهوانية ، وهو في ذلك يستجيب للأحاسيس الإنسانية النزيهة بكل شوق ورغبة ، ومن دون أن يصطدم في ذلك بمقابلة بعض العقد النفسية ، فيقوم بأداء خدمات خيرة لم تجبره عليها القيود الدينية أو العرفية الاجتماعية .

هذه حقائق واقعية تسجّل علينا أنّ الضمير الأخلاقي في الإنسان ليس مخزناً للشهوات المكبوتة ، بل تختزن فيه أيضاً الأهداف السامية والوصول إلى الكمال المطلوب . وإنّ في باطن الإنسان حالة ذاتية هي مصدر لكل أعمال

الخير . فهذا هو الضمير الذي يذكره بأنه لا ينبغي له أن يجتذب كل شيء إلى نفسه ، وأن يتبع ميوله النفسية فحسب .

إننا نجد في صعيد الحياة الدنيا من يرى الحياة بعيداً عن مقتضيات ضميره عاراً عليه ، وبعيداً عن شرف نفسه ، فهو مستعد لأن يغسل يده من حياته دون أن يخالف أو يواجه ضميره ووجدانه . وحينما يبادر هؤلاء إلى عمل أخلاقي خير اندفاعاً بذلك الدافع الذاتي ، يُحسّون من جمال ذلك الفعل ما لا يستعدون معه لبادلة تلك اللحظة من حياتهم مع كل العالم .

ولو كان القرار أن يوكل الإنسان إلى نفسه ، بل يفهم أن ليس هناك أي قيم مقدسة وراء جلبك للمنافع ودفعك للأضرار عن نفسك ، لما كان العالم هذا يصل إلى ما وصل إليه اليوم من تقدّم وتكامل في العلوم والصناعات .

أبعاد أحكام الوجدان

قلما يخطئ الضمير في أحكامه . أمّا أخطاء الإنسان في حياته الاجتماعية فهي مسببة عن أخطاء الحواسّ أو إدراكات العقل في تشخيص الموضوعات ، أو تقاصر قوة المقاومة في الضمير أمام الأهواء الجاحمة والميول الطاغية العاتية .

إذن فهذه الكثرة من الأخطاء في مختلف الشؤون الإنسانية ليست من خطأ الضمير أو تقصيره ، إذ ليس لهذه القوة الفطرية أي عمل خارج إطار نشاطه وهو : أن يدرس ما تحرزه الحواسّ والعقل من موضوعات وقوانين فيصدر حكمه بشأنها .

إنّ الفطرة السليمة والنزيلة تحاول التجنّب عن الذنب مهما أمكنها ، ولكنها من الممكن أن تتلوّث بالجرائم والذنوب على أثر عوامل معينة ، فيتلطّخ ثوب صاحبها بلطخة من عار المعاصي . ولكنه ما إن يفرغ من الجريمة ويرجع إلى الحديث مع نفسه التي هي من قيم الإنسان - ويدرس لوث الجريمة الحادثة ، فإنّه سيُحسّ بسعر حرارة من أعماق ذاته يحرق روحه بل وحتى جسده ، وتستولي

عليه حالة من الخجل والندم المؤلم . هذا هو الضمير الذي يدينه بجريمة ثم ينهال عليه باللوم الشديد ، ويجلده بسياط الحسرة والندامة الملتهبة .

ليس الضمير مرشداً مضموناً وأميناً في صعيد الحياة فقط ، بل هو شاهد وفيّ وعادل يشرف على أعمال صاحبه ويراقبها ويشهد طبقها تماماً مئة بالمئة . فمن الممكن أن يتكلم المرء بخلاف ما في قلبه ، أو أن يستولي ويهيمن على حركاته تماماً بحيث لا يترك شيئاً من أسرارته تظهر في فلتات لسانه أو أعماله . . ولكنه لن يتمكن من أن يُخرس نداء الوجدان إلى الأبد ، أو أن يسكته عن تقريره باللوم والتأنيب والعتاب ، وليس بالإمكان أن نخدع الوجدان نعم قد يكون بالإمكان أن نمنع عن نشاطه بالخداع والتزوير فينام عن القيام بمهامه ، ولكنه بعد يقظته ودراسته لصحيفة أعمال صاحبه سيعلم عن القبيح منها بكل صراحة تامة ، وسيعاقب صاحبه بسياط الحسرة والندامة بكل قسوة وشدة .

لا شيء أحبّ إلى الإنسان من نفسه ، ولهذا فإنّ الذي يرى من وخز ضميره أشدّ العذاب النفسي سيأسّم من نفسه ويتنفّر ، وسيُحس بأنّ هذا هو ذلك الذنب وتلك الجريمة قد اتصلت الآن ببدنه فهي تحرقه بلهيبها المحرق . وعلى هذا فإنّ الضمير أكبر عامل تنفيذيّ للحدّ من الجرائم والذنوب .

لكن إذا كانت الإصابات التي تصيب الشخص فوق طاقته وأكثر من ظرفيته واستيعابه ، توتّر الضمير توتّراً شديداً جدّاً ، وإذا كان ضغط الضمير شديداً على النفس أثر في النفس بالانحراف فتحدث فيه أمراض واختلالات نفسيّة .

إنّ بعض المجانين الذين أجريت البحوث والدراسات على حالاتهم الروحية ، أثبتت البحوث أنّهم قد فقدوا عقولهم من جرّاء العذاب والضغط الشديد عليهم من ضمايرهم ، على أثر اقترافهم للجرائم .

قد تكون الميول وشهوات النفس من القوة والضغط بحيث يحاول الإنسان مخادعة الوجدان ومنعه عن نشاطه . ومن خصائصه العجيبة أنّه يتمتع بقوة

مقاومة شديدة أمام الميول القوية أيضاً ، فهو ما لم يختل نشاطه أمام ضغط الدوافع العارمة يواصل جهاده ونشاطه ولا يهمل تكليفه مهما أمكن .

يقول (هانري باروك) :

« إنَّ قوة مقاومة الضمير الأخلاقي قوة مقتدرة ، حتى إنَّه حينما يقلّ نفوذ أشعته بحيث لا يكاد يُرى ، مع ذلك فهو بعدُ يراقب الأمر بيقظة ، وحينما يصعب أمره نراه يبدأ ببث شعاعه الباهر مرة أخرى »^(١) .

وأخيراً نقول : من يعرض عن أمر ضميره فينحرف عن الصراط المستقيم لفطرته سيصبح في عذاب الاضطراب النفسي ، والعكس صحيح ، فمن سمع مناغاة ضميره واتباع أمره سيتمتع بالراحة وسكون النفس ، مما يسعى الإنسان التائه أن يحصل عليه باحثاً عنه في السراب .

القرآن ونداء الفطرة

يرى كثير من العلماء اليوم أنَّ نظرية (فرويد) مردودة ويرون أنَّ الضمير الأخلاقي هو جزء من طينة بناء الإنسان . إنَّ المفكرين الذين أفادوا من عقول نشطة وسليمة دائماً لمعرفة الإنسان والكون ، أخذوا يؤكدون على إثبات ظاهرة الوجدان وأساليب الضمير الأخلاقي ، وإنَّ لإرادة الخير واجتناب السوء والشر في كيان الإنسان جذوراً فطرية ، وإنَّها قد أودعت في باطن كل إنسان من قبل الخالق القدير ، كرسماً لسعادته .

ونحن هنا ، وفي ذيل الآيات القرآنية الكريمة نعكس نظريات العلماء والمحققين الغربيين :

إنَّ القرآن الكريم يرى تلك القوة الذاتية التي تدرك الخير والشر جيداً ، من فيض الإلهام الإلهي ، حيث يقول تعالى : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا

(١) بالفارسية : بيهاري هاي روجي وعصبي : ٧٣ .

فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿١﴾ .

ويقول (جان جاك روسو) :

« صحيح أن الإنسان - أيّ إنسان - لا يمدّ يده إلى أيّ عمل بدون أن يستهدف سعادة نفسه ، ولكن علينا أن لا ننسى أن هناك سعادة معنوية هي من اللذات الروحية ، يضحي الأختيار بأنفسهم في سبيل الوصول إليها . وعلى هذا نقول : فهؤلاء هم قساة القلوب الذين لا يعملون إلاّ بهدف الوصول إلى النفع المادي لأنفسهم .

وليس عمل الضمير نوعاً من أحكام العقول ، بل هو وليد نوع من الإحساس الفطري الذاتي ، وعلى افتراض أننا لا نستطيع أن نتوصل إلى ماهية الضمير وأصله حسب وسائلنا الطبيعية ، فإنّ في باطننا ما يشهد بوجود الوجدان في كيان الإنسان .

أيها الضمير ،

أيّتها الغريزة الملكوتية ،

أيها النداء السماويّ الخالد ، أيها الهادي والمرشد الأمين لهذه الموجودات الجاهلة والقليلة العقل !

أيها الوجدان العاقل الحرّ ! يا من يحكم بالخير والشر من دون خطأ في قضاؤه . .

أنت الذي تقربّ العبد من ربّه ، تهذبّ طبعه ، وتوفّق بين عمله وقانون الأخلاق . .

إن لم تكن أنت فأنا لم أكن أحسّ بوجودان في ذاتي يجعلني أفضل من البهائم ؛ وإنّما كنت أمتاز عنها بفهمي وعقلي الناقص وغير المنظّم ، وأصلّ بما فيه من نقص وإعواز فأخطئ ، وكنت انتقل من خطئي إلى خطأ آخر .

(١) سورة الشمس : الآية ٨ .

ولله الشكر إذ نجونا من شر الإستدلالات الفلسفية الموحشة ! وذلك يعني أنّ بإمكاننا أن نعيش بإنسانيتنا من دون التفاخر والتفاضل بهذه المصطلحات المبهمة ، ولا حاجة لنا اليوم أن نصرف أعمارنا لقراءة الكتب الأخلاقية المعقّدة ، بل بجهد أقلّ نتمكّن من أن نجد طريقنا بين الطرق المتوتيرة من مختلف العقائد ، بهداية قائد معتمد أمين .

لكن لا يكفي وجود هذا المرشد الهادي فينا فقط ، بل علينا أن نعرفه جيّداً فنّبعه . وإذا كان هو يحدث القلوب فلماذا لا يسمع حديثه إلّا قلوب قليلة ؟ .

نعم ؛ من كثرة طردنا له وقهرنا إيّاه فإنّه لا يحدثنا أو لا يردّ جوابنا ، ومن كثرة الإهانة به أصبح من الصعب حضوره وإن كان من الصعب طرده أيضاً . كما يصعب على من افتقد اللذات الروحية أن يجدها مرّة أخرى»^(١) .

ويقول البروفيسور (فريدمان) :

« إنّ نداء الضمير جزء من الشخصية الإنسانية ، وليس شيئاً يحصل بالتربية والتعليم . من توصّل إلى مقام في المجتمع أو كان قائداً فيهم ، فإنّما الضمير هو الذي يأخذ بيده إلى الخير ويبعده عن الشر ولا غير»^(٢) .

ويقول عالم نفساني آخر :

« ليس الضمير الأخلاقي ردّ فعل مصطنع ، بل هو عامل إنساني طبيعي وعميق ، ولا يستطيع الإنسان - مهما تظاهر بصورة أخرى - أن يعدم ضميره أو أن يخنقه . وإنّ ثبات الضمير الأخلاقي الخارق للعادة حتى في الأمراض الشديدة وحتى في الأمراض الروحية والجنون ، وبقائه حتى بعد ذبول العقول ، كل ذلك مما يشهد للضمير بأهميته الكبرى ومرتبته العالية في الروح الإنسانية .

(١) بالفارسية : أميل : ٣٧٦ ، ٣٧٧ .

(٢) بالفارسية : روانشناسي در خدمت سياست : ٣٢ .

وقد يتساءل بعض العلماء : أليس الضمير الأخلاقي وليد التعليم والتربية الدينية ؟ وللإجابة علينا أن نتذكر أنّ علماء الآثار قد عثروا في الآثار التي تعكس المراسم القديمة على ما يصوّر الضمير في صورة الاستيعاش في حالة الاستغفار في القبائل القديمة ، والعبادة للأوثان ، مما يشهد بقدّم الضمير منذ بداية البشر . وإنّ إنكار هذا الواقع يساوي أن لا نفهم من شخصية الإنسان شيئاً^(١) .

والله تعالى بعد ذكره لنعمة العين واللسان والعقل في الإنسان ذكر نعمة هدايته إياه للخير والشر فقال تعالى : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ ، وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ، وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾^(٢) ومنه يستفاد بوضوح أنّ الإنسان إنّما تعلم التمييز بين الخير والشر في مدرسة الخلقة : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نَظْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾^(٣) .

وكتب (صموئيل اسمايلز) يقول :

« إنّ العقول العالية والأفكار السامية من دون إرشاد الوجدان وهداية الضمير ، إنّما هي بمثابة أنوار ساطعة قد تسبّب في ضلال الإنسان وضياعه ، فالضمير هو الذي يقوم به على ساقه ويبرأده مستقيماً وثابتاً .

إنّ الضمير هو معلّم القلب في الأخلاق ، وهو يعلم الإنسان السلوك الصحيح ، وأسلوب الفكر السليم ، والإيمان الثابت ، والحياة العفيفة ، ولا تبلغ الأخلاق الفاضلة في نموّها ورشدّها إلى حدّ الكمال إلّا بتأثيره النافذ في أعماق الإنسان »^(٤) .

وقال تعالى : ﴿ لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴾^(٥) .

(١) بالفارسية : بيباري هاي روجي وعصبي : ٦٧ ، ٦٨ .

(٢) سورة البلد : الآيات ٨ ، ٩ ، ١٠ .

(٣) سورة الإنسان : الآية ٢ .

(٤) بالفارسية : الأخلاق : صموئيل اسمايلز : ٧ .

(٥) سورة القيامة : الآيتان ١ - ٢ .

في هذه الآية ذكر الله ذلك النداء الباطني الذي يرتفع من عمق ضمير الإنسان بالذم واللوم فيعذبه بذنوبه ، ذكره الله بعنوان ﴿ النفس اللّوامة ﴾ وهذه القوّة اللّوامة الباطنية هي التي سمّاها علماء النفس اليوم « بالضمير الأخلاقي » .
يقول البروفيسور (أتوفر يدمان) :

« كثيراً ما نجد من يقضي ساعات كثيرة في البارات أو الحانات بشرب المشروبات الكحولية ، أو على طاولات القمار ، أو التيس ، وهو في ذلك يعاني من آلام باطنية ذاتية تؤذيه دائماً ، فلا يلتذّ من نزهته ، وذلك لأنّ هناك نداء في باطنه يناديه بالذمّ واللوم يقول له : أنت تقضي عمرك بالبطالة ! ولا يزال هذا النداء يرنّ في شعور ضميره أو « الكونسيانس » .

وقد تتواجد فيه بدل تلك الألعاب الترفيحية والتسلية فكرة تقول له : من الأفضل أن تشغل بتربية أبنائك ، ومن الأفضل أن تشغل بالزراعة والفلاحة وتربية الورود والأزهار والرياحين . . وهنا يهديه ضميره الحيّ واليقظ إلى أعمال صالحة تفيده ويتمتع بها الآخرون ، وهنا يقيس الإنسان نفسه بالآخرين فيسمّت به ضميره . وكلما كانت طاعته واستماعه لنداء ضميره أكثر وأقوى كذلك كانت قدرته الروحية والمعنوية أفضل وأكثر استمراراً ودواماً ، وكلّما كان الإنسان أقل التفاتاً وطاعة لنداء الوجدان كان بنفس النسبة أكثر غلظة وخشونة ^(١) .

وقد تتعرّج رجل الرجل بغفلة في لحظة خاطفة فيستسلم لأهوائه ، فيأثمه سيعاني من الحسرة في عمره ما يؤدي به إلى التعاسة والشقاء ، كما قال علي (عليه السلام) :

« كم من شهوة ساعة أورثت حزناً طويلاً » ^(٢) .

إنّ المجتمع البشريّ قد أفاد من ضمير أفرادهِ في جميع الأدوار التاريخية .

(١) بالفارسية : روانشناسي در خدمت سياست : ٣١ ، ٣٢ .

(٢) الكافي ٢ : ٤٥١ .

أما الذين لا يتمتعون بالإحساس الوجداني في أعمالهم فلا يفرقون بين خير وشر ، وإنما يرون حياتهم في الأكل والنوم والشهوة ، فهم مستسلمون لأمواج الغرائز الحيوانية كقطعة خشبة ، فهم لا يعتمد عليهم في مجتمعهم ، فإنه حينما يفوض إلى شخص عمل لا يضمن تنفيذه إلا الضمير ، كان من الواجب أن نطمئن إلى أنه سيعمل بتكليفه ، وإلا كان بعيداً عن العقل والمنطق أن يحول العمل إلى من نشك في انصياعه لأحكام الضمائر ، فضلاً عما يضادها ويخالفها في أعماله .

وقد أولى الإسلام عناية خاصة بالضمير الأخلاقي ، وأرشد إلى أن السموّ النفسي في الفكر والعمل الفردي والاجتماعي إنما هو في العمل بالوجدان الأخلاقي . يسعى الإسلام في تعاليمه أن يربّي في باطن الإنسان وازعاً أخلاقياً يردعه عن إيذاء الآخرين حتى في حالات الغيظ والغضب ، ويحذّر الناس عن ذلك فيقول : ﴿ ولا يجرمنكم شئتان قوم على أن لا تعدلوا ، عدلوا هو أقرب للتقوى ﴾ (١) .

وهذا يعني أنه لا يحق لأحد وعلى أيّ حال أن يعتدي على حقوق سائر الناس بحال من الأحوال .

إنّ القانون يمنع الإنسان عن ارتكاب ما يخالفه بما له من سلطة على خارج ذات الإنسان ، وبما أوتي من وسائل محدودة . أما الإسلام فبإهتمامه بتربية ضمائر أفرادها فإنهم - حسب تربيته - يدركون بوجدانهم أنّ عليهم أن يمتنعوا عن ارتكاب بعض الأعمال كي يمكن لهم التقرب المعنوي إلى بارئهم . ولا شك أنّ هذا الإباء بداعي الخلق والعقيدة أكثر إطمئناناً وأقرب إلى الأهداف التربوية .

إن الإسلام يرى أنّ من الممكن تحقيق أهداف الحياة السامية في ظل التعاون والعلاقة المودّة والمحبة بين الفرد وأبناء نوعه ، فهو يدعو الناس إلى هذه

(١) سورة المائدة : الآية ٧ .

الفضائل وأنَّ يؤتسوا علاقاتهم مع الآخرين على أسس المحبة والتعاون .

وهكذا يُحسَّ المسلم أنه يتَّصف في الإسلام بالنورانية إلّا فيما إذا لم يألُ جهداً في التعاون والمحبة بالنسبة إلى سائر الناس برضا نفسه وطيب خاطره .

يُحدّث الإمام الصادق (عليه السلام) عن الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) أنه كان يقول :

« للمؤمن على المؤمن سبعة حقوق واجبة من الله عزَّ وجلَّ عليه .
الإجلال له في عينه ، والودَّ له في صدره ، والمواساة له في ماله ،
وأن يحرم غيبته ، وأن يعود في مرضه ، وأن يشيع جنازته ، وأن لا
يقول بعد موته إلّا خيراً » (١) .

ولمّا يسمع الإنسان نداء الفطرة ويدرك الخير والشر ، فيما إذا لم يحجب فطرته شيء حاجب ، أمّا الضمير المقيّد بسلاسل الأسر والمغلولة يده ورجلاه في حلقات الأهواء وحبّ الجاه ، فإنّه لا يمكنه أن يبدي وجهه وصورته الواقعية . وفي الاضطرابات الثورية والحربية والحالات غير الاعتيادية ، يصطدم الضمير بضربات ثقيلة تؤدّي إلى توقّف نشاطه . وتنجم المفاهيم الخاطئة وغير القيّمة كأقوى الدوافع في الإنسان ، وقد يصاب الضمير في هكذا ظروف بالقلق والاضطراب مما قد يسبّب للبشرية خسائر لا تحبر .

والبون بين الإنسان الذي يتمتّع بضمير حيّ ويقظ والإنسان الذي لا ضمير له كالبون بين السماء والأرض ، والتضاد والإختلاف بينهما أكثر من الفارق بين الإنسان وأيّ وجود آخر . فإذا أحرقت النار - بما لها من خاصية الإحراق - جسم إنسان ، كان ذلك أثرها الذاتي ، وهي لا تشعر أنّ جسم موجود حيّ كالإنسان سيتأثر بشعلاتها المحرقة ، فيُحسّ بالألم والعذاب بشدة . . في حين أن

(١) بحار الأنوار ١٥ : ٦١ - كتاب العشرة .

الإنسان الذي لا ضمير له يشعر بما يفعله ، فإنَّ ظلمه وإيذاؤه للآخرين مما يقدم عليه عمداً .

إنَّ تكرار الذنوب ممَّا يغطِّي على وجه الفطرة الطاهرة ببركाम من السُّحب المظلمة . إنَّ المجرم الجاني يرتكب جرائم مفاجئة كثيرة من دون أن يُحسَّ من عمله القبيح بأقل عذاب روحي أو ألم نفسي . هذه حالة استثنائية . أي فوق العادة ، تسمى « الساديسم » .

إنَّ المجتمع إنَّما ينال العدالة الاجتماعية فيما إذا كان الناس فيه يخضعون لعامل باطنيٍّ فيهم يُشرف على أعمالهم ويصفي فيها بحكمه فيطيعونه ، ولو كان الناس أمة واحدة بوحدة حقيقية هي تلك التي تفسِّر إنسانيتهم ، لم تكن المسالمة بينهم أمراً مقدوراً فقط بل كان كل واحد منهم كأنَّه عضو مع سائر الناس من جسد واحد ، أو كأنَّهم كلهم قطع غيار لآلة واحدة .

رصيد العقل والضمير

حينما نحاول الميول والأهواء الجائعة الطاغية أن تكسر أجنحة العقل والضمير فتأسر الإنسان في مصيدتها « فالإيمان » خير رصيد بالإمكان أن نلتجئ إليه . إنَّ الإيمان أكبر حام ورصيد للعقل والضمير ، فهما وبحماية الإيمان قادران على أن يكبحا جُمُاح الغرائز ويقمعا طغيانها في كل حال ، ويقابلان قوة الميول المتخاصمة ، وأن ينتصرا في كل معركة خطيرة ، وإنَّ الإنسان المجهَّز بسلاح الإيمان يكون كما يعبر القرآن الكريم ﴿ فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها ﴾^(١) .

إنَّ مهمة العقل النظري - وهو الأساس في الفلسفة الإلهية والعلوم الرياضية والطبيعية - هي أن يصدِّر أحكاماً بشأن الأمور الواقعية . أمَّا العقل

(١) سورة البقرة : الآية ٢٥٥ .

العملي - وهو أساس علوم الحياة - فمورد أحكامه هي تكاليف الإنسان ووظائفه ، فالطريقة العملية التي يتّخذها الإنسان في حياته تكون مورداً لأحكام العقل العملي .

وإنّ من إحدى العوامل المهمّة التي لها الأثر الأكبر في بصيرة العقل ووضوح رؤيته ، هي التقوى ؛ فما يقال : من أنّ التقوى تنوّر العقول وتفتح على صاحبها نوافذ الحكمة ، لا يقصد بالعقل فيه العقل النظري بل العقل العملي ، بمعنى أنّ الإنسان عن طريق التقوى يشخّص الطريقة الصحيحة في الحياة ، ويتعرّف بها على دأئه ودوائه .

وحيث أن منطقة نفوذ أحكام العقل العملي هي ميول الإنسان وتسهواته وأحاسيسه ، لهذا فلطغيان الأهواء والميول أثر قطعي في العقل وأسلوب الفكر العملي للإنسان الذي عليه أن يتفهّم مفاهيم الخير والشر في الوظائف والتكاليف ، وهي التي توجب ضباباً كثيفاً أمام مصباح العقول المنيرة ، فتمنع من نفوذ أشعتها .

فما نراه في النصوص الإسلامية أنّها تصف الأهواء بأنّها أعداء العقول ، إنّما هو بلحاظ أنّ الأهواء تحبط آثار العقول وتورد الضعف في قدرتها وقواها .

قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) :

« أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك »^(١)

ويقول الإمام الصادق (عليه السلام) :

« الهوى عدو العقل » .

ويقول أمير المؤمنين علي (عليه السلام) :

(١) نهج الفصاحة : ٦٦ .

« أكثر مصارع العقول تحت بروق المطامع »^(١) .

أما إذا كانت التقوى حاضرة فلإنها تقيد الهوى وتذللّه ، فيتحرّر العقل منطلقاً . ومن هنا يمكننا أن ندرك أثر التقوى في زيادة بصيرة العقل ووضوح رؤيته .

يصف رسول الله المؤمن فيعدّد من خصائصه أنّه :

« لا يخيف على من يبغض ولا يائّم فيمن يحب ، لا يجور ولا يتعدّى ، ولا يقبل الباطل من صديقه ، ولا يرد الحق على عدوّه »^(٢) .

والإنسان إذ جعل الله له العقل والضمير كلّ منهما كرأس مال كبير فيه ، جعله في كمال الحرية في الإفادة منها . ولا ينافي هذه الحرية التامة أن يقهر الإنسان بعض ميوله الطبيعية فتكون طبيعته مقهورة للجزء الآخر من وجوده أي العقل والضمير الأخلاقي .

وإذ لا تزاحم بين العقل والضمير وبين الأهواء النفسية الجامحة ، فللعقل والضمير نفوذهما وحكمهما ، وكانت الطاعة لهما أمراً يسيراً ، بل كانت القدرة لهما أكثر من القوى الخارجة عن كيان الإنسان ، إذ يتصوّر الإنسان أن أحكام العقل والوجدان إنما هي أحكام يصدرها هو ، ولهذا فليس له أن يثور على نفسه وأن يعرض عن طاعتها .

ولكن تحدث المشكلة الكبرى حينما يستلزم أتباعهما قمع إحدى الغرائز وكبح جماحها ، وكثيراً ما تتحطّم قوة مقاومة العقل والضمير أمام قدرة الغرائز الجامحة ، وتضطرّ إلى الانسحاب أمامها وتصبح هي الحاكمة المطلقة في الساحة . فالغرائز والأهواء تهدّد البشر على كل حال .

(١) غرر الحكم : ١٩٥ .

(٢) بحار الأنوار : ١٥ : ٨٢ .

إلا أن الذي يتعبّد بأوامر الله تعالى ، الذي يجد للإيمان جذوراً ثابتة في أعماق قلبه ، والذي له عناية خاصة بالجوانب الدينية ، فهو بالإستناد إلى هذا الإيمان سيسود على أهوائه المفسدة ويردّ الباطل منها ، وهو مستعد بكل قواه للمقاومة أمام الغرائز الجامحة الطاغية .

السفسطة واختلاق الذرائع والحجج

إنّ طاعة أوامر العقل والضمير ومقتضيات الإنصاف والعدالة ليست أمراً ساذجاً وبسيطاً ، ولذلك نرى كثيراً من الناس حيث يجب عليهم في مقام دركهم للواقع ، واكتشافهم للحقائق المتفق عليها ، أن يذعنوا لنداء الوجدان والضمير الحسّاس والعقل السليم ، ويغضّوا النظر عن بعض منافعهم ومصالحهم الشخصية ، في قبال المسؤوليات الأخلاقية والدينية والعلمية ، لا يرضون بتقبّل ما عليهم من أضرار في وظائفهم وتكاليفهم . وعدم رضاهم هذا يحملهم في مضائق الحياة - التي هي بدورها وليدة انعدام الشهامة الأخلاقية والإيمان الواقعي الحقيقي فيهم - يحملهم على أن يسحقوا ضائرتهم ، ثم لإنقاذ أنفسهم من الضغوط النفسية يسلكون سبيل العقول الناقصة والفكر العاثر .

وبديهي أنّ الشخص إذا عمل بهذه الطريقة غير اللائقة في عدة موارد ، فوجد الوهن والفتل في النشاط العقلي له ، اعتاد على السفسطة في قبال العقول السليمة والمنطق الصحيح ، ويصبح هذا الأمر له كعادة سلبية مستمرة ، ثم تظهر بعد ذلك كصفة ثابتة عليه .

وهناك فرقة أخرى يحاولون من أجل الفرار عن نقل المسؤوليات والابتعاد عن الإعراف بالأخطاء والعثرات ، يحاولون أن يلقوا المسؤولية على عاتق الآخرين ، وفي المواضيع المختلفة في المراحل الحسّاسة والظرفية في الحياة يحاولون اختلاق الذرائع والحجج لصالحهم ، ليحوّلوا الأحكام لما ينفعهم في جانب واحد .

وليست هذه الذرائع والحجج بل الأدلة والبراهين والأحكام الناشئة عنها لعدم التفات أو مسامحة في المواضيع الدقيقة للمسألة ، بل نحن نرى عملياً جميع المنحرفين وكل أهل الضلال الذين لا مجال لأي شك أو ترديد في فجائع أعمالهم ، نراهم يتوسلون بأنواع الأساليب السلبية للإستدلال الباطل ، من أجل تبرير أعمالهم اللاإنسانية التي ارتكبوها .

كتب (داييل كارنيجي) بهذا الشأن يقول :

« عندي رسائل ملفتة للنظر وجميلة أحياناً من مدير السجن المعروف (سينك سينك) يقول فيها :

قليل أولئك المجرمون في (سينك سينك) ممن يرى نفسه شريراً فاسداً ، بل هؤلاء يرون أنفسهم كالآخرين أناساً سالمين ، يتذرعون بالحجج والأعذار لأعمالهم ، ويبينون عللها وعواملها وأنهم كانوا مجبرين مضطرين مثلاً بأن يكسروا القاصة فيسرقوا ما فيها من نقود وأموال أو أن يرتكبوا القتل في سبيل ذلك .

إن أكثر المجرمين يحاولون أن يبرروا أعمالهم التي ارتكبوها ضد مصالح الآخرين والمجتمع ، يبررونها حتى لإقناع أنفسهم لا الآخرين فقط ، وفي النتيجة يقولون إن أخذهم وجسهم على خلاف الحق والعدل ! .

فلو كان أكثر الأشقياء الذين هم الآن في السجن خلف قضبان الحديد هكذا يرون أنفسهم أبرياء ، فما هي عقيدة سائر الناس الذين نواجههم كل يوم بشأن أنفسهم»^(١) .

نعم كل من يتلوّث بنقض القرارات الاجتماعية ويخالف قوانين الأخلاق العامة ، في بداية الأمر يُحسّ بالألم ووخز الضمير . . ولكن على أثر تكرار العمل ينتفي قبحه والآثار السلبية المترتبة عليه فإنه سيأنس بها بالتدريج ، وسيفتقد ما كان عنده من ردّ فعل نفسي حتى في المراحل الحساسة والجديرة بالتوقف عندها ،

(١) كيف نكسب الأصدقاء . بالفارسية : آئين دوست يابی : ١٧ .

ويُحسّ بالأمن من أن يتأثر نفسياً أو يتألم لذلك أبداً .

أمّا القرآن الكريم فقد وصف هؤلاء الأشقياء الذين يفتقدون عقولهم اليقظة وضمائرهم الحيّة والحساسة بما يرتكبونه من أخطاء في سبيل مصالحهم الشخصية ، والذين يغطّون في نوم عميق من الغفلة والانحطاط بحيث لا يستطيع أيّ شيء على أن يحملهم على التعقل والفكر الصحيح لتشخيص الحق عن الباطل . . يصف القرآن الكريم هؤلاء بأنهم أضلّ من الأنعام :

﴿ لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام بل هم أضلّ ، أولئك هم الغافلون ﴾^(١) .

(١) سورة الأعراف : الآية ١٧٩ .

تربية الشخصية . . وتكاملها

- * مقياس تقييم الإنسان .
- * أصالة العامل النفسي في التربية .
- * تكامل الشخصية في النظام التربوي الإسلامي .
- * أثر العقل والإيمان في بناء الإنسان .
- * أضرار الأفكار الشريرة .
- * علاقة الأهداف بنمو الشخصية .
- * علاقة النشاطات النفسانية والفسيولوجية .

مقياس تقييم الإنسان

إنّ الذي يميّز أفراد البشر بعضهم عن بعض ، وبه يمكن التوصل إلى معرفة الموقعية الحقيقية والقيمة الذاتية لكل أحد ، هو « الشخصية » . مع شبه الأشخاص بعضهم ببعض من حيث الصفات النوعية وردود الفعل المشتركة ، ومن جهة الجوانب العامة للحياة الاجتماعية ، مع ذلك فإنّ لكل فرد كفايات خاصّة من حيث الخصائص الطبيعية والتربوية ، ولكل منهم صفات إيجابية ، وفي كيان كل منهم فردية تميّزه عن سائر المشاركين إيّاه في الإنسانية .

إنّ البحث عن الشخصية ليس بحثاً عن بعض الخواصّ المجردة للأفراد ، بل إنّ ما يدخل في مفهوم الشخصية هو كل ما يشكل فرداً من الأفراد ، وتكمن في مفهوم الشخصية أيضاً هوية الأفراد أي تمايز الأفراد بعضهم عن البعض الآخر ، فإنّ مجموعة متنوعة من الصفات والدوافع الذاتية الباطنية تحدث تأليفاً يشكل شخصية متميّزة . والصفات التي تعدّ جزءاً من مقوّمات الشخصية إنّما هي الصفات التي تتمتع بنوع من الثبات والدوام .

مع أنّ الأصول التي تتحكّم في نمو الشخصية وتكاملها هي أصول واحدة في الجميع ، إلّا أنّها حينها تطبّق على فردين لا تثمر نتيجة واحدة ، فحينها نقارن شخصية أحدهما بالآخر نشاهد بينهما اختلافاً وتفاوتاً ظاهراً .

وبالإمكان أن نقيس الجوانب المحسوسة للشخصية بتجميع الأجوبة على أسئلة خاصة ، نقيم تلك الشخصية بها ، ولكن ليس بالإمكان أن نقيّم ونقدّر الجوانب العميقة الباطنية والدوافع والدواعي الخفية ببساطة .

ولبعض الصفات في بناء الشخصية أهمية أكثر من غيرها ؛ فالصفات التي تتصف في الأخلاق مثلاً بالخير أو الشر لها أهمية أكثر بالنظر إلى بناء الشخصية ، وفي الواقع إنَّ سجايا الإنسان ونزعتة هي شخصيته التي تدرس من خلال الأخلاق .

وإنَّ أثر الشخصية ونوعها ومقياسها ، وإنَّ اكتساب الأوصاف والخصائص المؤسَّسة في باطن الإنسان - بالقوة - أكثر أهمية وأعمق في سعادة الأفراد أو شقاؤهم وبؤسهم وتعاستهم .

إنَّ نموَّ شخصية أي فرد وتأصّل المزايا النفسية فيه ترتبط ارتباطاً مباشراً بمدى ومستوى ارتباطه وتقييمه للأمور والأشياء من حوله ، فمن الطبيعي أن يوفّق الفرد ويلائم بين شخصيّته والأشياء التي له عناية خاصة بها ، وينظّم أعماله وسلوكه بشكل منسجم ومتناسب مع أكبر قيمة عرفها في الحياة . وإنَّ تفاوت واختلاف القيم تعرّفنا بأسلوب الفكر واختلاف نفسية الناس ، ومن هنا بإمكاننا أن ندرك القيمة الحقيقية لكل إنسان ، وأن نقيّم شخصيته بهذا المقياس .

فمثلاً : من يبني - في تصوّره - أساس سعادته على أسس القيم المادية وكميّتها وكيفيّتها ، وله في سبيل الوصول إلى هذه الأهداف سعي متواصل ودؤوب ، بينما هو معرض عن القيم الواقعية للحياة التي هي أسس السعادة الواقعية له ، إن هذا يكون قد حطّم شخصيته الإنسانية . كثير أولئك الذين يسعون طول أعمارهم للحصول على القيم المادية ، في حين أنهم غير مستعدين أن يصرّفوا شطراً قصيراً من أعمارهم للحصول على السجايا الروحية السليمة ، التي هي للإنسان كنزه الثمين .

للعلماء النفسانيين نظريات مختلفة بشأن مدى ارتباط الشخصية بالأمور الاجتماعية ولا سيّما ما يتعلق منها بعلم النفس الاجتماعي : فبعضهم يرى الشخصية : نتيجة النظام الجسدي والوراثي للشخص ، بينما يتصور آخرون منهم : إنَّ ظواهر الشخصية إنّما هي مظاهر لأمور اجتماعية . وأنا أرى أنَّ

النظرية الواقعية في هكذا مسائل مختلف فيها إنما هي في أمر بين هاتين الفرضيتين :

فالبيت والأسرة ، والمدارس ، والمحيط الاجتماعي ، ثلاث عوامل قويّة في بناء الشخصية وصنع أخلاقه وصفاته الإنسانية .

وفي علم النفس الحديث يهتمّون اهتماماً بالغاً بما يسمّونه العامل المجهول في تكوين الشخصية ، فيرون أنّ هذا العامل المجهول عنصر أساسي في تكوين شخصية الفرد ، فإنّه بإمكانه أن يغيّر مجرى العوامل الأخرى فيصنع من الفرد شخصية أخرى غير مرتقبة .

ولا شك في أهميّة آثار العوامل الاجتماعية في تكوين الشخصية ، فكثير ممّا للإنسان من كيان شخصية إنّما هي انعكاسات يتقبّلها من خارج وجوده ، وقليل أولئك الذين يتمكنون من أن يقاوموا نفوذ آثار المحيط فيهم ويسبحون في مواجهة أمواجهها .

يقول (مان) في أصول علم النفس :

« إنّ لآثار المحيط في بناء شخصية أفراد البشر أهمية كبرى ؛ فلو كان أحدهم مولوداً بين قبيلة من قبائل الأسكيمو ، لكانت له شخصية متميزة كل التمايز عمّا له اليوم من شخصية ، ولم تكن نختلف عمّا نحن عليه اليوم في الملبس والسكن والمنطق والمطعم ، بل كانت تصوّراتنا عن أنفسنا وعن العالم حولنا وعن موقعنا في هذا العالم ، تصوّرات أخرى مختلفة تماماً .

وقد أكّد علماء النفس على أهميّة الأطر الثقافية والاجتماعية في تكوين الشخصية ؛ ليست علاقة الفرد بثقافة أخرى ومجتمع آخر كانت تصنع منه شخصية أخرى فحسب ، بل حتّى أن يكون الفرد من أهل أية ناحية من بلاده ، ومترعراً في أية أسرة ، وأن يكون أبواه معه أو منفصلين عنه وكيف يعيشان ، وأية مدرسة كانت تربيته ، وأي نوع من أترابه كانوا يعاشره ، وماذا رأى وماذا سمع . . لكل هذه الأمور أثر يعتدّ به في بناء شخصيّته . إنّ أثر العوامل

الاجتماعية في تكوين الطفل تبدأ منذ ميلاده ، ويستمر هذا الأثر ما دام حياً»^(١) .

هناك نشاطات غريزية كثيرة يمكن تربيتها وفق مقتضيات المحيط وأوضاعه ، ومن أجل تصعيد النشاط المولّد فيها علينا قبل كل شيء أن نحاول إصلاح تلك الأوضاع ، التي تحرك هذه النشاطات الذاتية أو توهنها وتضعفها . ومن أجل أن نجد طريق النفوذ التربوي في العادات علينا أن نحلل جيداً آثار أيّ عمل بشري فنفهم : كيف يمكننا أن نزيد في رغبة أو نحدّ من حدّتها وقوّتها واتّساعها ؟ .

إنّ دور الطفولة الأولى هو أهمّ أزمّة تقوّل الإنسان من حيث النموّ العاطفي ، ومن أجل تشكيل المجتمع الأفضل المطلوب ، فالتربية الأولى للطفل من خلال أبيه وأمه أو سائر الأفراد القريبين إليه ، يقول له قلبه ، ولما قال وأفعال المربّين الأثر القطعي في تعيين خط سيره وأسلوب حياته ، وهي التي تفتح فيه طاقاته الأولى وتنمي شخصيته . وأيضاً فإنّ أخطاءهم في أساليب التربية تحطّم شخصية الأطفال وتميت ما فيهم من استعداد .

كما أنّ الفسيل الذي يخرج رأسه لتوّه من التربة يستطيع الإنسان أن يميل به بكل بساطة إلى أي ناحية أرادها ، وأن يجعل نمّوه ورشده على أيّة حالة هو يريدّها .

وكما يكون جمال الشجرة منوطاً على ما يوليها صاحبها من العناية بها في صغرها . . كذلك بإمكاننا أن نعيّن اتجاه شخصية كل إنسان منذ أدوار حياته الأولى ، وأن نجعلها شخصية إيجابية من خلال تكييف الأوضاع والمقتضيات . حتى إنّنا إذا عرفنا وضع أسرة ما وموقعية طفل في أسرته ، كان بإمكاننا أن نرسم صورة متكاملة نسبياً عن شخصية الطفل وكيفية ردود الفعل لديه في مواجهة

(١) بالفارسية : أصول روانشناسی : ١٥٦ ، ١٥٧ .

حوادث الحياة غير المؤاتية له ، ولنا أن نبحت عن العلة في عدم تقدم فرد أو مجتمع في الحياة ، نبحت عما في شخصيته من نقص وعوز .

إنّ الذين يحيطون بما يعتلج في نفوسهم من انفعالات نفسية في نشاطاتهم وأعمالهم ، سيزدادون إحساساً باستقلاليتهم واعتماداً على أنفسهم وثقة أكثر بشخصيتهم ، وفي النتيجة يصبحون أكثر إنتاجاً من أولئك الذين يقصرون في توقّعاتهم على خارج كيانهم ، فإنّ قصر النظر على الخارج من كيان النفس يقصر بالإنسان عن أن يدرس نفسه جيّداً .

إنّ لحالة التفكير والملاحظة الدقيقة دوراً مؤثراً في توسعة الذهن وانفتاح العقل ، ويرفع من قيمة الشخصية ، وبإمكانها أن تزيّن الشخصية في المجتمع بالفضل والكمال .

وحينما يتابع السطحيّون محاولاتهم لإرضاء شهواتهم النفسية الباطلة ، ويتوسّلون بأمور مختلفة لقضاء حاجاتهم ، نرى أصحاب الهمم العالية تزيد رغبتهم في الإفادة من اللذات المعنوية ، وذلك لاستنادهم إلى عقول راجحة فيهم . ولهذا نقول : إنّ الذين يتمتّعون بقوة التفكير وعقل فعّال ، وهم يزاولون أفكارهم العالية في كل فرصة مؤاتية ، هم أقرب إلى السعادة لا محالة .

يقول (شوبن هاور) :

« إنّ من أهم العوامل في سعادة الإنسان : طبيعة هادئة ، ورؤية متفائلة ، وقوة واقتدار .

بإمكان العاقل وهو في حالة عزلة تامة ، أن يوفر لنفسه أحلى ساعات حياته بمساعدة أفكاره وتصوراتهِ ، بينما الجاهل مهما غيّر في برامج سفراته السياحية وتحملّ لذلك أفدح التكاليف ، فإنّه لا يستطيع الانفلات من الكسل الذي يؤذي روحه وجسمه . والرجل المتفائل الحليم بإمكانه أن يقضي حياته حين فقره بقناعة وأناة ، بينما الحريص حتى لو حصل على ثروة الدنيا والآخرة فإنّه لا يزال في ملل وعدم قناعة .

إنَّ صاحب العقل السليم والفكر القوي يحرز ويحذر من هذه اللذات المادية الفانية ، التي ينتحر بعض الناس للوصول إليها . كما قال (سقراط) وهو يشاهد معرضاً للمجوهرات الكمالية الجميلة : كم يوجد في هذا العالم من أشياء لا حاجة للإنسان إليها .

ولهذا نقول : إنَّ أهم عامل يؤثر في سعادة الإنسان هي شخصيته الذاتية^(١) .

لا ينبغي أن نرى الشخصية ذات بعد واحد فنجعل بعده ذلك ملاكاً ومقياساً وشاخصاً للتقييم ؛ فإنَّ هذا التصوّر الخاطيء يسبب اضطراباً في التقييم وبعداً عن الواقع فيه .

كثير من الذين يصابون بنقيصة في شخصيتهم يغفلون عن القدرة العجيبة فيها على جبران ما نقص منها في سائر أبعادها وجوانبها ، بل لا يفرقون بين أن تنقص إحدى جوانب شخصيتهم أو فقدانها نهائياً ، وبذلك يصابون بألم نفسي شديد ، وقد تؤدّي هذه الحالة بهم إلى مفاسد ومخاطر لا تُجبر .

هناك أناس يتمتعون بذهن وقاد ولكنهم في نفس الوقت يعانون من نقص في القيام ببعض الأفعال ، وهذا يوجب اختلالاً في نشاطهم وتقدّمهم . وقد يحملون بعض عوزهم النفسي على سوء الحظّ ، ومن هذا الطريق يحاولون أن يلقوا مسؤولية عوزهم على سائر العوامل ، ولهذا فهم لا يزالون يحملون ثقل هذا الأعواز والضعف في طول عمرهم ، بينما كان بإمكانهم أن يجبروا ما فيهم من عوز نفسي بصرف قليل من قواهم وإرادتهم الجادة .

أنتم مهما سترتم ما فيكم من نقص ، وكلما سمحتم للأفكار الضارة أن تشغل ذاكرتكم ، كنتم قد ساعدتم هذه النقائص على البقاء . إنَّ للموفقية في أعمال الإنسان علاقة عضوية بقراراته هو ، فإنَّ إمكانية تربية النفس إمكانية غير

(١) بالفارسية : أفكار شوبن هاور ٥٢ .

محدودة ونتائجها نتائج إيجابية عالية . والمهم في الفكر أن الفرد أي نوع من الإنسان يريد أن يكون ؟ وهذه الحقيقة تتجلى في الذهن حين اتخاذ القرارات الحيوية بشأن اختيار خط سير خاص في الحياة بين خطوط كثيرة تبدو له .

وإن بين الغرائز تجاذباً ونزاعاً شديداً ، فغريزة تسوقنا إلى هدف من طريق ، وغريزة أخرى تجرنا إلى طريق يخالف تلك الطريقة السابقة ، والمهم على الفكر أن يجد جامعاً مشتركاً بين الطرق المختلفة . وكذلك علينا أن نعين ما يترتب على بعض هذه الميول من نجاح وموفقية .

وهكذا علينا أن نلتفت إلى أنه لا يوجد هناك شخصية متكاملة وراء أفعال الشخص وسلوكه ونشاطاته ، بل إنما تتركب الشخصية من أساليب السلوك والعادات المعقدة وغير الثابتة ، التي قد انسجم بالتدريج بعضها مع بعض . وكلما ابتلينا بمجاذبة في الذهن حاول الفكر أن يقرر بين عوامل الاختلاف نوعاً من التعادل والتوازن وبذلك ينقذ نفسه من شر تلك المجاذبة والنزاع . وللوصول إلى هذا الهدف قد يصلح بين الميول المختلفة ، ولا أقل من أن يوجد في الإنسان نوعاً من الطمأنينة والرضا المؤقت .

كما أنه عند ظهور أقل خلل في الجسم تقوم ردود الفعل الطبيعية بوظيفة إيجاد المعادلة فيه بصورة تلقائية ، كذلك يقوم الفكر بما أوتي من حول وقوة ووسيلة لحل المسائل المعقدة ودرء الأخطار عن نفسه . فبعض هذه الأساليب التي يقوم بها لإيجاد التعادل والطمأنينة في الذهن القلق والمضطرب تكون أساليب معقولة ومرضية ، وبعضها الآخر ضاراً وغير معقول .

أما علماء النفس فإنهم يقومون بتحليل خاص بهذا الصدد فيقولون :

« من الطرق لدرء الخطر هو أن نواجه المنازعات الذهنية وعواقبها بمتهى الشهامة والصراحة ، فنقلل من شدة هذه المجاذبة وما تستدعيه بعض العقد النفسية ، ونقرر بينها صلحاً بحيث يكون بإمكانها أن تدخل في قبول الضمير بلا مزاحمة .

ولكننا غالباً لا نستطيع أن نجد طريق حلّ مثاليّ لرفع هذه المنازعات الذهنية ، فتتوسّل بوسائل اضطرابية كالتراجع ، والإنطوائية وضدّها ، وخداع النفس .

وقد لا يعلم الشخص بما في ذهنه من نزاع وتجاذب أو لا يلتفت إليهما ، وفي هذه الصورة يحدث للشخص نوع خاص من الأخلاق والسلوك لا يتناسب وشخصيّته الحقيقية ، وهو لا يعلم بدوام هذه الدوامة في نفسه ، وفي النتيجة يقوم الضمير بالسير في إتجاهين منفصلين لا انسجام بينهما ، فيصبح الشخص مزدوج الشخصية - أو قل منافقاً - في نظر الآخرين ! فالأفكار والأطروحات والتصاميم والميول تكون عنده مختلفة ومضطربة غير ثابتة دائماً .

هؤلاء الذين لهم شخصيتان مختلفتان : فهم في الظاهر شيء وفي الباطن يقومون بأعمال قد لا يصدّقها الإنسان ، هؤلاء ، من هذه الطبقة .

فالسياسي الذي يدافع دائماً عن العمّال والكادحين صارخاً : « علينا أن نقوم بإغاثة هؤلاء الكادحين » فإذا بلغ غايته أقدم على ما يعقّد حياة هؤلاء العمّال ألف ضعف ، هؤلاء من هذه الطبقة التي لها تفكيران بل لها شخصيتان متضادتان كلياً^(١) .

أصالة العامل النفسي في التربية

إنّ جميع المدارس الفلسفية والفكرية في العالم يرون أنّ التربية أهمّ وأسمى موضوع في قوام المجتمع الإنساني ، وليس لأحد أن يغضّ النظر عن دور التربية الأساسي في الحياة الأفضل لأفراد البشر . والمهم هو تحديد المعنى الواقعي والحقيقي للتربية ، وضوابط التربية وأصولها التي تعدّ موازين لتقييم الشخصية المعنوية للأفراد ، والتي بتنفيذها يهتدي الإنسان إلى الحياة الحرة والسعيدة .

(١) بالفارسية : روانشناسي براي همه : ٢٠٩ .

وحيث أنّ عنصري الروح والبدن يشتركان في وجود كيان الإنسان ،
فنحن بصدد أنّ التربية بحاجة إلى عامل تربويّ تنمويّ يُوفّق بين ميول الجسم
والروح معاً .

وبالقياس بين نظامي التربية : أعني النظام الدينيّ والنظام الوضعي
البشريّ ، نستطيع أن ندرك جيداً أصالة وألوية النظام الدينيّ ، فإنّ الدافع
الدينيّ دافع فطريّ يتكون في طينة الإنسان من قبل أن يصبح أسيراً في قيود
الضلال والظلام .

إنّ العوامل الخارجية إن لم تحدث سدوداً وموانع في طريق الميول
الفطرية ، كانت أشعتها تسطع على ضمير الإنسان وقلبه في أول وهلة ، وكان
بذلك يوفّق بين نفسه وإرادته الذاتية الباطنية . وكلما ازداد إحساس الإنسان
بهذه القوة الباطنية إنقاد إلى إطاعة أوامرها أفضل وأحسن .

ومن ناحية أخرى ، فإنّ الفلاسفة لا يستطيعون أن يصلوا إلى وحدة نظر
في تهذيب نفوس البشر على أساس أسلوب فلسفيّ موحد ، بما لهم من اختلاف
في إدراكاتهم عن الكون والحياة والإنسان ، وعلى افتراض ظهور اتفاق لهم في
وجهات نظرهم في الموضوع ، فإنّه ليس بالإمكان أن نجعل ذلك سبيلاً للوصول
إلى تهذيب نفوس جميع البشر بعائتهم غير القادرين على إدراك المواضيع والمفاهيم
الفلسفية المعقّدة والمبهمة ، بينما القوة الأخلاقية الرادعة يجب أن تكون نابعة من
عمق باطن الإنسان ، ليقوم بالإجابة المناسبة لكل ميوله الفطرية . أمّا الأوامر
الأخلاقية الفلسفية التي هي وضعيّة بشرية ، فإنّها غير قادرة على أن تجد طريقاً
إلى الحقيقة المنطوية في ذات الإنسان ، فهي لا تكفي لإصلاحه وإسعاده . وهم
حتى لو تحمّلوا تلك القرارات فإنّما يتحمّلونها كعبءٍ ثَقِيلٍ على كواهلهم في
الظاهر وبكل كراهية في الباطن .

بناءً على ذلك ، فمن أجل أن يصل الإنسان إلى ما يرجوه من نتائج من
مساعيه التربويّة ، علينا أن نعرّف بتفوّق النظام التربويّ الدينيّ والدافع الدينيّ

الذي ينبعث من عمق باطن الإنسان ووجدانه ، والذي هو حقيقة خالدة متمركزة في طبيئته وخيرته ، فهو متفوق بذاته على كل الأساليب الأخرى في مجال تربية النفس . وهكذا علينا أن نختاره على جميع ما عداه .

لهذه الحقيقة كان أن اعترف البشر - قبل أن يصبح أسيراً في مخالب المادية اعترف بهيمنة سلطته عليه ، واعتقد بتكاليفه الأصيلة في الحياة والتزم بها بشدة ، وأدركت الأرواح الطاهرة لذّة إطاغته وأتباع أوامره ، بل وصارت قلوبهم متيمة بحبه هائمة فيه .

والخلاصة : إنّ هذه الطريقة هي طريقة الوحي والرسالة ، التي تسير بفطرة الإنسان في مساره الواقعي ، والتي يمكنها الإجابة على جميع جهاته الذاتية ، والتي لا هدف لها سوى تنظيم طبيعته وإرشاده إلى جهة سعادته الخالدة والأبدية . وإذا أصبح هذا العامل الدينيّ أساساً للتربية كان بإمكان كل إنسان أن يتقدم في طريق الكمال مصوناً في ظلّه عن أيّ انحراف أو انجراف .

إنّ نظرةً إلى هذه الحياة التقنية ، والتي هي ظاهرة هذا العصر الحاضر الثائت ، توضّح لنا هذه الحقيقة ، وهي : إنّ الإنسان مع ما توصّل إليه من تقدم ملفت للنظر في مجال العلوم العقلية والصناعية ، وما توفّق إليه في طريق اكتشاف أسرار الطبيعة وحلّ معضلات الحياة المادية ، مع ذلك فإنّه قد سلك سبيل الانحطاط في معرفة نفسه ، فلم ينقذ مهد تربيته ونموّه - أي هذا العالم - من الدمار والشقاء ، بل أصبحت نفس هذه المعارف والعلوم المختلفة وسائل دمار لتخريب الأوضاع والإخلال بالنظام ، وقد أسرت روح البشر في ساحة حضارة خادعة في حصار جاهلية عميقة .

إنّ العالم الغربيّ جعل الإنسان - في تصنيعه - وسيلة ، وجعل الوسائل أهدافاً ، وبنى المجتمعات على أساس النزاع الفرديّ أو الطبقيّ ، ولا ريب في أنّ كلا هذين النوعين من النظام الاجتماعي لا يليقان بالإنسان ، ولا يكون الإنسان إنساناً حتى يحلّ ما بينه وبين الحضارة من تناقض .

كتب (أريش قروم) يقول :

« إن هذه العلاقات القائمة اليوم ليست علاقات إنسانية ، بل هي علاقات بين أجزاء من الوجود . وتظهر أكثر صور هذا الوضع تحريياً في علاقة الشخص بنفسه ، فالإنسان اليوم لا يبيع البضائع فقط بل يبيع حتى نفسه ، فهو يُحسّ بنفسه وكأنه بضاعة ! .

إن الذي يأكل من كدّ يمينه يبيع من قواه الجسدية ، أما التجار والأطباء والموظفون أصحاب الياقات البيضاء فإنهم يبيعون من « شخصيتهم » إنهم لبيع خدماتهم ومحاصيلهم لا بدّ لهم من شخصية مرغوب فيها تتمتع بالقوة والابتكار . والذي يقدر قيمة هذه الصفات ويعين الحاجة إليها إنما هو السوق ، فإن لم ينتفع من الصفات التي يعرضها الإنسان فكأنه يتصف بصفة أساساً ؛ تماماً كما أن البضاعة إذا كانت غير مرغوب فيها للبيع قيل فيها : إنها لا قيمة لها حتى ولو كان ينتفع بها ، وبكلمة نقول : إنه لا يمكن تقييم أي فرد ما من دون أن نحسب له الموقفية والمحبوبة في السوق »^(١) .

تكامل الشخصية في النظام الإسلامي

لكل موجود شخصية تخصّه ، ولا يمكن تصوّر أي شيء بدون أن نقدر له شخصيته ، وإنما تتعلق الأحكام بالموجود المتشخص بشخصيته . أضف إلى ذلك إن كمال كل شيء ظاهراً وباطناً إنما يتحقّق فيما إذا كان يتمتع بشخصية حسية ومعنوية .

أما الشخصية الحسية لأفراد الإنسان فأمر معلوم ، وأما الشخصية المعنوية لهم فهي تابعة للآثار الإنسانية وكمالاتها الروحية ، لكيلا ينحصر وجودهم في حصار شخصيتهم المحسوسة ، وكما ينطبق هذا الواقع على الأفراد كذلك

(١) بالفارسية : گرمراز آزادی : ١٢٩ .

يصدق هذا بشأن الأمم والأقوام المختلفة ، بما لهم من خصائص ، في كل مناطق الأرض .

وترتبط الشخصية المعنوية لمختلف المجتمعات بمستوى إدراكهم للحقائق وأساليب سلوكهم في الحياة ، وما يتخذونه من طرق العيش فيها .

ولنمو الشخصية علينا أن نلاحظ جميع الجوانب ومختلف المزايا الإنسانية ، وأن نلتفت إلى جميع أبعاد الشخصية بعين واحدة ، كي يتحقق فيها التوازن النسبي كأمر ضروري لنمو الشخصية وتعادلها ، ولتصبح الشخصية متوازنة منسجمة .

أمّا الإسلام فقد اهتم بمجموعة الخصائص البشرية التي أودعت فيه بالفطرة ، وينظر الإسلام إليه وهو يلاحظ جميع قواه المحركة له ، ومع ما له من المعرفة التامة بطاقاته واستعداداته التي مُنحت له . وقد أداها حقوقها بما قرّر لها من إرشاد وهداية وتعديل ، لا يجمع فيه استعداداً مما قد يؤدي إلى تقليل في قيمته الواقعية ، ولا يولي أحدها اعتباراً أكثر مما هي عليه بلا داع ، بل يلاحظ حدود كل واحدة منها لصالح حال الإنسان في إفادته منها ، كي تنمو فيها شخصيته على أحسن وجه ممكن .

وإنّ روح الإنسان ونفسه ، ككل شيء آخر في الحياة ، في حال نموّ وتوسّع بدورها وتحت أوامر فطرته الطبيعية ، وكلما يخطو بالإنسان خطوة ينمو أكثر فأكثر .

فالإنسان في أوان الطفولة يكون متوسّعاً في الخيال ، وتكون هرموناته قاصرة ، ولذلك فهو أقرب إلى عالم الحسّ من عالم المعنى ، ولكنه تدريجياً يتّجه من السّذاجة إلى التعقيد ، فيرفع يده عن الأمور الساذجة ويبدأ بأعمال كبيرة وواسعة نسبياً ، ويخلط الخيال بالواقع ويقترب من التعقّل والتفكير ، وهو في نتيجة هذه الحركة يزداد نضجاً وبناءً أناً فأناً .

هذا النموّ المطرد إن لم يقع في مدار الهداية الملوكوتية الإلهية فلا يتغذى منها جيّداً ، فإنّه سيّتجه إلى السقم والضعف وحينئذ يكون بحاجة إلى العلاج ، فكما

أنّ في فطرة البشر استعداداً للصعود كذلك فيها استعداد للسقوط أيضاً ، وكلاهما فطريّان وأصيلان فيه ، أي لم يُحمل عليه أيّ منها من خارج نفسه ، والفطرة لا تتغيّر فيه في أيّ اتجاهها المتقابلين ، وبرغم ما يطرأ عليها من تغيير في الصور والأشكال .

إنّ الهداية الإسلامية أسمى وأقوم هداية له إلى كماله ونمو شخصيته وسموّ فطرته ، وخير تعبئة لعناصر الوجود الإنساني ، على ما خلّقه الطبيعة من أسلوب ونظام .

إنّ النموّ الواقعي للشخصية في نظر الإسلام إنّما هو في هدايته إلى الحق والحقيقة وإتصاله بجلال الحق سبحانه وجماله . وإنّ الذي يتغذى جيّداً من أصول الإسلام سيطرد كل ثناء باطل عليه يؤدّي إلى ضلاله . وكذلك يرفض عبودية الإنسان للإنسان ، أو عبوديته لشهوته الدنيئة وأهوائه أو سائر قوى العالم .

في إطار هذا الهدف يجب أن تنمو شخصية الإنسان ويرقى شعوره وإدراكه ، فإنّ الذي علّمه طريق هذا الرقيّ هو الذي خلقه ، ذلك الخالق العالم بطيبته وحاجاته في الحياة .

على كل فرد أن يعرف فلسفة وجوده ، وموقع الإنسان في هذا الوجود ، كي يصل بهذه المعرفة إلى دور الإنسان وحدود مسؤوليّاته وعلاقاته بعالم الوجود .

طبيعي يجب أن تعقب هذه المعرفة الحركة ، أي يجب أن تتبدل المعرفة فيه إلى قوة محرّكة ومتقدّمة ، كي ينبعث باطن الإنسان لتحقيق هدف الوجود الإنساني فيه ، كما هو مقدّر ومقرّر في أطروحة السماء ، فيصل بذلك إلى حياة عالية خالدة تساوي مستواه الأصلي الرفيع وهي تلك الطينة الإلهية في الإنسان .

لقد جاء الإسلام ليصنع أمة لوحدها ، تحمل راية الدين والنظام الإلهي في الأرض ، وتقود البشرية وتنقذها عن الطرائق والمدارس الضالة التي تؤدّي به

إلى الهلاك ، وذلك بما يحمل من رؤية كونية صحيحة هي أكبر وسيلة لتقدم الإنسانية .

رؤية كونية منسجمة ومتلائمة مع جميع أركان الشخصية أي العلم والمعرفة والفكر والإحساس ، وسائر عناصر الإدراك والوجود الإنساني ، ليجد في حياة البشرية نماذج قيمة لا مثيل لها ، سواء من حيث الفكر والروح أو الحركة والعمل .

والإسلام يذكر الإنسان بأنّ إشباع النفس بشهواتها يجعل الروح في غطاء من الغيوم السوداء ، وستختفي بذلك نورانيّتها - وهي ما يقودها فيها إلى الكمال الإنساني - في خضم هذه الغيوم المظلمة .

فمن أجل أن يبني الإنسان أساس شؤونه الواقعيّة يجب أن تزاح هذه الغيوم ، لكي يتمكن من أن يشخص تلك القيم الواقعية والحقيقية المفيدة بصورة صحيحة ، وأن ينظر إلى الحياة نظرة إيجابية ، ويحقق الغايات من دوافع التكامل في كيانه في خطّ تربويّ صحيح .

وبكلمة ، فإنّ الإسلام يصنع إنساناً ذا بُعدين : بُعد - أو جانب - فيزيقي يفيد به مما يجده في ساحة الأرض والطبيعة . وبُعد - أو جانب - آخر أبديّ هو البعد المعنوي ، وهو الذي يمتدّ به في الحياة الخالدة التي لا موت فيها . ويذكّر الإسلام أنّ في جثمانه هذا الترابيّ المادّي نوراً أو نفخة إلهيّة أو ناراً مقدسة تتأجج وتستطيع أن تبلغ به إلى مقام الخلافة الإلهية العالية .

أثر العقل والإيمان في بناء الإنسان

إنّ الإسلام يرى للقوة العقلية أصالة في بناء كيان الإنسان ، ويؤكد على اتّباعها في السلوك العملي والتفكير الحرّ في هذه الطرق الضيقة في الحياة ، كي يكتسب الإنسان نوراً من قوة إدراكه ، فيحقق به الإنسانية في وجوده ومجتمعه . وفي نفس الوقت لا يعتمد الإسلام على هذا العنصر الأصيل اعتماداً كلياً

مبالغاً فيه ، ولا يراه كافياً لإطفاء نار الغرائز .

ويجب أن يكون دور العقل في تحولات الحياة بعيداً عن الجمود ، قادراً على أن يصعد بالإنسان من مستوى الحياة الحيوانية إلى ما فوق سلطة الأهواء وحكومة الغرائز .

ولا يتلخص التمايز بين الإنسان وسائر المخلوقات في إدراكه العقلي والحسيّ فحسب . بل هو يتفوق على سائر الحيوانات بإيمانه وإدراكه الخاصّ به . ولهذا فهو مسؤول في نظام الخلقة ، وعليه أن يُجري إيمانه وإدراكه الخاصّ في اضطرابات الحياة وفي كل سلوكه وأعماله الفردية والاجتماعية ، على مستوى شؤونه الإنسانية .

إنّ الإنسان لسعادته وفلاحه بحاجة إلى عامل معنوي به يستطيع أن يحصل على رؤية واضحة ، وذلك العامل الذي يمنحه الوضوح في الرؤية هو بصيرته بالنسبة إلى قدس الله سبحانه ، التي هي الوسيلة الوحيدة لإزاحة ستائر الغفلة والانحرافات عن أعين النفس ، والتي تدفع بالإنسان إلى مستوى الإنبعاث المعنوي .

للإيمان بالله قيمة ذاتية في حياة الإنسان ، وله آثار إيجابية وافرة ، وهو منبع الحرية الفردية والرقّيّ الإنساني ، وله دور حسّاس في تطور الشخصية الإنسانية .

وحيثما تبدو آثار الإيمان بالله في جميع شؤون الحياة ، فإنّها تحدّ من ضغط الغرائز الحيوانية بصورة قطعية ، وتنقذ الإنسان من المخالب المهولة للنفس الأمّارة ؛ فإنّ نتائج الإيمان بالربّ تقود إلى الثبات والصبر والمقاومة في مواجهة اللذائذ المادية الفانية ، وتقود إلى انبساط النفس . في حين أنّ الإعراض عن الله والمعنوية ، والاتّجاه إلى اللذات ، يستتبع الجمود العاطفيّ وهبوط الشخصية المعنوية ، ويهبط بالبشر عن المرتبة السامية للفضيلة والإنسانية ، إلى المرحلة الدانية من الغفلة والوحشية .

أما الأنظمة التربوية التي هي من صنع أفكار الإنسان وصياغته ، فليس لها تلك القدرة الكافية على أن تحدّ من غلواء النفس والحرص البشريّ العاتي ، إذ إنّ النظام التربوي والعلمي الحديث إنّما يستلهم من قوتي العقل والعلم ، من دون الإيمان بالله تعالى .

ويقول الفيزيائي الألمانيّ المعروف (ماكس بلانك) :

« إنّ الإنسان من أجل حياته اليومية بحاجة إلى أصول ضرورية ، هي أكثر ضرورة له من عطشه إلى المعرفة العلمية ، ولا بدّ أن تقع تلك الأصول تحت تصرّف الإنسان ، ناشئة من منشأ هداية أخرى سوى الجهاز العقلي فيه .
يجب أن يترك العقل مجالاً لقانون الأخلاق ، وكذلك المعرفة العلمية تترك مجالاً للعقيدة الدينية »^(١) .

وعلى هذا فما لم تسطع أنوار الهداية في آفاق الأرض ، ولم تحمى القلوب بنموّ الدوافع الدينية ، فإنّ الأصول والأسس الوضعية البشرية لا تستطيع أن تحدث في المجتمع الإنساني حالة قوية ليتصف بالخصال السامية ، وليتحمل ثقل الحضارة والمسؤوليات الكبيرة .

ونلاحظ أنّ الإسلام لم يأمر أتباعه بالابتعاد عن اللذائذ المشروعة التي خلقها الله لعباده ، أبداً .

أجل ، إنّ القرآن الكريم يقول من ناحية : إنّ الإنغماس في أمواج الأهواء العاتية والغطّ في نوم الغفلة عن واقعيّات الحياة ، والتفكير المحدود بالمادة فقط ليس مما يناسب ساحة الإنسانية السامية : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ، ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَاللَّهُ عِنْدَهُ حَسَنُ الْمَثَابِ ﴾^(٢) .

(١) بالفارسية : علم به كجا ميرود : ٢٣٤ .

(٢) سورة آل عمران : الآية ١٣ .

ولكنّه من ناحية أخرى لا ينفي أثر المادّة في حياة الإنسان ولا يراها غير مقبولة أي لا يراها مرفوضة بالكلية ، بل يرفض الإنطوائية السلبية والحرمان من اللذائذ المشروعة : ﴿ قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ؟! قل : هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة ، كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون ﴾ (١) .

والاستسلام أمام اللذائذ المادية الفانية يعني تذليل العقول وجعل المادّة أصلاً في الحياة . إنّ زينة متاع الدنيا إنّما تخيم على قلوب أهل الخواء والضلال من غير ذوي الإرادة الجديّة ، فتحول دون إشعاع الأنوار الإلهية فيها ، وبذلك تبقى محرومة عن الأفكار البناءة من حيث لا تشعر .

وبناءً على هذا ، فإنّ الإسلام يمنح الإنسان الشخصية السليمة ، وقوة الفكر ، والثبات على القيم السامية ، لكي يؤدّي الإنسان دوره الأساس في بناء نفسه ومجتمعه بصورة صحيحة ، ولكي يتحرّر من أسار الأهواء من دون أن يحرم من اللذائذ المادية .

إنّ الإنسان الذي يعرفه الإسلام نموذجاً كاملاً للتربية التامة ، إنّما هو عنصر متفكر إيجابيّ فعال ومهذب ، إنّهُ إنسان يُرى فيه الاعتدال والإنسجام في إدراكه وأفكاره وسلوكه ، وفي كل جوانب حياته . وإنّ روحه الحرة والمربّاة جيّداً تقيم فيه توازناً لا يتمكن به الإنسان من أن يمتنع عن الإنغماس في عالم المادّة والتمتّعات الأرضية في سبيل أهدافه المقدسة فحسب ، بل يقدر به على أن ينتشل نفسه من ثقل التربة فيصعد بها إلى أوج الرقيّ والكمال .

وإنّ أولى مراحل الرقيّ إلى الكمالات والفضائل الإنسانية في تعاليم الإسلام هي تزكية النفس ، وقد ذكرت في القرآن الكريم كمقدمة لتعليم الإنسان وحصوله على المعارف العلمية :

(١) سورة الأعراف : الآية ٣١ .

﴿ هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين ﴾^(١) .

وإنّ هذا الأصل الأساس « تزكية النفس » هو مقياس تُقاس به حقيقة الإنسان ، ولا قيمة في الإسلام لمقياس العلم والقدرة المادية لقياس حقيقة الإنسانية ، إذ هو مقياس لجانب واحد أو جانبيين من حقيقة الإنسان ، فهو غير جامع لجوانبه وأبعاده ، وكلما تطرّق الخطأ إلى المقاييس كانت النتائج خاطئة وغير صحيحة بنفس النسبة .

نعم ، إنّ العلم من مميّزات الإنسان ، وهو من نتائجه ومحاصيله الأصيلة ، وأسس الحياة تبتنى على أساس العلوم أيضاً . ولكنّ الإنسان لو كان غنياً في جانب إنسانيته الأصيلة التي تصعد به من عالم المادة إلى العالم الأعلى ؛ كان قادراً على ترميم ما له من عوز من العلوم والمعارف بكل سهولة ويسر . في حين أنّه لا يقدر على ترميم ما فيه من عوز في إنسانيته بواسطة العلم فقط .

نعم ، لو تساوى الإنسان بمقياس الإنسانية وعن طريق تهذيب النفس ، وأفاد إلى جانب ذلك من العلم ، فقد استطاع أن يرقى ويتكامل من جميع الجهات .

يقول أمير المؤمنين (عليه السلام) في قيمة تهذيب النفس وكسب الفضائل الأخلاقية :

« لو كنّا لا نرجو جنة ولا نخشى ناراً ولا ثواباً ولا عقاباً ، لكان

(١) سورة الجمعة : الآية ٢ من الشائع أنهم يستنبطون من تقدم التزكية في لفظ الآية على تعليم الكتاب والحكمة : أن التزكية مقدمة للتعليم ، وقد تكررت الآية هكذا في ١٦٤ من آل عمران ، ولكنها في ١٢٩ من سورة البقرة جاءت : ﴿ ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم ﴾ وفي سورة الجمعة وآل عمران تقدم تلاوة الكتاب على التزكية ، ففي الاستنباط ما ترى بل الأولى أن نفهم التزكية غاية لتلاوة الكتاب ، وتلاوة الكتاب مقدمة للتزكية والتعليم - المترجم .

ينبغي لنا أن نطالب بمكارم الأخلاق ، فإنها مما تدلّ على سبيل
النجاح»^(١) .

وعنه (عليه السلام) أيضاً يقول :

« غالب الشهوة قبل قوّة ضراوتها ، فإنها إن قويت ملكتك
واستقادتك ولم تقدر على مقاومتها »^(٢) .

وعنه (عليه السلام) أيضاً قال :

« عبد الشهوة أذلّ من عبد الرّق »^(٣) .

وعنه (عليه السلام) أيضاً قال :

« من غلب شهوته صان قدره »^(٤) .

ويقول (ويل دورانت) :

« إنّ دوافعنا ودواعينا كالرياح التي تنفع لدفع السفن ، ولكن علينا أن لا
نترك شراع السفينة لحالها ، وإلاّ جرّتنا معها كالأسرى والأرقاء ، إنّ كل واحد
منّا قد رأى في عمره أناساً أسارى في قيود الحرص أو الشهوة أو الغضب . إنّ
الحرية التامة لكل واحدة من هذه الصفات هي أساس الفساد في أخلاق
الإنسان . أظنكم سمعتم قصة أبناء كورث - الملك الفارسي الهخامنئي - الذين
كانت المرضعة والمربيّة لكل واحد منهم قد تركتهم بكل حرية ليفعلوا ما
يشاؤون ، وكان بالتالي أن خرج كلهم فاسدين عاجزين .

إذن ؛ فتحكيم المعرفة على الميول والرغبات هو جوهر العقل وأساس
ضبط النفس ، والتحكّم في النفس هو أهمّ شيء لبناء الأخلاق »^(٥) .

(١) آداب النفس ١ : ٢٦ .

(٢، ٣) غرر الحكم : ٤٩٨ - ٥١٠ .

(٤) مستدرک الوسائل ٢ : ٢٨٧ .

(٥) بالفارسية : لذات فلسفة : ٢٢٨ .

إنَّ محور الأعمال ومركز المسؤولية في النظام التربوي الإسلامي هو الإرادة ؛ لقد أُوتي الإنسان حرية في تفكيره وتنفيذه ، وهو يرفع رأسه فخوراً بهذه المزية ، وذلك من أجل أن يجعل نشاطه - الذي هو الرصيد لرقية - في سبيل اكتساب الإنسانية الواقعية .

إنَّ الإنسان وإن لم يكن متحرراً من الغرائز التي تحركه من الداخل ، إلّا أنَّ له الحرية التامة في اختيار كيفية إجابتها أو استجابتها ، وبالإرادة التي تسود منه على أفعاله وحتى مشاعره بإمكانه أن يتوجه إلى نشاط فكري ونفسي سام ، فيصنع بذلك لنفسه شخصية ممتازة وكريمة ، ولا يزال كل يوم يخطو متواصلاً خطوات نحو السعادة الإنسانية والعزة الاجتماعية في سبيل نمو شخصيته ، أو ينظم خصائصه وفقاً للدوافع الفاسدة فيفسد شخصيته ويضيعها :

وعن الإمام الصادق (عليه السلام) أنه قال :

« من استوى يوماء فهو مغبون ، ومن كان آخر يوميه خيرهما فهو مغبوط ، ومن كان آخر يوميه شرهما فهو ملعون ، ومن لم ير الزيادة في نفسه فهو إلى النقصان فالموت خير له من الحياة »^(١) .

ويقول (جاكو) :

« من أجل المنع عن حدوث انشطار الشخصية وتعددها - الذي يوهن فكرة التحكم في النفس - علينا أن نتوسل بتقسيم الأوقات وتنظيمها بدقة . فإنَّ تنظيم الحياة وفق البرامج المعدة من قبل يقلل التأثير بالدوافع والمحركات ، وهو أيضاً يجعل اللاشعور مستعداً لقبول الفكرة الناضجة .

ولهذه الغاية يكفي أن نترك الخيال يتأمل في كل عمل من الأعمال المنظورة ، في أي وقت مناسب أو قبل النوم . فإنَّ ذلك مما يولّد لدى عامله عادةً ثمينة هي الانتظام .

(١) معاني الأخبار : ٣٤٢ .

إنّ فاقدي الإنتظام الذين لا يأملون أن يحصلوا عليه من أول يوم فجأةً سيُشاهدون بدايةً لذلك تغيير ما اعتادوا عليه من عدم الانتظام ، وما يحصل من تقدم لهم في ذلك يأخذ بهم إلى التكامل في منحنيات مختلفة .

ولا عجب من هذا بل علينا أن نعلّم الفكر بعد دراسة المواضيع والتغيير فيها عدّة مرات سيحتلّ موقع القيادة وسيبحث على تحقيق الغاية . إنّ الانتظام سيعدّ أرضيّة يزداد فيها النشاط اليوميّ ، وستكون هذه الزيادة مترامنة مع زيادة في وسائل الأعمال ، وتوسعة نطاق الإمكانيات ، واكتساب المعلومات الأوسع ، وزيادة في الفرص المفيدة»^(١) .

لا شك أنّ جهاد النفس الأمّارة ومشتبهاتها الفاسدة في غاية الصعوبة ، وقد جعل الإسلام الإنتصار على هذه الميول النفسية من أهمّ علائم القدرة الإرادية في الإنسان . إنّ أكبر فخر للإنسان هو أن يبدأ برامج تربية النفس على التحكّم في الأهواء النفسية ، كي يصل إلى غاية الشخصية الواقعية .

وعن الإمام الصادق (عليه السلام) أنّه قال :

« أقصرُ نفسك عمّا يضرّها من قبل أن تفارقك ، واسعَ في فكّاكها كما تسعى في طلب معيشتك فإنّ نفسك رهينة بعملك »^(٢) .

ويقول الدكتور (كاريل) :

« إنّ النموّ المهمل للنفس سيقبى نموّاً ناقصاً ، فلا يصل الإنسان إلى كمال الرشد في شعوره إلّا بتدخّل إرادته . كلّ منّا يعلم أنّ نموّ الأعضاء والعضلات لا يكون إلّا عن طريق النشاط العمليّ ، ولا يمكن أن يصبح الشخص بطلاً رياضياً دون تدريب منتظم .

كذلك من أجل كمال قوة الشعور علينا أن نتحمّل المشاقّ في ذلك ؛ إنّ

(١) بالفارسية : تلقين بنفس ٩٦ .

(٢) مستدرک الوسائل ٢ : ٣١٠ .

التلميذ إن لم يكن مريداً للتعلم فإن أكثر الأساتذة كفاءة وقابلية غير قادر على أن يعلمه شيئاً . وإن قراءة مجموعة دراسات أخلاقية لا تجعل قارئها متقياً ، ولا يمكن التحميل على الروح بدون إرادة جادة » .

ويقول (برغسون) : إن خلق الشخصية كاختيار الأخلاق إنما يتحقق بإرادة صاحبها ، ومن أجل ذلك يجب على صاحبها أن يستنزف كل ما يحتوي الروح والجسم من قدرة وقوة وطاقة ، وأن ينظم كيانه وحياته الداخلية بأحسن ما يُرام ، وأن يصنع في نفسه روحاً مقتدرة قوية .

أكثر ما يخرج الرجال الكبار من أسر صغيرة بل حقيرة ، وهذه حقيقة تاريخية تتحقق في تاريخ البشر كل يوم ، وكل إنسان جاهل أو عالم ، فقير أو غني ، شاب أو شيخ ، بإمكانه إن أراد أن يؤجج ما يكمن في عمق ذاته من طاقات معنوية ^(١) .

وعن علي (عليه السلام) أنه قال :
« شر الفقر فقر النفس » ^(٢) .

ذلك أن الإنسان يصاب بالشقاء والتعاسة والبؤس من جرّاء النقائص النفسية أكثر من العوز المادي . إن الروح إذا مرضت وأصيبت بالغموض والإيهام ، فإنّ الباطل والغلط سيتطرق إلى الفكر والإحساس ، وسيصاب الشخص بالأخطاء والعثرات في أفعاله وأعماله .

حينما يفتقد الإنسان بصيرة الروح والنظرة الواقعية ، فإنه سوف يسيء الاستفادة من العناصر المادية والقوى الداخلية .

إن الشخصية تنمو وفقاً لنظام القيم في الحياة ، وعلى هذا الأساس أيضاً تنمو فيها المزايا والصفات . إن الإنسان إذا تعقّب الطهارة والفضيلة بكل ثبات

(١) بالفارسية : راه و رسم زندگي : ٦١ .

(٢) غرر الحكم : ٤٤٦ .

وقاطعية ، فإنّ أفكاره ستستعد لقبول مزايا الطهارة الروحية ، وكذلك إذا كان متتبّعاً للوث الأرجاس كان مستقبلاً مهاوي السقوط والهلاك ، ولا يمكن أن نتصوّر أن يكون الشخص متتبّعاً للأرجاس والأنجاس ولكنه مع ذلك يبقى طاهراً نزيهاً عملياً .

إنّ الإنسان لو لم يكتف من حريته بالمقدار المعقول ، ولم يحدّد مجال أعمال الدوافع الغريزية العاتية ، فإنّه يكون خاضعاً لعبودية الميول تابعاً منقاداً لها في كل حذب وصوب . وبديهي أنّ معنى ذلك هو إذلال النفس وتحقير الكرامة الإنسانية ، وهي ذلّة وحقارة تمنعها من الوصول إلى كماها اللائق بها ، وإنّ فكره وروحه سوف لا يرقيان إلى الآفاق الأوسع والأكثر رحابة ، بل لا يميل بعد ذلك إلى الرقي عن مستوى الماديات ، حتى ولو كانت له القوّة الكافية لهذه الغاية .

إنّ الطريق الوحيد لإيجاد الموازنة والاعتدال بين عروج الروح وبين الأثقال والضغوط التي تهبط بروحه إلى الانحطاط والسقوط ، إنّما هو أن نقرّر ارتباطاً ثابتاً ودائماً بين الله والإنسان ، ومهما بعدت فكرة الله عن الإنسان اشتد الانحراف في باطن الإنسان .

إنّ الإسلام يذر في قلب الإنسان بذور النزاهة والتقوى ، ولا يقبل أي تفكيك بين العقيدة والعمل ، ويحاول أن يكون الإنسان في كل فكره وإدراكه يفكر في الله مراقباً إيّاه ، بوصفه عالماً بأسرار قلبه وجميع أسراره الباطنية ، إلى جانب أنّه هو الذي يبعث فيه طلب رضا الله وحبّ الحق .

إنّ الفضائل الإنسانية ما دامت تفتقد قاعدة ثابتة ، فإنّه لا ثبات لها قطعاً ، إنّ العقيدة هي العون الطبيعي للفضائل ، والمساعد الذي ينفث فيها الحياة ويمنحها الصدق والخلوص .

وهكذا - وعلى أساس العقيدة - يُحسّ الإنسان بضرورة ثبات الطهارة والنزاهة في باطن ذاته ، دون أن يقيم الفضائل المقوِّمة للشخصية الإيجابية على أساس الخيال وفي جوّ طوبائي ، بينما يكون سلوكه في مسالك أخرى ، وهو لا

يُريد أن ينقذ المزايا الروحية في مسيرة الحياة .

إنّ من يكون لعبودية الله في عمق روحه جذور عميقة ، فإنّ قلبه يكون صافياً طاهراً بحيث لا يتلوّث بالرزائل والأرجاس ، وسوف لا يحدث أيّ فصل بين عقيدته وعمله ، وإدراكه وسلوكه .

إنّ الإسلام من أجل تحديد أمواج الأهواء يفيد من قدرة التنظيم ، وهذا التحديد المنظّم الهادف يحاسب النفس على أساس قواعد وأصول قائمة على أساس الحكمة والتدبير . وهكذا يقرّر انسجاماً بين ميول الفرد المختلفة كشخصية مستقلة ، وكعضو في المجتمع ، وهو يوقفه في حدود يحافظ بها على الفرد أمام المجتمع والمجتمع أمام الفرد .

في حين أنّ الإنسان بطبعه يرجّح أحد هذين على الآخر فإمّا أن يضحي بالفرد لغايات اجتماعية ، أو أن يحقّر المجتمع في قبال المصالح والمنافع الفردية .

وإذا تحقق هذا الانسجام في فكر الإنسان تنظّم على ضوئه الفرد والمجتمع واعتدلوا في سلوكهم وأفكارهم ، وعمل كل منهم بتكليفه وفق الطينة الفطرية التي أودعها الله تعالى فيه .

ولكن حينما تنسّد البصيرة وتتجمّد الأفكار ، يبقى الإنسان في حرمان من إدراك الواقع ، ولا يستطيع بعد أن يدرك ماهناك من نقص وعوز في شخصيته ، بحيث لو أطلع على تلك النقائص وذلك العوز أصيب بالعجب وتنقّر من نفسه .

عن علي (عليه السلام) قال :

« لو عرف المنقوص نقصه لساء ما يرى من عيبه » (١) .

ويقول (شوينهاور) :

(١) غرر الحكم : ٦٠٤ .

« إنَّ الإنسان كما لا يُحسَّ بوزن جسمه ، كذلك لا يرى العادات القبيحة والحركات غير المرغوب فيها والسلوك البذيء من نفسه ، وعلى العكس من ذلك يتوجَّه دائماً إلى نقائص الآخرين وعيوبهم .

والآخرون كذلك يعكسون نقائصنا وعيوبنا كالمرآة ولكننا لا نشاهدها نحن ، وقد نظنَّ أننا نرى في المرآة صور الآخرين فقط »^(١) .

هنا علينا أن نوقظ النفس من نومتها لتفتح عيونها فتدرك الحقائق ، وإنَّ هذه اليقظة تترك في ذات الإنسان أغرب الآثار وأعجبها ، فإنَّها تُحسَّ في هذه الحالة أنَّها أدركت حياة جديدة وتجدد حياتها مرة أخرى .

إنَّ نفاذ البصيرة يؤثّر بصورة واسعة وشاملة في جميع مراحل الحياة ، وهكذا يصعد بالشخصية من الانحطاط إلى مستوى الكمال .

وعن أهمية دور الفكر في مختلف جهات الحياة يقول علي (عليه السلام) :
« عليك بالفكر فإنَّه رشد من الضلال ومصلح الأعمال »^(٢) .

وعنه (عليه السلام) أيضاً قال :

« الفكر في الخير يدعو إلى العمل به »^(٣) .

وعنه (عليه السلام) أيضاً قال :

« خوض الناس في شيء مقدّمة الكائن »^(٤) .

وكتب الدكتور (ماردن) بشأن الفكر وما ينشأ منه من التوفيق يقول :

« إنَّ الفكر في هذه الدنيا كالسَّكَّان لكل شيء . ولكنَّ هذه الحقيقة كانت قد بقيت غير ظاهرة بل بعيدة عن الأنظار مدّة طويلة من تاريخ البشرية ، ثم لما

(١) بالفارسية : أفكار شوبنهاور : ٩٣ .

(٢) غرر الحكم : ٤٨١ .

(٣) غرر الحكم : ٣٩٦ .

توصلوا إلى أهمية الفكر وأخذوا في تقديره وتقييمه تصوّروا أنّ ذلك شيء معيّن يخصّ نوادر الناس ، وفي هذه السنين المتأخرة توصل الإنسان إلى أن يجعل الفكر موضع دراسة وتحقيق .

وقد أوضحت لنا هذه الدراسات أنّ بإمكاننا أن نعدّل من ميّزاتنا الأخلاقية بالإفادة من أفكارنا ، وأن نغيّر العوامل الخارجية في حياتنا أو أن نحدث تغييراً في تأثير هذه العوامل على نفوسنا ، وبالتالي نكتسب السعادة والموفّقية ، وإنّ تربية الفكر لا تحدّ بحدّ ، وإنّ نتائجه وآثاره لا تنتهي بعدد .

بالإمكان أن تكون الفكرة كقلم نحت نحتت في صخرة الحياة . ومن هنا علينا أن نصمّم على أن نوجّه أفكارنا نحو أفضل الغايات وأحسنها ، وأن نستعملها في سبيل الوصول إلى أقوم المقاصد وأثمنها ، ومن أجل تنفيذ هذا التصميم علينا أن نعمل بكل إرادتنا الجديّة .

عليكم أن تقتنعوا بسيادة الأفكار على مقدّراتكم بصورة مطلقة ، وأن لكل فكرة حظّاً في صنع مصيركم جميعاً .

عليكم أن تعتقدوا أنّكم إن قدّتم أفكاركم في السبل المناسبة كان في استقبالكم أحسن مصير وبشكل يسير وطبيعي جدّاً . إنّ الدور الذي يقوم به الفكر في الجوانب المادية والمعنوية سيظهر للبشر تدريجياً ، وسيتفق عليه الذين يختلفون فيما بينهم في مختلف المواضيع ، وإنّ نتائج التجارب العملية جعلت أكثر الناس تشاؤماً يعتقد بهذه الفكرة الحقّة ، وأيدت نظريات المفكرين بهذا الشأن بصورة خاصة»^(١) .

أضرار الأفكار الشريرة

كما أنّ الأفكار الإيجابية تقود الإنسان إلى الأعمال المثمرة ، كذلك الأفكار

(١) بالفارسية : بيروزي فكر : ٧ - ١٠ .

غير الطاهرة تجرّ الإنسان إلى التلوّث ، وذلك أنّ الإنسان موجود مفكّر ، يفكّر ثم يجعل أفكاره مورد التنفيذ والعمل ، فإذا فتحت الأفكار غير المشروعة طريقها إلى أعماق باطن الإنسان كالحشائش المهيمنة ، زاحمت شيئاً فشيئاً الأفكار الإيجابية والبناءة حتى تذهب بها نهائياً وتشغل مكانها ، فيستعد الشخص بفعل هذه الأفكار الشيطانية للقيام بأعمال غير محمودة توجب اسوداد القلب وضياع العمر والضلّال في الحياة .

كل شيء سينمو ويكبر بالتدريج ، وسيثمر حلولاً أو مرآة. والفكرة السيئة بذرة سوف لا تثمر سوى الأعمال السيئة . وإنّ الإنسان يتبع أفكاره المتجذّرة في زوايا روحه بمرور الأيام والتي أصبحت في نفسه كشجرة ضخمة وقوية .

سُئل كبير : أين لنا أن نجد السعادة ؟ فقال : « نجدها في جمال الفكر الإنساني » وعلى هذا فعلى الإنسان أن يسدّ مجرى الماء من أوله وأصله فلا يدع للأفكار غير الصالحة طريقاً إلى قلبه ، بل يعود نفسه على التفكير في الأمور المثمرة والقيّمة .

قال علي (عليه السلام) :

« عوّذ نفسك الاستهتار بالفكر والاستغفار ، فإنّه يحو عنك الحوبة ، ويعظّم المحبة »^(١) .

وقال (عليه السلام) :

« عوّذ نفسك حسن النية وجميل القصد ، تدرك في مساعيك النجاح »^(٢) .

إنّ تغيير الخصائص التي حصلت للإنسان ليس من السهل واليسر ، ولكن إذا صرف الإنسان جهداً ومسعياً مستمرة لانعدام الأساليب غير الحميدة التي تؤدي بالإنسان إلى الانحطاط والضياع ، فبالنظر إلى أهمية دور الاستعداد

(٢، ١) غرر الحكم : ٤٩٢ .

الإنساني لاكتساب العادات الحسنة ، تدرّجت الفضائل الإنسانية في طريقها إلى طبائع الإنسان .

وللبحث عن الخصائص الطاهرة علينا أن نلتفت بأفكارنا إلى المزايا المحمودة ، فبتلقين الفضائل الحميدة والخصال المجيدة إلى النفس والاستغراق والتوسّع فيها ، نستطيع أن نحصل على نتائج باهرة جدّاً .

كتب (كلمان جاكو) يقول :

« إنّ تلقين النفس يشكل جيشاً منظماً أمام العادات ، ولكنه بدل أن يهجم بجيشه هذا عليها يورد أفكاراً وخواطر في ضمير اللاشعور تضادّ الأفكار التي شكلت تلك العادات ، ومن خلال ذلك وبصورة تدريجيّة يُحدث عمل تفكيك الدماغ بين الأعمال الصالحة والطالحة . ولكن من أجل الوصول إلى هذه الغاية فإنّ أول شيء يجب أن يكون نصب أعيننا هو استذكّار هذه الحقيقة بدقة : بإمكاننا أن نترك كل عادة ، وأنا بالذات أستطيع أن أريح نفسي من شرّها نهائياً وأن أبلغ بذلك غايي المنشودة . ويجب أن نستذكر هذه الحقيقة بصورة مكرّرة .

إنّ هذا اليقين - بناءً على قانون أثر التلقين - يجد بتكريره خصائص حقيقة مطلقة ، وضمير اللاشعور سيثبت هذا اليقين ، وسيذهب بإحساس أنّ العادات لا يمكن اجتنبها ولا مقاومتها ، هذا الإحساس الذي يمكن إحباطه وإبطاله كذلك عن طريق التجربة الصحيحة .

إننا لو نحلّل الرضا العابر الذي يعرض لنا من العادة غير الحسنة ، لأيقنّا بتفاهته ، وأنّ الأفضل أن نلتذّ بدل ذلك بالاحتراز عمّا يلازم هذه الأخطاء من النقائص والعيوب^(١) .

(١) بالفارسية : تلقين بنفس : ١٠٢ .

علاقة الأهداف بنمو الشخصية

إنّ الذي يرفع بالإنسان إلى مقامه السامي وبالتالي يؤدّي إلى نمو شخصيته ، هو أن تكون له أهداف قيّمة في الحياة ، وكلما كانت الأهداف أسمى نمت شخصية الإنسان نمواً أكثر وأوفر .

ولا ريب في أنّ للإسلام أهدافاً كبرى ، وآفاق رؤى واسعة وجامعة . إنّ المسلمين الذين تربّوا في ظلّ هداية رسول الإسلام العظيم وتعاليمه القيّمة ، أقاموا علاقات وثيقة بمبدأ الوجود ، فزكّوا بهدايته نفوسهم ، من خلال ذلك اتّصفوا بشخصية سامية متميّزة . وهذه المقاصد السامية والراقية هي التي تقدمت بهم إلى الأمام بصورة متواصلة .

يقول عالم النفس الأمريكي الشهير (ألبورت) :

« تُعدّ المقاصد والغايات من الصّفات الخاصّة والمعقّدة للشخصية ، وإنّ وجود النية والقصد لدى الإنسان دليل على ما يستهدفه الفرد لهدايته في المستقبل ، وإنّ النية والمقاصد الفرديّة تختار الدوافع النافعة ، وتعيّن نوعية الاختيار ، والموارد المنهية والممنوعة ، وتترك آثاراً كثيرة في مسيرة النمو والتكامل .

ويقس (سيرانغر) السجاياء الفرديّة بمدى اقترابها من نظام ذي قيم ثابتة ، ويقول : إنّ المهم هي الجهة والأهداف .

البنية التامة تكون ثابتة وراكدة ، ولكن البنية التي في بداية تكاملها تُرى وكأنّها في جهة أكمل منها في جهة أخرى ، ذلك لكي تهتدي إلى سبيلها وفق تقدّمها وانسجامها مع ذلك .

وعلى أيّ حال ، فحيث أنّ النموّ يستمر في جميع أعمار البشر فإنّنا نتوقع أن نجد إحساساً دينياً متطوراً في مراحل الشخصية المتقدمة ، إنّ عقل الإنسان البالغ ما دام في نموه واطّرادفه فهو يحاول ما أمكنه أن يوسّع من قدرته المنطقية بالبراهين القياسية والاستقرائية ومقارنة الاحتمالات .

وحيثما يستمر الإنسان في سعيه هذا ويوظف قواه في ذلك ، فإنه يدرك حاجته إلى الإيمان ، كي يفيد منه كوسيلة دفاعية يحاول بها إبعاد الهزيمة عن عقله إنه يفهم أنه بحاجة إلى الإيمان من أجل الانتصار على مشاكل هذه الحياة التي لا تلين .

إن أكثر المتدينين يرون أن إيمانهم ناشئ من التوجه إلى القوى الغيبية ما وراء الطبيعة ، أو أن الظواهر الطبيعية والحوادث الغريبة فيها ، زادت في اعتمادهم على القوى الغيبية وراء الطبيعة . وهكذا يجد الإنسان لنفسه هدفاً يكون له سنداً يزيد طمأنينة في الحياة ، على أثر ما يقوم به من سعي لمعرفة نظام عقيدة كاملة تربطه بنظام الوجود ككل .

إن الرؤية الكونية الخاصة في الأديان (المفروض أن تكون) سلسلة من الأصول العقائدية والأفكار والتصورات التي تحتوي وتهمين على كل مراحل السلوك الإنساني .

إن الدين يُعدّ الإنسان ويؤيده للدفاع أمام القلق والإضطراب والتردد والخبية ، وفي نفس الوقت يحدث في الإنسان حالة العزم والتصميم بالنسبة إلى المستقبل ، تمكنه من أن يربط بين نفسه وبين نظام الوجود بما للكلمة من معنى^(١) .

العلاقة بين النشاطات النفسية والفسيولوجية

لقد ثبت بالدراسة في التجارب العلمية أن الأمراض النفسية تؤثر في الجسم وتمرضه ، والنفس من ناحية أخرى تتأثر بالتفاعلات الكيميائية في الجسم ، ومن هنا يمكننا أن ندرك العلاقة المتبادلة بين حياة النفس والجسم .

على الرغم من أنهم ينسبون هذه النظرية العلمية إلى هذه القرون بل

(١) بالفارسية ؛ رشد شخصيت : ٩٣ - ٩٨ .

السنين الأخيرة ، نرى التصريح بكلا الموضوعين في النصوص الإسلامية منذ أربعة أو ثلاثة عشر قرناً .

فقد روي عن أمير المؤمنين (عليه السلام) أنه قال بشأن أثر الأمراض النفسية في الجسم :

« العجب لغفلة الحُساد من سلعة الأجساد »^(١) .

وعنه (عليه السلام) أيضاً قال :

« اللهم يذيب الجسد »^(٢) .

وعنه (عليه السلام) أيضاً قال :

« من أطاع غضبه تعجل تلفه »^(٣) .

وعن الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) أنه كان ينوّه بالعلاقة بين التفاعلات الكيميائية الجسدية بنفسانيات الإنسان وأخلاقياته إذ يقول :

« لا تميموا القلوب بكثرة الطعام والشراب ، فإن القلب يموت كالزروع إذا كثر عليه الماء »^(٤) .

وعنه (صلى الله عليه وآله وسلم) أنه قال :

« من تعود كثرة الطعام والشراب قسا قلبه »^(٥) .

وعن علي (عليه السلام) أنه قال :

« التخمّة تفسد الحكمة »^(٦) .

ويقول العالم الشهير البروفيسور (كاريل) :

(١) نهج البلاغة : ٥٠٨ ط - الصالح .

(٢، ٣) غرر الحكم : ٦٥٤ .

(٤) نهج الفصاحة : ٥٢١ .

(٥) نهج الفصاحة : ٥٧٣ .

(٦) غرر الحكم : ٢٤ .

« إنَّ النشاطات النفسية ترتبط بالنشاطات الفسيولوجية للجسم ، وبإمكاننا أن نشاهد بعض التغيرات العضوية حينما نعقب الحالات النفسية المختلفة ، أو أن نشاهد كيفيات نفسية خاصة متأثرة ببعض الأعمال العضوية . وبكلمة نقول : إنَّ هذه المجموعة التي تشمل النفس والجسم ، تتأثر بالعوامل العضوية والنفسية وتتغير بها . إنَّ مثل النفس والجسم كتمثال منحوت على حجر المرمر حيث لا يمكن تغيير شكل التمثال إلاّ بكسر المرمر أو النحت فيه .

نحن نعلم أن أمراض المعدة والأمعاء والكبد كم تؤثر في شخصية المصابين بها ، فإن أعضاء الجسم ترشح من نفسها بعض المواد إلى الدم لا شك أنها تؤثر في النشاطات النفسية والمعنوية للإنسان .

إنَّ الإرتباط بين نشاطات الشعور والنشاطات الفسيولوجية لا يتفق مع النظرية القديمة التي كانت ترى محل الروح في المخ . إنَّ الجسم في الحقيقة جوهره فيها خلاصة القوى النفسية والمعنوية ، والفكر في التفسير : عبارة عن نتائج الغدد المترشحة الداخلية ومن قشر الدماغ ، وإنَّ من الضروري تعاون جميع الجسم لانسجام الظواهر النفسية ، وبكلمة نقول : إنَّ الإنسان يفكر ويقرر ، ويحب ويكره ، يتألم ويفرح ، ويدعو ويتضرع كل ذلك بالمنح وبجميع أعضائه» (١) .

ويقول (كاردن مارفي) العالم النفسي المعاصر :

« في هذه العشر الأواخر من هذا القرن ظهر جلياً كم تكون العواطف والنظريات ، أو الحب والبغض في البشر رمزاً عن التفاعلات الكيميائية في الجسم .

إنَّ الطبَّ النفسيَّ الجسميَّ أثبت بوضوح ذلك الطريق المشترك والمتبادل بين الصحة البدنية والنفسية ، أي تلك العلاقة « الفونك أسيوني » بين

(١) بالفارسية ؛ إنسان موجود ناشأته : ١٥٢ - ١٥٤ : الإنسان ذلك المجهول .

التفاعلات الكيمياءية البدنية مع الأمور النفسية من جهة ، وعلاقة التفاعلات النفسية بالتفاعلات الجسمانية من جهة أخرى ، فلا يمكننا بعد اليوم أن نصف الجهاز الحيوي الكيمياءوي في الجسم بأنه المفاعل الأصل في تنظيم حياة النفس ، بل علينا كذلك أن نصف التفاعلات النفسية بأنها تنظم الجهاز الكيمياءوي في الجسم .

والأفضل أن نقول - كما ينوّه به المحققون من العلماء - أننا نواجه دائماً جهازاً واحداً مركباً من نفس وجسم ، قد يتفوّق فيه الجانب النفسي وأحياناً يكون الجانب الجسماني والكيمياءوي في الدرجة الأولى عملاً وتأثيراً .

إنّ عبارة « إعرف نفسك » التي كان يقولها القدماء ، لم تعد اليوم تعطي معنى سلطة أصل غير مادي على المادّة غير ذات الشعور من جانب واحد ، كما كان يعطي هذا المعنى في الأيام الماضية في القدم ؛ ولكنها كذلك أيضاً لا تعطي معنى يُشبه مزاعم الماديين في القرن التاسع عشر إذ كانوا يقولون : كما أنّ الكبد ترشح مادّة الصفراء « البنكرياس » كذلك المخ يفرز الأفكار . بل نحن اليوم نطالب بقبول التعاون المتبادل بين أسلوب معرفّة الإنسان : الكيمياءوي والنفساني معاً^(١) .

(١) بالفارسية : راز كرشمه ها : ٢٩٥ - ٢٩٨ .

دوران الحياة على محور التكاليف

- ✳ الإنسان في حصار التكاليف .
- ✳ العمل من أجل تحقيق الأهداف السامية .
- ✳ كيفية الاستفادة الصحيحة من الإرادة .
- ✳ دور الإيمان في الشعور بالمسؤولية .
- ✳ دروس علّمها لقمان الحكيم .
- ✳ مراتب العبادة والشعور بالمسؤولية .

الإنسان في حصار التكاليف

من الحاجات الفطرية للإنسان حياته الاجتماعية مع سائر أبناء نوعه ، وهي من الميول الطبيعية فيه ، والعامل الطبيعي الذي يقوده لتحقيق ذلك .

ويقوم المجتمع البشريّ على محور مختلف الطبقات والافراد ، فكل فرد في المجتمع يلتزم بمسؤولية وتكاليف خاصة عليه أن يقوم بأداء حصّته فيها ، وإنّما يدار المجتمع بصورة صحيحة فيما إذا آمن كل واحد من أفراده بمسؤولياته التي قام بقبولها في دائرة أعماله ، ثم لم تتجاوز نشاطاته حدود ما رسم لنفسه منها .

لا حدود لحياة الحيوان ولا قيود ، ولكن بخلاف الحيوان قد أحاطت بالإنسان مختلف القيود والقواعد والقرارات ، حتى بإمكاننا أن نقول إنّها قد شملت كل شؤونه وحياته ، وهذه الحدود وتلك القرارات هي التي تفصل بين، صعيد حياة الإنسان عن الحيوان .

في حركة وسكون يجد الإنسان تكليفاً عليه ، وهذا هو النظام الذي تدار عليه حياة الإنسان . فالتكاليف تبدأ من أبسط مراحل الحياة وتمتد حتى آخر مرحلة منها ، ولا يمكننا في أية لحظة أن نرسم خطّاً فاصلاً بين الإنسان وكل تكاليفه فنقول بالفصل بينهما ، فمهما كانت قوته ، فهناك تكليف عليه . اللهم إلّا الموت ، فإنّه حينما يأخذ بتلابيب الإنسان يطوي صحيفة أعماله .

إنّ الإنسان يلتزم بفطرته بمسؤوليات وقرارات ، مع قطع النظر عن أحكام الأديان وأوامرها ، فإنّ التكليف ينشأ من علاقته بأوصافه وخصائصه

وعواطفه والغرائز المغروسة في نظام كيانه ووجوده ، وإن كانت دوافعه إلى أداء تكاليفه أموراً مختلفة . ولكن بالإمكان أن نقول : إنّ القواعد العقلية العامة هي محور التكاليف ، أمّا طاعة الأحكام الدينية فإنّها ترجع إلى اتباع القواعد والقرارات العقلية أيضاً ؛ فإنّ أحكام الأديان وأوامرها في أمور الحياة والمسائل الاجتماعية هي تفصيلات لإجمال المدركات العقلية .

وليست المشكلة معرفة التكاليف ، بل المشكلة الكبرى هي العمل بالتكاليف الشاقة ، وإنّما يتمكن الإنسان من الاقتراب إلى مرحلة الكمال في هذا المجال بالإيمان الراسخ والثابت والقوي ، ومراقبة النفس أمام الله في كل حال ، وتوطينها على التضحية في الأعمال .

إنّ المجتمع وإن كان صعيدياً لنموّ الفضائل الإنسانية وتكاملها وظهورها ، لكنه كذلك هو جوّ يناسب ظهور كثير من الرذائل أيضاً . وإنّما يُصاب التكامل الاجتماعي بالتوقف والركود فيما إذا تجاوز كل واحد من الناس عن حدود وظائفه وتكاليفه ، وتناسى أو تنكر أو تجاهل مسؤولياته الكبرى الملقاة على عاتقه .

حتى النبتة الصغيرة بحاجة إلى عناية خاصة كي تتحرك من مكانها فتصل في مراحل نموّها إلى كمالها اللائق بها ، والذي يثمر نموّ المجتمع وتكامله ليس هو موقعه الجغرافي وأوضاعه المادية ، بل هي أوضاعه الخاصّة التربوية والمعنوية التي يقوم على أساسها المجتمع الفاضل والراقي .

في المجتمع الذي تسود أفكار الناس فيه روح المعرفة بالتكاليف ، ستكون الطهارة والصدق في ضمائر القلوب والأعمال ، وفي الإدراكات والأفكار ، وفي جميع شؤون الناس ظاهرة للعيان . وفي مجتمع كهذا لا تنمو الخيانة والعدوان على حقوق الآخرين ، بل لا يسمح لها مجال للنموّ والظهور ، بل يقف كل واحد فيه أمام مفاسد الأعمال ويمنع عن شيوعها بين المجتمع .

إنّنا لا نضلّ إلاّ عند عدم اتّباعنا وطاقتنا لتكاليفنا . هناك كثير من الناس يحاولون - مع ما لهم من إمكانيات من مختلف الجهات - أن يقتصدوا في الإفادة

من وجودهم ، ولهذا فهم يتهرَّبون من المسؤوليات والأعمال التي تسلبهم بعض راحتهم ولذائهم كما يزعمون ، ولا يرغبون في أن يخصَّصوا قسماً من أوقاتهم بأمور يعود نفعها لآخرين .

إنَّ هؤلاء ذوي الفكر الضيق والنشاط المحدود ، والذين تدور أمورهم على محاور شخصية وجزئية ، سيتعوَّدون على هذه الخصائص الروحية ، ولهذا فلا يتمكَّنون من التعهّد بالأعمال الكبيرة والقيمة ، أو أن يبرزوا لوجودهم شخصيّةً أو قوى وطاقات .

وفي مقابل هؤلاء ، هناك جمع آخرون لا يتساحون بالنسبة إلى مسؤولياتهم على أيّ حال من الأحوال ، ولا يصابون بالاضطراب والقلق على أثر التطورات والتغيرات . بل هم مستعدون دائماً أن يبادروا إلى المسؤوليات النافعة فيستقبلوها ويقوموا بكل جهودهم ومساعدتهم فيها . إنَّهم يتصوِّرون أنَّ خير إفادة من أجسامهم هو القيام بمهام مثمرة ومفيدة وإن كانت ذات مشقة ومستلزمة لصرف وقت وجهد كثيرين . وعلى هذا ، فكلما كان الإنسان أكثر رشداً وعقلاً وتمتّعاً برؤية عميقة ، كان اشتياقه إلى أداء تكاليفه أشدَّ وأكثر .

السعي لتحقيق الأهداف السامية

إنَّ ما يملأ حياة الإنسان أملاً هو السعي لتحقيق الآمال العالية والمثمرة ، على الإنسان أن يصمِّم على أن يبلغ مقاماً يليق بإنسانيته ، فيعمل بكل ما في وسعه لتربية نفسه والقيام بمهامه وتكاليفه وخدمة مجتمعه وأبناء نوعه ، وأن يكون كما قال (حافظ) الشاعر الفارسي الشهير :

« لا تقل : لا أحاول الفتح المسدود من أمور الحياة
كُن رَّيح الربيع يفتح أكمام الحياة بعد الممات »^(١)

(١) أصله بالفارسية :

چو غنچه گرچه فرو بستگی است کارجهان

تو همچو باد بهاری گره گشامی باش !

والتعريب للمعرب .

ويقول الدكتور (شوايتزر) :

« كثيراً ما نسمع هذا الكلام من أفواه بعض الناس يقولون : إنني أريد أن أقوم بعمل خير في حياتي ، إلا أن مسؤولياتي وأعمالي قد حبستني ومنعتني من أن أحصل على توفيق في هذا الطريق ، فقد غرقت حتى الخلقوم في مشاغل الحياة ، ولا تسنح لي فرصة أتمكن فيها من تحقيق مفهوم حياتي ! .

هذه من الأخطاء الشائعة الخطيرة ، فكم هناك من فرص كثيرة على باب دار كل واحد منّا ، يتمكن فيها من القيام بمهامه فيحصل على رضا ربّه وضميره . ولا يجب على الإنسان من أجل أن يصل إلى هذا الرضا - رضا الله والضمير - أن يغفل أو يتغافل عن تكاليفه العادية ، أو أن يقوم حتماً بأعمال كبيرة ملفتة للنظر .

وقد سميت أنا هذا العمل الروحي : « التكليف الثاني لكم » وإنما عليكم أن تفيدوا من الفرص الكثيرة التي تسنح لكم وتعملوا بهذا التكليف ، وسوف تُتاح لكم فرص كثيرة في هذا السبيل ، وتتوفّقون لذلك توفيقاً تاماً ، فإنّ جميع القوى المذخورة فيكم تقوم بتكاليفها . والذي يحتاج إليه العالم اليوم ويفتقده هو أن يكون له أناس يفكّرون في قضاء حاجات الآخرين ، وعند القيام بمهام من أجل الآخرين ستنزل رحمة الله على المعين والمستعين كليهما . أما وضغوط المجتمع الحديث الحاضر كما هي عليه اليوم ستفقدا شخصيتنا شيئاً فشيئاً ، وسنفتقد آمالنا في الإبداع والظهور ، ولهذا فإنّ بلوغ هذا المجتمع إلى الحضارة الحقّة سيتأخر ما دام الوضع هكذا .

وإنّ الخطأ الكبير لكل واحد منّا هو أننا نحى بأعين غير بصيرة ، فلا نلتفت إلى الفرص الجيدة التي تواجهنا ، نعم إذا فتحنا أعيننا وفحصنا ما حولنا ، لوجدنا ما حولنا كثيراً من الناس بحاجة إلى عوننا ، لا في الأعمال الكبيرة بل في أمور يسيرة جداً .

إننا يجب علينا أن نرهن وجودنا واسمى ما لدينا عندما نمثد أيدينا لعون

الآخرين إلى حدّ التضحية والفداء . إنّ أصغر نقد تنفقه تلك المرأة الأرملة وهو كل ما لديها - يفضل كل ما ينفقه الأغنياء الأثرياء . كثيراً ما نسمع من يقول : « لو كنت ثرياً ذا مال لكنت أقوم للناس بكثير من الأعمال » ولكننا بإمكاننا أن نكون جميعاً أثرياء من حيث الحبّ والعطف والحنان لهم ، إنّنا لو اكتشفنا الحاجة الحقيقية للمحتاجين وحاولنا قضاءها نكون قد بذلنا في ذلك أعزّ شيء لدينا ألا وهو الحبّ لهم والعطف عليهم ، ممّا لا يقابله كل أموال الدنيا بأجمعها ! .

من الممكن أن تعجبوا كثيراً من اختياري العيش في غابات أفريقيا « الاستوائية » لكن عليكم أن تعلموا أنّكم - ومع بقائكم حيث بيوتكم - يمكنكم أن تكون لكم أغرب وأعجب حياة ، ذلك إذا حملتم أنفسكم على البحث والتنقيب وقمتم بالآلاف من أعمال الخير والعطف على الآخرين ، وهذا العمل الروحي بحاجة إلى جرأة وتضحية ورحابة صدر وقوة إرادة وتصميم على إسداء المحبة للآخرين ، وهو أكبر إختبار وامتحان للإنسان .

ولكن عليكم أن تعلموا أيضاً أنّكم في هذا « التكليف الثاني » والشاق بإمكانكم أن تجدوا السعادة الواقعية »^(١) .

الإفادة الصحيحة من الإرادة

إنّ الإنسان حرّ في أن يطيع أوامر ضميره أو يعصيهها، وكل واحد ممّا يملك نفسه وإرادته فبإمكانه أن يختار الطهارة والصدق ، أو الشهوات والميول اللامتناهية ، أو أن يختار شعار الفتوة فلا يقرب الظلم والجور ، وكذلك العكس ، فكل هذه الصفات والمزايا تحت إرادته واختياره ، وهو بإمكانه أن يحلّي نفسه بها بالسعي والمحاولات المتواصلة ، أو أن يختار عكس ذلك طريق الرذيلة والإنحطاط ، فينغمس في محيط مختلف الشهوات والميول الهوجاء .

(١) بالفارسية : كليدهای خوشبختی ، من ٢٦٩ إلى ٢٧٧ .

إنَّ قوة الإرادة موهبة إلهية لا ينبغي لنا أن نتركها بلا إفادة منها ، أو أن نصرفها في العمل بالنيات والمقاصد النجسة واللاإنسانية ، بدلاً من أن نوظفها في تكاليفنا . إنَّ افتقاد الإرادة والضعف في اتِّخاذ التصميم والقرار هو أكبر سدٍّ دون العمل بتكاليفنا . وإنَّ الإفادة من الإرادة بهداية الوجدان وإرشاد الضمير للكفاح ضدَّ الشهوات وأهواء النفس وللإنتصار على عبادة النفس والأخلاق السيئة ، صعبٌ في البداية جدًّا وهو بحاجة إلى روح التضحية ، ولكن بمواصلة السعي الدائب والدائم ستتقوى روحية الإنسان تدريجاً وتنمو أخلاقياته الفاضلة ، فيصبح العمل بالتكليف له حيثثٌ كأمر عادي يتحمَّله بيسر وسهولة .

إنَّ الشعور بالمسؤوليات لو كان قوياً في كيان الإنسان لم تعد الموانع والمشاكل سبباً في انهماكه أمامها ، وإذا عقلت مساعيه ولم تثمر في مواجهة العوامل السلبية فلا أقلَّ من أن يحصل على رضا ضميره ، وسيكون مرفوع الرأس في نفسه ، وذلك أنَّه تحمَّل خيبة الأمل والهزيمة من أجل أداء وظيفته .

ولقد كان من وصية شخصية كبيرة لابنه أن نصحه بقوله :

« يا بني : كن أنت فقيراً لا مال في يديك ، ودع الآخرين يثرون أمام عينيك بالخداع والتزوير والخيانة . عِش أنت بلا جاه ولا مقام ، ودع الآخرين يتسمنون المناصب العالية بالإصرار السَّمج والإلحاح المُلح . عانِ أنت الآلام والخيبة ، ودع الآخرين يبلغون أمانهم بالخضوع والتملُّق . أعرض أنت عن معاشرة كبار الرجال ممن يتفانى الآخرون للإقتراب إليهم .

من الأفضل لك أن تتقمَّص لباس الفضيلة والتقوى . فإذا ابيضَّ شعر رأسك ولم تُلَوِّث قطرة من سواد الفساد حسن صيتك وحجر شرفك فأدِّ حقَّ شكر الله ، واستسلم للموت بقلب مبتهج وخاطر مسرور»^(١) .

كما يفيد التنبيه والتوبيخ واللوم في التقليل من المفسد ، كذلك لا مجال

(١) بالفارسية : أخلاق صموئيل : ٨ .

للجدال في أثر التقدير والترغيب في زيادة الرغبة في العمل والنشاط في أداء التكاليف . ويل لأمة يُشوّق فيها الخونة ويُهان فيها الخدمة ذوو الشعور بالمسؤولية ، ويطردون عن المناصب الحساسة في المجتمع . أمة يبلغ فيها مقاصده من يجعل همّه الخداع والدغل ، ويصل فيها إلى مراده من لا يتمتع بأية قيمة من قيم الإنسانية . أمة يكون على من يُريد أن يؤدّي رسالة الإنسانية فيها أن يبقى محروماً من كل شيء ، مثل هذا المجتمع سوف لا يبقى مجال فيه لنمو الأخلاق والفضيلة .

وبديهيّ أنّ في مثل هذه البيئة سيتسرّب إلى أعماق النفوس الرغبة إلى التزوير والفساد والرّياء في أوسع نطاقها ، وسيسود الفساد وسيئات الأخلاق بدلاً من النزاهة وفضائل الأخلاق ، وكم من طاهرين تقهقروا عن طريق الطهارة والتقوى تحت ضغط هذه الأوضاع العصبية والمنهكة القوى ، فإنّ قليل أولئك الذين يمكنهم أن يحتفظوا ببطولتهم في مثل هذه البيئة الملوّثة ، وأن يعيشوا بين نلوثات المجتمع بطهارتهم وتقواهم ، فليس كلّ واحد منّا بطلاً قهرماناً يستطيع أن يستمر في حياته الروحية بروح عالية وكرامة بين أناس منحطين أذلاء .

إنّ الإنسان العادي يحتاج في تربيته الفردية إلى مجتمع يستند إليه ، وهو بحاجة إلى نماذج بشرية صالحة تعرّفه بأمثلة السلوك الصحيح في حياته .

دور الإيمان في الشعور بالمسؤولية

إنّ الشعور بالمسؤولية والتعهد بالتكاليف التي تحيط بالشؤون الاجتماعية من كل جهة ، من أهمّ الأسس لسعادة الفرد والمجتمع ، والتربية الإسلامية تبنى على أساس الشعور بالمسؤولية .

على كل مسلم أن يستند إلى إيمانه وعمله الصالح لتضمين سعادته في حياته ، ولا يجعل شيئاً آخر سواهما مستنداً لسعادته الواقعية .

والإمام السجّاد (عليه السلام) يصف تكاليف الإنسان في مختلف

الشؤون ، فيقول في إحدى كلماته القيمة :

« إعلم رحمك الله : إنّ الله عليك حقوقاً محيطية بك في كل حركة تحرّكتها أو سكنة سكنتها ، أو منزلة نزلتها ، أو جراحة قلبتها ، أو آلة تصرفت بها ، بعضها أكبر من بعض »^(١) .

ويرى الإسلام أنّ كل أحد مسؤول عن أعماله ، ولا يتحمل أيّ أحد حمل مسؤولية الآخرين ، فالقرآن الكريم يعلن : ﴿ من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ، ومن ضلّ فإنما يضلّ عليها ، ولا تزرّ وازرة وزر أخرى ﴾^(٢) .

إنّ في أعماق كيان الإنسان قوة تدعوه إلى أداء تكاليفه ومسؤولياته ، وحينما يتقبّل الإنسان دعوة ضميره ويبادر إلى أداء تكاليفه فإنّ تلك القوة الباطنية ستؤيده ، وبعد فراغه من تكليفه تملأ نفسه سروراً وطمأنينة . هذه القوة هي الضمير والوجدان الناشئ من أعماق فطرة الإنسان والذي يحملنا على ترك السيئات والعمل بالصالحات .

وقد يتصور أحد أنّ بإمكان الوجدان لوحده أن يضمن تنفيذ الخير على يد الإنسان ، وأن يكون مستنداً لأداء مختلف التكاليف ، فيغنيينا عن اتّباع التعاليم الدينية .

ولكن الحقيقة هي أنّ الضمير الأخلاقي بما له من قيمة في ضمان سعادة الإنسان ، فهو لا يتمكن في جميع الأوضاع والظروف أن يمنع من سقوط الإنسان وانحرافه .

وعلى هذا فبكل شيء أن نلتفت إلى دائرة عمل الضمير ، فإنّ أحكامه تختلف باختلاف العادات القومية والظروف الزمكانية اختلافاً كاملاً حتى في موضوع واحد تماماً .

(١) تحف العقول : ٢٥٥ .

(٢) سورة الإسراء : الآية ١٤ .

إنَّ نشاط الضمير إنما هو في الدعوة إلى أمور قد أقرّ بحسنها من قبل ذلك العرف والعادة والسنن الاجتماعية ، وإن كان ذلك الأمر قبيحاً في الحقيقة ، أو كان مذموماً مدحوراً لدى أمة أخرى على أساس سننها وقواعدها وأعرافها . وقد زين الشيطان للإنسان في بعض أدوار الحياة البشرية أعمالاً هي من أقبح ما يكون في الحقيقة والواقع ، ولكن تحت ستار الأعمال الصالحة ، وتلقاها الناس حينئذٍ بصفتها أعمالاً مقبولة لديهم .

ويذكر القرآن الكريم هذه الحقيقة الواقعة فيقول : ﴿ قل هل ننبؤكم بالأخسرين أعمالاً ؟ الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ﴾ (١) .

وقال سبحانه : ﴿ ولكن قست قلوبهم ، وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون ﴾ (٢) .

أضف إلى ذلك أنَّ الوجدان والضمير من دون أن يستند إلى مستند خاص سوف لا يقدر على المقاومة في مواجهة كثير من أهواء النفس وطغيان الشهوات وحب الجاه والمال ، وهو في ساحة كفاحه مع الغرائز يفتقد شيئاً من قوة مقاومته ، وربما أنجرَّ إلى أن يركع لأول مجاهدة لميول النفس الأمّارة ، فإنَّ النفس الخدّاعة بإمكانها أن تقلب الحقائق وتخدع الضمير وتخدع هذا المصباح المنير الذي يضيء باطن الإنسان .

نعم ، هذا هو « الإيمان » الذي يهدي الضمير ويرشد الوجدان ويكون مستنداً صحيحاً له وحاكماً على العادات والتقاليد القومية ، ولا يتكلّف بتنفيذ أوامر العرف والسنن الاجتماعية . إنّ الذين تيقّظت في ذواتهم فطرة التوحيد وآمنوا بالله إيماناً حقيقياً ، قد استجابوا لنداء ضمائرهم استجابة تامة ، ويرون إتباعها إطاعة للهداية التكوينية الإلهية ، فلا يثقل على كواهلهم حمل التكليف

(١) سورة الكهف : الآيتان ١٠٢ ، ١٠١٣ .

(٢) سورة الأنعام : الآية ٤٣ .

بل يمنحهم قوة ونشاطاً ، فيبادرون إلى أداء تكاليفهم بكل نشاط واشتياق .

وحينما لا يوجد تزاحم بين الوجدان والميول الغريزية فإنّ تبعية أوامر الضمير أمر يسير جداً، إنّما الصعوبة والإشكال فيما إذا كانت طاعة الضمير مستلزمة لقمع إحدى الشهوات النفسية ، إنّ قوة الغرائز بما لها من ساحة متاحة لجولانها ، حينما لا تكون مستندة إلى العقيدة بالدين فإنّها تتغلب على الضمير والوجدان في الغالب ، وستكون الغلبة في الساحة للغريزة .

إنّ آية دعوة إنسانية لا تنشأ من الإيمان بالله سوف لا يكون لها مفهوم حقيقي في عالم الواقع الخارجي ، بل ليست سوى طوبائية جميلة .

إنّ الدعوات الإنسانية في الإسلام التي تحققت في عالم الواقع على هذه الأرض ، وفتحت لها صفحة مُشعّة في التاريخ ، إنّما تحققت بفضل هداية الأرواح إلى مبدأ التشريع وآفاق السعادة الإنسانية ، وبفضل إرشاد القلوب إلى ذات الحق سبحانه ، وإلا فإنّ الإنسان لا يتقبّل الدعوات الإنسانية على كل حال ، ولا يستسلم أمام هذه الدعوات في كل موقع ، بل حينما تتزاحم التعاليم الأخلاقية مع مشتهيات النفس ، فمن أجل الوصول إلى ميوله وأهوائه سوف يسحق تلك التعاليم .

يقول (لكنت دونوثي) :

« إنّ بعض الأخلاقيين بطبيعتهم من غير المتدينين يقولون : إنّ المشكل الأساس هو إطاعة الأوامر الأخلاقية ، فلو استطعنا أن نعمل بها فلا حاجة إلى الذين بعد ذلك . وهذا من نتائج الجهل بالفسولوجية ، فإنّ الإنسان سيشتك في اعتبار الأوامر التي يجهل مصادرها ومستنداتها . أضف إلى ذلك أنّ هذا الأسلوب من التفكير يدل على سوء الفهم لأصل المشكلة ، فإنّ الهدف هو أن يتكامل الإنسان من باطن ذاته ، وليس الهدف أن نحمل الإنسان على التحرك وفق الحركات الأخلاقية . فما لم يكن سلوك أي إنسان سمة كماله الذاتي العميق ، فإنّ أعماله تكون نوعاً من الالتزامات المصطنعة وفق القرارات والأعراف من دون

أن يكون لها أصالة ، ولذلك فهي تزول بأول ذريعة . وحتى لو كان تحميل الأحكام الأخلاقية على حسب ما يُرام ومهما يكن لها من قيمة عملية ، فإنها لا تقوم بالجدال الموفق ضدّ الحركات الحيوانية «^(١) .

أجل ، إنّ هذا هو الإيمان الذي يمنع من إفراط الميول غير المشروعة في اللحظات الحسّاسة من الحياة ، وهو الذي يحامي ويدافع عن الضمير الأخلاقي . والمؤمنون ذوو القلوب الممتلئة بحبّ الله تعالى ، يتمكّنون من أداء تكاليفهم المقدسة في أخرج الساعات وأكثرها حساسيّة ، بفعل هذه القوة المعنوية : قوة الإيمان بالله وأوامره .

يقول عالم النفس الغربيّ الشهير (ويليام جيمز) :

« إنّ الأخلاقيّ المحض (غير المتدينّ) يطيع القوانين العامة والكلية التي تسود الكائنات عالماً بها ومطلعاً على ما يترتب عليها ، ولكن هذه الطاعة تكون ثقيلة ومُملّة ، وليس في قلب صاحبها أيّ اشتياق أو اندفاع ، ولا يفارقه الإحساس بأنّ هذه الأحكام هي كالنير على رقبتة .

بينما تكون هذه الطاعة في الدّين بتقبّل مندفع يضيفي على كل شيء في الحياة الطيب والنشاط وحسن الاستقبال .

إنّ جميع مقاييسنا الأخلاقية هي كالحرق التي تغطّي أو تضمّد بها الجروح والقروح ، وإلاّ فليست هي بلسماً لتلك الجروح . . وهنا يُسرّع الدّين إلى إسعافنا في أمورنا المصيرية ، ففي الدّين حالة روحانية لا نجدها في أي مكان آخر »^(٢) .

(١) بالفارسية : سرنوشت بشر : ٢١٦ .

(٢) بالفارسية : دين وروان ، از : ويليام جيمز : ١٩ .

دروس علّمها لقمان الحكيم

من خلال آيات من القرآن الكريم نتعرّف على كلمات غنية بالمعارف ،
ووصايا عميقة ومليئة بالحكمة ، ومواعظ حسنة من لقمان الحكيم إلى ولده ،
خاطبه أبوه لقمان فرسم له الخطوط العريضة والتكاليف والوظائف المفروضة على
كل إنسان عاقل في الحياة ضمن مواعظ مفيدة وتعاليم قيّمة :

١ - حقّ الله تعالى على الإنسان :

﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ - يَا بُنَيَّ : لَا تَشْرِكْ بِاللّهِ إِنَّ الشِّرْكَ
لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾^(١) .

٢ - حقّ الوالدين على الأولاد :

﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ ، حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ ، وَفِصَالُهُ فِي
عَامَيْنِ ، أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ ، إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴾^(٢) .

٣ - تكليف الإنسان بالنسبة إلى سائر أفراد المجتمع :

﴿ يَا بُنَيَّ : أَقِمِ الصَّلَاةَ ، وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَأَصْبِرْ عَلَى
مَا أَصَابَكَ ، إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾^(٣) .

﴿ وَلَا تُصَيِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمَسْ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ
كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾^(٤) .

﴿ وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ ، إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ
الْحَمِيرِ ﴾^(٥) .

(١) سورة لقمان : الآية ١٢ .

(٢) سورة لقمان : الآية ١٣ .

(٣) سورة لقمان : الآيات ١٦ - ١٨ . ويلاحظ أن آية توصية الإنسان بشكر الوالدين مع شكر
الله تعالى ، ليست من وصايا لقمان وعن لسانه ، وقد تراءت الحكمة في ذلك للمؤلف في أن
لقمان هو الأب يعظ ابنه ، ولم يكن من المناسب أن تُعنون تكاليف الولد مع والديه والتأكيد على

مراتب العبادة والشعور بالمسؤولية

بما أنَّ الاستعداد العقلي للناس ليس على مستوى واحد وأنَّ بينهم اختلافاً كثيراً في مراتب الفهم والإدراك ، لذلك فقد دعا النَّاسَ أئمة الإسلام إلى الطاعة في تكاليفهم وفقاً لأساليب أفكار مختلف الطبقات بمختلف العبارات والكلمات . إنَّ كيفية الدعوة الدينية على نحو يمكن أن يفيد منها كل عالم أو مفكر أو عاميٍّ أميٍّ :

فمثلاً : دعا الناس إلى تجارة لن تبور وذلك لأناس لا يهتمهم في حياتهم سوى أرباح مكاسبهم .

ودعا آخرين إلى جنة فيها ما تشتهيهِ الأنفس وتلذُّ الأعين ، فيها النعيم الخالد ، وذلك لأناس يهتمهم التلذذ بالنعيم .

وهدد آخرين بعذاب جهنم الأليم ، وذلك لمن تكون همّتهم في الابتعاد عن الآلام .

وبديهيٍّ أنَّ أكثر الناس لا يدركون المعاني الدقيقة ولا يمكنهم أن يستهدفوا أهدافاً أسمى من هذه ، فلا يمكن لأكبر عدد من الناس في المجتمع القيام بالتكاليف وتعميم الفضائل الأخلاقية إلّا بسلوك هذه السبل ، ذلك أنَّ الطبيعة البشرية مليئة بنقاط الضعف والعجز ، ولذلك فقليل أولئك الذين يتمكنون من أن يستهدفوا في أعمالهم في الحياة حسن ذات العمل والأهداف العليا .

والقسط الأوفر من التقدم السريع للاديان السماوية ونفوذها في قلوب أفراد المجتمع ، يرجع إلى أنَّها تُؤلِّي التقوى واجتناب الذنوب أهميّة خاصة ، بخلاف

= رعاية حرمة وآدابه وأداء شكره ، من قبل لقمان نفسه ، فذلك يعني أنَّ لقمان يطالب ابنه بشكره والخضوع له وإكرامه . ولذلك كَفَّ لقمان عن بيان ذلك لإبنه ، وتكفَّل به الله لجميع أبناء نوع الإنسان بالنسبة إلى والديهم ، وابن لقمان منهم ، فهو مكلف كذلك برعاية هذا الدستور وأداء هذه الوظيفة بالنسبة إلى والديه أبيه وأمه .

كثير من القوانين والقرارات البشرية . فالتقوى في النظام التعليمي لهذه الأديان ليس سبباً للنجاة من العذاب فحسب ، بل هي باعث على الثواب أيضاً . والإنسان - من ناحية البناء النفسي - يبدي حساسية أكثر وردود فعل أقوى في مواجهة الثواب والعقاب ، وبالتالي سيكون له اندفاع واتجاه أكثر لتقبل أوامر المدرسة الدينية .

وقد رأت عدة من النصوص الإسلامية: أن الطاعة المطلقة لأوامر الله ، لا برجاء الثواب والخوف من العقاب ، إنما يخص أفراداً من الناس تكون معرفتهم بذات الحق تعالى في مستوى رفيع جداً . إن أولئك الرجال الصادقين البالغين أسمى مراحل الإخلاص ، لا يفكرون في شيء سوى حسن الطاعة وتحصيل رضا الربّ الجليل جلّ وعلا .

سُمّي هؤلاء في لسان الروايات الإسلامية بـ « الأحرار » بينما عبّر عمّن يعبدون ويطيعون طمعاً في الثواب ، بـ « التجار » وعمّن يؤدّون تكاليفهم خوفاً من العذاب بـ « العبيد » .

فقد قال علي (عليه السلام) :

« إنَّ قوماً عبدوا الله رغبةً فتلك عبادة التجار ، وإنَّ قوماً عبدوا الله رهبةً فتلك عبادة العبيد ، وإنَّ قوماً عبدوا الله شكراً فتلك عبادة الأحرار » (١) .

وللعالم الإنجليزي المعروف (أويبوري) موضوع يتفق مع مضمون هذا الخبر ، يقول :

« إنَّ من تمتلئ روحه من محبة الله فهو في الثناء على الله وعبادته ينبعث وكأنه بلا إرادة واختيار ، لا برجاء الثواب ولا خوفاً من العقاب بل لله فحسب . وإنَّ من يعمل عملاً صالحاً أو يفضّ النظر عن سيئة برجاء الثواب

(١) نهج البلاغة .

وخوفاً من العقاب ، فليس له أن يغرّر بعمله وزهده هذا ، ولا يمكن أن يعدّ هذا من رجال الله ، بل هو تاجر يعمل لربحه واجتناب ضرّه ، وأجبر يتحمل الألم انتظاراً للأجرة المترتبة .

نعم ، بالنظر إلى أولئك الذين يقتلعون جذورهم بأيديهم من جرائ جهلهم ، وهم يلوّثون أرواحهم بدخان المعاصي السود ، ثم لا يقومون بعبادة الله أبداً . بالنظر إلى هؤلاء يمكن أن نعدّ الأجراء الذين إنّما يهتمون بالثواب والعقاب ، في عداد الصالحين نسبياً . ولكن لا شك أنّ الذي أوجب أن نعدّهم مع الأخيار أمر حقير بل لا شيء في الحقيقة ! فما أجهل لو كانوا يصعدون بأنظارهم إلى أبعد من هذا المتسوى ، فكانوا يعبدون الله من جهة أنّه أهل للعبادة فقط .

إنّ أولئك الذين يصرفون أرواحهم وأعمارهم في سبيل الجمال والفنون المستظرفة ، لا ينتظرون من وراء ذلك نفعاً ، بل هم ينظرون إلى شيء آخر أسمى من أن يتلوّث بالأغراض المادية : إنهم يبحثون عن الجمال لأنهم يحبون الفنون الظرفية ، فهم يريدون أن يصيدوا طيور الجمال ذات الألوان الجميلة الخلاّبة فيعرضوها على الآخرين .

فما أحسن لو كنّا نحن أيضاً في ديننا مثل أرباب الفنون الجميلة ، فنغسل أرواحنا من لوث الأغراض المادية ، فلا يكون نظرنا في عبادتنا لله لشيء سوى تقديس ذلك الجمال الأزلي . هذا هو الدين الحقيقي الذي يتمكن من أن يبلغ بأرواحنا إلى قمة الكمال»^(١) .

كلّما كان مستوى إيمان الإنسان بالله أسمى رأينا في أعمالهم آيات الإخلاص بنفس تلك النسبة العالية ، بحيث يكون السعي للحصول على رضا الله يسود على جميع مقاصد الإنسان ويغطي على سائر الميول والرغبات ، فهم يقومون بأي عمل صالح بعيداً عن خوف العقاب أو رجاء الثواب .

(١) بالفارسية : در جستجوی خوشبختی : ٢٢٨ .

إنّ هذا الهدف الأخلاقي كريم وعزيز للغاية بحيث لا يقابله ولا يوازيه أيّ أمل أو أمنية ، وإنّما يتمكن من الاتّصاف بتبعيّته عدد محدود من نوابغ الأخلاقيين .

نعم ، يقول مولى المتقين أمير المؤمنين علي (عليه السلام) في مناجاته :
« إلهي ما عبدتك - حين عبدتك - خوفاً من نارك ولا طمعاً في جنتك ، ولكنّي وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك »^(١) .

والقرآن الكريم ينقل عن لسان « سليمان » أنّه كان يقول : ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ ، وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ ﴾^(٢) فجعل غاية عمله طلب رضاه تعالى ، فلتكن الأعمال قرباً إلى الله وطلباً لمرضاته .

وعليّنا أن نلتفت إلى أنّ العبادة لا تنحصر في الإسلام في تلك الدقائق واللحظات التي يشغل فيها العبد بمراسم العبادة وشعائرها ، بل إنّ العبادة في الإسلام أجمع وأوسع ، إذ هو يشمل جميع الشؤون ويستوعبها في برنامجها للسلوك في الحياة ، من العبادة الخاصّة إلى الفكر والإدراك ، وسائر الأعمال اليومية الجارية ، فما دام الهدف والوجهة إلى الله فإنّ العمل عبادة . وبعبارة أخرى : جعل الإسلام العبادة هي القاعدة الأصيلة والكبرى وعلى أساسها قرّر جميع برامج الحياة . وإلاّ فليس لتلك المظاهر والمراسم في تلك اللحظات العابرة تلك الأهمية الكبرى ، بل المهم كل الأهمية أن يبتنى السلوك وكل شيء في هذه الحياة على تلك القاعدة بشكل صريح وواضح ، وأن يشهد العبد بعدم وجود أي مقام أو شخصية ذات قدرة سوى ذات الله المقدسة مستحقاً للعبادة ، ليس باللسان فحسب بل بالعمل وفي الحقيقة .

وكذلك ليست العبادة في منطق الإسلام بمعنى أن تسيطر الطهارة والتقوى

(١) نقلاً عن الحقائق ، للفيض الكاشاني : ٢٠٢ .

(٢) سورة النمل : الآية ١٩ .

على قلبه في حين أداء الفرائض فقط ، فما أن تتم الفريضة تستولي على نفسه الرذائل والأرجاس وتستلب منه كل خير وصلاح . إنه في الحقيقة كمسافر حائر لا يهتدي إلى التقدم نحو الهدف ، وأن يفيد من النور الذي يضيء له الطريق في ليالي الحياة المظلمة .

ونرى فيما يصرح القرآن الكريم قوله سبحانه : ﴿ لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولَّوْا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ، وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ ، وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ ، وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ ، وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ، وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ، أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ (١) .

إن الأصل الأساس في التربية الإسلامية هو أن يكون بين الإنسان وربّه إتصال دائم لا ينقطع ، وأن يكون خوف الإنسان وجهه وتفويضه أمره إلى الله فقط ، فهو المرجع إليه ترجع الأمور كلها ، وعلى العبد أن يعمل بكل أوامره وأحكامه في جميع لحظات الحياة .

بمثل هذه العلاقة الحيّة والبالغة بين الله وقلوب العباد يتم كل شيء ويكمل ، وبدونه يخوي كل شيء ويبطل ، وإنما يتّصف العبد بالأخلاق والفضائل وجميع خصال الخير بمدد ذلك المستند الحق سبحانه .

إن الفضائل الإنسانية في الواقع والحقيقة ليست إلا ما ينشأ من العقيدة بالله تعالى ومن أحكامه الأبدية ، ولا يمكن أن نتوقع ظهور الفضائل الإنسانية الحقيقية ممن لم تستقر قاعدة تربيته على أساس الارتباط الواقعيّ به سبحانه .

(١) سورة البقرة : الآية ١٧٦ .

أين منبع الأمن والطمأنينة ؟

- * بحر الحياة المتلاطم .
- * عوامل الآلام الروحية .
- * التفكير المفرط في المستقبل المجهول .
- * الأساليب المنحرفة .
- * أثر الآلام النفسية .
- * أثر الإيمان في طمأنينة النفس .
- * تسليم الأمر إلى الله والرضا بقضائه .
- * الأمناني والآمال غير المحدودة .
- * الإكثار من التفكير في المستقبل المجهول .
- * الحلّ المطلوب للعُقد النفسية .
- * إظهار السرور .

بحر الحياة المتلاطم

إنّ الحياة بحر متلاطم ، وهي في تقلّب دائم بفعل أمواج الحوادث . فلا أحد يأمن من أن تهجم عليه فجأة أمواج المصائب وهو على سطح هذا البحر العميق ، فإنّ اللذة والألم في هذه الحياة كالشحتين الموجبة والسالبة يواكبان عملهما في كل مكان . وفي إزاء الأفراح والمسرّات توجد الهموم والغموم ، وفي إزاء النشاط والشباب يوجد العجز والهرم . وعلى كل من يعيش في هذه الحياة أن يتحمل ثقل المصائب والآلام ، كما أنّ الذي يدخل البحر سيبتل بمائه لا محالة ، كذلك يواجه الإنسان في طول حياته سلسلة من الحوادث المؤلمة والمنهكة ، والحرمان والهزيمة ، وفقد الأعزّة ، وكثير من المشاكل الأخرى .

فمن ينجو بروحه من رؤوس فؤوس المصائب ؟ ومن ذا الذي لا يبتلّ حجره بأمواج الحوادث ؟ غاية الأمر أنّ أنواع المصائب والمشاكل تختلف في كل عهد عن الآخر ، وإلاّ فإنّ الآلام والمشاكل ترافق الإنسان في جميع مراحل الحياة .

لم يكن في متناول البشر في أيّ دور من أدوار التاريخ من وسائل الرفاهية والراحة كما هو اليوم ، ولم يطلع على أسرار الطبيعة المعقدة كما قد اطلع اليوم ، ولم ينتصر على مختلف العوامل المضادة في الحياة كما انتصر اليوم .

إنّ البشر المتحضّر اليوم قد انتصر في ظل العلوم والمعارف وفي ضوء التقنية ، وبفضل استخدامه لمختلف القوى الطبيعية ، على كثير من مشاكله وصعوباته .

ولكنه بإزاء هذا الانتصار العلمي الباهر والتوفيق المشرق ، ومع ما له اليوم من مختلف وسائل العيش الأفضل ، ليس فقط لا يُحسّ في قرارة نفسه بالأمن وطمأنينة خاطر ، والذي يشكل الأساس لحياة سعيدة ، بل هو كل يوم يتبعد عن منيته وهدفه وهي الحياة الهنيئة والعذبة ، فهو لا يرى أنّ هذه الحياة المادية تمنحه الراحة وتوفّر له السعادة التي هو يسعى وراءها .

ليس بإمكاننا أن ننكر أنّ القلق النفسي والاضطراب في أكثر المجتمعات الراقية يزداد بشكل رتيب يتناسب أطّراداً مع تطوّر الظواهر العلمية والصناعية والإقتصادية ، واتّساع رقعة الإمكانيات الحضارية ووفور النعم . بحيث لم تعد زيادة عدد الباحثين والأطباء النفسيين تفي بالحاجة الحاضرة ، نظراً للزيادة المفرطة في عدد الإصابات النفسية .

كتب الدكتور (شنادر) بهذا الشأن يقول :

« ما الذي له السهم الأوفر في شقاء البشر من أيّ شيء آخر ؟

أنا بصفتي طبيباً أستطيع أن أجيب على هذا السؤال فأقول : هذا هو المرض العضال المزمن . إنكم إن تفكروا فيه تصابوا بشيء من الخوف ، فإنّ طبيعة الإنسان في معرض أكثر من ألف من مختلف الأمراض . واحدة منها أكثر شيوعاً من سائر الأمراض ، فواحد وخمسين بالمئة من المراجعين إلى الأطباء في الولايات المتحدة الأمريكية هم مصابون بهذا المرض ، وهناك من يقول إنّ عدد الإصابات أكثر من واحد وخمسين بالمئة بكثير .

أخذت تقارير من خمسمائة من المرضى المراجعين إلى عيادة (أوكسز) في مدينة (نيو أورليان) وجاءت النتائج : إنّ أكثر من سبعة وسبعين بالمئة مصابون بهذا المرض . ومن الممكن أن يصاب به كل أحد وفي أيّ مرحلة من العمر والحياة . وبعد فاللازم لعلاج هذا المرض مصارف وتكاليف باهظة بل مدهشة .

وأمتنع أنا من أن أتسرّع في التصريح باسمه حذراً أن تتسرّعوا في إساءة الظنّ بي . وأذكر لكم خصائصه فأقول : إنّ أول خصيصة له هي أنّه ليس

مرضاً واقعياً ، وإنما جرى على الألسن أن يسمّوه مرض أعصاب ، ويسمّونه اليوم مرضاً نفسياً جسدانياً . وليس هذا مرضاً بمعنى أن المصاب به يفكر في أنه مريض حقاً ، بل هو يتألم منه كما يتألم أحدنا من داء كيس الصفراء .

وليس المرض النفسي الجسديّ شيئاً ناتجاً من الميكروب أو الفيروسات أو من النمو الخارق لبعض أنسجة الجسم ، بل هو ينتج من الأحوال والأوضاع المعيشية اليومية ، فكلما غطت الإنسان قشرة سميكة لا تخرق من المشاكل والوساوس النفسية ، بحيث لم يتمكن من أن يخرج فينطلق متحرراً من قيودها ، وardاً إلى عالم السرور والطمأنينة ، عند ذلك نطلق عليه أنه مصاب بالمرض النفسي الجسدي «^(١)» .

ويقول (فرويد) :

« إن الإنسان الوحشيّ كان يُشبع غرائزه أحسن وأفضل من الإنسان المتحضّر اليوم ، وكانت حياته بعيدة عن القلق والاضطراب ، ولم يكن يُصاب بالأمراض الروحية ، ولكنّه منذ دخلت الصناعة والحضارة الحديثة بوابة الوجود وأصبح البشر متحضّراً ، عرضت عليه أمراض نفسية شديدة »^(٢) .

عوامل الآلام النفسية

إنّ من عوامل القلق والاضطراب هو الاعتماد على طلب الزيادة ، ففي الأجواء التي تدور أفكار الناس على المحاور المادية ، وتكون فيها الثروة واللذة الفانية هي مقياس السعادة والشقاء ، ويكون كل واحد فيها في سعي دائم لإشباع شهواته النفسية ، في هكذا مجتمع لا شك أنّ الحياة ستكون مليئة بالضغوط والآلام ؛ ذلك أنّ مساعي الإنسان مهما كانت واسعة فإنّها لا تقدر على كفاية حرصه وتحقيق كل آماله وأمانيه ، وكثيراً ما توجد بين ميوله وأهدافه

(١) بالفارسية : كليدهای خوشبختی .

(٢) بالفارسية : روانشناسی در خدمت سیاست : ١٣١ .

والوصول إليها سدود رصينة لا يقدر على اقتحامها وتجاوزها ، وبالتالي يصاب بمختلف الآلام والوساوس ، وباضطراب أفكاره تتألم نفسه وأعصابه بشدة . ومن ناحية أخرى فبما أنه قد علق آماله بأمور غير ثابتة هي معرضة للفناء والزوال في كل لحظة ، فهي بما فيها من جمال زائل قد تعلق بها قلبه لا تقدر على أن تمنحه السكون والطمأنينة في حياته المليئة بالاضطرابات ، وطبيعي أن مثل هذا الإنسان لا يُحسّ في نفسه بالسعادة أبداً .

إن فكرة الفناء والزوال المطلق عامل مهم في إصابة النفس بالآلام مُنهكة ، وأنه إذا افترض الموت آخر مراحل الحياة ونهاية كل شيء ، فإنّ شبح العدم المهول سيخيّم على النفس ، وسيجعل أيّ نشاط في الحياة مرّاً ، واليأس العارض له ولا سيّما في آخر عمره والضغط النفسية بصورة عامة ستجعله في معرض عذاب أليم .

كذلك الإضطراب الناتج من الخوف والشعور بمواجهة خطر مجهول ، من دون أن يقدر على أن يعيّن مصدر خوفه المجهول ، وسائر الأفكار والخيبات والأوهام ستزلزل استقرار نفسه ، وستصبح كمطارق ثقيلة تجعل أعصابه المتعبة تحت ثقلها ووطأتها .

فمنهم من يشكو من عدم الأمن على ماله ويشكو المشاكل الاقتصادية ، فهو في قلق دائم ، ومنهم من يشعر بالخوف من كثرة ماله وثرائه وقد حاصرته آلاف المشاكل المالية . ومنهم من يتصوّر أنّ قيامه بالتزاماته المالية صعبة للغاية لما يواجهه من مشاكل ، فهو لذلك يرى من حقّه أن يكون في خوف دائم . ومنهم من يعتاد الانتقاد والتوقف على الأمور الجزئية بحيث يتعب نفسه ومن حوله ويتبرّمون منه ، فهم لإبراز غضبهم يبحثون عن الذرائع والحجج ، من أجل أن يبدؤوا بالشكوى والأنين .

وفي ظلام الليالي المظلمة بالخصوص تتسم مشاكل الحياة بصورة مهولة ، في حين أن التعب الناتج من الأعمال اليومية يغطّي على عقله ، فيخمد عقله عن

إصدار الأحكام الصحيحة ، بينما الخيال باق على نشاطه وفعاليته ، فعندئذ يرى الخيال والأوهام أنّ لا معارض لجولانها في ساحة أفكار الإنسان ، فتقوم بتعذيبه بشدة .

إنّ من يقع ضحية الخوف والأفكار القلقة على أثر بعض أخطائه الصغيرة (أو الكبيرة) عليه أن يعلم أنّه إذا صدر منه ما كان ينبغي أن لا يصدر ، فإنّ حكّ الفكر بمبرد القلق والاضطراب ممّا لا عائد فيه . ثم هو لا يحقّ له أن يشكو ممّا يواجهه من مصائب نتيجة لأعماله السالفة ، فإنّ من غرس بذرة فعليه أن يحصد منتوجه ، فإن كان قد غرس بذر فساد فمن الجاني ؟ أهمل له أن يحمل ذلك على الدهر فيتهمه في ذلك ؟ ! .

إنّ الإنسان إذا أراد أن يخاف مما ارتكبه من الخطأ ويرى عواقبه وآثاره كبيرة أكبر من واقعها ، فإنّه ينشغل بذلك عن التفكير في العلاج ، إذ لا يمكن أن يفكر المرء في موضوعين .

من المسلّم به أنّه ليس بإمكان الإنسان أن يوفّق لحل مشاكل حياته بالقلق والاضطراب ، وأنّ التشويش لا يزيد في مهارة من ارتكب خطأ ليقوم بجبرانه ، وأنّه لا أثر للحسرة والأسف فيما سلف من ذلك ، وأنّ ذلك لا يُغيّر من كميّة سير الحياة الفاتنة في ظلام العدم ، وأنّ النتيجة الوحيدة التي يحصل عليها الإنسان من هذه الأفكار السوداء هي أن تظلم حياته ويبطل نشاطه .

بل لا بدّ من استقرار الخاطر كي يتمكن الإنسان من أن يجد طريق الحلّ بتدبيره ، ثم يسعى لكي لا يتكرر خطأه . نعم بالفكرة الرشيدة يتمكّن الإنسان من أن ينظّم خصائصه الأخلاقية .

الإكثار من التفكير في المستقبل المجهول

إنّ لكميّة التفكير الذي يصرفه الإنسان في حاله أو مستقبله أثراً كبيراً في استقراره النفسي ، فهناك من يهتمّ بالنسبة إلى المستقبل أكثر من اللازم بكثير فهم

بالتالي يفتقدون فرصة التمتع بحاضرهم . أو لا يهددهم خطر في الحال الحاضر ولكنهم يحذرون أن تصيبهم فتنة أو حادثة أليمة في المستقبل ، فتسيطر على نفوسهم وحشة كبيرة كما لو كان الخطر واقعاً حقيقة .

بينما علينا أن نلتفت إلى أن الماضي لا يؤثر في الحاضر ، ولا يمكننا التنبؤ بالمستقبل ، إن ما ينبغي أن يؤلم الإنسان ويقلقه من حوادث المستقبل هو ما كان وقوعه قطعياً مئة بالمئة ، ومن نافذة القول أن ذلك قليل جداً ، إذ قليلاً ما يتفق أن يطابق وقوع الحوادث في المستقبل مع ما يتنبأه الإنسان تماماً .

كتب أحد الدارسين في المؤسسة الفنية لدليل كارينجي يقول :

« لاحظوا جيداً أنكم تتوجهون بالتقدير بين أصدقائكم وحتى أقربائكم أصحاب الأفكار الإيجابية وتحبون أن تكونوا معهم في الأكثر ، وتلاحظون أن فيهم كذلك أصحاب الأفكار السلبية ممن تنبرمون بوجودهم ومزاحمتهم .

إن أصحاب الأفكار الإيجابية أكثر سروراً وحيوية ونشاطاً ، إنهم يقومون بأعمال وينجزونها ، ومن الطبيعي أن يكثر خطأهم أيضاً ، ولكنهم يتمتعون من الفكر ما يقفون به على أخطائهم فيصلحونها ، ولهم من الإرادة الجادة ما يستأنفون به أعمالهم وجهودهم . إن هؤلاء لا يهدرون أوقاتهم بالقلق والاضطراب بالنسبة إلى ما قد لا يكون أصلاً .

إن في كل أربع وعشرين ساعة يدخل فضاء الأرض من الأحجار السماوية أكثر من عشرين مليون صخرة ، ولكننا لم نر لحد الآن في أي مكان وزمان من يقتل بواحدة من هذه الصخور .

ويقول (مارك توين) :

« أنا رجل كبير وأعرف كثيراً من المشاكل والمصائب وأعلم بها ، ولكنني أعلم أن كثيراً منها لم تقع أصلاً .

إن الحياة نهر جار من المشاكل ، ولا بد لكل مشكلة من قرار مواجهة .

وإن كثيراً منها مما نهمّ به ونسمح له أن يؤلّنا وأن يحطّم سعادتنا لعدة ساعات بل كل ذلك النهار ، هو في الواقع ممّا لا أهمية له ولا أثر ، ولكن المشكلة في الواقع هي أننا لا نتمكن من أن نفكر في قلة الاهتمام بها في حينها»^(١) .

وسواء تحققت تلك الأخطار أو لم تتحقق ، فإنه لا فائدة في ذلك الخوف والقلق الحاضر سوى استنزاف شيء من القوى المعنوية والبدنية . إنّ من الممكن أن يواجه الإنسان في مختلف مراحل عمره حوادث تسدّ عليه طريق الموفقية في الحياة . لكن لا جديد في هذه الحوادث ، وهي تقع للجميع ، ولا نستطيع نحن أن نغيّر النواميس الكونية الطبيعية فنسخّها لصالحنا . لكن هذا كله من الخطر الخارج عن كيّاننا .

ولا يقل الخطر الذي يهدّدنا من الداخل عن تلك الأخطار الخارجية عن وجودنا ، بل كثيراً ما يكون الخطر الداخلي أشدّ وأكثر من الخطر الخارجي . إنّ في داخل أي فرد ممّا قوى هدامة تهدّد استمرار حياتنا . وذلك الخطر المتكدّس في كيّاننا هو خطر القلق والاضطراب ، والذي قد يصاب به الإنسان وهو لا يشعر بوجوده .

لو كانت تلك القوى الجسدية والفكرية التي تنعدم بفعل القلق والخوف من توهم الحوادث ، لو كانت تصرف في الأعمال الإيجابية كم كانت تثمر من نتائج قيمة وملفّته للنظر .

ليتذكّر كل واحد ممّا كم صرف من عمره الثمين في التفكير في كيفية مواجهة الحوادث المحتملة ، وباستثناء موارد قليلة فإنّ تلك المشاكل والمصائب التي تصيبنا أقلّ بكثير من الآلام التي نتحمّلها بما نتصوره من حوادث المستقبل .

كتب (كرونين) يقول :

« أعدّوا فهرساً ممّا ترونه السبب في قلقكم واضطرابكم ، فإذا رأينا علل

(١) عن الترجمة الفارسية : تفكر صحيح : ١٠٨ .

القلق على الورق فإننا نلاحظ أنّها جملة مبهمة بل لا أهمية لها . في أكثر الأحيان تنتظم صحيفة اضطراباتنا هكذا : أربعون بالمائة من المصائب التي لا تحدث أبداً ، وثلاثون بالمائة من الهموم والغموم الماضية والآتية ، ممّا لا يؤثر فيه ما لو أجمع أهل العالم على التألم له ، واثنا عشر بالمائة من مخوف لا أساس له على فقدان الصحة والعافية ، وعشرة بالمائة من المواضيع الجزئية التي لا أهمية لها ، وثمانية بالمائة فقط قد تكون أسباباً واقعية للقلق والاضطراب . إن التجربة تدلّنا بصورة قطعية إلى أن نحذف عدداً من أسباب القلق غير الواقعية ، فإنّ ما نخافه أكثر من كل شيء لا يتحقق منه شيء إلا نادراً ، ومع ذلك فما أكثر ما نتجرعه من هستريا الأحزان على حالنا ومستقبلنا .

لنحدث تحوّلاً في حياتنا بأن لا نرى أنفسنا محوراً لها ، بل ندرك حقيقة أنّ وجودنا إنّما هو جزء من المجتمع البشري ، وأنّ حياتنا تتبع في خيرها وشرها للأسرة والجماعة والأمة والفرق التي نحن ننتمي إليها .

إنّنا بعد أن نحلّل المشاكل فلا نجد لها حلاً ، فمن الكفر والإلحاد أن نبقي محزونين لذلك ، فإنّ هذا اليأس من فرج الله يحكي عن عدم الاعتقاد بالحاجة إلى عون الله تعالى . وسوف لا تنفع من يبقى رهين الأحزان أية حكمة أو فلسفة مهما كانت حكيمة عالية . إنّنا إذا اتّبعتنا حكم العقل فعملنا بالحكمة في حياتنا بلغنا إلى قمة لا يبلغها عدوّنا ، وسنصل بذلك إلى حقيقة الراحة النفسية»^(١) .

إنّ القلق الفكري يبدو أثره واضحاً في جميع الأعمال التي تتم باليدين ، وقد يتّجه الإنسان إلى ردود فعل وسبل منحرفة وطرق ملتوية غير معقولة . ومن أضرار اضطراب الفكر أنّه يفقد صاحبه الطمأنينة وإحساس الثقة .

لقد اعتاد كثير من الناس على أن يشكو دهرهم وحظّهم ، ولا يبدون

(١) بالفارسية : دانستينهای جهان علم : ٤٨ - ٥١ .

الرضا من حياتهم ، إنهم يتصورون أنهم لا يستطيعون أن يتمتعوا بحياتهم ما لم تستقم أعمارهم ، وما لم تكثر أموالهم و ثراؤهم ، وما لم يمتلكوا وسائل الرفاه والراحة التامة ، فهم يفتشون عن السعادة في الآفاق البعيدة ، ولذلك فهم يخسرون رأسمال أعمارهم - وهي الدقائق التي تمرّ عليهم - لأحلام مستقبلهم .

في حين أنهم لو كانوا يريدون سعادتهم واقعاً ، لكان بإمكانهم أن يكتشفوا السعادة في نفس حياتهم الآمنة وإن كانت حقيرة في جانبها المادي . فإنّ أساس الحياة إنّما يبتنى على اليوم الحاضر ، أما الغد الذي يأملونه وكأنّه يتجلى لهم جنة الحياة فإنّه ما إن يصل حتى يتجلى لهم كجحيم هائل .

إنّ الذي يحسّ بالتعب والتبرّم من حياته الحاضرة فهو ينتظر في الآفاق المظلمة المجهولة أوضاعاً أجمل وأكمل ، عليه أن يتنبّه من نوم غفلته ويبحث عن أمله الضائع في نفس هذه الأيام المملّة الحاضرة لا في مرآة الخيال من المستقبل المجهول ، فإنّ الموانع التي يراها على طريقه دون تحقيق آماله إنّما هي من نتاج أفكاره هو ، وإن توفيقه وسعادته في باطن يومه الحاضر . فإن لم يغرس اليوم غرساً فإنّه سوف لا يحصد شيئاً ، وليس العمر مكرراً كي نصحّح أخطاءنا فيما نستقبل من أعمارنا .

إنّ الإنسان العاقل يفيد أكثر إفادة من كل دقيقة تمر من عمره ، وكأنّها قطرات أمطار تصبّ في بحر العدم المظلم ، فهو لا يخسر بلا فائدة ، ولذلك فهو كل يوم في تقدم ، وأفق حياته أكثر نوراً وإضاءة ، وروحه في معنوية وانفتاح وتوسّع . فهو يصون موقعه في مواجهة الحوادث المؤلمة كقطب الرحي ، فالحوادث إن مرّت عليه كالعاصفة فإنّه لا يزل ولا يتعثّر ، بل يفيد منها أحسن إفادة ، فهو يأخذ منها دروساً من العظات والعبر ، ولا ينتظر أن يتغيّر العالم فيوافق أحلامه وتصوراته . وبالتالي فإنّه يُقضي ساعات عمره بحيث إذا انقضى كل يوم منها فإنّه لا يكون نادماً أو متحسراً على ذلك .

وهناك آخرون لا يبالون بالحاضر والمستقبل ، إنهم لا يهتمهم اليوم ولا

يحملون ولا يأملون أملاً في المستقبل ، بل إنهم لا قرار لهم فهم في حسرة دائمة على ما فاتهم من الفرص والمناسبات الذهبية التي قد دفنت في مقبرة العدم . فهم بدل أن يتابعوا سبيلهم في ساحة الحياة بكل ثقة وطمأنينة ، يتلفّتون إلى ما وراءهم ، كتائه في البيداء الشاسعة ، يعيدون النظر فيما واجهوه من حوادث مشؤومة وما كان لهم من أخطاء فيها ، وهكذا يخسرون بقية أعمارهم الثمينة ، وهم سوف يتحسّرون على ما يضيّعون من هذه الفرص من أعمارهم في المستقبل .

ولا شك أننا لا نحرز أيّ تقدم في أعمالنا بتذكّرنا للحوادث المؤلة السالفة وأخطائنا فيها ، وتحرقنا عليها بنار الهموم والغموم . أضف إلى ذلك أن الروح تتعب بهذا ، والطاقات تذهب هدرًا ، ولا يقدر الفرد على اختيار سبيله الصحيح وفقاً لمصلحه .

ونحن حينما نقول إنّ عليه أن يلتفت إلى وقته الحاضر ، لا نعني بذلك أن يعمل اليوم عملاً سوف يرى ثماره المرّة غدًا ، أو أن يوقد اليوم ناراً يحترق هو فيها غدًا ، بل نقول : لا ينبغي أن يكون اليوم مضطرباً من خوف غده فيعدم راحته أسفاً على ما فات وحذراً ممّا سيمرّ .

اتخاذ الأساليب المنحرفة

إنّ الحاجة والحرمان يولدان الآلام . ولهذا نرى الناس دائماً في كفاح ضدهما ، أمّا الذين تؤمّن حاجاتهم الماديّة فهم يصابون بنوع من الكسل والملل والألم الروحي ، وللتخلّص ممّا يجدونه من قلق واضطراب يختارون طرقاً وأساليب حسب ميولهم وأهوائهم تؤدّي بهم في أكثر الأحيان إلى إهدار طاقاتهم الحيوية وقواهم العقلية ! فإنهم مثلاً يلجأون إلى الكحول أو المواد المخدّرة الأخرى ، ويصابون بهذه الابتلاءات الجهنميّة ، وهم يزعمون التخلّص من آلامهم النفسية ولو لفترات قصيرة ! .

إن أكثر هؤلاء إنما يفكرون في هذه الأحوال - فراراً من ضغط الهموم والغموم والأحزان - فيما قاله الشاعر الفارسي : « سأتفق أنا والساقى للعتق من الرق » ! وهو لا يقصد سوى أنه للإنعتاق من رق الغموم ونيران الأحزان لا سبيل له إلا اللجوء إلى سكر الشراب وتخديره ! .

بينما الحقيقة هي أن هؤلاء يهدمون بذلك أساس سعادتهم بأيديهم ، وإلا فإنه يعلم الجميع أن الإبتلاء والتلوث بهذه الأمور للتخلص من الاضطراب والالام الروحية ، سوف لا يثمر النتائج المرجوة منها ، فبمحض ما يزول أثر التخدير يحيط به ما كان فيه من الألم والعذاب ، ويضغط عليه الضغط الشديد . على أن أثر هذه المخدرات يقل شيئاً فشيئاً مع استمرار استعمالها تدريجياً ، وستكون هي منشأ لكثير من الشقاء والأمراض تأخذ برقبته .

ويشرح بعض علماء النفس علل لجوء الإنسان إلى الكحول فيقول :

« إن شاربى الكحول غير قادرين على إشباع رغباتهم في هذه الحياة المعقدة ، ولذلك فهم للفرار من المشاكل من خلال التصورات السوادية يلجأون إلى شرب المياه الكحولية ، وهي تعود بالأثر السيئ على الأعصاب والمخ سريعاً ، والاعتیاد على ذلك يوجب فساد الجهاز العقلي لديهم . والسكران تصدر منه أعمال غير طبيعية مما يعود عليه بأضرار لا يمكن استدراكها ليس في صحته وسلامته فحسب ، بل إنه سوف لا ينجو من مشاكله من خلال هذه السائل المضرّ والمسموم ، بل ينقص بذلك من كرامته لدى أصدقائه وأقرانه وأقربائه وأسرته وعائلته وبيته . إنه حينما يؤوب إلى حالته الاعتيادية تقصر طاقته عن مواجهة مشاكله . فهو بشر به الكحول لا يحصل على أي تقدم في حل مشاكله ، وإنما يضيف ذلك إلى مشاكله وأتاعبه ، وهذا مما يجره إلى الإقبال على الكحول مرة أخرى ! .

إن حالات شارب الخمر تُشبه حالة المتخيل ، إلا أن لشرب الخمر أضراراً جسدية أكثر ، ويجمع بينهما أنها لا يحاولان حل مشاكلهما بالطرق المعقولة

وإنما هما يريدان الفرار بالخيال ، وحيث أن هذا الفرار لا يكون أبدياً فإنهما سيرجعان إلى عالم الحقيقة والواقع وحينئذ يكون اصطدامهما بالواقع أكثر حزنًا وكآبة من ذي قبل»^(١) .

إنّ للأفكار آثاراً عميقة في الاستقرار الروحي للإنسان ، وبكلمة فإنّ الحالة الروحية لكل أحد ترتبط بطريقة وأسلوب تفكيره . وهناك مختلف العوامل التي تؤثر في طريقة وكيفية تفكير الأفراد ؛ فالذي يتمتع بعقلية فعّالة نشطة لا يتعرّض لعواصف القنوط المطلق ولا يُظلم العالم في عينيه بمحض ما يبأس من الإفادة من عالم المادة ، بل إنه سيستدّ منافذ روحه على الأمور المادية ويحاول الإفادة من اللذات المعنوية ، ولهذا فإنّه بذلك يبعث بنفسه إلى عالم يتحرر فيه من أسر الآلام ويرتوي فيه بكأس السعادة . في حين أنّ أصحاب النظرة الضيقة من أجل الإنطلاق من قيود القلق يلجأون إلى الإفادة من وسائل عالم المادة ، وحيث أنّ أهواء الإنسان في تحوّل وتغيّر دائم ، والعالم بدوره لا يبقى فيه شيء ثابتاً على حالة واحدة ، فإذا كانت سعادة الإنسان مرتبطة بأمر آخرى كانت كذلك في معرض الزوال والعدم . ولهذا فإنّ مثل هذا الإنسان يكون كالغريق في بحر محيط عميق يتشبّث بكل حشيش ، ويتوسّل بأموال لا تقوم بإنقاذه ، وبالتالي فإنّ أيّاً من المواد الفانية غير الباقية لا تقدر على أن تمنحه القرار والثبات .

يشرح (كارلوس) شقاء هؤلاء فيقول :

« ترى أحدهم من أجل أن يفر من الكسل الذي يُحسّه يترك قصره الجميل ويتشبّث عبثاً بمختلف الوسائل . وآخر يبتعد عن زوجته وأولاده بسرعة ، وكأنّه يُسرّع إلى إطفاء حريق ، ولكنّه من دون أن يصل إلى هدفه يواجه عدوّه اللدود أعني الألم والكسل الروحي فيه ، فيرجع إليهم بنفس السرعة التي فرّ بها منهم ، وهو هكذا لا يزال كالمجانين في ضلال وضياع»^(٢) .

(١) بالفارسية : روانشناسی برای زیستی : ٢٣٠ .

(٢) بالفارسية : أفكار شوبنهاور : ٦٤ .

الآلام النفسية وآثارها العميقة

إنّ الإنسان لا بدّ له في سبيل حصوله على حاجاته في حياته من تحمل كثير من المشاكل والآلام الجسدية والنفسية ، فإنّ من خلال هذا السعي الحثيث الذي يقوم به لإعداد وسائل راحته المادية ، تتعالى قواه العقلية والروحية ، ويتقدم نحو الكمال .

إنّ للمشاكل والآلام آثاراً عميقة وواسعة في حياة البشر ، فإنّ القوى النفسية تنهذب تحت ضغط المصائب ، وتتجلى في ظلام الآلام أكثر .

إنّ الإنسان لو لم يتألم من جهله منذ الأيام الأولى من حياته لما كان يحاول أن يعالج جهله هذا ، ولكان يبقى في ظلمات الجهل والتوحش ، ولما كنّا نرى اليوم أثراً من مظاهر عقله وذوقه وأخلاقه . إنّ إحساسه بألم الجهل هو الذي دفعه إلى أن يقوم بمقاومته والكفاح ضده .

إنّ أساس كل تكامل للإنسان وكل تقدم له في الأمور الفردية والاجتماعية والمدنية إنّما بُني على هذه القاعدة ومن خلال هذا المنطلق ، وإنّ أكثر الانتفاضات الاجتماعية الكبرى التي أصبحت عنواناً لتقدم الإنسان ومنطلقاً لتعالیه ، إنّما ظهرت نتيجةً لمشاكل وصعوبات لا تطاق . إنّ الصعوبات والحوادث المرة وإن كان ظاهرها نجّاً مرّاً ، واللذات والشهوات وإن كانت عذبةً مرضيّةً ، إلّا أنّ الواقع والحقيقة أن الأمر بالعكس تماماً ؛ فإنّ تبعيّة اللذات والأهواء تستتبع الإنحطاط والشقاء والتعاسة ، بينما تستبطن المصائب والمشاكل السعادة والهناء ، وإنّ هناك تلازماً قطعياً بين تحمّل الآلام ونيل السعادة ، وإنّ العلاقة بين المشاكل والمصائب والسعادة والكمالات علاقة سببية .

يقول (هيجل) الفيلسوف الألماني بهذا الصدد :

« إنّ تنازع البقاء هو قانون التقدم والتطور ، وإنّ الصفات والسجایا إنّما تتكوّن وتتكامل في معركة البلبل والقلاقل ، وإنّما يبلغ الفرد قمة تعالیه من

خلال الآلام وتحمل المسؤوليات والقلق والاضطراب ، وإن وقوع الآلام أمر معقول وهو سمة الحياة وهو كذلك الدافع إلى الإصلاح فيها .

وليست الحياة للاستقرار والرضى الناشئ عنه ، بل إنما هي للتكامل فيها وإن تاريخ العالم ليس صعيداً للسعادة والهناء ، بل إن أدوار السعادة فيها إنما تشكّل منها تلك الصعوبات الباهتة الميّنة غير ذات الروح والحيوية ، فإنها إنما هي أدوار الإلتهام والإنسجام والتناغم ، وإن رضا الخاطر الناشئ عن ذلك لا يليق بالمرء ، فإن التاريخ إنما يصنعه ، ويسطره ما يسجله التكامل الإنساني من حلّ لتناقضات العالم»^(١) .

إن الصاغة وأصحاب الصناعات إذا أرادوا أن يخلّصوا المعادن من المواد الزائدة ، ذوّبوها في النار ، وإن لمصائب الحياة نفس هذا الأثر على بني آدم ، فإنها تطهره وتنزّيه عما يلوّثه ، وتعدّه لكي يقوم بتكاليفه الإنسانية . وبكلمة : فإنه لا يمكن ضمان سعادة أي فرد من أفراد البشر وبقائه إلا في ظلّ الآلام والمشاكل ، كما جاء في القرآن الكريم قوله سبحانه : ﴿ لقد خلقنا الإنسان في كبد ﴾^(٢) .

وعن الإمام الصادق (عليه السلام) أنّه قال :
« إن أشدّ الناس بلاءً : الأنبياء ، ثم الذين يلونهم الأمثل فالأمثل »^(٣) .

ويقول (مولوي) عن هذه الحقيقة :

« أودعوا في الأرض حبة	حصدوا منها سنابل
طحنوها في المطاحن	خبزوا منها المأكّل
كرّروا الطحن بأسنا	ن حدادٍ وفواصل

(١) عن الترجمة الفارسية لتاريخ الفلسفة لويل دورانت : ٢٤٩ .

(٢) سورة البلد : الآية ٤ .

(٣) بحار الأنوار ١٥ : ٥٣ ط قديم .

حصلت منها ثمار الرّوح بل كل الفضائل» (١)
ويقول أحد العلماء الغربيين :

« إنّ المشاكل والمشاق تجعل الإنسان في موقعية الاختبار أكثر من حالة الراحة ، فتبدي ما في باطنه من مزايا ومحسنات. إنّ المشاكل والصعوبات بمثابة اختبار لأخلاق الإنسان ، فكما أنّ بعض النباتات يجب أن تفرك كي يشمّ منها رائحتها الطيبة كذلك بعض الطبائع يجب أن تصاب بالصعاب كي تتجلّى فيها فضائلها وملكاتنا الذاتية .

لا راحة في هذا العالم لا تتبدّل إلى ألم ومصيبة ، كما أنّه لا مشكلة لا تؤدّي في النهاية إلى السعادة والهناء ، وما يعود علينا من نتائج في هذه الحالات يعود إلى كيفية إفادتنا منها .

لا يمكن أن نجد في هذه الحياة راحة وسعادة تامة ، وعلى فرض ذلك فلا فائدة فيها . فإنّ المشاكل والانتكاسات مؤدّب أفضل من الهناء والراحة ، وإنّ الانتكاسات تصلح طبيعة الفرد وتقوّي من روحيّته ومعنويّته ، وإنّ الآلام والمشاكل تهذّب طبيعة الإنسان وتوقظها ، وتعلّمه الصبر والحلم ، وتنمّي فيه أسمى الأفكار والخيالات . يتساءل هير : ما هو الذي يسبّب توسعة الأفكار وعمقها في نوع الإنسان ؟ ليس ذلك هو العلم والمعارف ، وليس الكفاءة والفن ، وليس العواطف والأحاسيس ، بل إنّما هي الآلام والمحن التي بإمكانها أن تشقّ أعماق الفكر الإنساني . ولعلّه لهذا نرى العالم مليئاً بالآلام . إنّ الملك الموكل بمشاكل الناس ومصائبهم قد خدم البشر في هذه الحياة أكثر من الملك

(١) الأبيات في الأصل الفارسي :

بِس زَخَاكُش خَوْشِه هَا بِرَسَاخْت	گَنْدِ رَا زِ بِرَخَاكْ آندَا خَتَنَد
قِمِشْ آفَرَاوَن وَثَان شَدَجَان قَزَا	بَارْدِیْگَر کُوفْتَنَد شَن زَا سِیَا
گَشْت عَقْل وَجَان وَفَهْم سُوْدَمَنْد	بَا زَنَان رَا زِ یَرْدَنْدَان کُوفْتَنَد

وتعريب الشعر للمعرّب .

الذي جاء لهم بالشفاء والعلاج»^(١)

أثر الإيمان في طمأنينة النفس

إنَّ التحقيق في تاريخ التقدم البشري يثبت لنا أنَّ أركان حضارة الإنسان وثقافته كانت ولا تزال على عاتق من كان « إيمانهم » يهون عليهم تحمّل الأحمال الثقالة من الآلام والمشاكل ، فهم قد أحبطوا بإيمانهم آثار المصائب والآلام في قلوبهم القويّة المقتدرة .

يعترف علماء النفس بصورة عامة أنَّ « للإيمان » ثماراً عجيبة وغير اعتيادية في علاج الآلام الروحية ولإيجاد الطمأنينة والراحة الباطنية .

حينما تحطّم المشاكل المنهكة شخصية الإنسان ، وتسلبه الإرادة والأمل ، فإنَّ الإيمان والتوكّل على الله يمنح روحه المنهزمة أثراً كبيراً لا ينكر . إنَّ خيبة الآمال والمشاكل والانتكاسات لا تقدر أن تثير في ضمير الرجال الربّانيين أية إثارة ، ولا أن تصيبهم بالضعف واليأس وانعدام الشخصية .

كتب عالم النفس المعاصر (يونك) يقول :

« لم نكن نجد بين المصابين بالأمراض النفسية من أصحاب الأعمار ٣٥ عاماً والأكثر ، حتى شخصاً واحداً لم تكن ترجع مشكلته النفسية إلى عوز في الإيمان الديني . والأفضل أن نقول : إنَّ كل واحد منهم كان مريضاً بعلة انعدام معطيات الدين فيه ، ولم يُعالج ولم يُشف أيّ واحد منهم من دون استعادته لإيمانه الديني »^(٢) .

إنَّ الإيمان بالله نافذة أمان لإيجاد التوازن في الأهواء النفسية التي هي منشأ لكثير من الاضطرابات النفسية ، وبالإيمان بالله تتكامل صورة الحياة ، فإنَّ

(١) بالفارسية : أخلاق ساموئيل ٢ : ٢٠٤ .

(٢) بالفارسية : جهان مآذيات : ٤١ .

الإنسان حينما يعتقد أنَّ الحياة لا تنتهي بانتهاء هذه الدنيا سيحدث ذلك في نفسه طمأنينة خاصّة ، وسيخطو في حياته بصورة معتدلة نسبياً .

وبالإيمان بالله وتنفيذ القواعد الدينية الأخلاقية سيترن فيه حبّ التكاثّر ، واكتناز الأموال ، والذي هو من عوامل اضطراب الخواطر النفسية ، فإنّ الإنسان بتأميله الثواب العظيم وخوفه من العقاب الشديد يحذر من أن يهجم هجمة همجيّة وبلا رويّة وبصورة غير معقولة ولا مشروعة وبلا حساب على تحصيل المال والثروة وزينة الحياة الدنيا ، وبالتالي فإنّه سيتواجد فيه توازن وتعادل يتناسب ومقامه الإنساني .

كذلك الاعتقاد بيوم المعاد والحياة بعد الموت يخفّف عن كاهل الإنسان ثقل تصور العدم والفناء المطلق . إذ هو يعتقد أنّه بالموت ستنتفتح عليه أبواب عالم آخر ، ومن ذلك سيصل إلى الحياة الأبدية والنعم الخالدة ممّا لا يمكن قياسه بلذاث هذا العالم . ومن خلال ذلك سينعدم عامل آخر من عوامل الاضطراب هو خوف الفناء .

إنّ الإيمان لا يرفع الآلام والقلق عن قلب الإنسان فحسب ، بل بإمكانه أن يمنع من هجوم القلق والاضطراب على القلوب فلا تصل إليها . والقرآن الكريم يشير إلى هذه الوقاية الإيمانية فيقول : ﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (١) .

في هذه الآية ذكر الله تعالى أنّ الإيمان يوجد درعاً متيناً لروح الإنسان أمام عوامل الآلام النفسية ، وكذلك تحدث في الإنسان حصانة خاصة ضدها . إنّ الإنسان حتى لو لم يكن يتّصف بإيمان كامل ولذلك فقد عَشَّشَتْ عوامل الآلام في باطن نفسه ، مع ذلك فلا شيء سوى الإيمان الذي باستناده يمكن أن تتحرّر الخواطر من ثقل الهموم والغموم وأن تزول آثار الآلام عن ضمير القلوب ،

(١) سورة آل عمران : الآية ١٣٣ .

والقرآن الكريم يقول : ﴿ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ ^(١) . و ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ^(٢) و ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ ﴾ ^(٣) و ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ ^(٤) .

ويقول أمير المؤمنين (عليه السلام) ضمن خطبة في ذكر ثمار ذكر الله وأوصاف الرجال الربانيين :

« إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَعَلَ الذِّكْرَ جَلَاءً لِلْقُلُوبِ ، تَسْمَعُ بِهِ بَعْدَ الْوَقْفَةِ ، وَتَبْصُرُ بِهِ بَعْدَ الْعَشْوَةِ ، وَتَنْقَادُ بِهِ بَعْدَ الْمَعَانِدَةِ . وَمَا بَرَحَ اللَّهُ - عَزَّتْ آلَاؤُهُ - فِي الْبَرِّهِةِ بَعْدَ الْبَرِّهِةِ ، وَفِي أَزْمَانِ الْفَتَرَاتِ رِجَالٌ نَادَاهُمْ فِي فِكْرِهِمْ ، وَكَلَّمَهُمْ فِي ذَاتِ عَقُولِهِمْ » ^(٥) .

لا يمكننا أن نقارن أو نقيس حال المؤمنين بالماديين غير المتديّنين في مواجهتهم للحوادث الممرّة في الحياة، فإنّ الاختلاف بينهما كاختلاف الأرض عن السماء ! .

كتب مؤرّخو السيرة : إنّ إحدى النساء المسلمات في المدينة بلغها الخبر : أنّها قد فقدت في جبهة حرب « أحد » ثلاثة من أعزّائها . فتوجّهت نحو أحد ومعها جمل كي تحمل عليه أجساد أعزّائها الشهداء ، وحملت أجساد أعزّائها المضرجة بدمائها على البعير ورجعت بهم نحو المدينة . وفي أثناء الطريق تلاقت معها عائشة زوج النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) « كانت قد خرجت في نسوة تستروح الخبر - ولم يضرب الحجاب يومئذ - لقيتها وهي هابطة من بني حارثة إلى الوادي بمنقطع الحرّة ، فقالت عائشة ، عندك الخبر ، فما وراءك ؟

(١) سورة الرعد : الآية ٢٨ .

(٢) سورة الفتح : الآية ٣ .

(٣) سورة الأنعام : الآية ٨٢ .

(٤) سورة يونس : الآية ٦٢ .

(٥) نهج البلاغة : ٣٤٢ ط الصالح .

فقلت هند بنت عمرو بن حزام : خيراً ، أما رسول الله فصالح ، وكلّ مصيبة بعده جليل « أي صغير ^(١) .

فأيّ عامل هذا سوى الإيمان بإمكانه أن يمنح روح هذه المصابة هكذا طمأنينة وسكون ؟ ! .

يقول (جان جاك روسو) :

«إننا لو كنّا من الموجودات الخالدة التي لا تفنى لكنّا أشقياء جدّاً؛ ولا شك أنّ الموت أمر مشكل وصعب ، إلّا أنّ الأمل بأننا لا نعيش هكذا دائماً وأنّ هناك حياة أفضل نختم على آلامنا في هذه الحياة ، أمل يمنح النفس الطمأنينة والسكون . ولو كانوا يهدون إلينا الخلود في الأرض هديةً فمن ذا الذي كان يتقبّل هذه الهدية الأليمة ! وعندئذٍ فأيّ أمل كان يبقى لنا في مصيرنا أمام ظلم الآخرين ؟ ! .

إنّ الجاهل الذي لا يتنبأ بشيء للمستقبل لا يعرف قيمة الحياة جيداً ، ولا يخاف من فواتها . أمّا الإنسان المثقف فإنّه يفضل الحياة بعد الموت على هذه الحياة الأرضية ، نعم إنّما الأفراد ذوو العقل السطحي والسادج والمعرفة الناقصة الذين لا يرون إلّا هذه الحياة الدنيا ، ويرون أنّ الموت أكبر مصائب الإنسان . أمّا العاقل - كل العاقل - فإنّه يرى أنّ ضرورة الموت هي التي تهوّن عليه تحمّل آلام الحياة ^(٢) .

التسليم لأمر الله والرضا بقضاء الله

إنّ من لا رصيد له من الإيمان سينهزم أمام عوامل الطبيعة غير المؤاتية والملائمة له ، فإنّه يرى نفسه أسيراً بيد الطبيعة ومحكوماً لقواها الفهارة والظالمة ،

(١) مغازي الواقدي ١ : ٢٦٥ .

(٢) بالفارسية : إميل : ٩١ .

وهو حتى لو لم ينهزم في أول مواجهة للمصائب والمشاكل ، فإنّه سيغرق بالتالي عند هجوم أمواج حوادث الحياة .

أمّا الذي يستند إلى منطق الدين فإنّه لا يرى أيّ مؤثر في نظام الخلقة سوى إرادة الله تعالى ، ويعتقد أنّ آلام الحياة الخارجة عن حدود اختياره إنّما قدّرت له من قبل الرّب الرحيم لتطهير قلبه وتهذيب روحه ، ولهذا فإنّه لا يسمح للمشاكل والمصائب أن تحبط قواه الروحية ، بل إنّهُ يحتفظ بتوازنه في كل حال ، ويصل بسفينة نفسه في كل حادثة إلى ساحل السعادة والطمأنينة والموقفية بالاستعانة من قوى الله العلي العظيم ، بل إنّهُ تزداد لذّاته الروحية مع تزايد آلامه .

حينما مرض (جابر بن عبد الله الأنصاري) وهو أحد الشخصيات المربيّة في مدرسة الإسلام ، جاء الإمام الباقر (عليه السلام) لعيادته إلى بيته ، وسأله عن حاله .

فقال له جابر : أصبحت أرى الهرم خيراً من الشباب والسقم خيراً من السلامة ، والموت خيراً من الحياة ! .

فقال له الإمام (عليه السلام) : ولكنّا آل رسول الله لسنا كذلك ، فما ارتضاه الله لنا من السقم أو السلامة والشباب أو الهرم ، والموت أو الحياة ، قبلناه وصبرنا على مصائب الحياة » .

ويقول (برتراند راسل) :

« إنّ لحالة التسليم والرضا أثراً في تحقّق السعادة ، ليس بأقلّ من أهمية السعي والعمل لذلك . إنّ العاقل في حين لا يبقى عاطلاً أمام الحوادث المرة الممكنة التغيّر ، لا يُتلف عمره بالفكرة في التعاسة والشقاء الذي لا بدّ منه ، بل حتى في الأمور غير المرغوب فيها الممكنة التغيّر ، إذا كان ما يقتضيه دفعها من الوقت والجهد يعوقه عن الهدف الأسمى استسلم للأمر الواقع .

وقد يغضب البعض من حدوث بعض الأمور غير المرغوب فيها حتى الجزئية منها ، ويفور من حدة الغضب لذلك ، وبذلك فهو يهدر كمية من طاقاته كان بالإمكان أن تصرف في أفضل من ذلك .

حتى في العمل من أجل الأهداف المهمة جداً ليس من العقل أن يعطف الإنسان كل فكره وحواسه إلى ذلك العمل ، بحيث يصبح احتمال الفشل تهديداً دائماً لسلامة خياله وفكره .

فإن من شروط التوفيق في أي عمل هو أن يكون خلواً من شائبة القلق والاضطراب ، فإنهما قد يعوقان عن التقدم والإطّراد والتوفيق . إذن فالصحيح هو أن يقوم الإنسان بكل سعيه ثم يفوض الأمر إلى القدر»^(١) .

طبيعي إنما نعني من حالة التسليم وسلوك سبيل الصبر على ما قدّر الله تعالى ، تلك الحوادث المرة غير الممكنة التنبؤ بها والخارجة عن حيلة قدرة الإنسان وفكرته ، وإلا فما كان من الشقاء والتعاسة مسبباً عن الوضع الاجتماعي الفاسد والغلط والمنحرف عن الإنسانية فإن علينا أن نبحث عن جذور ذلك في أعماق المجتمع وزواياه لنقوم بدورنا فيه من عملية التغيير ، فإن تغيير هذا الوضع التعس من تكليف البشر نفسه . إذن فلا يصح أن نوجه الاستسلام أمام أيّ عدوان على الحق تحت عنوان الصبر على قضاء الله تعالى .

يقول العالم الإنجليزي (آويبوري) :

« إن الإيمان الديني في أيام التعاسة والشقاء أفضل ما نتوصل به لتسليّة أنفسنا ولتخفيف ضغط المصاب عنها . إن الخلود في هذه الحياة الدنيا قليل للإنسان ، وإن وراء هذا الخلود خلود أبدي آخر ، والدين يريد أن يُحدّث روح الإنسان عن تلك الأبدية ويقنعه بها .

من المسلم به أن الدين مفيد جداً لإطمئنان القلوب ولراحة الخواطر

(١) بالفارسية : شاهراه خوشبختی : ٢٦٤ .

النفسانية ، أكثر مما نتصوره بكثير ؛ فإنّ الأفكار الدينية بما لها من جمال وظرافة تحرّنا من قيود الحياة الاعتيادية فتخرج بنا من هذا العالم الأرضي إلى عالم أعلى وأوسع وأجلى وأطيب للقلوب .

إنّ الدين لا يقول لنا بأنّ لا نعتني بحياتنا الدنيا بل إنّما يقول : لنكن في حياتنا شرفاء عفيفين وقورين ، لا نترك أزمة نفوسنا لأهوائنا ، ولا نحرق أرواحنا بنار الحرص والطمع ، ولا بنار الظلم في بيدر آمال الآخرين .

إنّ الدين يريد أن يحدّ حبنا لأنفسنا والذي لا يزال يتعالى ويطغى كشيطان مهول ، يحدّه لئلاّ يذهب أبعد من ذلك فيتلاعب بكيان الآخرين . إنّ الدين يقول لنا : لنقص أعمارنا شرفاء فاضلين ، وأن نجعل التقوى قائدنا متّبعين ، لتسكن أرواحنا وترتاح ضمائرنا ونروى من ينابيع السعادة الأبدية .

إنّ الحياة مليئة بالحوادث ، وما يسترعي انتباهنا نحوه متغيّر بدوره ، ولعلّه يفنى في طيّ الحوادث ، وحيثئذٍ تحيط بأرواحنا ظلمات مهولة فُحسّ بأننا قد سئمنا من الحياة ، فلا خوف فينا ولا أمل ، ولا حبّ بنا ولا بغض . وهذه الأزمة الغريبة لو أضيف إليها ضعف النفس أدّت إلى الإنتحار .

يقول (ماركوس) :

« إنّ صح القول بالمبدأ والمعاد فما أحلى الموت ، وإلاّ فما أمر طعم الحياة » .

وأحياناً ترتفع الأفكار الدينية بنا إلى أسمى حدود حياتنا المادية فتطير بنا في بطون السموات .

حرّروا أفكاركم من قيود الحياة وفكّروا في أسرار الأبدية والحياة والموت ودقائق الكائنات ، فبهذه الطريقة فقط نتمكن من أن نتحرّر من اضطرابات الحياة ، وذلك بأن نجعل أوهام الطفولة تحت أقدامنا ونرتقي عليها ، ونبحث في

عالم الأفكار والتصورات عن الجمال والسرور والسعادة»^(١) .

وكتب عالم النفس (داييل كارينجي) يقول :

« كان أبي يئن تحت ثقل الديون والفقر والتعاسة والشقاء بحيث فقد صحته وسلامته لذلك ، وقال الطبيب لأمي : لم يبق من عمر أبي سوى ستة أشهر . وقرّر أبي تكراراً أن ينهي حياته بتعليق نفسه بالحبال أو بإغراق نفسه في الأنهار . . ثم قصّ أبي عليّ بعد سنين يقول : إنّ العامل الوحيد الذي منعني إذ ذاك من الإنتحار إنّما هو الإيمان الثابت والراسخ لأمّك ، فإنّها كانت ترى أننا لو أجبنّا ربّنا وآتبّعنا أوامره وأطعناه صلحت جميع أمورنا . وكان الحقّ معها ، فقد صلحت بالتالي جميع أمورنا . وعاش أبي بعد ذلك اثنتين وأربعين عاماً عيشة هائلة . وفي طول كل تلك السنين المليئة بالآلام والمشاكل لم تقلق أُمّي قط ، كانت ترفع شكواها عن المشاكل والمصائب إلى ربّها ، وتدعوربّها في بيتها الصغير في القرية أن لا يجرمنّا من حبّه وعونه لنا .

كما تهمني وتؤثّر في حياتي خواص الكهرباء والماء والطعام الجيّد وفوائدها ، كذلك تهمني تماماً بركات الدين وفوائده ومنافعه وخيراته . بل إنّ الكهرباء والماء يُساعداني في توفير حياة أفضل وأكمل وأكثر راحة ، بينما تزيد فوائدهم الدين وقيمته عن كل ذلك بكثير جداً .

إنّ الدين يمنحني الإيمان والأمل والشهامة ، ويُبعد عني القلق والاضطراب والخوف ، ويعينّ لحياتي مساراً وأهدافاً . إنّ الدين يكمل لي سعادتي إلى حدّ كبير يجود عليّ بصحة وسلامة واسعة ، ويساعدني على أن أقيم لنفسي بين أمواج الحياة ، حياةً آمنة مطمئنة هادئة»^(٢) .

العالم الغربي الشهير في القرن العشرين (آينشتاين) بعد أن يشير إلى

(١) بالفارسية : در جستجوی خوشبختی : ٢٠٧ و ٢١٣ و ٢١٧ .

(٢) بالفارسية : آئینی زندگی .

اختلاف الأديان يقترح ديناً يسمّيه : مذهب الوجود ، ثم يصف الإحساس الذي يتمتع به المتدين بهذا الدين فيقول :

« في هذا الدين يُحسّ الإنسان بصغر آماله وأهدافه أمام العظمة والجلال الذي يبدو له في أفكاره وطبيعته عمّا وراء الطبيعة . إنّه يرى وجوده سجنًا بحيث يحاول دائماً أن يطير من هذا القفص فيدرك كل الوجود كحقيقة واحدة »^(١) .

علينا أن نبحث عن علّة التشويش واضطراب الخواطر في كثير من الناس ، في أسلوب تفكيرهم ورؤيتهم للحياة ، إنهم يتصوّرون أنهم إنّما قدموا إلى هذه الحياة ليتمتّعوا بلذاتها بلا أيّ قيد أو شرط ، وإذ يواجهون خلاف ما كانوا يتصوّرون فإنهم يقومون بالشكوى والعتاب على جميع الكائنات والموجودات فضلاً عن أوضاعهم الشخصية .

إنّنا نستطيع أن نتناسى آلامنا ومشاكلنا بالتفكير في آلام الآخرين وتعاستهم وشقائهم ، تماماً كما تنطفئ النار بالماء . وقد يغلط البعض فيتصوّرون أنّ كلّ الآلام والمشاكل قد أخذت بتلابيبهم ، وأن الحياة لا تدعهم يقيمون أصلاهم تحت وطأة مصائبهم .

في حين أنّهم يرون الآخرين بغير ذلك بل يزعمون أنّهم في رفاه وراحة ، وأن لا نصيب لهم من مصائب الحياة .

آمال لا نهاية لها

إنّ تطويل الآمال تسبّب للإنسان أن يكون دائماً يصارع الآلام والأحزان ، وإنّ الذين يتمتعون برؤية واقعية يرون أنّ المال والثراء إذا تجاوزا عن حدّ الاعتدال أصبحا عائقاً عن السعادة وراحة الضمير . إنّ للسعادة والشقاء والراحة والقلق مقاييس خاصة لا تؤثر فيها . إنّ هناك في عالمنا من يتمتع بسعة في

(١) بالفارسية : دينائي كه من مى بينم : ٥٧ .

المال ولكن ضيق في النظر بحيث يشكون من الجوع في عين غناهم ، ولا يرون للراحة في حياتهم مثولاً ، وكثير أولئك الغرقى الذين يشكون العطش ! .
كما قال الشاعر الفارسي : غوثاه ! إنّ طباعنا الفقيرة أخذت تستجدي بأواني الذهب ! .

بل كما عن علي (عليه السلام) في (نهج البلاغة) :
« لا كنز أغنى من القناعة ، ولا مال أذهب للفاقة من الرضا بالقوت ،
ومن اقتصر على بلغة الكفاف فقد انتظم الراحة » .
إنّ تطويل الآمال يسبّب القلق واضطراب الخاطر كما يرى علماء النفس ،
بينما القناعة والاعتدال يمنحان الإنسان الاطمئنان وأمن الخاطر .
إنّ في الطبّ النفسي قانوناً بعنوان « قانون الهناء » يقول :

« كلما قلّ الأمل كثر الأمن ، وكلّما كثر الأمل قلّ الأمن » فكلّما قلّلنا من
كمية توقّعاتنا وآمالنا نكون قد قلّلنا من احتمالات الهزائم وخيبة الآمال ، وبالتالي
فإنّ الخوف وعدم الاستقرار وحالة الانتظار المُميت والقاتل الذي يصيب الإنسان
قبل بلوغ الآمال ، يقلّ بطبيعة الحال . والواقع أن حقيقة « قانون الهناء » ليست
سوى حقيقة « القناعة » .

ولكن علينا أن نلتفت إلى أنّه ليس غرضنا من « قانون الهناء والقناعة » أن
الإنسان يترك المساعي والمحاولات واضعاً يده على الأخرى مستسلماً للأمر
الواقع ؛ بل الغرض من « قانون الهناء » معرفة الإنسان بحدوده واستعداداته
وإمكاناته ، وقناعاته بطاقاته وقدراته . بمعنى أن لا يخطو عن حدود قدرته خطوة
واحدة ، فلا يريد بلا حساب وفي غير الصواب»^(١) .

(١) بالفارسية : آنسوى جهره‌ها : ٤٦ ، ٤٧ .

العلاقة بالحياة الخالدة

إنَّ الإسلام يقود القلوب نحو الحياة الخالدة. إنَّ الإيمان بالمعاد الذي هو إيمان حيّ نابض - يرتفع بشخصية الإنسان من بيئة المادة والإحساس ، ويبعث بقواه إلى تحقيق الآمال الإنسانية السامية ، ولكنّه لا يمنع الإنسان من التمتع بمتاع الحياة الدنيا ؛ إلّا أنّه يمنع من انطلاق النفس في هذا التمتع في ساحة الحياة ، ويجعل دوافع الحرص والطمع الأعمى والأهوج قيد الموازنة والسيطرة .

إنَّ الإنسان إن اعتقد واقعاً بأنّ فرصة الحياة قليلة ومحدودة وأنّ متاعها قليل ، وأنّ اللذات الروحية والمعنوية غير قليلة في هذه الحياة الدنيا أيضاً ؛ عندئذٍ سوف لا يبقى لمتاع هذه الحياة جلاءً جالب في عين هذا المؤمن فلا يأسف ولا يتحسّر .

وكذلك هو لا يصاب بالاضطراب والحزن والخوف لأنّه لم يحز على أكثر ممّا يلزمه لحياته ، وليس شعوره بالنسبة إلى التمتعّات المادية كمستعجل لا يقر له قرار لاستيعاشه من انتهاء آخر يوم قبل موته ، بل إنّه يتمتّع بسكون القلب والأعصاب وراحة الضمير والوجدان ، ولا شك في أنّ هذا السكون والثقة يزيدان في التذاذه بمتع الحياة التي يتمتّع بها عن عقل وروية . إنَّ الإنسان المؤمن يعلم أنّ هذه المتع إنّما هي وسائل للوصول إلى أهداف أعلى وأسمى وأفضل ، وليست هي غايات الحياة وأهدافها حتى يصرف الإنسان كل عمره في سبيل تحصيلها ، ثم هو يفقد استقامته المعنوية والروحية في ذلك .

إنّ ضغط الاضطرابات والأحزان المنهكة تؤدّي إلى الأمراض النفسية والجسدية ، فعلى كل واحد منّا أن لا يترك القلق والأحزان تستولي على روحه من أجل حفظ صحته وسلامته الجسدية والنفسية ، وعليه أن يحفظ نفسه أمام نفاذ عوامل الهدم والتخريب في كيانه .

فعن علي (عليه السلام) قال :

« الحزن يهدم الجسد »^(١) .

وعنه (عليه السلام) قال :

« الهمُّ يُنحل البدن »^(٢) .

وعنه (عليه السلام) قال :

« تجرّع الغُصَصَ ، فيأتي لم أر جرعة أحلى منها عاقبة ولا ألدَّ مغبةً »^(٣) .

وُثِدَ أثبتت البحوث العلمية أنّ بعض الأمراض إنّما هي نتيجة القلق والاضطرابات النفسية :

يقول العالم النفسي الشهير (ل. مان) :

« إنّ الدراسات التي أجريت على الجانب الفيزيولوجي للاضطرابات أثبتت أنّ الاضطرابات تعمّ جميع الجسم ، فالاضطراب يبدو على كل من القلب وعمل غدد العرق وترشحات المعدة وتموجات المخ وجميع الترشحات الداخلية ، وللتّرشح « الأدريني » أهمية خاصة فإنّه يجعل وقوداً جديداً تحت تصرّف الأجهزة الجسمية عوضاً عن السكر الحاصل من الكبد في الحالات الاعتيادية .

إنّ فرعاً جديداً من علم الطبّ النفسي باسم الطب النفسي الجسمي ، يبحث عن الأمراض الجسدية التي تحدث على أثر علل نفسية سيما القلق ، وإنّ إحدى التجارب التي أجريت في هذا الفرع أثبتت أنّ ثلاثة وستين شخصاً من مجموع خمس وسبعين مصابين بقرحة المعدة ، كانوا مصابين بالقلق الشديد .

وقد ذكرنا فيما مضى مريضاً أبقوه تحت الدراسة مفتوح البطن (في العملية) وقد كانت فرصة استثنائية لدراسة عمل المعدة . وقد رأوا بهذا الشأن

(١) غرر الحكم : ٢٣ .

(٢) غرر الحكم : ١٦ .

(٣) غرر الحكم : ٣٥١ .

في نهاية الأسبوعين أنّ المريض - وقد كان مصاباً بقلق شديد - ظهر في جدار معدته نزيف دموي خفيف مع زيادة في ترشحات الأسيد ، ثم ظهرت أوليات جُرح يُشبه قرحة المعدة . فيبدو للنظر أنّ قرحة المعدة تبدأ عادة مع قلق نفسي يسبّب في اضطراباتٍ شديدة في المعدة ، ثم يتبع ذلك نزيف دموي فيها ثم ثقب في جدارها ، كما هو السير الطبيعي لتكوّن قرحة المعدة « الأولسر »^(١) .

إنّ ممّا يميّز عالم الإنسان ذي الرؤية الواقعية عن عالم الحيوانات ذات الشعور غير الناضج هو مدى الإنصياع للخيال فيهما ، إنّ الشخص صاحب الرؤية الظاهرية السطحية الذي لا يعبرها إلى الأعماق يسكن إلى أوهامه وخیالاته بحيث تستولي في كل لحظة على قلبه أمواج الآمال والمنى إلى ما لا نهاية ، فإذا رأى جريان الحوادث على خلاف ميوله احتوت روحه ظلمة موحشة بحيث يفقد معها إرادته ، وإذا رافق هذه الأزمة القريبة ضعف النفس أمكن أن يؤدّي بصاحبه إلى الانتحار .

في حين أنّ الإنسان ذي الرؤية الواقعية يتحرّر من قيود هذه الأفكار الصببانية التي لا أساس لها ، فينظر نظرة أوسع وأشمل ، ولا يرى الأشياء رؤية ناقصة ، ولا يترك الأوهام والخیالات الساحرة تتدخل وتنفذ إلى حياته العملية ، بل هو يسعى ليوّفّق بين نفسه وبين بيئته الطبيعية والاجتماعية وحقائق الحياة الخارجية والداخلية .

فلو كان الشخص ذا شخصية متوازنة ومعنوية متعادلة لم يرتجف من كل هزة ، وما نراه في بعض الناس أنّهم يحسّون حين فراغهم بالألم فإنّما هو لعدم كفاية معنوياتهم ، ولأنّهم لا سند لهم ولا ملجأ ، ولذلك فهم لصرف أوقاتهم تلك يُقبلون على ألعاب ضارّة غير سليمة .

بينما الإنسان كلما كان أقوى من حيث القوى الباطنية كان شعوره بالحاجة إلى عالمه الخارجي أقلّ ، وكل دولة كان اعتمادها على الاستيراد من الخارج أقلّ

(١) بالفارسية : أصول روائشاسی مان : ١٢٩ - ١٣٦ .

كان أقوى وأثبت اقتصادياً ، كذلك من كانت ثروته الباطنية كافية غير محتاج دائماً إلى الاستيراد والاستمداد من خارج وجوده ، كان قادراً على أن ينقذ نفسه من النشاطات الضارة والأعمال الهدامة ، وعلى تعديل خصائصه الأخلاقية ، بل كان قادراً على تغيير أثر العوامل الخارجية على نفسه .

يقول (جان جاك روسو) :

« إنَّ أشقى البشر من كان يفكر أنَّه يفتقد كل شيء ، فإنَّ الشقاء ليس أن يحسَّ الإنسان بحاجة إلى شيء ، بل الشقاء في أنَّ يحسَّ أنَّه يحتاج إلى شيء يفتقده . إنَّ للعالم الواقعيَّ حدوداً ، ولا حدَّ لعالم الخيال ، ونحن إذ لا نتمكن من أن نوسَّع العالم الأول - الواقعي - فعلينا أن نقوم بتحديد الثاني ، فإنَّ كل ما يسبَّب في تعاستنا وشقائنا من الآلام إنما هو الذي ينشأ من الخلاف بين هذين الأمرين : الواقع والخيال .

إن في هذه الرؤية المستقبلية التي تجعلنا دائماً نفكر في المستقبل يكمن مصدر كل شقائنا وتعاستنا ، ولا سيما بالنسبة إلى موجود كالإنسان ينقضي عمره بسرعة لماذا يكون قلقاً لمستقبله ؛ بحيث يكون كل فكره وذكوره حول المستقبل البعيد الذي قد لا يبلغه أبداً ، وهو بذلك يغفل عن حالته الحاضرة . إن هذا الوسواس بالنسبة للمستقبل يشتد بعلو عمر الإنسان حتى يصل إلى مرحلة يرجح فيها الشيوخ - وهم أكثر وسواساً على المستقبل وأحرص - أن يغضوا النظر عمَّا يلزمهم لمعيشتهم الحاضرة في سبيل تأمين مستقبلهم لمئة سنة مقبلة حتى بالنسبة إلى كماليات الحياة فضلاً عن ضروراتها .

وهكذا يربط الإنسان بينه وبين جميع حاجات الحياة ، بل يقول بأهميتها حتى على نفسه ، وحتى لا يبقى له شيء من شخصيته الفردية . وبعبارة أخرى يوسَّع كل فرد منَّا وجوده على سطح الكرة الأرضية جميعاً ، ويتحسَّس بالنسبة إلى كل شيء . وعندئذٍ فهل من الغريب أن تزيد آلامنا ؟ كثير أولئك التجار الذين إذا سمعوا بأحدهم أنَّه ذهب إلى الهند صرخوا ألماً وهم في باريس !! نحن لا

نتواجد فيما نحن فيه بل نعيش فيما لسنا فيه ، وإذا كان من المقرر أن يبقى بعدنا ما نعيش نحن لأجله فلا وجه لكل هذا الهول من الموت . أيها الإنسان أقصر الحياة على ما في نفسك فحسب فإنك سوف لا تشقى بعد ذلك أبداً»^(١) .

روى الكليني في (الكافي) عن الإمام الصادق (عليه السلام) أنه قال :

« إصبروا على الدنيا فإنما هي ساعة ، فما مضى منها فلا تجد له ألماً ولا سروراً ، وما لم يجيء فلا تدري ما هو ، وإنما هي ساعتك التي أنت فيها ، فاصبر فيها على طاعة الله ، واصبروا فيها عن معصية الله »^(٢) .

وإذا كان التوجّه والالتفات والفكر في الماضي والمستقبل من أجل الفرار من مشاكل الحياة الحاضرة ، فذلك في نظر علماء النفس مرض نفسي أو مقدمة له ، كما يقولون :

« إذا كان الإنسان لا يلتفت إلى حاضر وضعه ولا يفيد من الفرص السانحة له ، وكان يقول للآخرين : صحيح أنني الآن لست جيداً في دروسي ، ولكن إصبر لترى كيف أكون حين أدخل معترك الحياة ، إن الذين فشلوا في دروسهم توفّقوا في حياتهم الواقعية ، ولي بالنسبة للمستقبل أحلام وآمال » .

إنّ هذا النوع من التفكير يثبت أن صاحبه يريد أن يشرد من حقيقة حياته الحاضرة وزمانه الحاضر ، وهو استدلال غير منطقي بل يخسر مستقبله بذلك جدّاً ، والاحتمال القوي أن يكون صاحب هذا الأسلوب من الفكر يواجه الفشل كحالته الحاضرة .

وإذا كان تفكير الإنسان في مستقبله وماضيه متلفاً لوقته وصارفاً له عن مواجهته لأمره اليومية ، فهو غير طبيعي بل في عداد العجزة والقاصرين بل المقصّرين، وإذا كان الإنسان عاجزاً عن مواجهة مشاكله اليومية وهو يفكر في

(١) بالفارسية : إميل : ٩٠ - ٩٣ .

(٢) أصول الكافي ٢ : ٤٥٤ .

المستقبل للفرار عنها ، ففكرته هذه في المستقبل قائمة مقام فكرته ليومه الحاضر ، وهكذا نيابة لا تحل مشكلة فهي مضرّة غير مفيدة»^(١) .

وعن الحسين (عليه السلام) قال :
« إذا وردت بلية على العاقل تحمّلها ، وقمع الحزن بالحزم وفرّغ العقل للاحتيال » .

نحن بما أوتينا من قوة وقدرة نستطيع أن نقاوم ما يواجهنا من آلام ، بل متى حصلت وقفة في هذا الكفاح أصبحت القوى الساكنة غير المتحركة تؤلم صاحبها كحمل ثقيل ، فيضطر الإنسان إلى صرف هذه القوى عبثاً .

إنّ من الطرق المفيدة والمؤثّرة للنجاة من ضغط الإضطرابات وقلق الخواطر ، هو القيام بالأعمال الإيجابية . إنّ الذين يصرفون قواهم في إنجاز الأعمال المفيدة حين وقوع النزاع بين القوى والطاقات الباطنية ، يستريحون حين العمل ، ويفرحون حين يرون ثمار أعمالهم ، ويشعرون بالرضا في قرارة نفوسهم . ولهذا فمن المسلّم به أنّ كثيراً من هذه النشاطات - وإن كانت ملاجئ نسبية مؤقتة - فهي ردود فعل مفيدة ومرضية ، ولا أقل من أن الفكر يستريح في ظلها من بعض المواضيع الفردية التي كانت تبدو وكأنّها مشاكل لا تحل ، ولا سيما إذا كان عمله متضمّناً لنفع الآخرين فهو نافع له أيضاً ، فليس من الممكن أن يكون النافع لغيره غير نافع لنفسه . أضف إلى ذلك أنّه يبقى بذلك مصوناً من سلوك السبل المنحرفة والضارّة .

الطريقة الراجعة لحلّ بعض العقّد

إنّ حلّ بعض العقّد النفسية لدى بعض الأصدقاء الأوفياء المخلصين ، لمن السبل المفيدة التي يمكّننا بها أن نحرر قلوبنا ممّا بها من هموم وغموم . وإنّ

(١) بالفارسية : رواستاسى براى زيسى : ٢٣٨ .

علينا أن نفسح المجال للمهمومين والمغمومين ليفاتحوا بما في قلوبهم لإخوانهم المخلصين ، فيحكوا لهم عن مشاكلهم ، وبهذا يخففوا عن أنفسهم ثقل الهموم المنهكة لأرواحهم .

كذلك التفقد عن الأخوة أصحاب المحنة ، وحلّ عُقدتهم النفسية ومشاكلهم ومصائبهم ، مهما سمحت لنا به الإمكانيات ، هو من التكاليف الإنسانية القيمة والحساسة . إنّ الصديق الذي قد استقرت صداقته على أسس المحبة الواقعية ، لا ينبغي له أن يتغافل عن حال صديقه أبداً .

وقد أولت النصوص الإسلامية لقادة الدين هذا الموضوع أهمية تامة ، فقد نبّهت إلى أنّ المؤمن يخفف من ثقل خواطر إخوانه ويكون سبباً لسكون خواطرهم .

ففي (أصول الكافي) عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) أنّه قال :

« أحبّ الأعمال إلى الله سرور يدخله على مؤمن يطرد عنه جوعته ويكشف عنه كربته »^(١) .

وفي (وسائل الشيعة ٢ : ٥٥) عن الصادق (عليه السلام) أنّه قال :

« إذا ضاق أحدكم فليعلم أخاه وليعين على نفسه »^(٢) .

وفي علم النفس الحديث نهى علماءؤه عن كتمان العقد والآلام الباطنية ؛ فقد قال عالم النفس الشهير (شاختر) :

« إذا كنتم غير راضين عن وضعكم وحالتكم وسلوككم ، ولا تقدرّون على حلّ مشاكلكم بأنفسكم ، ففاتحوا من تعتمدون عليه من العقلاء بأسراركم ، فإنّ الاحتفاظ بالأوهام المؤلمة والخوف والقلق يزيد في شدّة

(١) أصول الكافي ١ : ٤٠٥ .

(٢) وسائل الشيعة ٢ : ٥٥ .

مزاحمتها ، فصارحوا بأسراركم واطلبوا النصيح فيها من العالم المجرب ، فإنّ الخوف والأفكار القلقة تضعف عن مواجهة القوى وتنهزم . لا تمتنعوا عن الشكوى إلى الطبيب النفساني ولا أقلّ من الصديق العاقل ؛ فإنّ الأفكار القلقة التي نودعها عند ضمير اللاشعور تُخلّ براحتنا وسعادتنا .

ولْيُعلم أن الأفكار الضارّة تدفع بإحدى طريقتين :

فإنّما أن يتحقّق الدفع بصورة طبيعية ومن دون علمنا وإرادتنا ، بمعنى أنّ أذهاننا تدفع الفكر الضارّ والمزاحم من دون التفاتنا نحن إلى ذلك ولكن تخزنه في عمق الخواطر السابقة .

وأحياناً نبعد بعض الأفكار المؤلمة عن أنفسنا عاملين عامدين ، ونُلجّ على أن لا نتخطر تلك الفكرة . وتسمّى هذه العملية في مصطلح علم النفس « الحذف » . ولكن هذه العملية لا تقلل من ضرر الفكرة شيئاً ، بل كلما حاولنا تناسيها تذكّرناها أكثر . وعلى أيّ حال ، فسواء علمنا أم لم نعلم ، الفكر المضّرّ المزاحم ، سواء اندفع بنفسه أو حذفناه بأنفسنا ، لا يتركنا بحال ، وسيؤلّنا ظاهراً أم باطناً ، ولا نستريح من محنته وألمه ما لم نفتح فيه حكيماً عاقلاً نستعين به ونستهديه ونستنصحه»^(١) .

إظهار السرور

إنّ من العوامل المفيدة التي تساعدنا مساعدة جادة حين هجوم الهموم والغموم والقلق والاضطراب ، هي إظهار الفرح والسرور .

ففي (غرر الحكم) عن علي (عليه السلام) قال :

« كن راضياً تكن مرضياً »^(٢) .

(١) بالفارسية : رشد شخصيت : ١٠٩ - ١١٠ .

(٢) غرر الحكم : ٥٦٤ .

وفيه عنه (عليه السلام) أيضاً أنه قال :
« كن بالبلاء محبوراً وبالمكاره مسروراً »^(١) .

وعلماء النفس اليوم أيضاً يرون أنّ إظهار الفرح والسرور عامل مفيد ومؤثر في تقليل أزمات الأحزان والغموم ، وكذلك في الصعود بشخصية الإنسان الجاد ، ويقولون :

« حاولوا أن توجدوا لأنفسكم ولو في الظاهر وجوهاً فرحة مسرورة ، واسعوا لتكونوا دائماً بشوشين ، أبدوا أنفسكم فارغي البال عن الغموم والهموم بحيث كلما رأيكم أحد تصور أنه قد رأى أحسن أحبائه وأصدقائه ، وإن كنتم متألمين متأثرين فاسعوا لكي لا تبدووا شيئاً من هذا الحزن حين لقاء الآخرين ، بل تظاهروا بأنكم على حالة هائلة راضية .

إنكم إذا كنتم تتمتعون بمعنوية وروحية مستبشرة ، وأبديتم ذلك للناس ، فإنه سيكون للآخرين معكم سلوك متناسب ، وسيفاتحونكم بكل شيء وسيبادلونكم الفرح والسرور . وإذا كنتم على نشاط فإنه ستكون فيكم حالة عملية مؤثرة في اجتذاب الآخرين نحوكم .

وإن الخطوة الأولى لحالة النشاط هي إظهار الفرح والسرور ، لا تقطبوا ، بل لتكن لكم ابتسامة على شفاهكم ، فإن هذا التظاهر بالسرور سيؤثر فيكم قطعاً ، وسيخفف فيكم الآلام الداخلية . وإلا فستعودون على العنوسية والتقطيب ، والناس بطبيعتهم يتعدون عن المحزونين العابسين . إن الوجه البشوش سيجلب إليكم الآخرين . وليست العنوسية سمة الشخصية ، وإن كان يخطيء البعض فيتصورون أنهم لو كانوا عابسين مقطبين حسب لهم الآخرون ألف حساب ، وسيرهبونهم . وهذا وهم . كلما كنتم محزونين فتبسموا ، وسترون كيف يرتفع بالابتسامة ما بكم من كآبة »^(٢) .

(١) غرر الحكم : ٥٦٥ .

(٢) بالفارسية : روانشناسی برای زیستی : ٧٧ ، ٧٨ .

تجليّ الخيرات في آفاق الحياة

- ✽ قاعدة التعاون الاجتماعي .
- ✽ أسمى اللذائذ الروحية .
- ✽ التغاضي عن حاجات الآخرين .
- ✽ الإسلام والعلاقات الاجتماعية .
- ✽ عنوان الخيرات في الإسلام .
- ✽ عنوان الخيرات في الغرب .
- ✽ من المحبوب عند الله ؟ .
- ✽ الحبّ والإحسان للمحدودين .

قاعدة التعاون الاجتماعي

إنّ الأحاسيس والعواطف اللطيفة النابعة من أعماق روح الإنسان ، والتي تتجلّى في أنواع الخيرات والمساعدات والإعانات لأبناء النوع الإنساني على مسرح الحياة ، هي من أسمى الغرائز الإنسانية . إنّ هذه الأحاسيس هي التي تضغط على قلب ابن آدم على أثر مشاهدته للآلام والمشاكل ، ثم تعدّه للتضحية والفداء لدفعها .

إنّ للهناء ووخز الآلام ، والأفراح والأتراح ، والغنى والفقر علاقة وثيقة بحياة الإنسان ، إلّا أنّ أكثر الآلام والمشاكل المفجعة ، بما فيها من مرارة وثقل ، يمكن معالجتها ولحسن الحظّ ، وبالإمكان أن نحبط عللها - وهي تحيّم على آفاق حياة المصابين بها - بإثارة عواطف الآخرين وأحاسيسهم وبعونهم ومساعدتهم .

ليس الإنسان جهازاً حيّاً فقط ، بل هو يحمل رسالة الخير والعلم والجمال والقيم أيضاً . إنّ علاقة البشر بعضهم ببعض يجب أن تقوم على أساس العلاقة والمحبة الخالصة والمتبادلة ، والعون والمساعدة فيما بينهم ، لا على أساس المصالح والمصانعات أو الضرورات .

إنّ من غير الممكن حلّ مشاكل الحياة من دون تضحية وفداء وإسداء الخير للآخرين في اللحظات الحساسة ، فإنّ من أركان البنية التحتية لبناء « التعاون الاجتماعي » هو حسّ الرّحمة والتضحية والفداء للآخرين، وإثما يبلغ من الأفراد والجماعات إلى حدّ الكمال من كانت له هذه الروحية في نشاطاته الاجتماعية .

إنَّ على من يحبَّ الحياة في الدرجة الأولى أن يخدم هذه الحياة ، وأن يتعهد بالإسهام في إيجاد مجتمع سالم وقويّ ، وكلّما كانت النظرة الاجتماعية ونموّ العواطف فيهم أكثر ، كانت عنايتهم بمصالح الآخرين أكثر . إنّ الفكرة الإيجابية والمواساة مع الآخرين ، مع كونها من كمال الإنسان نفسه ، تساعد في إيجاد بيئة سليمة لحياة أفضل لنفس الإنسان أيضاً ؛ فإنّ العلوم الاجتماعية تؤكد على أنّ عناية الإنسان بنفسه بصورة واقعية تستلزم رعاية حال الآخرين والإحساس بالتعاون والمواساة معهم . وقد يَمَّا قالوا : « إنّك ستأخذ باليد التي تعطي بها » .

ومن لم يبذر في الحياة الخير كيف يأمل أن يحصد فيها الخير ؟ بل إنّ الفضائل الإنسانية والشخصية الاجتماعية تدور دائر مدار أسلوب تفكيرهم وروحياتهم الاجتماعية ، وإنّ انعدام هذه الروحية في الأفراد أو الجماعات يدلّ على وجود خلل وتأخير فيهم عن حدّ الرشيد الاجتماعي ، وإنّ حالة اللامبالاة وعدم الإحساس بالمسؤوليات الأخلاقية تحكي عن اختلال ومرض روحي وجود في النموّ الاجتماعي ، فإنّ هؤلاء لا يتمكنون من أن يدركوا ارتباط حياتهم بسلامة الآخرين ، وإنّ هكذا مجتمع يُشبه سفينة غارقة يحاول كل واحد من ركبها أن ينقذ نفسه من الغرق فقط . ولا ريب أنّ الاعتياد بالفداء والتضحية في سبيل خير الآخرين لا يحصل بسهولة ؛ يقول أحد العلماء :

« إنّ في المراحل الأولى لأعمال الخير مشاق وتكاليف ولكن كلّما تقدّمنا أكثر في هذا الطريق ازدادت طاقاتنا ، وكأثما أعمال الخير كأثماء يتولّد منها نسل خير كثير » .

وهذه حقيقة ، فإنّ إسداء الخدمة للناس والتضحية في سبيلهم يشكل بكثير على هذا الإنسان الطالب للراحة والمحبّ لنفسه ، هذا الإنسان الطامع الذي يريد كل شيء لنفسه والمستعد للفداء في سبيل آماله وأمانيه وأهدافه ، ولكن أفهل هناك شيء في حياة الإنسان غير مشكل ؟ بل في كل حركة وكل شيء محاولات ومتاعب ، وحتى في الفهم والإدراك ولكن تختلف المساعي

والمحاولات ، فمنها ما يمنح الإنسان رؤية وبصيرة ، وتتوسع به آفاق الأفكار والرؤى ، وتبلغ بالإنسان إلى الحق والحقيقة ، وتبدل الإنسان إلى مدرك بل واصل إلى واقع الحقائق في الحياة ، وبالتالي تصل به إلى أسمى الأجر والثواب في عالم الآخرة . . ومن المساعي ما يكون سبباً للانحراف والضلال وتفصل بين الإنسان وحقائق الواقع . وإنّ المساعي والمحاولات التي توسّع في فردية الإنسان إلى ما لا حدّ له ولا نهاية معقولة ، تؤدّي بالإنسان إلى اضمحلال القوى الباطنية في الإنسان التي تحكم على سلوكه وأخلاقه .

وكثير أولئك الذين يرون أنفسهم ذوي عواطف وأحاسيس ، وهم بالفعل يتألمون من مشاهدة شقاء الآخرين وتعاستهم ومصائبهم ، ولكنهم لا يهتمون بتحمّل مسؤولية أو وظيفة في ذلك ؛ فإن تعرّضوا لقبول عمل يستلزم صرف مال منهم لإغاثة المحرومين ، أو كان يستوجب منهم قليلاً من التعب والعناء ، أو أن يغيضوا الطرف عن بعض لذّاتهم ، تخلّوا عن تكاليفهم .

وإنّما تنشأ هذه الحالة من عدم استعدادهم لتحمل التكاليف والوظائف ، بل لم يريدوا أن يعودوا أنفسهم على تحمل أقل التكاليف وأبسطها ممّا يؤهلهم لتحمل أعمال أكبر وأثقل وأهمّ .

إنّ حمل آلام الآخرين حالة حسنة جديرة بالتقدير ، ولكنها إن لم تؤدّ إلى عمل قيمّ ولم يحمل بها ثقل عن كاهل المعذّبين فما فائدتها ؟ وماذا تعالج العواطف الجافّة ؟ .

إنّ الأحاسيس المضمرة في باطن الضمير لا أثر لها في واقع الحياة ، فما الذي تستفيده الإنسانية من هكذا أحاسيس ؟ إنّ حسن النية لا يكفي للحياة العملية الواقعية للإنسان في هذا الكون ، بل إنّ حسن النية يستلزم الإقدام والعمل .

أسمى اللذات الروحية

إنّ السعي لرفع مشاكل الآخرين ومصائبهم ليس من وظيفة أيّ فرد منا ، بل إنّّه يعدّ من أحسن وأسمى لذائد الحياة . إنّ على الإنسان أن يوسع في دائرة حبه بحيث يسع جميع الناس ، كي تتنور بذلك الروح ويطهر القلب من ألوان الآلام ! فيظفر الإنسان بذلك بالسعادة الواقعية ، وحينئذ يحس الإنسان بجمال كل شيء في هذا الكون ! .

يقول أحد علماء الغرب :

« لقد جعلوا لكل عمل خير ثواباً ، ووضعوا لكل شرّ جزاءً ، ولكن ليس هذا الجزاء وذلك الثواب شيئاً وراء الخير والشر ، فما الثواب الذي يفترض للفضيلة نحو نفس الفضيلة ؟ وما الذي يمكن أن يجري جزاءً للشر أسوأ من الرذيلة نفسها .

والحقيقة إنّ الثواب والعقاب هما النتائج الطبيعية لأعمالنا ، فكما أنّ الذي يمسّ النار يتألّم بحرقته كذلك من يعمل سوءاً ويتعدّى حدود وظائفه وتكاليفه يرى نتائج أعماله . لا ينبغي لكم أن تفكروا فيما تستفيدونه من أعمال الخير والبرّ ، بل كونوا خيراً للخير ، فكما يعقب الليل النهار وكما تتابع الشمس الظلّ ، كذلك تغمرنا السعادة الحقيقية كنتيجة طبيعية لصالحات أعمالنا ، والسعادة الحقيقية هي سكون النفس وراحة الروح .

إنّ الذي يُحسن ويبرّ إلى الآخرين في حدود وظائفه وتكاليفه يجد في نفسه مسرة لا حدود لها ، وحينئذ يرى نفسه وكأنّه قد سما عن آفاق الحياة الاعتيادية إلى ما وراء هذه الحياة في آفاق أكثر إشراقاً ونوراً ، وهو بهذا الإحساس السامي يبلغ السعادة الحقّة .

إنّ نيّة الخير خير ، ولكن علينا أن نجعل تحقيقها نصب أعيننا . حينما تمرّ الخواطر الخيرة في أفكارنا نلتذّ بها نحن فقط ، بينما أعمال البرّ والخير كالكواكب

المشرقة تضيء آفاق حياة الآخرين . إنّ بإمكاننا أن نقوم بأعمالنا بتشديد كيان الفضائل أو هدمها وتخطيمها ، وأن نقيم على أنقاضها أساس الرذائل والفساد ، ولذلك فإنّ علينا مسؤولية كبرى .

الناس على فرقتين : فرقة تتألم لتأمين راحة الآخرين وفرقة أخرى تسبّب آلاماً للآخرين من أجل راحة نفسها ، وهؤلاء كما يسبّبون شقاء الآخرين لا ينجون هم منها أيضاً ، بينما الفرقة الأولى تجد سعادتها ضمن سعادة الآخرين . إنّ الأعمال التي يقوم بها أصحابها من أجل الأخذ بأيدي الآخرين ومساعدتهم سيكون لها نتائج كبرى قابلة للتقدير مهما كانت هي صغيرة»^(١) .

إنّه لا حدود للبرّ والإحسان ؛ فإنّ العواطف الإنسانية عظيمة وذخائرها لا تنفذ ، بل كلما عمل بها نمت وترعرعت أكثر فأكثر ، حتّى إنّهم يقولون : « إنّ العقول البشرية محدودة ، ولا حدود للعواطف الإنسانية ، فإنّ بإمكانها أن تشمل كل شيء وتستوعبه .

وبكلمة نقول : إنّ الخير والإحسان إلى الآخرين وابتغاء الراحة لهم سعادة لا يدركها كل أحد .

التغاضي عن حاجات الآخرين

إنّ الذين يحسّون بثقل وضغط في أنفسهم من كل عمل صالح ، وينظرون إلى الناس بنظرة ملوّها العداء والعناد ، قد قطعوا علاقاتهم المعنوية بالحياة التي يعيشون فيها ، وقد انطوا في أنفسهم وتغاضوا عن التفكير بشأن الآخرين بحيث يظنّون أن لا حقّ لغيرهم في الحياة في هذا العالم ، فلا يمكنهم أن يروا خيرهم في خير الآخرين .

طبيعي أنّ هذه الفرقة من الناس لا تخلو من الأحاسيس الإنسانية ، وهم

(١) بالفارسية : در جستجوی خوشبختی ۲۰۱ - ۲۰۳ .

بمقتضى أحاسيسهم يدركون آلام الآخرين ، ولكنهم كأنهم محصورون بين جدران حبّهم لذواتهم بحيث لا يبقى في نفوسهم مجال لحبّ النوع الإنساني .
وبعبارة أخرى فإنّهم لا يمكنهم أن يتجاوزوا « الأنا » فيصلوا إلى « نحن » .
يقول الدكتور (كاريل) :

« كلّ من يقود نفسه بصورة معقولة تتغيّر كثير من طباعه (المهمة) تغييراً عميقاً ؛ فإذا كانت أعمال البدن والروح منسجمة مع نظامها الطبيعي كانت أثمر وأنفع ، وإنّ طاعة الأحكام الطبيعية لحفظ الحياة واستمرار النسل والرّقي الروحيّ تورث قوة في جميع النشاطات البدنية والنفسية ، ويتجلّى هذا التطوّر بصورة خاصة مع تربية السجاياء والأخلاق والإحساس الديني والإنساني ، وكذلك يتنوّر العقل أيضاً .

إذا فهم ابن آدم أنّ هدف الحياة ليس هو الانتفاع والتمتّع المادّي فقط بل الحياة نفسها ^(٩) فإنّه سوف لا يجعل الدنيا كلّ همّه ، بل إنّهُ سينظر إلى حياته وحياة الآخرين بنظرة أكثر دقّة وملاحظة ، ويفهم مثلاً أنّه في حياته مرتبط بالآخرين وهم مرتبطون به أيضاً . وهكذا يتّضح لنا أنّ نظريات (جان جاك روسو) نظريات وضعية مختلفة ، وأنّ « الأنريويد وآليس » نظريات خطيرة ، وأنّ نظرية العقد الاجتماعي نظرية غير منطقية ، وتبيّن لنا كذلك ضرورة ملاحظة الآخرين في جميع مراحل الحياة .

نعم هناك تناقض فاحش بين حبّ الذات وحبّ النوع كضرورة للحياة الاجتماعية ، إنّ نمو البدن وجهازه إنّما يتحقّق بعوامل المحيط والبيئة وعون الآخرين . إنّ الإنسان في حياته حينما كان جنيناً كان متطفلاً في وجوده على أمّه ، وعند بلوغه يصبح طفلياً على الأسرة والمجتمع ، وهكذا يتعوّد على أن يرى الاستفادة من مواهب المحيط حقاً لنفسه ، وإنّ توسّع غريزة « حبّ الذات » يرتبط بهذه الميول الغريزية نحو حبّ الذات في جميع الموجودات .

ومن جانب آخر فإنّ الإفراط في حبّ الذات يجعل تشكيل المجتمع

المتكامل من غير الممكن ، إذن فحبّ النوع أيضاً ضرورة طبيعية كحبّ الذات ، ويجب أن يسود بين « أنا » و « نحن » توازن حاكم هو الشرط الضروري لتوفيقنا في الحياة ، كما أنّ الدقة في حركات أيدينا نتيجة طبيعية للتناقض الواقع بين العضلات التي تنحني والتي تستقيم »^(١) .

الإسلام والعلاقات الاجتماعية

إنّ البرامج التربوية والتعليمية في الإسلام دُوّنت بحيث تُوسّع في التفكير الاجتماعي وآفاق الرؤى والأفكار ، إذ كلما كانت ساحات الرؤية وآفاقها أرحب وأوسع ومستوى الأفكار أسمى وأدقّ كان الإنسان أقوى على الخروج من محاصرة حبّ الذات وحبّ النفس . نُظّمت البرامج الإسلامية بحيث تتضمن مع تقوية المعنويات الفردية تقوية الروحية الاجتماعية واستثمارها ، كي يحافظ الفرد إلى حبه لذاته تعاونه مع مجتمعه ، ويكون المجتمع مركّباً من أفراد لا يكونون خواء بلا شخصية ولا محبّين لذواتهم بحيث لا يفكّرون في غيرهم .

إنّ العلاقات والروابط الاجتماعية في المجتمع الإسلامي ترتبط بالرابطة الإلهية أيضاً ، فإنّ عليهم أن يوصي بعضهم بعضاً بالخير والتقوى والأعمال الصالحة وأن يساعد بعضهم الآخر لإيجاد بيئة متعاونة كي يفكر الجيل الصاعد في الخير والبرّ والأعمال الصالحة في ظلّ الإيمان والعقيدة النزيهة ، وبالتالي تتحرك جميع القوى البناءة في طريق الخير والبناء ، لا لأعمال الشر والفساد .

وهكذا تتناغم أعمال وأهداف المجتمع ، وتتقارب القلوب ويستيقظ فيها شعور التعاون ، وتتعاون النفسانيات الفردية والاجتماعية بهدف الخدمة الإنسانية .

وبما أنّ الإسلام يقتضي مجتمعا متعاوناً ومتواسياً ذاتياً في سبيل القيام

(١) بالفارسية : راه وبرسم زبديكي : ١٤٥ - ١٤٦ .

بالتكاليف الاجتماعية ، وأنّ البر والخير والإحسان تشكّل أساس الأخلاق فيه وهي من برامجه الأصلية لديه ، لذلك فهو يُحِطّر معلناً : من لم يكن ليفكر في سبيل خدمة المجتمع فليس بمسلم : كما أعلن ذلك الرسول الكريم .

فقال (صلى الله عليه وآله وسلم) :

« من أصبح ولا يهتمّ بأمور المسلمين فليس بمسلم »^(١) .

حينما طلع فجر الإسلام في دنيا الجاهلية عرض عليهم مدرسة مستوعبة لجميع شؤون الفرد والمجتمع ، واهتمّ بالتزكية والتربية النفسية والأخلاقية لأمة كان يسود علاقاتها الحقد وحبّ الجاه والشهوات واستئثار الفرد لأخيه الإنسان ، فدعاهم إلى الأخوة والإحسان والمودة والرحمة والصداقة الخالصة ، وبنى الشخصية الإيجابية لكل فرد على أساس لا يفرّق بينهم أي عامل فرقة من قبيل البغض والأحقاد . وهكذا أقدم على تشكيل مجتمع قويّ وفاضل .

في ذلك المجتمع الذي كان فيه الإيمان وخدمة الإنسان وإرادة خيره من ملاكات ارتقاء الشخصية ، كان كل فرد منهم يشعر بالمسؤولية بالنسبة إلى مصائر الآخرين حتى وكأنه لوحده متعهد لجميعهم ، فقد كان لكل واحد منهم منتهى الودّ للآخر والبذل له والتضحية والإيثار ، بحيث يصف القرآن الكريم هذه العلاقات المشرقة السامية .

فيقول الله تعالى : ﴿ والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبّون من هاجر إليهم ، ولا يجدون في صدورهم حاجة ممّا أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ﴾^(١) .

ووصف الأخيار الأبرار فقال : ﴿ وآتي المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب ﴾^(٢) .

(١) أصول الكافي : ٣٩٠ ط آخوندى .

(٢) سورة الحشر : الآية ٨ .

(٣) سورة البقرة : الآية ١٧٦ .

وفي الحساسيات النفسية عندما يتصدى الغني الثري لبذل شيء من ثرائه لرفع حوائج المعوزين فعليه أن يحافظ على شخصيتهم حذراً من حدوث الظواهر النفسية الأليمة ، وذلك باتخاذ الأساليب الظريفة والصحيحة .

أما الإسلام فإنه يأمر الأثرياء أن يجعلوا عطاءهم في أيدي واطئة تواضعاً ليرفعه المحتاج من يده باليد العليا ، ولتكن يده العليا لئلاً يُحسَّ بالحقارة والهزيمة في الحياة ، وليبقى الغني بعيداً عن الكبر والنخوة ، كما قال علي (عليه السلام) :

« ما أحسن تواضع الأغنياء للفقراء طلباً لما عند الله ، وأحسن منه تيه الفقراء على الأغنياء إتكالاً على الله »^(١) .

عنوان الخيرات في الإسلام

إن من العلائم البارزة للمسلم المحبة والإحسان ، محبة وعطاء خالصاً يتقدم به بنية خاصة ، هي أنه لله وفي الله ، وإن لم يكن يعرف منهم أحداً ، فهو وإن لم تربطه بهم رابطة أو معرفة أو قرابة مع ذلك ترى قلبه يتموج من المحبة والعاطفة بالنسبة إليهم ، ولذلك فهو لا ينتظر منهم تواباً « جزاءً ولا شكوراً » بل إن سلوكه ناشئ من العلاقة العميقة التي قد شغفت قلبه ، وهو ينهل من معين لا ينضب ، معين المحبة الإلهية الفيّاض والممتلئ .

فهل هناك عامل آخر سوى الإيمان بالله والإطمئنان إلى ثواب الله والخير الذي أعدّه الله للأبرار ، يمكنه أن يحمل الإنسان على الخير المطلق والخالص والبعيد عن أي غرض أو هدف شخصي ؟ ! .

إذن ؛ فالبر والخير إنما يكون خيراً فيما إذا كان نابعاً من معين يتدفق غيره من خاصة باطنية وهدف مقدس ، وأن يكون هدفه الوحيد رضا الله تعالى .

(١) نهج البلاغة - الحكمة : ٣٨٩ .

والإسلام يسعى من أجل إيجاد هذا الهدف المقدس والسّامي في أعماق ضمائر الناس ، وبهذا فهو يوجد في الإنسان دركاً عميقاً وتصوراً واسعاً متناسبين مع عمق الوجود وسعته ، بما لا يسعه أي إطار محدود وجامد . وبسعة رؤيته الشاملة هذه والإحساس الأصيل الذي يتواجد فيه بين روحه وبين الخلقة الحكيمة وروح الخلقة ، وبعلمه بقدرة الله اللامحدودة نزول من أمام بصيرة ضميره جميع الحجب المختلفة .

إنّ حدوث هذا الإدراك الإنسانيّ السّامي في الإنسان ، إنّما هو نتيجة عبودية خالصة لله وارتباط دائم وعلاقة مستمرة به ؛ فإنّ دوام عبادته وطلب رضاه واللّجوء إلى لطفه والعيش في عنايته يصل بالإنسان إلى موقعية يقدر بها على إحراز مقام خلافة الله في الأرض ، ويبعث على محبة ترفع عن طريق البشر أيّ مانع أو رادع ، ويدفع عنه أيّ شرّ أو رجس .

الإسلام بكل إرشاداته يربّي هذا الإحساس الأصيل في الإنسان بحيث يمتزج مع طبيئته ، وحينما تصبح المحبة مبدأً للأحاسيس النفسية وتتجذّر في باطن وجوده ، بعثت فيه ميولاً خاصة يستعدّ معها صاحبها للتبرّع بأعمال الخير والبرّ وخدمة المجتمع بعلاقة واشتياق خاص . ويصبح العناد وإرادة الشرّ للآخرين والطغيان والعنوّ في أصحابها (المحبة) غير عريقة بل متزلزلة غير ثابتة ، تزول بأدنى توجّه ودقة وتأمّل ؛ ذلك أنّه ليس هناك شيء أقدر على الذّهاب بأرجاس النفس الإنسانية أفضل من هذا الرأسمال الثمين (المحبة) .

إنّ ما أولاه القرآن الكريم من التوجّه العميق بالنسبة إلى تربية الناس أجمعين ، وما فيه من إمعان نظر ودقّة ، يترك في النفس أثراً تهذيبياً كبيراً ، فالإنسان بالتفاتة إلى وجود علاقة وثيقة لا تنقطع بينه وبين عالم الوجود ، يوفّق بين وجوده وبين نظام الوجود ، وسينظر إلى الموجودات بنظرة ملؤها الرحمة ، ما عدا الضارّة منها .

إنّ اعتياد الإنسان بالأحاسيس اللطيفة التي تتجلى فيها عظمتة وسموّ مقامه

ومرتبته الإنسانية السامية ، وامتلاكه لأحاسيس الرحمة بسائر الأحياء ومن ثم مع جميع الكائنات والمخلوقات ، يُحدث في نفس الإنسان سعيّاً صحيحاً ومحاولة معتدلة لا بدّ له منها في حياته ، وتطرد من نفسه الخشونة والظلمة بالمرّة ، وتطهّره من أرجاسه وأنجاسه .

إنّ المعرفة الروحانية السأوية لرسول الإسلام هي التي كانت تبعته إلى أن يقول بشأن أقربائه الأشقياء الذين كانوا قد اتّخذوا معه أسلوباً بعيداً عن الإنسانية « اللهم أهد قومي فإنهم لا يعلمون » .

لم يكن لطف رسول الإسلام العظيم (صلى الله عليه وآله وسلم) ورحمته تشمل أولئك فحسب ، بل كانت تعلّم المسلمين عملياً أصول الخير والإحسان .

حدّث يوماً جمعاً من أصحابه المتشرفين بحضوره حديثاً قال فيه (ما فحواه) : أصيب شخص في الصحراء بالعطش ، ووجد بئراً فنزل فيها وارتوى منها ، ورأى كلباً قد سقط عاجزاً من شدة العطش يمسح فاه في التراب ، فعلم الرجل أن الكلب عطشان فهو في عذاب وألم من شدة العطش ، فأشفق قلبه عليه ، وعزم على أن يروّي الكلب بكمية من الماء . فرجع مرة أخرى إلى البئر وملاً خُفّه ورجع به إلى الكلب فوضعه أمامه وقد أشرفت روحه على الهلاك ، وعفى الله عن الرجل ثواباً لعمله هذا .

فقال صحابته : فهل لنا أن نكتسب ثواباً من البرّ بالحيوان ؟

فقال رسول الله : نعم ، إنكم تثابون على إغاثة كل كبد حرّى «^(١)» .

من أجل الحكم على أيّ موضوع أو إقدام علينا أن نأخذ في النظر دوافع مرتكبه ، ولا ينبغي تجريد أي عمل عن عواقبه . كالمرض تماماً حيث يتوجّه إليه الطبيب بالدقّة في علله وعوامله .

(١) نقل الحديث بالمعنى ، ولم أجد له مصدراً معتبراً ، إلّا أنّه مذكور في كتب الأخلاق .

عنوان الخيرات في الغرب

إن كانت اليوم الدول الكبرى المتقدمة تقرّر في ميزانيتها المالية السنوية وبرامجها الاقتصادية مبالغ من المال لمساعدة الدول المتخلّفة في برامجها الاقتصادية ؛ فليس هدفها - في الرتبة الأولى - منبعثاً من صدق شفقتها عليها وإرادة الخير لها خالصاً مخلصاً ، بل من أجل أنه لو ضعفت القدرة على الشراء لدى طرف المعاملة ، ولم يبق للدول المتخلّفة أيّ سوق لصرف المنتجات الصناعية لهذه الدول المتقدمة ، لأصبحت حياتها الاقتصادية في خطر التدهور بل السقوط ، ولتوقفت وتعطلت المعاملات بينهم ، وبالتالي فإنّ أساس هذه المساعدات هو حفظ التوازن النسبي الاقتصادي لطرفي المعاملات .

وكثير من أعمال الخير الفردية في الغرب غالباً ما يكون وسيلة لإشباع رغبات نفسية تنتهي إلى حبّ الذات ، ولا يُرى فيها أيّ سمة من سمات الإخلاص ، بل غالباً ما يستفاد منها كجسر للوصول إلى المقاصد الشخصية . وعلى هذا فالحكم بقيمة عمل بالنظر إلى آثاره ونتائجه فقط ليس صحيحاً ، ولا ينبغي أن يكون الإنسان لتقييم أيّ عمل أو إقدام يبحث عن معادلة رياضية وبعبارة أخرى : ليس بالإمكان أن نفسح الطريق للمعادلات الرياضية في تقييم الأخلاق .

والعالم الفرنسي الدكتور (كاريل) يرسم صورة الخيرات في الغرب هكذا :

« إن دافعنا في أعمالنا هو أن ننال تقدماً شخصياً ، وقبل كل شيء : الانتفاعات المالية وإشباع غريزة إبراز الوجود ، المراتب والعناوين ، وأوسمة الفخر والموقعية الاجتماعية . وقد تختفي هذه المقاصد تحت أقنعة الرياء وحبّ أبناء النوع الإنساني . وبإمكاننا أن نرى التحدّيات الخفية والخبائث المضمرة في الدوائر العسكرية ، والجامعات ، والدوائر والمحاكم الحكومية ، بحيث نرى مفهوم الشرف محرفاً هناك .

بل إنّ الذين يجعلون أنفسهم وقفاً لهدف كبير ، أو يسعون مخلصين بلا رياء ، يراهم كثير من الناس مجانين حقراء. وبإمكاننا أن نرى آثار النفعيّة في كل مكان :

في إمراة تفرّغت لأموال الخير وليست في عمق قلبها تفكر في مساعدة المضطّرين ، بل تريد أن تُرشّح لإدارة مؤسّسة خيرية مثلاً أو أن تحصل على وسام « لثريون دونور » أو أن تنتفع بعد ذلك إذ تفتح حانوتاً للبيع والتجارة .

وفي طبيب معروف يوصّي تلامذته ومرضاه بمصرف دواء خاص قد ناوله صاحب مصنعه رشوة كبرى .

وفي عالم جامعي لا يستهدف في مساعيه الرّقّي العلمي بل يأمل في الحصول على كرسيّ خاص في أكاديمية علمية ، لكي ينتفع من منافعه المادية .

وفي أطباء لا يراعون جانب الأخلاق في مختبراتهم وفي رعاية وعيادة مرضاهم .

وفي طالب يُرشّي كاتب الكلية ليحصل على أسئلة الامتحانات الآتية .

وفي طلاب يبيعون ما يحصلون عليه من مساعدات للدراسة في السوق السوداء .

وكثيراً ما تختفي صورة النفعية تحت قناع العلم والإنسانية والتضحية والنزاهة . نحن حريصون على المال ذلك أنّ المال يُعد كلّ شيء ، ويمنحنا القدرة . بالإمكان أن يشتري به كل أحد تقريباً إما بالنقود نفسها أو بما يُعده أصحاب الأموال ويعرضونه عليهم ، فإنّ الأموال تشبع تَمَنّياتنا الحقيرة ^(١) .

والآن من أجل أن نتعرّف على الماهية الواقعية لعمل الخير في الإسلام ، لننتفت إلى الحديث التالي الذي هو نموذج عن أسلوب التفكير في المتربّين في مدرسة التربية الإسلامية :

(١) بالفارسية : راه ورسم زندگی : ١٥ ، ١٦ .

جاء رجل يوماً إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وقال : جوعان يا رسول الله . فأمر رسول الله رجلاً أن يأتي إليه من بيته بطعام ، فرجع الرجل بعذر بعض أزواجه : أنه ليس في بيته سوى الماء ! فلما يئس رسول الله من بيته نظر إلى أصحابه وقال : هل فيكم من يضيف هذا الرجل ؟ فقام إليه رجل من الأنصار وقبل ضيافته ، ولكنه لما وصل إلى منزله لم يجد فيه ما يزيد على حاجة أهله وأولاده ، فطلب من امرأته أن تعدّ لضيفهم طعاماً كيف ما كان ، عندما قدم الطعام للرجل أطفأ السراج لكي لا يرى الضيف أن مضيفه لا يأكل معه بل يتصور أنه يأكل معه .

وروى المجلسي في البحار عن رسول الإسلام العظيم أنه قال :
« إِنَّ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ صَدَقَةٌ . قِيلَ : وَمَنْ يَطِيقُ ذَلِكَ ؟
قال : إمَّا طَعْمُكَ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ » (١) .

وليعلم أن ما يعتبره رسول الله صدقة وعمل خير يرضاه الله ولو في حدّ رفع حجر عن معبر المسلمين إنما هو في الحدّ الأدنى من الإمكانيات المتوفرة لمسلم قاصر عن أكثر من ذلك ، بمعنى أن موقعه الاقتصادي والمالي والاجتماعي لا يُوفّر له أن يقوم بعمل أكبر من ذلك ، وإلا فإنّ الذين لهم إمكانيات أوسع عليهم أن يقوموا بعمل الخير بشكل يتناسب مع موقعهم وإمكانياتهم فاللزام أن تكون هناك نسبة متناسبة بين الأفراد وما يقومون به من أعمال الخير .

كان لي صديق يعمل في الخدمات الاجتماعية قال لي يوماً : برنامجي اليومي هو أنني كلّ صباح حينما أخرج من منزلي وقبل أن أشتغل بأعمالي الشخصية وأبدأ فيها ، أرى نفسي مكلفاً بأن أقوم بعمل خير ، مهما كان حتى ولو كان إرشاداً لمن لا يعرف كيف يبدأ عمله .

صدقاً لو صمّم كل مسلم على تنفيذ ما قرّره رسول الإسلام العظيم من

(١) بحار الأنوار ١٥ : ١٣١ .

برامج أخلاقية ، وقام كل واحد منهم حسب شغله وعمله وما له من إمكانيات بعمل من أعمال الخير ، وكانت دَوَامَة الحياة الاجتماعية تدور بنشاط وفعالية ، وكم هي المشاكل التي كانت تُحلّ لهم هكذا .

من هو المحبوب عند الله ؟

روى الشيخ الكليني في أصول الكافي بسنده عن سيف بن عميرة قال :
حدثني من سمع أبا عبد الله الصادق (عليه السلام) يقول :
« سُئِلَ رسول الله (صلى الله عليه وآله) : من أحبّ الناس إلى الله ؟ قال أنفع الناس للناس »^(١) .

وروى فيه بسنده عن عاصم الكوزي عن أبي عبد الله الصادق (عليه السلام) أيضاً قال : إنّ النبي (صلى الله عليه وآله) قال :
« من أصبح لا يهتمّ بأمور المسلمين فليس منهم ، ومن سمع رجلاً ينادي : يا للمسلمين فلم يجبه فليس بمسلم »^(٢) .

وروى فيه بسنده عن صفوان الجمال قال : كنت جالساً مع أبي عبد الله الصادق (عليه السلام) إذ دخل عليه رجل من أهل مكة يقال له : ميمون ، فشكى إليه تعذّر الكراء عليه . فقال لي : قم فأعِن أخاك ، فقممت معه فيسرّ الله كِراه ، فرجعت إلى مجلسي ، فقال أبو عبد الله (عليه السلام) : ما صنعت في حاجة أخيك ؟ فقلت قضاها الله بأبي أنت وأمي . فقال : أمّا إنك أن تعين أخاك المسلم أحبّ إليّ من طواف أسبوع بالبيت مبتدئاً . ثم قال :

إنّ رجلاً أتى الحسن بن علي (عليه السلام) فقال : بأبي أنت وأمي أعني على قضاء حاجة فانتعل وقام معه ، فمرّ على الحسين وهو قائم يصليّ ، فقال له : أين كنت عن أبي عبد الله تستعينه على حاجتك ؟ قال : قد فعلت فذكر أنّه

(١) أصول الكافي ٢ : ١٦٤ .

(٢) أصول الكافي ٢ : ١٦٤ .

معتكف . فقال له : أما إنه لو أعانك كان خيراً له من اعتكافه شهراً^(١) .

الحب والإحسان اللامحدودين

إنَّ العواطف الإنسانية كلما كانت أوسع وأشمل كانت تسع لناس أكثر . وإنَّ الرحمة لا تستقرّ في أعماق قلوب المتضايقين بمقياس واسع ، ولذلك فإنَّ إحسان هؤلاء لا يعمّ كثيراً بحيث يشمل أفراد المجتمع من كل فرقة وطائفة . وإنَّ هذه الرحمة ليست قريبة من رحمة الله أبداً .

قال رجل من هؤلاء لدى الحسين بن علي (عليه السلام) : إنَّ المعروف إذا أسدي إلى غير أهله ضاع . فقال (عليه السلام) : ليس كذلك ، ولكن تكون الضيعة مثل وابل المطر ، فيصيب البرّ والفاجر^(٢) .

وأوصى الإمام السّجاد لابنه الباقر (عليهما السلام) فقال :
« يا بُنَيَّ افعل الخير إلى كل من طلبه منك ، فإن كان من أهله فقد أصبت ، وإن لم يكن من أهله كنت أنت أهله^(٣) » .

وسيد الأحرار الحسين بن علي (عليه السلام) يدعو الناس إلى عمل الخير بخير كلام فيقول :

« يا أيها الناس نافسوا في المكارم ، وسارعوا في المغانم ، ولا تحتسبوا بمعروف لم تعجلوا واكسبوا الحمد بالنجح ، ولا تكتسبوا بالمطل ذمّاً . فمهما يكن لأحد عند أحد صنّعة له ، رأى أنّه لا يقوم بشكرها ، فالله له بمكافأته ، فإنّه أجزل عطاءً وأعظم أجراً .

(١) أصول الكافي ٢ : ١٩٨ .

(٢) تحف العقول : ٢٤٥ .

(٣) روضة الكافي : ١٥٣ .

واعلموا أنَّ حوائج الناس إليكم من نعم الله عليكم ، فلا تملوا
النعم فتحور نقماً .

واعلموا أنَّ المعروف مُكسِبٌ حَمْدًا ومعقَّبٌ أجراً ، فلو رأيتم
المعروف رجلاً رأيتموه حسناً جميلاً يسر الناظرين ، ولو رأيتم اللؤم
رأيتموه سمجاً مشوهاً تنفر منه القلوب وتغضُّ دونه الأبصار .

أيها الناس ! من جاد ساد ومن بخل ذل ، وإن أجود الناس من
أعطى من لا يرجو ، وإن أعفى الناس من عفى عن قدرة ، وإن
أوصل الناس من وصل من قطعه ، والأصول على مغارسها بفروعها
تسموا فمن تعجل لأخيه خيراً وجده إذا قدم عليه غداً ، ومن أراد
الله تبارك وتعالى بالضيعة إلى أخيه كافأه بها في وقت حاجته ،
وصرف عنه من بلاء الدنيا ما هو أكثر منه ، ومن نفس كربة مؤمن
فرج الله عنه كُرب الدنيا والآخرة ، ومن أحسن أحسن الله إليه ،
والله يحبّ المحسنين »^(١) .

وليس البرّ والإحسان منحصرًا في بذل المال ورفع آلام المعذبين وحلّ
مشاكلهم ، بل إنّ العون المعنوي وإصلاح صفاتهم وأخلاقهم أعلى وأغلى من
الإحسان بالأموال .

وعلى هذا فلو أنَّ أحداً أخذ بيد الضالين منقذاً لهم من هوة الفساد
والضلال ، مطلقاً في أجواء الحقيقة والنور ، كان قد قام في حقهم بأكبر برّ
وأحسن إحسان ، فإنّ مساعدة المنحرفين وإنقاذ الغرقى من حضيض الفساد
والشقاء أعلى أنواع البرّ وأثمن صنوف الإحسان في الإسلام .

فقد قال قائد الإسلام العظيم لعلي (عليه السلام) :

« لئن يهدي الله على يديك رجلاً خيراً لك ممّا طلعت عليه
الشمس »^(٢) .

(١) كشف الغمة ٢ : ٢٤١ ، ٢٤٢ .

(٢) سفينة البحار ٢ : ٧٠٠ .

التقدير عامل كبير في تحرك المجتمع نحو الخير

- * عوز الروح الإنسانية .
- * آثار المديح والتحسين البالغة .
- * النقد الأصولي يختلف عن سرد السلبيات .
- * التملق المذموم .
- * أطروحة الإسلام بشأن نشر الطهر والنزاهة .
- * أضرار عدم الشكر والتقدير .
- * مكافحة أنواع الفساد .

عوز الروح الإنسانية

كما للإنسان حاجات لبقائه حياً ، وهو دائماً في سعي وفعالية لقضاء حاجاته تلك ، كذلك لروحه آمنيات يجب أن تقضى ، قد غرستها يد الخلق في أعماق الروح الإنسانية .

إنَّ الروح الإنسانية عطشى إلى الحمد والثناء ، وتبعاً لهذه الحاجة البروجية يشترك كل واحد منا إلى أن تكون أعماله وسلوكه مورد تأييد بين أفراد المجتمع ، وأن يثنوا عليه فتثبت له بذلك شخصية إجتماعية ، وبذلك يصل إلى ساحل مقاصده المرضية .

وبما أنَّ الإنسان يحب نفسه لذلك فهو يحب ما يقوم به من ابتكارات ونتائج أفكاره وأذواقه بل يعشقها ، ولذلك فإنَّ الحمد والترغيب أقوى عامل لدفع الأفراد ، وهو من أكثر المواضيع الاجتماعية ضرورة ولزوماً . وإنَّ للتقدير من الأثر والفعالية العجيبة ما يمكنه أن يمنح المجتمع الذي يغط في سبات : حياة جديدة ، وأن يحرك عجلاته لنشاطات حيوية حديثة أخرى ، مع أن التقدير يعدّ أبسط دواء لأدواء الفرد والمجتمع .

وعلى العكس ، فإنَّ البخل في التشويق يعدّ مانعاً كبيراً في طريق تكامل المجتمع وتطوره ، يمنع من انفتاح براعم القوى والطاقات والاستعدادات المودعة فيه ، ويسبب في أن تسيطر الرخوة والفتور عليه عوضاً عن الفعالية والنشاط .

إنَّ الشباب الذين قد بلغوا مرحلة حساسة في عقولهم وأحاسيسهم وهم

على أبواب الاستقلال في حياتهم ، بحاجة إلى التقدير والترغيب لتقدمهم والمزيد في مساعيهم وفعالياتهم أكثر من أي شيء آخر .

يقول الفيلسوف الإنجليزي (برتراند راسل) :

« يجب علينا أن نقوم بالحمد والثناء بشأن كل مظهر حديث من مظاهر الشجاعة والمهارة الفنية ، أو الانسلاخ عن مظاهر حب الذات بالنسبة إلى ما يمتلكه الأطفال ، ولا سيما فيما يقتضي جهاداً مع النفس . بل علينا أن نستعمل المدح والثناء إزاء كل عمل بارز وممتاز في جميع مراحل التربية .

إنّ من ألدّ الأمور في عهد الشباب أن يثنوا عليه إزاء قيامه بعمل شاق ، وإنّ اشتياقه إلى هذه اللذة أمر طبيعي واقعي ومحرك أساسي .

إنّ أي إرشاد أخلاقي يجب أن يكون فورياً وجدياً ، وأن يستفاد لذلك من كل حادثة طارئة ، ويجب أن لا يتجاوز عمّا يقتضيه ذلك الوضع الخاص ، والطفل هو بطبعه يطبق ذلك على الموارد المشابهة لذلك المورد الخاص .

إنّ إدراك الحالة المحدودة وتطبيق الملاحظات الإرشادية على الحالات المشابهة أسهل للطفل من فهم القواعد الكلية وتطبيقها على مصاديقها اجتهداً ، فلا تقولوا له بصورة كلية : كن شجاعاً ، وكن رحيماً بالآخرين . . بل رغبه وادفعه إلى عمل معين يستلزم جرأة ، ثم قل له : حيّاك الله أنت ولد قوي شجاع ، وكذلك احملة على أن يجعل ألعابه تحت تصرّف أخته الصغيرة - مثلاً - لتلعب بها ، وحينها ينظر إلى وجه أخته المتلهّل فرحاً قل له : أحسنت أنت ولد بارّ رؤوف رحيم ، وكذلك عالج منه قسوته وشدّته ^(١) .

إنّ أكبر ضربة وأشدّ صدمة ترد على الطاقات المبدعة للشباب هو تحقير شخصيّته وعدم الاعتناء بأعماله وعدم تقديرها وتثمينها ؛ فإنّه يتألم كثيراً جدّاً حينما يُحسّ بأنّ الناس لا يلتفتون إلى ما يقوم به من عمل وجهد ، ولا يحسبون

(١) بالفارسية : در تربيت : ١٢٢ ، ١٢٣ .

لنتائج مساعيه وأتعبه أيّ حساب ، بل هي فاقدة لآية قيمة لديهم ، يتألم كثيراً وتصاب طاقاته النامية فيه بنوع من الجمود والتوقف ، ويموت فيه أمله بمستقبله ويفتقد اعتماده على نفسه وهو بذلك يقع في معرض الابتلاء بالأمراض النفسية .

فإنّ الميول والرغبات الروحية إذا ما بقيت ظامئة اندثرت في قسم اللاشعور حسب القانون النفسي ، وهي بذلك تشكل عقدة نفسية سيئة ستؤثر على روحه دائماً .

فضلاً عن ذلك ، فإنّ أصحاب العلم والفنّ حينما يدركون أنّهم لا يملكون بما يبدونه من نتائج مساعيهم وأتعبهم قيمة أو موقعية اجتماعية ، فمن الممكن أن تغرّب هذه الأحاسيس المنكسرة من مسار الأفكار ونشاطاتها ، وأن ينحرفوا إلى الطرق الملتوية لإشباع حاجاتهم الروحية واكتساب التوفيق في الحياة الاجتماعية ، وأن يقوم المكر والخداع والتزوير مقام الفضائل الإنسانية والكمالات الروحية لديهم . وهذه واقعية ثابتة في علم النفس .

آثار المدح والتحسين

إنّ جملة قصيرة من المدح والتحسين تترك أثراً عميقاً في روح الإنسان ، ومن الممكن أن يصرف جميع عمره في مساعي ممتدة لاكتساب الموقعية في الحياة بما ينشأ من ذلك التحسين من تحوّل وتطوّر روحي فيه . وكثير أولئك الذين يرون تقدّمهم ورفقيهم في الحياة رهيناً لتقدير بعض كبار الشخصيات ، وأنّه لولا تحسين أولئك لما قام به هؤلاء من أعمال لما أمكنهم أن يرتقوا مدارج الرقي والكمال قطعاً .

ولذلك فإنّ الأمم المتقدمة في العالم يولون أهمية خاصّة لما يقوم به الشخصيات البارزة من تقدير لذوي الكفاءات ، وهذا الأمر يتحقق بصور مختلفة ، وحيثنّ فلا تنطفئ في هكذا أجواء أضواء النبوغ والاستعدادات ، بل تنهياً الأرضية الكافية لتنمية الاستعدادات واستثمار القوى والطاقات المدخرة ،

ويجد العلم والعمل بذلك قيمته الواقعية ، وبذلك تعرف الشخصيات البارزة واللائقة .

إنّ للإنسان في دور الشباب - الذي هو أهمّ مراحل الحياة من حيث تأسيس الأسس الأخلاقية فيه - استعداد أكثر لأن يقوم بالتمجيد والثناء على الخدمات القيمة للآخرين ، وكلّما مرّت مرحلة من عمره قلّ ما يمكن أن يسترعي انتباهه وثنائه ؛ ولهذا فمن اللازم أن نقوّي روح التقدير والثناء على كبار الرجال في كيانهما ما داموا في دور التأثير والانطباع .

وإنّ لتنفيذ هذا البرنامج أثراً تامّاً في حفظ التوازن الروحي في الشباب والشبيبة ، فإنّ من الخصائص الطبيعية للشباب اختياره لمن يقتدي به ويستضيء بضوئه وهدهاءه ، فمن الطبيعي أنّه سيختار في هذا الدور شخصية أو عدة شخصيات نموذجية مثلاً له ، وحينئذٍ فإنّ لم يتوجّه إلى الرجال الطاهرين ولم تكن نفسيّته مستعدّة لتقديرهم والثناء عليهم فمن الممكن أن يختار المنحرفين الملوّثين أمثولة لنفسه وقدوة ، ويتّبعهم في سلوكهم . وطبيعي أن يكون لهذا الاختيار كثير من العواقب السيئة غير المرضية في حياة الشباب .

إنّ الذين يتمتّعون بذوق سالم وقلب رؤوف رحيم وفكر حرّ يطلقون ألسنتهم بالمدح والثناء على أيّ عمل صالح وإقدام خير يشاهدونه من أيّ إنسان . وإنّ للأفكار السامية والإدراك العالي لكبار الرجال إشراق عظيم بحيث يولّد في الآخرين الحيويّة والنشاط ، ويمنحهم الدفء والحرارة والديناميكية . وإنّ معاشرّة ذوي الأخلاق الصالحة ترفع بأسس أفكار الإنسان ، وتضع عنه إصر النفس الذي هو أكبر الموانع دون نموّ الأخلاق الصالحة فيه . وإنّ الذين يتأثّرون بنفوذ كلام القادة فيهم وهم ينهلون من غيرهم الصافي يحصلون بذلك على أرضية مساعدة للإنتلاق إلى أوج الرقي والكمال .

إلاّ أنّ هناك آخرين يخلون بشدّة عن ذكر مزايا أقرب أحبائهم إليهم ،

وليسوا مستعدين بأيّ وجه أن يطلقوا ألسنتهم بذكر مميزاتهم وكفاءاتهم ، وأن يجدوا خدماتهم وأعمالهم القيمة أبداً .

أجل ، إنّ الطبيعة السافلة الفاقدة للمزايا الإنسانية والمستعدة لاكتساب أية صفة غير مرضية ، إذا قابلت أيّ شيء يثير التحسين والثناء أخذت تنظر إليه بنظرة ملؤها التحقير والتصغير ، بل لا يمتنع صاحب مثل هذه الطبيعة أن يبدي انزعاجه من ذلك ، فإنّ تقدم الآخرين وسعادتهم في الحياة تشكل بالنسبة إليه عذاباً وألماً نفسياً ، فهو ليس قليل التحمل لسماع أقل تمجيد بشأن الموفقين من أقرانه بل هو يتلقى ما قد يحدث في طريقهم من مشاكل وصعوبات ببالغ المسرة والفرح ، وهو يتسلّى بذلك عما فيه من ألم .

فويل له فيما إذا أحسّ بأنّ أقرانه قد تقدّموه صعوداً في مدارج الرقي ، فإنّه حينئذٍ ستشتعل نيران الغضب في فؤاده ، ومن الممكن أن ينتهي فكره القاصر الفاتر وحسده البغيض إلى اتّخاذ سلوك عدائي بالنسبة إليهم ، وأن يقدم على أيّ عمل منافٍ للمروءة والفتوة من أجل إيراد صدمات بأقرانه أولئك .

إنّ العقلاء يتخذون دروساً من أعمال الجهلاء فيجتنبون إرتكاب أخطائهم ، ولكن الجهلاء غير مستعدين للتبعية من أساليب العقلاء واتّخاذ الدروس من أخلاقهم وفضائلهم الإنسانية .

النقد الأصولي يختلف عن سرد السلبيات

إنّ سلب الأشخاص شخصياتهم وإيراد النقد غير الوارد عليهم من أكبر عيوب مجتمعاتنا ، فهو أمر رائج فيها وفي كثير من طبقاتها المختلفة ، فمن ابتكر أمراً وبدأ عملاً عارضاً جديداً فإنّه سيقع فريسة لنقد كل فرقة وطائفة حتى لو لم يكن لها أية صلاحية لإبداء رأيها ، وسينال عليه سيل من النقد الهدّام من دون أية دراسة أو ملاحظة .

يقول (واناميكرو) أحد الشخصيات الاجتماعية في أمريكا :

« ادركت منذ ثلاثين عاماً أنّ إيراد الإشكال على الآخرين من عمل المجانين ، فكيف استطيع أن أصلح الآخرين بلومهم وإيراد الإشكال عليهم بينما أنا نفسي أواجه المشاكل والمعضلات في رفع معايي . والآن أقرّ وأعترف بأنّ الله لم ير من الصلاح أن يمنح كل واحد منّا عقلاً وعلماً مساوياً للآخرين »^(١) .

لا شك في أن النقد الأصولي والصحيح هو من إحدى السبل الصالحة لإصلاح المجتمع ، ولكن التعاسة في أنّ أكثر النقد يكون بلا دراسة وتحقيق ، والذي هو بدوره سلوك غير عادل يسبّب انسداد سبيل التكامل والابتكار ، وربما أثر هذا الضعف الأخلاقي الاجتماعي في أقوى الأفراد فخيّهم عن آمالهم في أعمالهم .

إنّ إيراد الإشكال على زلّات الناس وعثراتهم - في نظر علماء النفس في العالم - يعكس الأخطاء والنواقص في نفس المستشكل ممّا يراه في الآخرين من حيث لا يشعر ، ويقول :

« بصورة عامة ، وفي الغالب ، يستند النقد واللوم من زلّات الآخرين وعثراتهم على عثراتنا نحن ممّا لا شعور لنا بها ، أي نحن نرى النقص في الآخرين من حيث نحسّ نحن به في أنفسنا وإن كنّا لا نشعر بذلك . وإنّ الرجل الإيجابي الواعي لا يصرف وقته في إيراد الإشكال على الآخرين ونقدهم ، إذ أنّه دائماً مشغول بأعمال إيجابية مفيدة . وقلّما يكون المنتقدون من طبقة المخترعين والمولّدين ، وحتى نقاد الفن حينما ينتقد نواقص الفنّ في الآخرين ينتقد نواقص عمله هو في الحقيقة ، وإنّ المنظرين الذين واجهوا الفشل هم من الذين ينظرون للآخرين فقط ولا يعلمون هم بما يعلمون وينظرون .

إنّ غير المعقول من النقد والإشكال ينتهي في الغالب إلى التنكّر للحق ، ويذهب ببهاء أيّ شيء . وإنّ بالإمكان أن نتبين سبباً للكراهية الشديدة فيمن

(١) بالفارسية : آئين دوست يابی : ١٨ .

يقوم بنقد غير وجهه وغير عادل ، ممّا لا يشعر هو بوجود ذلك في نفسه ، وإنّ هذه الكراهية المضمرة تنتقل من باطن الناقد إلى ما حوله وتذهب بقيمة كل شيء حوالیه . نحن نشاهد ردّ فعل مثل هذا فيمن قد قضى عمره في اليأس وخيبة الأمل ، فهو ينظر إلى جميع الكائنات بنظرة ملؤها الازدراء والاحتقار ، إنّ انتقاد هؤلاء ينطلق من كراهيتهم الشخصية ، حتى إنّهم يتنفّرون اليوم ممّا كانوا يحبّونه بالأمس ، من دون أن يشعروا بأن هذه الكراهية ليست من خارج وجودهم ، بل هي تنبع من نفوسهم . إنّ العداء وسوء الظن ينشأ في الحقيقة من نضوب معين المحبة والوداد في نفس الإنسان»^(١) .

إنّ عمل الخير جدير بالتقدير حتى ولو كان من واجب من يقوم به ، فإنّ من يعرف تكليفه ويؤدّيه يجب أن يقع موقع التقدير والثناء ، حتى يجد في نفسه تعلّقاً أكثر بتكاليفه وأدائها ، ويقوم بتعقيها بمداومة وعلاقة واشتياق أقوى وأكثر .

كاتب هذه السطور كان قبل عدّة أعوام في إحدى المدن المعروفة في إيران ، وفي يوم من الأيام أصيبت شبكة الكهرباء في تلك المنطقة بنقص فيّ ، فاتّصلت أنا بمدير الشبكة وطلبت إليه أن يعمل على ترميم ذلك النقص الطارئ . وبعد مدّة مديدة تقريباً أصلحوا نقص الشبكة الكهربائية ، فتكلّمت من جديد بالهاتف مع ذلك المدير وشكرته وقدّرت ما قام به من عمل ، فتأثّر ذلك المدير بعد سماعه كلمات الشكر بحيث كان في بداية حديثي معه بادي الألم والفتور من خلال صوته ولكن بعد سماعه شكري انفتح صوته بصورة محسوسة وسألني متحيراً وبشوق وافر : من أنت الذي تشكرني على عملي هذا ؟ فإنّ هذه أول مرّة أسمع فيها شكراً وتقديراً من حين التزامي بمسؤولية هذه الشبكة هنا !! .

وأجبتّه : للأسف أو لحسن الحظّ فإنّي لست من أهل هذه المدينة ، وإنّما

(١) بالفارسية : روانشناسی برای همه : ٢٥٧ و ٢٥٨ .

كان شكري وتقديري لما قمت به من واجب . فأبدي رغبته في أن يراني من قريب .

ومنذ ذلك الحين كلما كان يطرأ نقص في تلك الشبكة المنهكة في تلك المنطقة ، فبمحض ما كنت أخبره بالأمر كان يقدم على رفع النقص الطارئ بكل علاقة وشوق ، وكان يرتفع ذلك النقص بسرعة وفي مدة قصيرة .

وحسب تحقيقي عن حقيقة ما ادّعاء أنه لم يشكره إلى ذلك اليوم أحد ، علمت أنه عين منذ عدة أعوام مديراً لتلك الشبكة المنهكة في تلك المنطقة ، ولم تُقدّر أتعابه حتى مرة واحدة في كل تلك المدة الطويلة .

التملق المذموم

ويجب أن نتذكر : إنّ التقدير ومع كلّ ما له من نتائج وثمرات نافعة ، يجب أن يكون محدوداً بحدود ولا ينبغي أن يتجاوز عن حدوده المنطقية المعقولة ، فكما أنّ عدم التقدير من الأعمال الإيجابية والبناءة يؤدي إلى جهود الأفكار والطاقات ، فإنّ الإفراط في التحسين والتقدير أيضاً يقلب التقدير إلى تملق مذموم ومضرّ ، وهو من أنواع الانحرافات المجانية للواقع والحقائق .

كتب (داييل كارينجي) بهذا الشأن يقول :

« إنّ التملق لا يؤثر في الظرفاء ، لأنه خاوي وباطل ومغرض ، فمن الطبيعي أن لا يتأثر به السامع الظريف .

هناك فرق بين مدح وثناء ينطلق من القلب وبين تملق فاسد ، ضرّه أكثر من نفعه ، إنّ الرجال المتملقين يصابون بخسارة كبرى ؛ فإنّ التملق نوع من الخداع المضحك الذي سينكشف يوماً ما ، بينما التحسين والتمجيد الخالص شيء يختلف عن الأول تماماً ، وأعني بالتملق أسلوباً من التفكير الحقير المؤثر في مسيرة حياة الإنسان بصورة كلية .

لنكن حين الحديث بدلاً من أن نعطف أفكارنا إلى أنفسنا نسعى لنجد الأخلاق والصفات الخاصة لمخاطبيننا ، وحينئذٍ نقدر على أن نجد الجوانب الخيرة في ذلك الشخص فتثني عليه بإخلاص ، ولا نتكلف تملّقاً لا نعتقد به نحن في قرارة نفوسنا»^(١) .

إنّ عمر بن عبد العزيز الذي كان يختلف عن سائر الخلفاء الأمويين في مزايا من الفضائل الإنسانية ، حينما بلغ الخلافة وتولّى زمام أمور المسلمين ، وأسرعت طبقات الناس إلى لقائه وتهنئته وتبريك الخلافة له ، قام إليه في مجلسه العام رجل من شخصيات العرب المعروفة يدعى (خالد بن عبد الله) ممثلاً لوفد من الوفود وبدأ كلامه يقول :

يا أمير المؤمنين ! يفخر كثير من الناس بما يصلون إليه من مقامات ومناصب ، فيكون شرفهم الإمرة والخلافة والمقام ، وأما أنت فأنت فخر الخلافة والإمرة ، فهي تزهو بك وتشرف وتزيّن بوجودك ، وفي الحقيقة أنت كما قال الشاعر :

وإذا الدرّ زان حسن وجوه كان للدرّ حسن وجهك زينا
وكان خالد بن عبد الله يمدح الخليفة ويثني عليه نظماً ونثراً بكلام جزل ، ولكن الخليفة ملّ من تملّقه اللامعقول ، فقطع عليه حديثه وأمره بالجلوس . ثم التفت إلى الحاضرين وقال : « إنّ لصاحبكم لساناً عوضاً عن العقل والجنان » .

إنّ روحية التملّق من العيوب البارزة في المجتمع ، وقد سرت بصورة موحشة في كثير من شؤون مجتمعاتنا ، وقلّما نجد أفراداً يتمدّحون آخرين من أجل الصعود بمعنوياتهم وتأيدهم وتقوية قلوبهم وإبرازاً لمعرفتهم بحقوقهم وقيمة أعمالهم ، ولا يكون لهم هدف سوى دفعهم إلى الأمام وفتح الطريق أمام تقدّمهم .

(١) بالفارسية : آئين دوست يابی : ٤٢ .

وكتب كاتب من الشخصيات الاجتماعية في إيران بهذا الشأن يقول :

« أصبح لي هذا الأمر كقانون مطلق شيئاً فشيئاً : بأنّ كلّ من يزورني ويبدأ بمدحي أو الثناء على كتاباتي وآثاري ، فإنّما هو يرجوني لحاجة ما ، فمثلاً يطلب مني توصية ، أو أصبح له اطلاعاً على أمر عن طريقي ضرورياً لازماً ، أو أنّه يتوقع مني معونة أو مساعدة أخرى . ولم يزرنني بعد أحد من أجل ترغيبني وتشويقني على أعمالي فقط » .

ثم يضيف قائلاً : « حقّاً إنّ هذا ممّا يبعث على الحسرة والألم : أنّ أكثر الكتاب والخطباء في العالم المتحضّر - كما يقولون - أحياناً يتلقون في يوم واحد عشرات الرسائل يبدي فيها أصحابها أحاسيسهم النزيهة وتقديرهم وثناءهم من أجل آثارهم الثمينة . . بينما قلّما يقع في إيران أحد الخطباء أو الكتاب موقع التقدير خلواً عن الأغراض ومن دون أي توقّع » .

أطروحة الإسلام بشأن نشر الطهر والنزاهة

إنّ من البرامج البناءة والقيّمة في الإسلام هو أن يكون المسلمون شاكرين للنعم الإلهية التي لا تعد ولا تحصى . والواقع هو أن الشعور بالتقدير إنّما ينطلق من خاصية ترتبط بشخصية الإنسان بصورة غامضة .

إنّ الترغيب والتشويق العاطفي عامل نافع ومفيد في نشر الفضائل الإنسانية في المجتمع البشري . لو كان الناس يثيرون المحسنين ويعاقبون المسيئين ضمن ردود فعلهم أمامهم ، كان المجتمع يتقدم بذلك نحو السلامة والكمال ؛ ذلك أنّه متى ما تيقّظ في الناس الشعور بالكراهية من الجُناة والمجرمين وروحية الثناء والتقدير للمتّقين والمحسنين ، كان من الطبيعي أن يتّجه المجتمع نحو الفضائل والتقوى ، وتنتشر في الناس نزاهة الآمال والأهداف ، وتبيّن مقاييس القيم في كل طبقة وفرد ، وتتميّز صفوف الملوثين عن غيرهم .

يقول علي (عليه السلام) في عهده التاريخي لملك الأشتر :

« ولا يكونن المحسن والمسيء عندك بمنزلة سواء ، فإنّ في ذلك تزهيداً لأهل الإحسان في الإحسان ، وتدريباً لأهل الإساءة على الإساءة ، وألزم كلّاً منهم ما ألزم نفسه »^(١) .

إنّ رضا الخاطر وسكون الوجدان الذي يُحسّ به الإنسان إثر عمله بتكاليفه ووظائفه خير أجر وأطيب ترغيب ، ولكنه إنّما هو لأفراد قلائل بلغت شخصيّتهم إلى أسمى مراحل الكمال ، إلّا أنّ بلوغ هذا المستوى الأخلاقيّ الأمثل إنّما يتيسّر لعدد معدود من الناس فحسب ، وأمّا أكثر الناس فإنّهم لم يبلغوا من الكمال الروحي إلى مرحلة لا يحتاجون فيها إلى الثناء والتقدير ، ولهذا فإنّه لا ينبغي أن نغفل عن أهميّة التقدير وأثره بحال من الأحوال .

يقول العالم النفسي الشهير (شاختر) :

« إن كان من اللازم أن توردوا إشكالاً على أحد وتجعلوا عمله على طاولة النقد ، فمن الواجب في البداية أن تتذكّروا إحدى أعماله الصالحة فتمجّدوه به وتثنوا عليه ، كي تُقضى حاجته إلى التقدير والثناء ؛ فإنّكم إذا فعلتم ذلك ثم أوردتم عليه نقدكم لم يكن مُراً بتلك الموروّة المجرّدة ، بل قد يتقبّل نصيحتكم ونقدكم بكل رغبة وامتنان » .

فالرئيس مثلاً إن كان غير راض عن رسالة كتبها كاتبه أو سكرتيه ، كان من الحسن أن يقول له : إنّ الرسالة التي أعددتها بالأمس - مثلاً - كانت واضحة جليّة ، بينما هذه فيها قليل من الغموض والإبهام ، فأرجو أن تقرأها مرة أخرى وإذا اقتنعت فغيّرها . فطبيعي أن الكاتب سوف لا يتألم من هذا النقد اللطيف ، بل قد يحصل له الشكر والامتنان من تقدير رئيسه والتفاته إليه ، وبالتالي سيسعى في أعماله بدقّة أكثر . وإذا رأيتم خادماً المطعم يذهب ويأتي بسرعة في خدماته ولكنه قد أبطأ في تقديم طعامك ، فلا تغضب ولا تنتقده بل اعرف له عمله

(١) نهج البلاغة ٣ : ٤٣٠ ط الصالح ، الكتاب ٥٣ .

وقدّر جهوده وتمدّح فنه ولباقته ، واطمئن بعد ذلك أنه سيسرع في تقديم طعامك
مهما أمكن منشداً إلى عمله بجديّة وحرارة .

إنّ أي إنسان وفي أي سنّ من عمره وفي أي منصب كان ، فإنّه يجب
بكل قلبه أن يلتفت الناس إلى أعماله بالتقدير ، وحتى المعلّم الكبير بعد سنين
من الدراسة والاستماع إلى أنواع الثناء ، إذا سمع تلميذه الصغير اليوم يقول
له : سيدي اليوم تعلّمنا من درسك الكثير ! فرح بذلك وسرّ قلبه .

إقض حوائج الآخرين إلى التقدير والثناء لكي يُصبح الأخذ والعطاء في
الحياة أيسر وأطيب ، ولا تفوتوا على أنفسكم آية فرصة للتقدير والتمجيد على
الأعمال الصالحة للآخرين ، حتى يلتزم الآخرون بقضاء حوائجكم إلى التقدير
والثناء أيضاً»^(١) .

علينا أن نلتفت إلى أنّ أفراد الناس كما لهم من مزايا وصفات عالية ، من
الممكن أن يكون فيهم عيوب ونقائص ، ونحن أيضاً غير خارجين عن هذه
القاعدة الطبيعية فلا نخلوا نحن أيضاً من عيب أو نقص ، ولهذا فعلينا بدل أن
نكون مترصدين لما في الآخرين من نقاط ضعف ، نلتفت إلى مزاياهم وصفاتهم
العالية وما فيهم من خير وصلاح ، وإنّ أمير المؤمنين علياً (عليه السلام) يوجّه
أنظارنا إلى هذا الموضوع بعبارة جميلة فيقول :
« كن كالنحلة إذا أكلت أكلت طيباً ، وإذا وضعت وضعت طيباً ،
وإن وقعت على عود لم تكسره »^(١) .

إذا واجهتم عواطف الأصدقاء وخيرهم ورأيتموهم أنهم يُقدمون على
العمل بطلباتكم وتمنياتكم بكل علاقة وحسن نيّة ، وأنهم في سعي وفعاليّة لحلّ
مشاكلكم بصورة جدّية ، فاشكروهم عملاً بشريعة الأخلاق والإنسانية ،
وامنحوهم كلّ حبّكم وودّكم .

(١) بالفارسية : رشد شخصيت : ٤٥ ، ٤٦ .

(١) غرر الحكم : ٥٦٩ .

من الممكن أن يظهر التقدير بمظهر عمل إيجابي بعيد عن كل رياء ومظاهرة .

كتب (كرونين) يقول :

« كان ابني الذي يدرس في كلية الطب يحكي ويقول : كان من اللازم لعلاج مريض في المستشفى أن يزود بالدم ، وكان كذلك ، وبعد العلاج أخذ يبحث عمن أهدى إليه دمه لعلاج من مرضه ، ففيل له : إن أسماء الذين أهدوا دماءهم تبقى مكتومة . فخرج من المستشفى ، وبعد عدة أسابيع رجع إليها ليهدي دمه للمستشفى ، وكرّر هذا العمل الخالص عدة مرّات أخرى . فسأله أحد الأطباء الجراحين : ما الذي يدفعه إلى عمله هذا ؟ فأجاب بكل بساطة وسذاجة : أهدى إليّ مجهول دمه ، وأنا أشكره بعمله هذا »^(١) .

إنّ عمل الخير وإظهار المحبة إن لم يقابل - على الأقل - بأقل مراحل التقدير - أي التقدير والثناء باللسان - كان ذلك بعيداً عن المروءة والفتوة ، بل كان هدرّاً للحقوق .

أضرار ترك الشكر والتقدير

في هذا العالم يوجد أناس مهما أحسن إليهم وأعينوا على مشاكلهم ، لم يحصل لهم حالة الرضا النفسي فضلاً عن الشكر عملاً أو الحمد لفظاً ، وكأنّ إساءة الخدمة إليهم من واجب الآخرين ، وكأنّ لا واجب عليهم سوى إضاعة حقوق الآخرين وإحسانهم إليهم وعدم الشكر لهم . وبإمكان القراء الأعزّاء أن يروا مثل هؤلاء من حولهم ، وإنّ سلوك هؤلاء لا ينسجم مع العقل والإنسانية . وقد جعلهم علي (عليه السلام) في عداد الحيوانات حيث قال :

« من لم يشكر الإنعام فليعدّ من الأنعام »^(٢) .

(١) بالفارسية : دانستينها جهان علم : ١٥٩ .

(٢) غرر الحكم : ٦٧٢ .

أما أنتم فإذا أحسستم بحسن نية أحد فقدّروا منه نيته النزيهة والخالصة حتى ولو لم يوفق لعمل الخير لكم ، فقد قال علي (عليه السلام) أيضاً :

« من لم يحمد أخاه على حسن النية لم يحمده على الصنعة »^(١) .

وقال الإمام الحسن العسكري (عليه السلام) :

« خير إخوانك من نسي ذنبك وذكر إحسانك إليه »^(٢) .

إنّ روحية عدم الشكر من الآخرين يورث الإنسان خسارة لا تعوّض ، ذلك أنّ الإنسان إن كان ييخل عن شكر خدمات الآخرين وتودّدهم وعجز عن الثناء عليهم والتمجيد بهم حتى مع علمه بأهميّة أعمالهم وأتعايهم التي تحمّلوها ، لم يُبد أولئك للمرة الأخرى آية رغبة في خدمته وحلّ مشكلته .

والإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) ينبّه إلى هذا الحرمان والخسران بعبارة قصيرة يقول فيها :

« من لم يشكر الإحسان لم يعده إلّا الحرمان »^(٣) .

وينبّه مالك الأشر في عهده إليه أهمية التقدير ونتائجه وثماره إذ يقول (عليه السلام) :

« لا تدع تفقد لطيف أمورهم إتكالاً على جسيمها ، فإنّ لليسير من لطفك موضعاً ينتفعون به ، وللجسيم موضعاً لا يستغنون عنه »^(٤) .

« فافسح في آمالهم ، وواصل في حسن الثناء عليهم ، وتعدّد ما أبلى ذوو البلاء منهم ، فإنّ كثرة الذكر لحسن أفعالهم تهزّ الشجاع وتحزّض الناكل »^(٥)

(١) المجالس السنية للسيد الأمين العاملي ٥ : ٤٧١ ط ٢ .

(٢، ٣) غرر الحكم : ٧٠٤ .

(٤) نهج البلاغة ٣ : ٤٣٣ ط الصالح .

(٥) نهج البلاغة ٣ : ٤٣٤ ط الصالح .

ويمكاننا أن نوجه أنظارنا إلى التجارب المستفادة هنا إذا قالوا :

« لو التزم الآباء والأمهات والأبناء بأن يشنوا على أعمال بعضهم البعض ويمجدوا بها أكثر ، لكان الإقبال من المصابين بعقدة الحقارة على مكاتب الأطباء النفسانيين أقلّ جدّاً ؛ فالإنسان بحاجة إلى أن يشعل في نفسه جذوة العمل بحرارة المديح والثناء الذي يسمعه من الآخرين ، وإلاّ فإنّ احترام النفس يقع في خطر الإحتلال .

إنّ الإنسان إذا لم يسمع كلمة شكر على ما يتحمّله من جهد وتعب أصبحت الحياة عليه صعبة جدّاً . امرأة خدمت الأبقار عشرين عاماً ، وكانت تتوقع أن تسمع من أصحابها كلمة شكر وتقدير ، إذا قالوا لها يوماً : إنّك مجنونة ! فقالت في جوابهم : أنا لم أكن أسمع حتى الآن كلمة تبين لي أنّكم تفرّقون بين المجانين وغيرهم ! .

قال لي الدكتور (وايل) الذي له التجربة الطويلة في علاج الأطفال المعتوهين ، بشأن واحد من أولئك الأطفال ، قال : إنّّه قد توصّل إلى نتيجة أنّ التقدير قد يجب أن يدخل ضمن الوصفة الطّبيّة النفسيّة . وقال : إنّ القضية ترجع إلى طفلين توأمين كان لأحدهما نبوغ عقلي وضّاء ، والآخر يبدو بليداً ، وطلب مني أباهما أن أكشف له عن علّة ذلك ، وحين اجتذبت إليّ اعتماد الطفل البليد أفضى إليّ بما يبوح به الأطفال في هكذا أحوال أحياناً ، سألتني : لماذا لا يحبّه الآخرون كما يحبّون أخاه ، فحينما يفعل أخوه عملاً يتسمون له ولكن حينما يقوم هو بنفس ذلك العمل يقطّبون في وجهه . أنا لا أقدر على إجادة عمل كما يقوم به أخي .

وأضاف الدكتور (وايل) يقول :

« باعدتُ بين هذين الأخوين ، مهما أمكن ، فمثلاً فرّقت بين صفيهما ، وطلبت إلى والديهما أن لا يجرّكوا عواطف الأخ البليد بالقياس بينه وبين أخيه الذكي ، بل أن يجعلوا ما يقوم به البليد من أعمال طفيفة موضع الثناء والتقدير .

وكانت النتيجة أنّ هذا البليد وفي مدة سريعة نسبياً استطاع أن يقف على قدميه شاعراً بالاستقلال » .

وإنّ أحد معارفي الأثرياء كان يرى من فخره أنّه لم يمنح أحداً شيئاً إزاء حسن خدمته وعمله - سوى الأجرة المقررة فقط - واجه في أوّل يوم من السنة حادثة مؤلمة : انتحر محاسبه ، وكانت الحسابات في الدفاتر منتظمة ، وكان الرجل المحاسب المنتحر وجيهاً هادئاً ومجرّداً لم يتزوّج ، وكانت الرسالة الوحيدة التي خلّفها مذكرة مختصرة معنونة بعنوان سيّده الثريّ بهذا المضمون : لم أسمع منك منذ مدّة ثلاثين سنة كلمة شكر واحدة ! فسُئمت الحياة وخويت وهويت فانتحرت «^(١)» .

إنّ رويّة الشكر والتقدير تنبع من نضج الشخصية والثقة بالنفس وسلامة الروح في حين أنّ التملّق المفرط سمة الشعور بالحقارة والضعف والوهن والخوف وتضعف الشخصية ، إنّ التقدير والثناء في غير محلّهما إنّما هي طريقة الذين يريدون أن يجبروا ما فيهم من نقص وعوز ، أو يريدون بذلك الوصول إلى بعض منافعهم الشخصية ، وإنّ المدائح التي يكيلها أرباب الأطلاع تفتقد القيمة لأنّها لا تستند إلى إيمانهم وعقيدتهم بل إنّما يتظاهرون بها لأهدافهم الخاصّة ، إنّ هؤلاء المدّاحين النفعيين كصيّادين ماهرين يفتershون شبكات المديح والثناء كي يقنصوا صيداً من خلال ذلك .

يقول (وولتر) :

« إنّ أكثر أولئك الذين يريدون من أنفسهم مهارة خاصّة في اللبّاقة وفي الإطراء والتملّق ، يضمرون في قلوبهم في الغالب نيّات غير نزيهة » .

روي عن النبيّ الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) أنّه كان يقول :

« ليس من خلق المؤمن الملق »^(٢) .

(١) بالفارسية : كليدهای خوشبختی : ٣٣٥ - ٣٣٧ .

(٢) نهج الفصاحة : ٥٠٩ .

ذلك أنّ المديح والثناء في غير محلّه يسبّب الغرور ، والمغرور إذا كان ذا نفوذ وقدرة فلا يكون مستعداً لتقبّل نصائح الآخرين ليبتعد عن الباطل إلى الحق والحقيقة .

وفي عهد علي (عليه السلام) إلى مالك الأشتر يقول :

« ثم رُضهم على أن لا يطروك ولا يبجحوك بباطل لم تفعله ، فإن كثرة الإطراء تُحدث الزهو ، وتُدني من العزة »^(١) .

وفي البحار عنه (عليه السلام) قال :

« الثناء بأكثر من الاستحقاق ملق ، والتقصير عن الاستحقاق غيٌّ أو حسد » .

وعلى هذا فلو أكبرتم أحداً أكثر من قيمته الواقعية ، وأبدبتموه أكثر ثقلاً ووزناً ممّا هو عليه ، لم يزدد شيء على شخصيته ، بل إنكم بهذا التملّق تكونون قد سحقتم استقلال شخصيته الروحية ، وإذا أثبتتم عليه أقل من استحقاقه فذلك علامة عن نفسية غير متوازنة وعن ضعف وحسد فيكم . أمّا إذا احترمت أحداً على نفس المستوى الذي هو عليه كنتم قد حافظتم بذلك على شخصيته وشخصيتكم كليهما ، فلا يقع هو في شباك الكبر والنخوة ، ولم تسقطوا قدركم ولم تهينوها .

أمّا إذا كان الثناء ملقاً فبما أنّه لا يستند إلى حقيقة ولا ينبع من فضيلة باطنية ، فلا يمكن الاعتماد والإطمئنان إلى مماراته ومراءاته ، فكما أنّه يطلق لسانه في حضوركم بمدحكم لهدف خاص ، من الممكن أن لا يألو جهداً في غيابكم عن أي نقد أو تعبير لهدف آخر .

ويذكر علي (عليه السلام) هذه الخاصة القبيحة للمتملّقين فيقول :

(١) نهج البلاغة ٣ : ٤٣٠ ط الصالح ، والزهو : العجب ، والعزة هنا العزة بالإثم بمعنى الكبر .

« من مدحك بما ليس فيك فهو خليك أن يذمك بما ليس فيك »^(١) .

كما أنّ الترغيب والتحسين من الحاجات النفسية للإنسان وهو يسبّب في تعاليه ونموّه ، كذلك فإنّ الذم واللوم المستمر وفي غير محله يؤثّر أثراً غير مرغوب فيه في نفسية الإنسان ، ومن الممكن أن يجرّه إلى سبيل الفساد .

في غرر الحكم عن علي (عليه السلام) :

« إياك أن تكرر العتب فإنّ ذلك يغري بالذنب ويهون العتب »^(٢) .

وإنّ إدخال السرور إلى قلوب الأطفال هو نوع من الترغيب المؤثر الموجب لمحبتهم ، والمؤثّر في علاقاتهم العاطفية مع غيرهم .

ففي (مستدرك الوسائل) عن الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) أنّه قال :

« إذا نظر الوالد إلى ولده فسره كان للوالد عتق نسمة »^(٣) .

ويقول (بتراند راسل) :

« من الضروري أن يكون استعمالنا للذم واللوم أقلّ من الثناء والتحسين ، ويجب أن يكون اللوم منبهاً في حدود معيّنة ، وأنّ يلجأ إليه بشأن بعض الانحرافات غير المتوقّعة التي تبدو في حسن سلوك الطفل ، وبعد تأثيره لا ينبغي تكراره وتعقيبه .

إنّ في اجتذاب حبّ الأطفال من الفرح ما يقابل كل ما تمنحه لنا الحياة من الأفراح واللذات ، وإنّ أجدادنا وأسلافنا لم يكونوا يعرفوا شيئاً عن هذا الفرح وهذه اللذة ، ولهذا فهم لم يكونوا يعرفوا ما يفتقدونه من هذه الناحية ؛ إنهم كانوا يعلمون الأطفال أنّ من واجبه حبّ والديهم ، ثم كانوا يعملون ما

(١) غرر الحكم :

(٢) غرر الحكم : ٣٥٩ .

(٣) مستدرك الوسائل ٢ : ٦٢٦ .

لا يمكن معه العمل بهذا الواجب للأولاد تقريباً .

روى (كارولين) في أول فصل من شعره :

« أنه قلماً كان يفرح من إقبال والده إليه ، ذلك أنه كان لا يشك في أنه إنما يقبل إليه ليضربه بسوطه » ! .

وما دامت هذه الفكرة هي المسيطرة على أفكار البشر : بأن حبّ الوالدين واجب وأنّ من الممكن للحمل على أداء هذا الواجب أن نتوسّل بالأمر والإلزام ؛ لم يستطيعوا أن يجتذبوا بذلك إلى أنفسهم الحبّ الحقيقي من أولادهم ، ولهذا فقد كانت العلاقات والارتباطات الإنسانية تبقى شديدة جامدة خشنة ، وكانت صور الإيذاء والإيلام والتنبيه والتأديب تشكل أقساماً من هذا التصوّر العام . ومن ألطاف الباري أن شاءت وغلبت في هذا القرن الأخير بشأن العلاقة بين الأبناء وآبائهم والأولاد ووالديهم ، تصوّرات أفضل ، ومع ظهور هذه التصوّرات تبدّلت وتطوّرت نظرية « العصا لمن عصى » .

وأنا أأمل أنّ هذه الأفكار النيرة التي هي في دورها للغلبة في عالم التربية ، أمل أن تنتشر أكثر بالتدريج في العلاقات الإنسانية الأخرى ، فإننا بحاجة إليها في سائر العلاقات الإنسانية كما نحن بحاجة إليها في معاملتنا مع أطفالنا^(١) .

إنّ هذا السلوك التربويّ الذي ينسبه هذا الفيلسوف الإنجليزي إلى القرن الأخير ، كان ضمن البرامج التعليمية لقائد الإسلام منذ أربعة عشر قرناً ، فلم يكن عطفه وحنانه محدوداً بأولاده وأبنائه ، بل كان يجعل أطفال الناس بكل بساطة مورداً لمحبتّه وعنايته الخاصة ، وكان ينشر عليهم لطفه وعطفه الفيّاض بكل بذل وعطاء وسخاء ، كما قالوا بشأنه : « وكان التلّطف بالصبيان من شأن الرسول » ! .

(١) بالفارسية : در تربيت : ١٢٢ - ١٢٥ .

مكافحة الفساد

إنّ من العوامل المؤثرة لترغيب المحسنين وتأديب المسيئين : تطبيق قواعد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في المجتمع . إنّ شيوع الفساد يؤدي بالقيم والفضائل الإنسانية التي هي أساس سعادة المجتمع وعظمته ، ويحرّج البشر بطبعه عن طريق الطهارة والتقوى نحو السيئات ، إنّ المعاصي سريعة العدوى فهي تسري في المجتمع كأخطر ميكروب سري ، يتكوّن في نقطة وينتشر إلى سائر النقاط ، ويبدأ بفعالية واسعة النطاق في جميع أنحاء المجتمع ، وإذا لم نبدأ كفاحاً جدياً متوالياً ضده وهو في مهده وسّع هو من دائرة نفوذه ، ولوث ما حوله حتى يستوعب جميع النقاط السليمة أيضاً .

إنّ نتائج الأعمال الشنيعة لا تشمل مرتكبيها فقط ، بل سيحترق بنارها من سمح بنموها وتطوّرها بسكوته عنها وعدم التنديد بها ، ذلك أنّه مع قدرته على منعها اتّخذ موقفاً سلبياً ، وامتنع عن القيام بأي إرشاد إلى الصلاح ، ولا شك في اشتراك هذا في فساد أوضاع المجتمع وتلويثه ، ولذلك فهو سري غبّ ما فعله بنفسه .

على الإنسان حين مشاهدته لأنواع الفساد والتلويثات أن يشعر بالمسؤولية عوضاً عن عدم التنديد والسكوت ؛ إذ كما أنّه لو كان يحرّج غيره إلى سبيل الفساد والانحراف كان ضالاً مضلاً ، فكذلك إنّ عدم التنديد بأمر المجرمين أو المذنبين وترك الأخذ بأيديهم مع وجود الإمكانيات الضرورية لذلك ، هو نوع من الضلوع في تحريف العصاة وسبب في الفساد ! .

إنّ القادة المربين للأمم على الفضائل الأخلاقية قد عرفوا الناس بأنواع الأرجاس والأنجاس ، وآثارها الضارة ، حسب اختلاف درجاتهم ومواقعهم الاجتماعية ، وركّزوا في الخواطر على هذه الحقيقة ؛ وهي أنّ المعصية والتخلّف عن الأوامر في مختلف نواحي الحياة يؤدي إلى التوقف في سير قافلة التكامل الإنساني والحياة اللائقة بالبشر ، وأنّ لا خاصيّة للمنكرات سوى انعدام معنى

الحرية الواقعية واضمحلالها . اللهم إلا أن يكون أفراد ذلك المجتمع قد افتقدوا
قوة إدراك الحقائق فيرون المنكر معروفاً والتسبب حرية والقهقراطية كمالاً
وتقدمية .

وقد أكدوا ضمن الأحكام الدينية على أن من رأى منكراً في شرف الوقوع
فعليه أن يوقف ذلك حسب إمكاناته ، وقد بينوا لمكافحة الفساد درجات ومراتب
مختلفة من حيث القدرة والتدرج في ذلك ، وأن على الإنسان في أي موقعية
اجتماعية كان أن يعبىء قواه لإفشال الشرور والمنكرات : فواجب المقتدر بالنظر
إلى ما منحه الله من قدرة على تغيير الجرائم أن يؤدب المنحرفين بما أوتي من
قوة ، وأن يجرهم إلى طريق الحق وصراط النزاهة والطهارة ، أما فاقد القدرة
اللازمة لتطهير المجتمع من المنكرات فعليه أن يستعمل لسانه بالهداية والإرشاد ،
وأن يبين بما أوتي من نفاذ في الكلمة عيوب السيئات وآثارها الضارة في الحياة
الفردية والاجتماعية .

ومن البديهي أنه يجب أن يكون القائل عاملاً بالخير والفضائل مهتماً بما
يأمر به وينهى عنه ، حتى يتقبل الآخرون كلامه بكل كيانه ، وإلا فإن نصيحته
لن تنفذ إلى أعماق القلوب ، وسيبقى كل تبليغ له بالخير جافاً جامداً لا حياة له
ولا حركة ولا أثر . نعم إن لم يمكنه مكافحة الفساد حتى بالإرشاد كفى منه أن
ييدي انزعاجه من المنكرات وتنفره منها .

طبعي أنه لا يكفي أن يكتفي بالعمل السلبي القلبي دون أن يرتب أثراً
على ذلك ، بل من الضروري أن يرتب أثراً إيجابياً على الإنكار بالقلب ، بمعنى
أن يقطع حبال الألفة وأواصر المحبة والوداد مع المجرمين ، لكي يشعر أولئك
بأنهم مطرودون من المجتمع الصالح .

إن الإسلام قد أولى مكافحة المنكرات أهمية خاصة ، وبذل عناية فائقة
في جهاد الفساد . وقد أرشد البشرية إلى الخير في جميع مراحل الكمال الإنساني .
وقد رسم القرآن الكريم حدود الفلاح بينة وحصر على العاملين بالمعروف

الأميرين به والمنتهين عن المنكر الناهين عنه إذ قال : ﴿ وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (١) .

وعلى هذا فالذين يدخلون محيط السعادة في نظر الإسلام هم الذين استقرت طريقتهم في الحياة العملية على هذا الأساس ، بمعنى أن يكون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر جزءاً من برنامج حياتهم العملية ومما لا يحذف منه . وأيضاً في آية أخرى من نفس هذه السورة يقول بأسمى درجات الشرف والفضيلة لأمة تستند في مختلف مراحل الحياة على هذه القاعدة : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ (٢) .

وفي غرر الحكم عن علي (عليه السلام) قال :
« كن آمراً بالمعروف عاملاً به ولا تكن ممن يأمر به وينهي عنه فتبوء بإثمه وتتعرض لمقت ربه » (٣) .

وفي (التهذيب) عن رسول الإسلام العظيم (صلى الله عليه وآله وسلم) أنه كان يقول :

« لا يزال (أمتي) الناس بخير ما أمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر وتعاونوا على البر ، فإذا لم يفعلوا ذلك نُزِعَتْ منهم البركات وسُلِّطَ بعضهم على بعض ، ولم يكن لهم ناصر في الأرض ولا في السماء » (٤) .

وفي هذا العصر المتحضر وضعت بعض الدول قوانين تشبه أحكام الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأخذوا في تنفيذها هادفين إلى نشر العدل والبر ودعم قواعد مجتمع صالح ؛ كتبت عن ذلك إحدى الشخصيات المعروفة في

(١) سورة آل عمران : الآية ١٠٣ .

(٢) سورة آل عمران : الآية ١٠٩ .

(٣) غرر الحكم : ٥٦٩ .

(٤) التهذيب ٢ : ٥٨ .

جريدة « إطلاعات » الإيرانية الرسمية يقول :

« هذه حقيقة لا يمكن إنكارها ، وهي أننا من أجل الوصول إلى مجتمع عادل يجب علينا أن نكون مثلاً كالشعب السويسري في أن يكون كل فرد منا بنفسه حارساً لحدود العدالة ، كما كتبوا في دستورهم وكأنه وحي سماوي مقدّس : « يجب على جميع أفراد الشعب بمحض مشاهدتهم لأصغر نقض للعدل أن لا يسكتوا عن ذلك حتى يجبر ذلك الكسر »^(١) .

إنّ هذه المادة في الدستور السويسري هي نفس الواجب الذي نصّ عليه الإسلام قبل ١٤ قرناً لكل مسلم .

(١) جريدة إطلاعات المؤرخة : آذارماه ١٣٤٢ هـ ش .

الصبر جسر النصر

- * أقصر طرق الموفقية .
- * المنيع الفيّاض بالقوة .
- * ضرورة المعرفة بأصول الحياة .
- * الدرس الذي يجب أن نتعلّمه من النكسة .
- * سُبُل الرقيّ إلى الكمال .
- * واجب الانضباط في الأعمال .
- * الإسلام وحده ليس عامل النصر .
- * عاملان قويان لتربية الإنسان .
- * مزيّة إنسانية سامية .
- * التغطية على الضعف والعجز .

أقصر طرق النصر

كل ظاهرة في نظام الطبيعة تتربى في أحضان مكافحة المشكلات منذ تَقَمَّصها للباس الوجود حتى بلوغها إلى أوج الكمال ، وهذا ناموس طبيعي يسود الموجودات من أولها إلى آخرها .

وكل إنسان يرغب أن يختار أقصر الطرق في حياته إلى التوفيق المطرد ، وأن يستثمر من نتائج عمله أسرع ما يكون . ولكن ليس بالإمكان قصد السبيل والوصول إلى الأهداف المنظورة إلا عن طريق الصبر ، وليس بالإمكان تحقيق أي تقدم أو سمو أو نمو للإنسان من دون الالتزام بهذه المزية الأخلاقية .

سواء الإنسان العادي أو المبدع والمخترع الذي يتمتع بذكاء ونبوغ متميز ، إذا أراد أن يفتح على نفسه أبواب الموفقية وأن يستثمر من وجوده ، فعليه أن يتحلى بالصبر في الأعمال مستلهماً من نظام الطبيعة ، وأن يتسلح بقوة التدبير والواقعية ، وأن ينظر إلى الحياة في أفق واسع ومتقد .

إن الأعمال الكبار لن تنتظم فورياً وبلحظة واحدة ، بل لا بد من صرف الوقت والجهد الكثير لتنفيذ الأطروحات والتصاميم الواسعة ، ولإنتاج الأمور القيمة ، والنشاط الموقت مهما كان كثيراً لا ينتج توفيقاً مطرداً دائماً .

أجل ، بالصبر والهمة العالية نستطيع أن نرفع كل السدود التي تسد سبيل التقدم ، وأن نعبر عن المشاكل والشدائد الكثيرة ، ذلك أن الانتصار يقترن مع سلسلة من المشاكل والمتاعب .

نحن نرى البعض يبلغ في الحياة رقياً وتقدماً ، والبعض الآخر يتخلف عن ركب الرقي والتقدم ، والفرق الأساس بين الموفقين والمتخلفين المنهزمين إنما هو في كيفية فعاليتهم وثباتها أمام العراقيل في الحياة .

هناك كثيرون كلما اعترض طريقهم مانع صغير فبدلاً من محاولة رفعه ، مع ما لهم من قدرات وطاقات واقعية وقيمة ، يتوقفون عن الحركة والفعالية أو يغيرون نشاطاتهم وأعمالهم مرة بعد أخرى لعدة مرّات ، ولا يبادرون في أي عمل من الأعمال إلى فعالية جدية ثابتة ؛ إنّ هؤلاء سوف ترافق أرواحهم نفسية قلقه مضطربة مرتبكة غير واثقة ، وتصبح الغفلة والمساحة والتقصير لهم عادة ثانوية ، هؤلاء سوف لا يرون توفيقاً مطّرداً في حياتهم .

إنّ الحياة ساحة لجهاد دائم وكفاح شديد يمتدّ منذ أولى أدوار الحياة حتى آخر لحظة من العمر ، وإنّ الصبر أقوى سلاح قاطع في هذا الصراع . وإنّ النصر في ساحة هذا الصراع يختصّ بأولئك الشجعان الذين لم يستسلموا للموانع والعراقيل مهما كانت الظروف ، بل مهما سقطوا قاموا وبدأوا مساعيهم من جديد ، وحلّوا المشاكل بالتدبير والدراية .

لو كانت معنوياتنا في الحد المتوسط بل حتى لو كانت ضعيفة ، وكنا عاديّين من حيث قوى الإدراك والفكر ، لاستطعنا أن نتقوى ونتكامل تحت ظل الصبر . إنّ حلّ مشكل ما يقوينا على حلّ سائر المشاكل المستقبلية ، ويبعث فينا الاندفاع الوافر ، وإنّ عملاً صغيراً يسبّب في حركة عربة النشاط أكثر ، ويقود الإنسان إلى الأعمال الأكبر والأسمى ، ويحضّر الفكر لاستمرار كفاح المشاكل وتعقيب المقاصد ومتابعتها أكثر من ذي قبل .

ويشرح الدكتور (ماردن) دور المصاعب في تربية القوى الروحية والمعنوية في الإنسان فيقول :

« كما أنّ أحسن الآلات والأدوات يجد قوّته من الصّهر بالنّار ، كذلك الإنسان ، فإنّ أفضل الخلفيات إنّما تنمو في مضيق المشاكل ، وكلّما كان الألامس أقوى وأضوى لزمت لحكّه قوّة اصطكاكية أكثر » .

ويقول الفيلسوف الألماني (كانت) :

« إنّ الطير حيث يرى في طيرانه الريح المانع الوحيد ، يتصوّر أنّه لولا الريح لكان بإمكانه أن يطير أسرع وأروح . بينما لولا الريح لكان يعجز الطير

عن الطيران في الخلاء وكان يسقط فوراً ؛ إذن نفس العنصر الذي يضغط على الطير حين طيرانه هو العامل الأساس في طيرانه .

إنَّ المحاولة التي نعملها للصعود إلى محل عال محاولة قيِّمة جدّاً ، فإننا حتى لو لم نتمكن من أن نصل إلى الهدف الذي ننظر إليه ، مع ذلك فإنَّ بإمكاننا أن نقوِّي أنفسنا بهذه المساعي والمحاولات . حتى إنَّ غير الهادفين في الحياة الكاهلين عن التعقل والعمل ، على أثر اصطدامهم بحوادث كبيرة يصبحون أصحاب فضائل وقابليّات ، وينجحون بالتالي في الحياة .

وربَّ شباب فقد العماد والسَّناد بموت والده أو فقد نقده أو واجه مصيبة أخرى ، فأصبح ذا قوة غير اعتيادية وذا قابلية غريبة . إنَّه السجن قد أبدى ما في بعض الأفراد من وقود استعداد ظاهر الخمود بل الجهاد . إنَّ الله إذا أراد بعبد خيراً وتربيته على الخير أرسل به إلى مدرسة الحاجة لا مكتب الراحة واطَّراد الحياة .

اغرسوا بلوطين مقطوفين من شجرة واحدة ويشبه أحدهما الآخر تقريباً ، في مكانين مختلفين : أحدهما فوق الجبل والآخر في غابة كثيفة الأشجار ، ثم لاحظوا العروق والجذور ، فالبلوط الذي ينمو لوحده على الجبل وهو في معرض الريح والأمطار والعواصف يبعث عروقه إلى جميع الأطراف ويصبح شجرة ضخمة ذات ظلال واسعة منتشرة ؛ بينما البلوط المغروس في الغابة لا تصبح إلّا شجرة ضعيفة ضئيلة ذلك أنَّها تحت ظلال الأشجار الأخرى .

كذلك ، قوموا بتربية طفلين متماثلين أو متقاربين في محلّين مختلفين ، أي ألقوا أحدهما في محيط يضطر فيه منذ طفولته أن يواجه المشاكل والعراقيل ، وحرّموا عليه المال وجميع أنواع العون والمساعدات الأخرى ؛ فهو إذا سقط سيقوم بعزم أقوى ، بل يكون كالكرة كلّما ضربت بشدة على الأرض نبت بأشد منها ، كذلك هو كلّما كانت العراقيل أقوى ترسّخت عزيمته أكثر فأكثر . وفي جانب آخر نرى الطفل المتربّي في النعيم والدلال والذي كان له مربّون منعمون

بل مربّيات ملوّنات ! كلّما أمّل شيئاً أعدّ له واستجيب ، وكان تحت تصرّفه مال كثير ، فإنّه ستكون مقاومته عند المشاكل أقل ، وسقوطه فيها أسرع ^(١) .

المنبع الفيّاض بالقوّة

إنّ القدرة على مواجهة المشاكل قد أودعت في كل إنسان ، ونحن مكلفون بأن نعبيء أنفسنا لمكافحتها ، وأن نحركّ لذلك كل قوانا العجيبة . إنّ باطن الإنسان بالنسبة إلى القوى المدخرة فيه كمنبع فيّاض لا تنفذ ذخيرته ، بل كلّما أفيد منها نبعت أكثر فأكثر . إنّ اليأس والقنوط والعجز عن المقاومة أمام المشاكل ليس بسبب فقد الاستعداد لذلك ، بل هذه هي سلاسل الضعف والوهن تشلّ أرجل البعض منّا ، فتحبط قوّة مواجهة المشاكل في كيّانهم .

إنّ هؤلاء يصابون عند كل نكسة صغيرة بحيرة محبطة للقوى والأحاسيس لديهم ، ومن الممكن أن تنكسر معنوياتهم على أثر حادثة مفاجئة أليمة فيفقدوا بذلك توازنهم ، وإنّ جبر هذا الكسر والضعف النفسيّ أصعب من سدّ كل نقیصة أخرى .

إنّ الذين يعتمدون على مداومة أعمالهم ونشاطاتهم ، أقرب إلى الرقيّ والتقدم من الذين يعتمدون على استعداداتهم الشخصية . بل ما لم تكن الاستعدادات مقرونة بعمل إيجابيّ لم تكن لتنتج أيّ شيء .

لم يكن المفكّرون في العالم نابغين من طبقة خاصّة ، بل قد تجلّى أكثرهم من بين كانون المشاكل ، وبدأوا الرقيّ في درجات الكمال من بين الصعوبات . إنّ أولئك الذين صنعوا من أنفسهم شخصية ممتازة وطارت سمعتهم في الآفاق ، وبلغوا بمجتمعهم إلى أوج الفخر والكمال ، كان ضغط الشدائد والحرمان هو الذي حملهم على أن يمارسوا أنواع المصائب المضنية والمنهكة ، وكان هذا هو

(١) بالفارسية : أسرار كامبای : ٥٩ - ٦١ .

السبب في مراسهم واقتدارهم ، وبذلك تمكّنوا من أن يرتقوا في مدارج الكمال .
 قيل : إنّ طالباً في الصّين لم ير لنفسه توفيقاً في فرع دراسته ، ولذلك فقد
 خابت آماله ، ولشدة يأسه وقنوطه ، جمع كتبه ليقذف بها في المزبلة ، وصادف
 في تلك اللحظة أن رأى امرأة فقيرة أخذت قطعة من سلك حديدي وهي تُبرد
 رأسها بالمبرد لتصنع منه لنفسها إبرة خياطة !

مشاهدته لهذا المنظر أحدثت فيه ثورة كبرى ، هزّت روحه بشدة وعلمته
 درساً في التربية النفسية غنياً بالمعاني ، فصمّم على أن يرجع إلى مكتب تعليمه
 فيستمر في دراسته بقاطعية وجدّية . ونفّذ هذا التصميم ، وأخيراً وفي ظل ما
 أبداه من نفسه من صبر وحلم ، أصبح في عداد أشهر رجال العلم في عهده .

ضرورة المعرفة بأصول الحياة

إنّ المعرفة بأصول الحياة مما يجب أن يحصل عليه الإنسان بالفكر
 والدراسة ، لكي يتمكّن من أن يتسلّح في ساحة الكفاح في الحياة ، وأن يوفّق
 بين نفسه والحياة . إنّ دوايك الحياة لا تدور بالتصورات غير الناضجة والأفكار
 والخيال الشعري ، ولا ينبغي أن يحكم الإنسان في الحياة وعليها من خلال
 نوافذ الخيال الواهي . وإنّ صور المصائب والمشكلات تختلف في كل زمان إلى
 صور خاصة أخرى ، وتتجدّد مشاكل جديدة غير مسبقة بسوابق من قبل ،
 وليست الحياة شيئاً سوى حلّ هذه المشاكل والعُقد المعقّدة فيها .

إنّ الذي يواجه مشاكل كثيرة تبدو غير قابلة للحلّ ، ولا يرى حلّ تلك
 العقد مقدوراً في الظروف الحاضرة ، ليس له لتحقيق آماله سوى طريق واحد ،
 وهو أن يزيد في جدّيته في العمل وسعيه ، وأن يصرف جهداً في المقاومة ، وأن
 يغتنم الفرص . فإن طوى الطريق نحو الهدف بهذه الخصائص ، فسُيُثمر صبره
 يوماً ما ويصل إلى كمال المطلوب .

ربّما كانت مشاكل الحياة في البداية تُغطّي آفاق الحياة كالسُّحب السوداء

القائمة ، ولكن في النهاية تبرق هذه السحب بريق السعادة من بين ذلك الظلام القاتم الذي كان الإنسان معها مصمماً على الفرار منها ، فتروي بأمطار رحمتها مزارع الأمانى والآمال .

ما يجب أن نتعلّمه من النكسة

إنّ أجلى الانتصارات والموفقيات إنّما تتعلّق بالذين يستطيعون أن يحلّلوا علل خيبة الأمل والنكسة ، وأنّ يستفيدوا من دروسها بأحسن الوجوه . إنّ دراسة علل عدم الموقّية بإمكانها أن تعيّن داء الهزيمة ودواءها ، وأن ترسم أمام الإنسان مناظر محرّكة للآمال وأن تفتح عليه طريق النصر . ومن هنا فهو يستطيع أن يستمدّ من قواه المدّخرة وأن يغيّر الوضع بنفعه بالمرّة .

إنّ الإنسان يبدي أفضل محاولاته وأحسن مساعيه حينها يواجه النكسة في طريق وصوله إلى آماله ، وكثير أولئك الذين لا يجدون أنفسهم ما لم يفتقدوا كل ما لهم . إنّ الذين يتمتّعون بجوهرة الرجولة يبدؤون كلّ عمل بقوة فياضة ، ويستخرجون عناصر شخصيتهم من أعماق نفس النكسة برغم الهزيمة ، وما لم يبلغوا منهاهم لا يخرجون من ميدان أعمالهم .

إنّ إحساس الخجل من النكسة خطأ صرف ، إنّ موانع التقدم كأشواك تنبت على طريق كبار رجال الأعمال . بل إنّ النكسة التامة إنّما تتحقّق فيما إذا تلقّى الإنسان عدم تقدمه في عمل ما هزيمة دائمة للأبد ، وإذا افتقد معنويته في الحوادث بالمرّة . إن من الممكن إحساس القصور والعجز أن يثبط الشخص بموقفه ، وأن يمنعه عن أيّ سعي ومحاولة لإزالة آثار التأخّر والنكسة .

إنّ حبّ الغلبة والإستيلاء من أوائل ما يتجلّى في كيان الإنسان من علائق وميول ، وإذا جرت الأمور في مسيرتها الاعتيادية لانطفات جذوة الكفاح والسعي في ضمير الإنسان .

من الممكن أن تكون هناك جوهرة مختبئة في كيان الإنسان لا تصقلها إلّا

صدّمت الحياة ، ولا يبدي نورها وجلالها إلّا ضرباتها وصفعاتها . بل الحقيقة أن أغلب الأفراد لا يطلعون على ما فيهم من مواهب باطنية ذاتية إلّا باصطدامهم بنكسات وهزائم ، ولولاها لا يدركون ما يختبئ في أعماق وجودهم من قوى وطاقات وإمكانات .

يقول (داييل كارنيجي) بهذا الشأن :

« قبل أكثر من ربع قرن بل نصفه ضرب معلّم صفتين قويّتين على خدّ تلميذ كان يتحرّك كثيراً على كرسيه أو منضدته ، ضربه أمام سائر التلاميذ وأهانته بحيث لم يتمالك الطفل دون أن قام راجعاً إلى بيته باكياً بصوت عال : هق هق ! وكان إذ ذاك لا يتجاوز سنّ السادسة من عمره ، واستنتج أن ما فعله المعلم بحقه ظلم وتجاوز ، فأحسّ منذ تلك اللحظة في نفسه انزعاجاً شديداً من الظلم والعدوان ولذلك فهو أخذ على نفسه كفاح الظلم حتى آخر عمره .

إنّه (كلارنس دارو) كان بحق أكبر محام في المحاكم العامة ، بل أشهرهم على الإطلاق ، وقد نشرت صحف أمريكا إسمه في صفحاتها الأولى ما لا يُعد كثرة ، ولا زال القدماء في (آشتابولا) من أمريكا يتحدثون عن أول مرة توكلّ فيها للمحاماة وأول موضوع في تلك القضية ، إنّه أقام في تلك القضية ضجة وضوضاء كثيراً ، بينما لم يكن نزاع الطرفين إلّا على عنان حصان لم يكن يساوي من أوله إلى آخره أكثر من خمسة دولارات ! ولما سئل : لماذا أقمت كل هذه الضجة من أجل عنان حصان ؟ أجاب : المهم الدفاع عن الحق والحقيقة ، وليس المهم قيمة الموضوع الذي تقام من أجله المحكمة ، إنّه كان يدافع عن دعواه في المحكمة بكل شهامة وحرارة دم وكأنّه يرى أمامه « فهداً بنغالياً ! » وكأنّه مضطّر إلى ذلك الدفاع ، أعطاه الذي وكلّه للمحاماة خمسة دولارات أجرة محاماته ، ولكنه حيث لم يتم عمله عقّب الدعوى إلى سبعة أعوام وجرّها إلى سبعة محاكم ، يتصبّب عرقاً ويطارد وراء القضية حتى انتصر في دعواه أخيراً لدى المحكمة ، وقال في النهاية : إنّه لم يتقبّل تلك الدعوى لأجرتها أو لإثبات فضله

بها»^(١) .

إنَّ كل الأعمال العجيبة والآثار الثمينة المهداة إلى المجتمع البشري ، والتي تعدّ اليوم من الوسائل الاعتيادية ، كانت في البداية لدى كثير من الناس أمراً مُحالاً ، ولو كان يُشير أحد في الماضي إلى إمكان ظهورها لكان يتّهم بالبله والسفاهة ، بل كان العلماء في المجالس العلمية يتنذرون بكلامه وتنبؤه . . أمّا اليوم فمع ما لها من أهمية كأنّه قد نسي الناس أهميتها بحيث لا تبعث على العجب .

إنَّ رجال الأعمال لم يقوموا بكل هذه الصناعات والتقنية في مدّة قصيرة ؛ بل هي نتائج سنين طوال من الألم والعذاب ، بل إنَّ كثيراً منهم في كثير من الموارد قد صرفوا كل أعمارهم في حلّ مشاكلها المعقّدة والصّعبة بكل صبر وأناة ، وأخيراً ظهرت من العالم المجهول إلى الواقع المحقّق في ظلّ همهم وأتاعهم التي لم تكن تقبل الكلل والملل ، وتقمّصت لباس الوجود .

ويقول (أرسون) :

« إنَّ الموفّقين في الحياة متّفقون على حقيقة واحدة هي : أنّ هناك علاقة بين العلة والمعلول . وبعبارة أخرى : إنَّهم كانوا يرون أن حوادث الحياة لا تحدث بالصدفة وعلى الحظّ والنّصيب - كما يقولون - بل إنّ كل شيء يتبع قانوناً معيّناً ، بل يجب أن لا يفصل بين أول حلقة وآخر حلقة منكسرة أو واهنة »^(٢) .

سبيل الرقيّ إلى الكمال

إنَّ المقاومة والكفاح في سبيل حلّ عقد المشاكل ، هو سبيل الرقيّ إلى الكمال ، ومقدمة للرّاحة والهناء ، وإنَّ لمختلف المشاكل أثراً قاطعاً لا ينكر في

(١) بالفارسية : رمز الموفّقية في الحياة : ٣٥ .

(٢) بالفارسية : راز خوشبختی : ٢٣ .

سبيل تكامل الإنسان ، كما أنه لولا الخداع في الحياة لما كانت تظهر قيمة للتقوى والفضائل وتزكية الأنفس ، كذلك لو لم تكن هناك مشاكل ، وكانت المساعي كلها تتكفل بالنجاح والموفقية ، لم يكن يبقى أيّ باعث على العمل والنشاط ، ولم تكن حاجة إلى أن يسعى الإنسان ويحاول دائماً ، وأن يكافح العوامل المضادة ، بل كان تطوّر الإنسان وتكامله يتوقّف مطلقاً .

وعلى هذا فإنّ ضغط الشدائد وخيبة الأمل ليس مضرّاً بل هو يبعث القوى والاستعدادات المختبئة ويشغلها ، ويكمل الشخصية الأخلاقية للإنسان ، وحتى أنه قد يكون أوسع منبع لتجديد القوى فيه .

على الإنسان أن يرسم في ذهنه صورة صحيحة عن الحياة كي لا تقلقه حوادثها ، ولا يكون كريشة على مسير الماء ، بل يُعدّد نفسه أمام مختلف العوامل التي تسيطر كل واحدة منها على ناحية من هذه الحياة ، ويكون كسابع ماهر يسبح في بحر الحوادث حيثما شاء ، فإن كانت قيود الحوادث لا تسمح له بالحركة وكانت الأمور في ظروف معقّدة ، كان طريق الصبر مفتوحاً عليه ، والدّكي من كان في الظروف الحرجة يسلك هذا السبيل .

كثير أولئك الذين يصابون بالخيالات والأوهام والاحلام والرؤى غير الحقيقية ، وإنّما يرسمون كبار مناهم وآمالهم في تصوّراتهم ، ولا تنتقل أفكارهم من القوة إلى الفعل في ظل الصّبر والثبات . ولا ريب أنّ بين الخيال والعمل فواصل كثيرة ، ويجب أن نتقدّم إلى رحاب نشاطات الحياة برؤية واقعية لا خيالية ، وأن نسعى للوصول إلى الهدف المقصود وأن نصرف كل صبرنا في ذلك ، ولا نقصّر عن أيّ سعي بهدف خلق الباعث وازدياد القوى .

وكان أحد كبار الشخصيات يقول :

« إذا بنيتم لأنفسكم قصوراً في فضاء السماء ، فإنكم تضيّعون بذلك أعماركم بالغفلة والبطالة . نعم لا شيء أحلى وأعذب من هذه التصرّوات ؛ بأن يبني الإنسان لنفسه قصوراً رفيعة في عالم الخيال في الفضاء اللانهائي ، ولكن لا

بدّ أن يبني هذا القصر الرفيع في الأرض دون السماء حتى تنتقل هذه الآمال
الخداعة من عالم الخيال إلى العالم الخارجي»^(١) .

إنّ أكثر الأفراد لا يحكمون على أنفسهم بالحق والواقع ، فكلما واجهوا
هزيمة افتعلوا معاذير تبرّروهم وتبرّؤهم ، فبدل أن يلوموا أنفسهم في هكذا مواقع
يوجّهون اللوم إلى الآخرين ، ويلقون سبب النكسة على عواتق الآخرين . لم
يتفق إلّا نادراً أن يكون الشخص المضطرب القلق يرتقي إلى السمو والعلو
كغصن شجرة مقطوفة بجريان السيول إلى الأعلى ، وحتى لو حصل هكذا توفيق
لأحد استتبع ذلك نقصاً ونكسة . أمّا أولئك فإنهم ربّما يتذكّرون تقدم الآخرين
ولكنهم ينسون ما تحمّله أولئك من آلام ومشاكل ، وأنهم عبروا لذلك من أيّ
مراحل خطيرة للغاية .

هناك بعض الناس لا يتلقّون درساً إلّا في ظل الهزيمة وعندها فقط
يتعلّمون ماذا عليهم أن يعملوه للوصول إلى النصر ، وماذا عليهم أن يجتنبوه ،
وإذا واجهوا ضرراً أو نقصاً لم ينهزموا نفسياً ، ويدركون عندئذٍ ضرورة إقدام
حازم بجبر الكسر السابق ، ويستنتجون أنّ الضرر والكسر يجب أن يجبر من
طرق أخرى ، وأن من أبسط الطرق للمنع عن تكرار النكسة هو الاعتبار من
النكسات والأخطاء ، وأنّ بالإمكان أن نتعلم من دراسة علل تقدم الآخرين
وتوفيقهم نقاطاً مفيدة ، وبالإمكان أن نعبر كثيراً من المشاكل بدراسة الحياة
وإدخال تجاربها .

إنّ الوقائع التاريخية تبين بوضوح أنّ جميع الأسلحة الحربية إنّما تثمر الفتح
والنصر في يد الذين يتمتّعون بالصبر والثبات ، وهؤلاء الرجال الأفذاذ الذين لا
ينهزمون هم الذين بإمكانهم أن يحتفظوا لأنفسهم بالمبادرات في ساحة الحرب
فيركعوا العدو القويّ ، وربّما لا يعدو الفرق بين الغالب والمغلوب سوى عدة
دقائق من الصبر والثبات .

(١) بالفارسية : راز خوشبختی : ٧

أحد الكتاب الفرنسيين كتب بصدد تشريح علل نكسة فرنسا يقول :

« حينما كان (دالاديه) رئيس وزراء فرنسا وراء منصّة الخطابة يخاطب الجماهير بكلام حماسي حارّ ويضرب بقبضة يده على المنصّة ، انبرى أحد الحاضرين وهو رجل ذكي يستمع إلى الخطاب الحماسي لرئيس الوزراء في زاوية الصالون ، قال : إنّ القبضة التي تضرب على المنصّة قوية ، ولكنها مع الأسف قد لبست كفوفاً من حرير عوضاً عن مقابض حديدية »^(١) .

تجب رعاية الانضباط في الأعمال

إنّ من القواعد المفيدة بل الضرورية في مجال الأعمال ، والتي تساعد الإنسان كثيراً على الرقيّ والتقدم ، هو الانضباط في الأمور وكيفية القيام بالأعمال ، والانضباط يعد من المبادئ الأولية في جميع الأعمال . إنّ الذكي المدبّر يفتح عينيه وأذنيه للاستفادة من الفرص ، ويفتح فمّه على المواضيع الصحيحة ، وقبل كل عمل يفكر في النتيجة المتوخاة من ورائه .

إنّ هؤلاء الذين يبنون حياتهم على قاعدة عميقة في الحقيقة ، يطوون طريق الرقيّ والسمو أكثر سرعة وطمأنينة من الذين يقومون بفعالياتهم من دون نظم ولا ترتيب ، إنّ عدم التدبير والنظام ينطوي على خسارة كبرى لكل أحد ، خسارة لا يمكن تعويضها بيسر .

من الممكن أن يصرف شخص سنين طويلاً من عمره في فرع من الأعمال ، ولكنه لعدم بصيرته ولعدم معرفته بالفن لا يحصل على تغيير كبير في عمله من اليوم الأول الذي بدأ فيه عمله ، بعد عدّة سنين من التعب المضني ؛ بينما من الممكن أن يصرف غيره وقتاً أقلّ منه في عمل ما ، ولكنه يقترب كلّ يوم خطوة إلى هدفه وقصده ، ويستحصل من أتعابه وجهوده فوائد ، ويضيف في فهرسة موفقاته .

كذلك قلّما يمكن للمستعجل أن يطوي طريقه الذي سلكه بسلامة ويصل

إلى هدفه ، بل قد ينحرف بنفس السبب عن الطريق الأصيل إلى طريق آخر ملتو . إنّ ضرر الاستعجال ليس بأقل من خطر ضعف الإرادة والتساهل في الأمور .

وبالتالي فإنّ الأعمال المحسوبة بدقّة والفكر الصحيح في حلّ المشاكل ، يزيد في قدرة الفرد على التقدّم . وكذلك تصدق هذه الحقيقة بشأن الأمم والشعوب أيضاً .

إنّ المجتمع يحتاج لحفظ حياته وتقدمه أكثر من كل شيء إلى رجال صابرين لا يتراجعون ولا يحجمون عن طريق تتخلّله المشاكل ، والذين قد خلطوا هذه المزية الأخلاقية بالعلم والمعرفة واستعملوها في سبيل الإصلاح . وإن النبوغ العلمي والسياسي ما لم يكن مع الصبر والحلم والثبات فإنّه سوف لا ينتج شيئاً كثيراً .

والقرآن الكريم يدعو رسول الإسلام العظيم أن لا يدع الصبر سبيلاً لاكتساب التوفيق المطّرد في جميع المراحل ، وأن يقاوم أمام جميع العراقيل ﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ ﴾^(١) ﴿ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ﴾^(٢) ﴿ وَإِنْ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * فَإِنْ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ * وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ ﴾^(٣) .

هذه الآيات ذكّرت الإنسان بأن لا ينبغي أن تنطفئ فيه جذوة الجهود والنشاط أبداً ، بل عليه بعد وصوله إلى النصر والتوفيق أن يستعد لاستقبال المشاكل الآتية ، فليس في هذه الحياة راحة مطلقة ، ولا ينبغي توقّع ذلك .

يقول (ويل دورانت) :

(١) سورة هود : الآية ١١٢ .

(٢) سورة الشورى : الآية ١٥ .

(٣) سورة الإنشراح : الآيات ٥ - ٨ .

« حينما يواجه الإنسان كل يوم في حياته عملاً وانتصاراً جديداً ترتفع لديه إرادته ، فإن كنا نريد اقتدار إرادتنا فعلينا أن نختار الهدف والطريق إليه ، ثم نلتزم العمل مهما كان ، وعلينا أن نتوجه بدءاً أنّ الطريق الذي نختاره سنسير فيه إلى النهاية .

إن الانتصارات الصغرى تمنحنا القوة وتطمئنا بانتصارات أكبر ، أما المحتاط الشكّك في الإقدام على الأعمال الكبار ، فإنه سيبقى صغيراً دائماً ، لا تفرح كثيراً بالتوفيق القليل والانتصار الصغير ، بعد انتصارك في عمل ما احتفل به يوماً واحداً فقط ثم تابع عملاً أكبر وأخطر ، خاطر وتحمل المسؤوليات ، نعم من الممكن أن تنتكس أو تفنى ، ولكن الموت أحقر من أن يزلزل سلوكنا وعقيدتنا . إنّ الخطر إن لم يأت على حياتك فإنه سيقوّيك ويؤيّدك ويقرّبك من أهدافك ويقودك إلى العظمة »^(١) .

إن دراسة حياة رسول الإسلام وصبره وثباته من أجل نصرته الحق وتربية الإنسان وإرشاده ، تغنيا عن أي مقال في هذا المجال .

وإن سرّ انتصار المسلمين في صدر الإسلام أيضاً كان في إيمانهم وصمودهم أمام أعداء الإسلام الخطرين ، مما يسجل بطولة تلك الفرقة الفدائية في صفحات التاريخ .

ليس الإسلام فقط عامل الانتصار

لقد وعد القرآن الكريم المسلمين في آيات منه تفوق القدرة والانتصار ، ولكن لا تحصل هذه المزايا بسهولة ويُسر ، وإنما يتحقق الوعد الإلهي فيما إذا تصدى الناس لمعرفة تكاليفهم والعمل بها ، وحينما تقترن العقيدة الخالصة والطاهرة بالعمل وفقها فستكون ثمرة منتجة ، وعلى هذا فالذين يفصلون بين العقيدة والعمل فإن أمانهم وآمالهم بالتوفيق والنصر لا تنتج شيئاً ، وإنما السعي

والإقدام هو الذي ينقذ الإنسان من عمق الانتكاسات والهزائم : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ (١) .

في غزوة « أحد » حيث أصيب المسلمون بفاجعة كبرى بعلة معصيتهم لأوامر الرسول ، وتركهم خنادقهم ومواضعهم لغرض الحصول على غنائم الحرب ، فأصيبت روحيتهم بهذه النكسة والهزيمة غير المتوقعة بضعف ووهن ؛ ذلك أنهم كانوا يتصورون أن إسلامهم يكفي للغلبة على جميع العراقييل ، ولإبعادهم عن كل نكسة وخيبة أمل ، فكانوا يفكرون : ما الذي سبب لهم النكسة والهزيمة وخيبة الأمل وتحمل الأذى من جانب أعداء الله واغتنام بعض أموالهم . وترسخت هذه الأفكار المقلقة في أذهانهم فزلزلت روحيتهم ومعنوياتهم ، فبين الله طريقة حلّ هذا المشكل وطرد هذا الخطل الباطل فقال :

﴿ تَبْلُغُونَ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ، وَلَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً ، وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ (٢) .

في هذه الآية الكريمة تعدّ الشدائد والمشاكل المالية وما يصيب الإنسان نفسه ، من الشؤون الإلهية ، إن المؤمنين يصابون بكثير من الحوادث المؤلمة كسائر الناس ، ومن خلال ذلك يمتحن الله جميع عباده ، والمؤمنون لا يزالون يصبرون في الشدائد حتى يبدّن خوفهم وترددهم بالأمن والاستقامة بل المقاومة . إن الإيمان يهزم الخوف واليأس ، ويعود صاحبه على الفداء وتحمل المشاكل ، ويزكي نفسه وروحه وقلبه وأحاسيسه كلها .

ويقول (روسو) :

« نحن إذا أعفينا شخصاً من جميع الحوادث التي هي من لوازم النوع

(١) سورة محمد (ص) : ٦ .

(٢) سورة آل عمران : الآية ١٨٥ .

الإنساني ، ألم نكن قد عاملناه على خلاف نظامه الطبيعي ؟ أجل ، من أجل أن يدرك الطفل اللذات الكبرى والسعادة العظمى يجب أن يتعرّف على صغار الآلام ، تحكم بذلك الذات الإنسانية . إنّ الجسم إذا كان في راحة دائمة فسدت فيه الروح ، وإن من لم يعرف الألم لم يفهم لذة الإشفاق ولا حلاوة الرحمة ، ولا يتأثر هذا بأي شيء ، ولهذا يكون كاهيولي بين البشر لا يمكن معاشرته . وإن الاختبارات المؤلمة في الحياة ستفهمهم المستوى الواقعي لقواهم الجسدية والنفسية . وحيث لا يتمكن هؤلاء من تحقيق آمالهم فلأنهم يتصورون أنهم لا يقدرّون على شيء ، والعراقيل التي لم يتعودوا عليها تقنطهم وتؤيسهم ، وسريعاً ما يرون أنفسهم لا غيرة لهم ولا شجاعة ، وأنهم حقراء جبناء ، فيحتقرون أنفسهم أكثر مما كانوا يعظمونها»^(١) .

وليس الصبر بمعنى انتظار القدر والقضاء لرفع الابتلاء ، يجب أن ندرك جيّداً معنى القضاء الإلهي بشأن تطورات الحياة وتكامل الإنسان أو شقائه وانحطاطه إنّ القانون الإلهي بشأن الانتصار هو أنّه يجب أن يحصل من طريق السعي والمقاومة : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا ، وَاتَّقُوا اللَّهَ ، لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾^(٢) .

ذكرت هذه الآية الكريمة بأنّ الناس يجب أن يصبروا أمام كل ظلم وجور وقول زور وانحراف وضلال ، وأنّ عليهم أن يسعى كلهم لرفع مشاكلهم ، وأن يراقبوا أعداءهم حذرين ، وأن يمينوا تسلّل الأجانب بينهم بكل صبر وثبات . إنّ اتّخاذ المواقف الصامدة أمام المعتدين ومقابلة الأعداء وإبعاد أنواع الذلّة والهوان من واجبات عباد الله الصالحين ، وهم كذلك مكلفون بأن يجعلوا شعارهم وديارهم تقوى الله في السرّ والعلن ، ففي ظل التقوى لا ينسى الإنسان تكاليفه مهما كانت الظروف ، فهو يعمل بأوامر الله بأحسن وجه . قد يتهايل

(١) بالفارسية : روانشناسي إميل : ١٠٠ - ١٠٣ .

(٢) سورة آل عمران : الآية ٢٠٠ .

الإنسان تحت الضغط الخارجي تارة إلى اليمين وأخرى إلى الشمال ، ولكن التقوى وخلوص النية توجد في كيانه تعادلاً كاملاً .

وتقول إحدى الشخصيات الأوربية :

« إنَّ الحوادث المؤلمة وانكسار الخواطر كمدرسة للفضيلة والتقوى ، فإن المصائب تهذب الروح وتذكّي العقل وتنبيه الإنسان وتصحّح فيه الحكم والقضاء ، وتحذّر الإنسان عن تبعيّة الهوى والتلوّث بالمعاصي . إنّ الله الذي يدير نظام الوجود برحمته وحكمته الكاملة جعل كل هذه الشدائد والمشاكل في هذا العالم ، وأبلى بها الرجال الصالحين والعلماء ليعلمهم بها طريق الوصول إلى الراحة الحقيقية في الآخرة ، ويعودهم على تحمل الشدائد والمشاكل والصبر عليها ، ليصبحوا أهلاً للحضور بين يدي ربّ العزّة والجلال .

لا أحد أشقى من لا يصاب بالمشاكل والشدائد أبداً ، فإنّه حيث لم يقع مورد الاختبار فإنّ حقيقة صورته تبقى غير معروفة . . والله يثيب على فضائل ومكارم تحصل للفرد من خلال السعي والعمل»^(١) .

عاملان قويّان لتربية الإنسان

إنّما تتفتح الطاقات الكامنة في الإنسان وتصل إلى كمال رُشدها فيما إذا ساعدته في خطّ سيره هذا عوامل مختلفة من الداخل والخارج ، ومراحل الرقيّ والكمال للإنسان غير محدودة ولا نهاية لها ، ولذلك فهو بحاجة ماسّة إلى تربية أساسية لطّي طريق الكمال والنيل بمقام الإنسانية اللائق ، ولا بدّ أن تساعده لتنمية قواه الروحية عوامل عديدة .

هناك عاملان لهما دور أساسي ومهم في تنمية القوى الإنسانية :

أحدهما - تعاليم الأنبياء الإلهيّين التي تهيمن على روح الإنسان كما تحويه

(١) بالفارسية : أخلاق صموئيل ٢ : ٢٠٩ .

أشعة الشمس ، فتزبل كل صفة غير حميدة وكل خلق غير محمود عن صفحات القلوب وتمنحه النور والضوء والصفاء .

والعالم الثاني - الذي يمدّ الإنسان بالعون لبلوغ الأهداف المرجوة والكمال اللائق به ؛ هو : المشاكل والشدائد ومصائب الحياة .

وما يتهدّب الإنسان ويصلّح في ظلّ التعاليم السماوية المشرقة ، وضغوط الحياة ، وتظهر روحه من لوث الحالات الحيوانية ، فإنّ متاع الدنيا مسيطر على روحه وإرادته بحيث يكون كريشة على أمواج المتع المادية يلجأ إليها وإلى كل شيء سوى الله سبحانه ، وما دامت روحه أسيرة الظلام والأهواء مسيطرة عليه فإنّه لا يستطيع أن يدرك نتائج المشاكل ، والتي لها دور أساسي في إيصاله إلى الاستقلال الواقعي والشخصية الإنسانية ، ولهذا فإنّ ضغط المصائب يحدث فيه تزلزلاً وقلقاً : ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً ، إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً ﴾ ^(١) ﴿ فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ ، فَيَقُولُ : رَبِّي أَكْرَمَنِ ، وَإِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ : رَبِّي أَهَانَنِ ﴾ ^(٢) .

هذه هي خصائص الإنسان غير المهذب .

وأما إذا أحييت قلوب البشر بالدوافع والدواعي الدّينية ، فإنّهم سيبلغون إلى حرية النفس واستقلالها الذي هو غاية التربية السماوية ، وحينئذ يرون أنفسهم في غنى عن التعلق المطلق بالقيم المادية المتغيّرة ويصبحون هم مالكيين للعالم ، وهذه هي الحرية الطاهرة التي ليست من نوع الإنطلاق الحيواني ، حرّية من جميع الموانع والسدود التي تمنع البشر من الرشد والكمال والصعود .

إنّ القيم الخدّاعة لا تزلزل الإنسان الصالح والمتريّ ، ولا تسيطر على روحه وإدراكاته .

(١) سورة المعارج : آية ١٩ .

(٢) سورة الفجر : الآيتان ١٤ ، ١٥ .

ويقول الله تعالى وهو يشير إلى فلسفة المصائب والمشاكل والتي هي الوصول إلى مقام الحرية الحقيقية : ﴿لِكَيْ لَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ (١) .

فحينما يتحرّر الإنسان عن أي نوع من أنواع العبودية سوى عبودية الله ، ولا يكون خاضعاً لشيء سوى الله تعالى ، يُحسّ كأنّ له قوة غريبة خارقة للعادة ، والذي يتربّى هكذا تكون رؤيته واسعة وشاملة وقلبه حياً نابضاً ويكون له إدراك عميق .

ولفكرة تناسي الفوائد وعدم الفرح الشديد بما يحصل ، أثر تربوي آخر هو أنّ الأسف على فقد الشيء وتركيز الفكر فيه يؤدي إلى جمود القوى الخلاقة والمبدعة في الإنسان ، ومن ناحية أخرى الفرح بحصول متاع يحدّد مهمة الإنسان ، ويسبّب في أن لا يتوجّه إلى أمور أسمى وأفضل ، وأن يتوقف عن التقدم في طريق الكمال .

ويقول (جان جاك روسو) :

« أنا أعلم أنني سأموت ، فلماذا أحدث لنفسي في هذا العالم علاقات وعوائق ؟ فماذا تنفع هذه العلاقات وكل شيء يفنى معي ؟ إني إميل ! لو أفتقدك فلماذا يبقى لي بعدك ؟ ومع ذلك لا بد لي أن أعد نفسي لتحمل هذه الحادثة الأليمة المحتملة ، إذ لا يقدر أحد على أن يطمئنني أنني أموت قبلك .

فإذا أردت أن تعيش سعيداً عاقلاً فاجعل قلبك متعلقاً بجمال دائم لا يفنى ، وحاول أن تكون طلباتك محدودة وقدم تكاليفك على كل شيء ، واطلب ما لا ينافي قانون الأخلاق فقط ، وعود نفسك أن تفتقد كل شيء بدون ألم شديد ، ولا تتقبل أي شيء من دون إذن الضمير ، وعندئذ ستكون سعيداً حتماً عندما لا تتعلق بأي شيء من الأشياء الأرضية » (٢) .

(١) سورة الحديد : الآية ٢٢ .

(٢) بالفارسية : روانشناسي إميل : ٥٤٧ .

ويقول علي (عليه السلام) ضمن دروسه الإنسانية :
« بالتعب الشديد تدرك الدرجات الرفيعة والراحة الدائمة » .

وكتب الفيلسوف الأمريكي (أمرسون) :

« إنّ التغيّرات التي قد تهدم سعادة الناس إنّما هي إنذارات من الطبيعة ،
ذلك أنّ الإنسان حينما تحين حاجاته المعنوية يترك هذا النظام المبنيّ على المال
والأحبة ، كما يترك اللؤلؤ الصدف لبدء حياة أخرى .

إنّ المصائب تظهر آثارها الطيبة بعد مرور فواصل زمنية طويلة : الحمى
ونقص الأعضاء ، واليأس والقنوط المفرط الناشئ من فقد الأموال وفقد الأحبة ،
أعدام لا تعوّض في حينها ، ولكنّ مرور الزمن سيدي ما تخفيه الوقائع من قوى
وطاقات وإمكانات ، ففقد الأحبة الذي ليس في بدايته سوى حرمان ومصيبة
يصبح بعد مدة هادياً وقائداً إلى الخير ، فإنّ كل واقعة من هذه الوقائع تحدث في
حياتنا ثورة ، فمثلاً تختم دور الصبا أو الشباب ، أو تهدم ما تعودناه من السلوك
والأسلوب ، ليتقرّر لنا بعده أسلوب حديث أكثر عونا لنا .

من يريد أن يعيش كوردة طريّة لا تهاب الشمس المحرقة على عودها
الرقيق ، فإنّ شجرة التين حينما تكون في البستان فيهملها الفلاح وتهدم الحيطان
حولها ، تتبدّل إلى شجرة كشجر الغاب ، وتفيد كثيراً من الناس بظلّها
وثمارها»^(١) .

وقد شبّه علي (عليه السلام) الناس الذين يترّبون في خضم الشدائد
والمشاكل بالأشجار الجبلية القوية ، وطالبي الراحة بأشجار البساتين ، وذلك في
كتابه إلى عامله على البصرة : عثمان بن حنيف الأنصاري :

« ألا وإنّ الشجرة البريّة أصلب عوداً ، والروائع الخضرة أرقّ

(١) بالفارسية : فلسفة اجتماعي : ٣٩٨ .

جلوداً ، والنباتات المغذية أقوى وقوداً وأبطأ خموداً»^(١) .

ومن وصاياه (عليه السلام) قال :

« عليك بإدمان العمل في النشاط والكسل »^(٢)

وعنه (عليه السلام) قال :

« عليك بالجد وإن لم يُساعد الجد »^(٣) .

وعنه (عليه السلام) قال :

« من قعد عن الفرصة أعجزه الفوت »^(٤) .

وكتب الباحث الأمريكي الشهير (ويليام جون ريلي) يقول :

« إنَّ عظام الملايين من الناس الذين جلسوا صبيحة الإنتصار ليستربحوا في صحارى الشك والترديد وفقدان الإرادة ، فماتوا في حال استراحتهم وهمودهم ، أصبحت عظاماً بيضاء تشرق في الشمس للناظر : إنَّ أكثر تفكيرنا من السهولة بحيث لا يعطينا مجالاً نلتفت فيه إلى ما يجري في مُخنا ، ولو أوقفنا أفكارنا فترة لنتلفت إلى ما نفعله لرأينا أننا نصمّم في كل يوم عدّة تصميمات ، وفي نهاية كل أسبوع نكون صمّمنا على مئات من القرارات ! ولا نلتفت إلى أنَّ أكثر تصاميمنا إنّما هي أثر قصورنا وقلة التفاتنا ، وفي الحقيقة نكون قد تساهلنا وتساحنا في الأمور . وهذه طريقة غير مرغوب فيها .

والواقع أننا حينما نؤجل عمل اليوم إلى الغد نكون قد صمّمنا على قرار ، أي صمّمنا على أن لا نعمل عملاً معيّناً ، وهذا التأخير أو التقدير هو قرار وتصميم .

(١) نهج البلاغة ٣ : ٤١٨ ط الصالح .

(٢) غرر الحكم : ٤٨٠ .

(٣) غرر الحكم : ٤٨٣ .

(٤) غرر الحكم : ٦٥٣ .

ما أيسر التسامح والتساهل في الأمور ، خصوصاً إذا خادعتم أنفسكم وأغفلتموها بأن بإمكانكم أن تتقدموا في المستقبل بصورة أفضل ، ذلك يعني أنكم خدّرتم أفكاركم بحسن وضع الحال في المستقبل عن الحال ، إنكم تخدعون بذلك أنفسكم فقط وتزعمون أن المستقبل يخلو من المشاكل وليس بحاجة إلى مقاومة ، وأنّ الشدائد عارضة وموقوتة والمصائب عابرة . بينما الواقع هو أنّ الأعمال المهمة غالباً لا تفارقها المشاكل ، وليس في المستقبل لكم حلّ سحري ، والتوفيق لكم هو الزمان الحاضر الذي هو باختياركم وتحت تصرفكم ، وأنّ قيمة الفرصة الموجودة أكثر من قيمة الانتصارات السابقة أو المواعيد اللاحقة»^(١) .

مزية إنسانية سامية

إنّ الإيمان هو العامل الوحيد الذي بإمكانه أن يقوّي روح الإنسان ويوسّع من دائرة نشاطه بحيث يستعدّ لمواجهة أشد وأعقد المشاكل ، ولا يصاب بالضعف والعجز . إنّ المؤمن يعلم أنّ الشدائد مهما كانت ثقيلة لا تقاوم روحه بل تذهب هباءً .⁼

إنّ التمتع بقوة تحمل الشدائد والمشاكل يمنع من إصابة الإنسان ببعض الأمراض النفسية، إنّ قوّة الإيمان هي التي تزيد في قدرة تحمل الفرد المؤمن من دون أن تحطّم توازنه النفسي ومن دون أن يفقد الثبات في طريق أهدافه . ورسول الإسلام (صلى الله عليه وآله) يرى هذه الخصوصية من مزايا عباد الله الصالحين فيقول :

« مثل المؤمن مثل سبيكة الذهب ، إن نفخت عليها احترت ، وإن وزنت لم تنقص»^(٢) .

(١) بالفارسية : تفكر صحيح : ١٠٣ - ١٠٥ .

(٢) نهج الفصاحة ١٥ : ٩٤ .

وعن علي (عليه السلام) قال :
« المؤمن نفسه أصلب من الصلْد »^(١) .

ويقول (مان) في كتابه في أصول علم النفس :

« حينما تواجه مساعينا عائقاً في سبيل الوصول إلى الهدف ، ويكون تجاوزه مشكلاً أو غير ممكن ، أحدث ذلك فينا خيبة أمل . إنَّ العوائق التي تعوقنا هي ما يحيط بنا من الأشياء أو الأشخاص ، أو نقائصنا أو نواقصنا ، أو عجزنا عن حلِّ تناقضاتنا . إنَّ ميزان تحمل الخيبة في الأشخاص مختلف ، فمواجهة حدِّ معين من الخيبة من الممكن أن يهزم البعض نفسانياً ، بينما يتحمل الآخر تلك الخيبة بسهولة . والذين يقل تحملهم من الممكن أن يضيّعوا مسيرتهم ويبادروا إلى أعمال تبعدهم عن أهدافهم أكثر »^(٢) .

التغطية على الضعف والعجز

إنَّ لخداع النفس لغرض الخروج عن عهدة عمل ، ولاختلاق المعاذير للأعمال التي يتخلَّى عنها الإنسان لضعف نفسه ، باعثاً نفسانياً . وإنَّ الذي لا يبدي من نفسه ثباتاً ومداومة على أي شيء ، وكلما أقدم على شيء تركه ناقصاً ، ويتهرب عن مواجهة مشاكل الحياة ، إنَّه يخلق لهذا النقص الروحي فيهِ أعذاراً وحججاً دائماً ، وهكذا يخادع نفسه .

وقد قال علي (عليه السلام) بهذا الشأن :

« قد يكذب الرجل على نفسه عند شدّة البلاء بما لم يفعله »^(٣) .

وقد ثبت هذا الموضوع اليوم علمياً ، ويعبر عنه علماء النفس بخداع النفس .

(١) بحار الأنوار ١٥ : ٩٤ .

(٢) بالفارسية : أصول روانشناسی « مان » : ١٤٨ .

« عندما يعجز الرجل عن عمل فيتركه ويتقبّل عملاً آخر غيره يقول :
أرى نفسي أنّي في عملي هذا الجديد استطيع أن أخدم العباد والبلاد أكثر
وأفضل ! والحقيقة غير هذا ، والواقع أنّه لعدم أهليّته ولياقته للعمل السابق غير
شغله إلى العمل الجديد ، وإنّما يسعى الإنسان ليبيد أعماله صحيحة ، ولذلك
فهو يأتي لها بالأدلة والبراهين .

والدليل المفتعل - كأبي عمل دفاعي - أما هو علامة عن الهزيمة النفسية ،
أو قل إنّ الرجل لم يتعلم طريقة مواجهة المشاكل ولذلك فهو يفتعل المعاذير . كثير
أولئك الذين يفتعلون الأدلة غير الواقعية للتغطية على نقائصهم الصريحة
والواضحة البيّنة ، بينما الذي ينبغي أن يقوم به هؤلاء هو أن يتبيّنوا نقائصهم ثم
يسعون في علاجها . عندما نصاب نحن بنكسة فإن الضمير اللاشعوري فينا يحتفظ
بروح القنوط واليأس فيحملنا على افتعال الدليل غير الواقعي لتبرير أنفسنا ،
بينما الأفضل أن ندعن بحرماننا ويأسنا ، ونسعى في أن نقوّي أنفسنا للتفوّق على
المشاكل ، وتناسي النكسة التي كانت نتيجة قلة جُهدنا ، وفي نفس الوقت لا
ننسى أن نفيد من تجربة النكسة لمسقبلنا .

أما علاج الأمر الواقع بالفرار من المشاكل والمعضلات فهو علاج غلط
وباطل ، فإنّه لا يؤثر شيئاً إلّا لمدة قليلة ، وسرعان ما يعود الألم والسقم
والضعف والعجز . حينما يقوم الشخص برّد فعل أمام أمر مشكل عليه أن
يتساءل من نفسه : هل أنا أحاول أن أخادع نفسي والآخرين ؟ هل أنا أحاول
أن أفتعل الأدلة غير الواقعية ؟ ماذا عليّ أن أفعله لأحل مشكلتي بصدق
واقعية ؟ لا شك في أنّ الكلام حول الموضوع لا يكفي وحده لذلك ، بل يجب
أن نصرف لذلك وقتاً وجُهداً ، ولا ينبغي أن نفوّت الفرصة بالأعذار والحجج .
إنّ افتعال الدليل أمر غير مقبول ، فإنّ ذلك سعي غيبي لمخادعة النفس
والآخرين . بل يجب أن يواجه الرجل الحقيقة ويتبيّن وجه الصواب ، ثم يحاول
أن يجد طريق الحل الصحيح »^(١) .

(١) بالفارسية : روانشناسی برای زیستی : ١٨٩ - ١٩٤ .

أمّا أمير المؤمنين علي (عليه السلام) فإنّه يوصي بأنّه لا ينبغي أن نفرّ من المشاكل حتى في أشد وأعقد المراحل ، ولا أن نفتقد روح الأمل بنجاح العمل ، فقد قال (عليه السلام) كما في (غرر الحكم) :

« عند تناهي الشدائد يكون توقع الفرج »^(١) .

وفيه عنه (عليه السلام) أيضاً قال :

« عند تضايق حلق البلاء يكون الرّخاء »^(٢) .

(٢،١) غرر الحكم : ٤٨٩ .

حقيقة العزّة والكرامة

- * حاجة نفسية .
- * الامتيازات المفتعلة .
- * حقيقة العزّة في الإسلام .
- * الابتعاد عن الذلّة والحقارة .
- * غنى النفس .
- * الرؤية المستقبلية .
- * الحرية الحقيقية .
- * تطبيق الأهداف على مقياس القوى .
- * الشعور بالذلّة من التلوّث بالذنوب .
- * نقص كبير .

حاجة نفسية

للإنسان بإزاء حاجاته الجسدية الأساسية ، سلسلة من الحاجات النفسية ، وإنّ بدوّ الحاجة فيها إلى الإشباع من الوضوح بمكان لا جدال فيه ، وإذا لم تشبع أيّ منها بصورة صحيحة وفي وقتها المناسب وبشكل إيجابي ، خرجت عن توازنها وأحدثت اضطراباً وأضراراً في الحياة الفردية والاجتماعية ، وسبّبت في حدوث خللٍ وآلام لا تتحمّل عادةً ولا يمكن التعويض عن خسارتها إلّا بشقّ الأنفس .

وإنّ نطاق الحاجات النفسية وسيع جداً بل إلى ما لا نهاية خلافاً للحاجات المادية ، ولهذا فإنّه لا يمكن تحديد هذه الحاجات وتحجيمها . إنّ الدراسات العلمية في الحاجات النفسية وإن كانت دراسات جديدة إلّا أنّ وجودها هي ليس أمراً جديداً ، بل هي مقارنة للإنسان منذ أن بدأ العيش في الحياة .

أمّا من حيث الجهاز النفسيّ فإنّ أفراد البشر ليسوا على مستوى واحد ، بل هناك بينهم تفاوت يتمايز على أساسه أسلوب تفكيرهم وأحاسيسهم وعملهم بعضهم عن بعض ، ولا شكّ أنّ أثر ذلك في سعادة الأفراد أو شقايتهم أكثر من أثر المقرّرات البشرية بمراتب عديدة .

ومن الحاجات النفسية الأساسية ، ومن لوازم حبّه للكمال شعوره « بطلب العزّة » فإنّ كثيراً من نشاطاته إنّما تتحقّق لبلوغ هذا الهدف . إنّ الإنسان متعطش للعزّة وبنفس النسبة بريء من الذلّة والحقارة وينزعج منها ويتنفّر ،

وحينما تقع مكانته ووجاهته موقع الخطر يستمدّ من جميع إمكاناته وقواه لدفع ذلك الخطر أو رفعه ، ويحاول بكل قواه أن يمنع من حدوث النكسة والهزيمة ، وإنّ الخوف الذي يشعر به من خيبة الأمل والألم والعذاب الذي يشعر به من تصوّر العجز والوهن أشدّ وطئاً من نفس النكسة ، وكثيراً ما يبذل الحياة إلى كابوس موحش .

إنّ الشعور بالذلة هو الذي يثير في نفس بعض الناس عاصفة مهولة ، بحيث يتغيّر العالم في عيونهم إلى مأتمٍ مُملّ لا مفهوم له ، وربما لجأ بعضهم للتحرّر من وحشة ألمه إلى أحضان الانتحار وقتل النفس ، بينما هو للفرار من نقص صغير يلجأون إلى ذلة أعظم .

في مواجهة خيبة الآمال حيث يتبدّل الإنسان إلى موجود ضعيف وآيس ، عليه أن يتبيّن الطرق الصحيحة والمناسبة لمقابلة ذلك . والطريق الصحيح هو أن يستعمل قواه في المسار الصحيح فيعلن عن شخصيته ومراحل كفاءته وأهليته ولياقته بالطريقة المناسبة لللائقة ، كي يستعيد توازنه العاطفي وبالأولى توازن شخصيته المفقودة ، ثم يقضي عمره في عزّة نفس واستقلال شخصية تامة .

إنّ الشعور بطلب العزّة الذي بذرت بذرته يد الخلقة الإلهية في باطن الإنسان ، يبدأ تفتحّه من دور الطفولة وبصور مختلفة ، ويتجلّى قبل سائر الخصائص الروحية والنفسية . إنّ قلب الطفل الصغير بحاجة إلى التدليل وهو شائق إلى العزّة ويتوقع الحدّ الأكثر من ذلك ممّن حوله ، بل لا يتحمل أن ينال غيره شيئاً من هذه العزّة ، ولهذا فحينما يفد إلى الوجود في الأسرة مولود جديد وينصرف القسم الأكبر من إلتفات الأم إلى الوليد الجديد ، ولا تسمح لها ظروفها أن تبذل ما كانت تبذله لوليدها الأكبر من اللطف والعطف ، فإن الولد الأكبر سيقف أمام الأصغر وينظر بعين الغضب والإنزعاج إلى هذا الوليد الجديد .

لو كان الطفل يشعر بالغبن والعوز ومزاحمة ما لا يريد ، فربّما انجرّ ذلك

إلى الحقد والحسد الحادّ المزمّن ، وأدّى به إلى الضلال والضّياح والخُداع ، وكثير أولئك الأطفال الذين عُقدت في نفوسهم عُقدٌ من جرّاء ذلك وسبّبت لهم كثيراً من البلاء .

إنّ قوة أيّ قوم وضعفهم وعزّتهم وذلتهم وسموّهم وانحطاطهم يرتبط بأوضاعهم الروحية ، وإنّ هذه الأحوال المختلفة لهم تنشأ من أسلوب تفكيرهم وسلوكهم . إنّ الميّزات الفردية من قبيل العواطف النزيهة والمزايا الروحية العالية ليست في مستوى القياس مع ما يمكن الحصول عليه في الحياة من قبيل المال والعناوين الاجتماعية ، وهذه واقعية حقيقية أنّ العلل الذاتية أكثر أثراً في العزّة الواقعية من العلل الخارجية ، فإن الشقاء والسعادة والشرف الحقيقي يتبع الحياة الباطنية للإنسان ، بينما يتصور القاصرون أن اختلاف الشؤون الاجتماعية هو العامل الأصيل في مراتب الشرف والعزّة .

الامتيازات المفتعلة

هناك بين المجتمع كثير من أفرادهم يصابون بأفة الخطأ في تشخيص عوامل العزّة ، وحيث لم تسدّ هذه الحاجة الروحية فيهم على الطريقة الصحيحة يجدون لإشباعها الكاذب طرقات أخرى انحرافية وضارّة ، فهم كالغريق الذي في سعيه للنجاة يتشبّث بكل حشيش ، لا يألون جهداً سعياً لاكتساب الامتيازات المفتعلة للوصول إلى العزّة والكرامة .

فمن الممكن - مثلاً - أن يتبدّل حب اكتساب الثروة واكتناز الأموال بلا حساب في بعض الناس إلى حاجة مبرمة وعطش شديد ، حتى يُصبح هذا الطلب والإرادة فيهم كديكتاتور مستبدّ في ذواتهم يسلبهم عقولهم وضائرتهم وحتى معرفة منافعهم ومصالحهم . وإنّ هذه الحالة المرضية تقلب الإنسان إلى أكثر الموجودات اضطراباً وعذاباً ، حالة مؤلمة لهم وضارّة بالآخرين ، وإذا كثّر عددهم في مجتمع ما وكانوا هم أكثرية ذلك المجتمع ، أصابوه بالخلل الشديد .

والمصيبة في أنّ الثروة الزائدة عن حدّ الحاجة غالباً ما تزامنها صفتان تنتهي كل صفة منهما إلى الشقاء والتعاسة : فإمّا أن تجرّ الشخص من الصراط المستقيم والطريق العدل إلى الانحراف نحو الأهواء والشهوات ، وإمّا أن يتقيد بنفس الثراء حتى يجعلها لنفسه كصنم يعبد ، ويستعد للتضحية بكل شيء في رحابه وعلى أعتابه . وليس الغرض من هذا الكلام هو أنّه لا يجوز أن نكون بصدد تحصيل المال لرفع حاجات الحياة ، بل الحقيقة أنّ الثروة الزائدة عن دائرة الحاجات لا أثر لها في سعادة أحد أيّ أثر .

لا يمكن أن يكون هذا الإحساس هو الغاية الأساس للحاجة النفسية ومّا يوجب سكونها . وإن السبب لأكثر الاضطرابات الروحية في الناس هو الاتجاه أكثر من المناسب إلى هذه الغريزة غريزة حبّ المال ، أبعد بكثير عن المفهوم الأساس للحاجة الروحية وإشباعها .

وبديهي أنّه لا يمكن أن نتوقع نتائج لائقة ومرضية من هذه الأهداف غير المتناسبة ، وإنّ الألم والعذاب النفسي هو النتيجة المنطقية لاختيار الأهداف غير المعقولة وغير المتناسبة ، ولهذا فنحن نرى أثرياء كثيرين يفتقدون القيم المعنوية ولذلك فإنّهم لا يشعرون بالشرف بل يرون أنفسهم في خضمّ أمواج الحياة حيارى لا دفاع لهم ، وبالتالي فهم يختمون حياتهم في حالة غربة نفسية وينتهي لهم كل شيء .

إنّ الشرف إحساس حلوي ينع من عمق النفس وينفذ في كل شيء ، والذي يتمتع بعزة نفسه سيكون عزيزاً في مجتمعه أيضاً . صحيح أنّ كثيراً من الناس يأملون أن يتمكنوا من أسمى مدارج الفخر ويتألّقون كالنجوم في آفاق المجتمع ، وأن يجيروا غيرهم من جلالهم ورونقهم ، ولا يكفيهم أن يلهج الناس بأسمائهم بل يريدون أن تتمكّن صورهم في قلوب الناس . ولكن للوصول إلى هذا المقصد على الإنسان أن يجعل النظرة الواقعية شعاراً لنفسه ، وأن يبني أساس الحياة على قاعدة الشرف الواقعي .

يقول أحد علماء الغرب :

« ليست الثروة بالدينار والدرهم ، هناك كثير من الناس تقلّ مواردهم ، ولكنّا إذا أمعنا النظر أدركنا أنّ علينا أن نعدّهم في عداد كبار الأثرياء .

إنّ العزّة والشرف وسائر الفضائل الإنسانية ثراء معنوي ، ولكنه في حصانة عن متناول أيدي السراق والحرامية ، وكم من فاقد الثراء واجدي هذه الصفات هم مورد تكريم لأصحاب الثراء ، بالإمكان أن نحصل على المال بالتعب والمواظبة عليه ، فهل الكرامة والشرف كذلك ؟ كلّاً فإنّ هذا شيء لا يمكن شراؤه بالذهب والفضة .

ولا أدري لماذا ابتعد الناس عن الحقيقة فأخذوا يعتزّون بالثروة حتى أنّهم في سبيل تحصيلها جعلوا أرواحهم في أكفّهم وهم في طلبها بكل شوق ، وكأنّهم لا يخافون في ذلك من أيّ خطر ، فهم يفتقدون لذلك صحّة أجسامهم وسكون أرواحهم ، ويقضّون الشطر الأعظم من حياتهم في عذاب ومحنة ، كل ذلك من أجل أن يصبحوا أصحاب ثروة . ولكن من المؤسف أن أكداساً من ذهب لا تساوي قيمة دقيقة واحدة من حياة الإنسان .

نعم يظنّ الناس أنّ الثروة هي طريق السعادة ، وأنّهم بالأولى يصلون إلى الأخرى ويحصلون على ودها ويجاورونها إلى الأبد ، وهم لا يعلمون أنّهم لا يمكنهم أن يشتروا السعادة بالمال . هؤلاء التعساء كلّما أسرعوا في تحصيله ابتعدوا عن حقيقة أنفسهم أكثر ، وبالتالي فإنّهم سيفتقدون ويخسرون أنفسهم في هذا الطريق الملتوي ، ويسحقون أرواحهم وعواطفهم وأحاسيسهم وفضائلهم ، بينما الحصول على السعادة لا يستلزم مالاً وثراءً بل يستلزم أموراً يغفل عنها أكثر الناس ، حتى أنّنا لا نرى بين طالبي السعادة أحداً يبحث عن تلك الأمور»^(١) .

(١) بالفارسية : در جستجوی خوشبختی : ١٤٦ .

حينما اختير اسكندر المقدوني الملك اليوناني الشهير ليكون القائد العام للجيش اليوناني لاحتلال إيران ، كان مختلف طبقات الناس يسرعون إليه لتهنئته ، ولم يعتن بذلك الحكيم اليوناني الشهير (ديوجين) حينما كان يعيش في (الكورنيت) وأحبّ إسكندر أن يزور الحكيم ولذلك سلك الطريق إليه .

وكان (ديوجين) آنذاك متمدداً في الشمس ، وكانت من خصائصه النفسية البارزة التي جعلها شعار حياته : عزّة النفس وغنى النفس وحرّيّتها ، فلما أحسّ بأنّ جمعاً من الناس متوجّهون إليه نهض قليلاً وجعل ينظر إلى اسكندر وهو متوجّه إليه بجلال وعظمة وتشريفات خاصّة ، ولم يفرّق بين اسكندر ومن معه ، ثم بقي غير أبه ولا معتدّ به بكل برودة وفتور . حيّاه اسكندر بكل أدب واحترام ثم قال : إذا كانت لك حاجة قضيتها لك .

فقال ديوجين : لي حاجة واحدة هي أني كنت في الشمس وأنت ظلّلت عليّ فمنعت عني ضوء الشمس ، فأرجوك أن تفرّج عني وتزاح .

فظنّ أصحاب اسكندر أنّه كلام غبيّ وقالوا في أنفسهم : حقّاً أنّه رجل جاهل لا يستفيد من هكذا فرصة حسّاسة حصلت له . ولكن اسكندر حيث رأى احتقاره أمام عزّة نفس ديوجين ومناعة طبعه ، توغلّ في الفكر ، وبعد أن سلك طريقه قال لأصحابه الذين كانوا يلومون الفيلسوف ويحتقرونه : « حقّاً لو لم أكن إسكندر لكنت أودّ أن أكون ديوجين »^(١) .

هناك في كل زمان ومكان أناس لا يحبّون « الوصل بضوء الشمس » ولا يتحمّلون المقام السامي لغيرهم وذلك لعدم سلامة نفوسهم وأرواحهم وهي القائد الأعلى لأكثر أعمالهم وعواطفهم وأحاسيسهم ، ودائماً يريدون أن يبدوا من أنفسهم أمام كبار الرجال شخصية إن لم تكن أسمى وأعلى فلا أقل من أن تكون متساوية ومتوازنة معها . ولكنهم حيث يفتقدون رأسمال العظمة فهم يتصدّون

(١) بالفارسية : تاريخ علم ، للجورج سارتن : ٥٢٥ .

لتحطيمهم والمنع من إشراقتهم بمختلف العوامل ، ولكنهم لن يتوفقوا للتقليل من منزلة كبار الشخصيات بأيّ عامل ، ذلك أنّ الرجال الشرفاء وأصحاب علو النفس إنّما هم للإنسانية ، فهم يتجاوزون الفواصل الزمانية والمكانية ، وتبقى لخواطريهم في النفوس أدوار لا تُنسى ، بل إنّ نجوم العظمة والعزة فيهم تبقى مع مرور الدهور تتجلّى وتلمع أكثر فأكثر .

ويمكن الاستمداد من الشعور بطلب العزة لتعديل الأهواء النفسية وتحديد ميولها غير المرغوب فيها . فمن الممكن أن لا يتّصف أحد بصلاحية أخلاقية صحيحة بل يبدى من نفسه أنّها إلى الانحراف ، ولكن حيث أنّه يحب شرفه وكرامته ، فإنّه من الممكن أن يحاول اجتناب التلوّث بالأعمال الغير المحموده ، فهذا الرأس المال الفطري فيهم يبعثهم على أن لا يلوّثوا أيديهم بأعمال تعدو الشرف والكرامة الإنسانية .

مفهوم العزة في الإسلام

من الممكن للجميع أن يتساموا عن المستوى الحيواني ويقتربوا إلى المستوى الإنساني السامي ؛ فإنّ أمنية الوصول إلى الكمال المطلوب ، متكلسة في ضمير الإنسان . ولهذه الفكرة جذور عميقة في نفسه ، ولكنّه بحاجة إلى التربية والتنمية . بينما لا حاجة لسُلوّكه طريق السقوط إلى أن يجرّ بحبل في عنقه ، أو أن يجتذب إلى مهاوي الانحطاط بضغط وقوة ، بل إنّ الميول الدنيّة هي التي تجتذبه شيئاً فشيئاً إلى المهاوي والمزالق .

وإنّما يتحقق الكمال الواقعيّ للإنسان فيما إذا أخرج نفسه من مضيق الميول الحيوانية الدنيّة ، وتعرّف على الأفكار العالية والآفاق الأكثر رحابة وسعة . فهو بإمكانه أن يكون عند المزالق حيواناً ذليلاً ، أو أن يخرج الدوافع المنحرفة فيه من قبل أن تصل إلى مرحلة الظهور والفعالية ، وعندئذٍ يفتح أجنحته في فرص الصعود إلى العالم الأعلى كالملائكة .

إنَّ الإنسجام الذي أوجده الإسلام بين العوامل الداخلية والخارجية على صعيد تكامل النفس ، أصبح منشأً لظهور كثير من التوفيق للإنسان ، وقد ظهر بذلك كثيرون في مسيرة التاريخ ، وبجهود متوالية بلغوا إلى المستوى السامي والرفيع اللائق للإنسانية .

إنَّ منزلة كل أحد في الإسلام ترتبط بما له من حظٍّ ونصيب من القيم الكبرى ، وإلا فلا يصدق عليه المعنى الحقيقي للإنسانية ، ولم يعرف الإسلام سوى التقوى ملاكاً ومقياساً لشرف الأفراد وعزّتهم .

فعن نبي الإسلام العظيم (صلى الله عليه وآله وسلم) قال :
« من أراد أن يكون أعزّ الناس فليتّق الله عزّ وجلّ »^(١) .

وعن علي (عليه السلام) قال :
« لا عزّ أعزّ من التقوى » .

إنَّ الإنسان المؤمن حينما تشع في نفسه أشعة التقوى يعرف قدرها وأهميّتها ، ويمتضى هذه الثقافة والنظرة الشاملة لا يبحث عن الكمال والعزة في القدرة والثروة والنسب والعنصر ، بل إنّه يقيس كرامة الشخصية بمستوى الإيمان والعقيدة بتلك القدرة المؤثرة حقيقةً في هذه الحياة بصورة قطعية ، وبما قد أقامه في باطن نفسه من فضائل وفواضل ، وهو مع ذلك يشعر بالعزّة بالنسبة إلى الأفراد فاقد التقوى ولذلك فهو يحذر من أيّ خضوع يدلّله أمامهم ، ذلك أن الخضوع والصّغار إنّما يحقّ أمام الله تعالى ، الذي أوجد جميع الموجودات وكل عالم الوجود بإرادته ، والعباد كلهم عباده ، والخضوع أمام خالق العالم الذي لا شريك له هو أكبر رأسمال للعزّة والكرامة الحقيقية .

وإنّ هذا العلوّ والعزّ الذي يحصل عليه المتقيّ عن طريق الارتباط بالمبدأ الأعلى لهذا العالم ، سيرافقه في جميع مراحل الحياة ومختلف المواقع .

(١) بحار الأنوار ١٧ : ٤٨ ط قديم .

وإنَّ أشعة التقوى وطهارة الضمير من الوضوح بحيث هي سمة بارزة وبيّنة على المتقي ، وبحيث يُحسّ الآخرون بأنَّ في ضمير هذا المتقي حقيقةً ثابتة ، وليس فارغاً بحيث لا يثبت على مواضعه ومواقفه بأصغر صدمة .

إنَّ تلك القوة الحيويّة المختبئة في ضمير المتقي تنبّهه بالنسبة إلى الحقائق والواقعيّات ، فلا يغرق في محيط الماديّات عند تمتّعه من الحياة ، ذلك أن عقله وقلبه قد ارتوى من معين مبادئ الإسلام فله بالنسبة إلى كل شيء نظرة إسلامية ، فلا تتساوى عند تقييمه الواقعيّ القيم الكاذبة مع القيم الحقيقيّة الصادقة ، ولا يمكن أن تستولي لديه الأهواء الدنيئة على نفسه وإدراكاته وروحانيّته التي لا تنهزم .

بل إنه يقف بوجه الأشياء الخلابّة والأهواء الخدّاعة وقفّة جريئة شجاعة ، ذلك أنّه أدرك أنّ أيّ شيء مهما بلغ من مراتب الأهميّة والقيمة فإنّه أمام عظمة كبرياء الله حقير بل لا شيء ، ومهما كان كثيراً فإنّه سيفنى وينعدم ويزول ، والقرآن الكريم يقول : ﴿ وَلَا تَمُدَّنْ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْثَنَّهُمْ فِيهِ ، وَرَزَقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾^(١) .

والإسلام العظيم يقرّر للمسلمين قيمة وعزّة يذكر بها بعد عزّة الله ورسوله إذ يقول : ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾^(٢) .

الابتعاد عن الذلّة والحقارة

لقد وصلتنا بشأن عزّة النفس وقيمتها الأخلاقية والاجتماعية أخبار كثيرة عن الأئمة الأطهار (عليهم السلام) ، ولقد اعطوا من أنفسهم عملياً دروساً أخلاقية كثيرة بهذا الشأن :

(١) سورة طه : الآية ١٣٠ .

(٢) سورة المنافقون : الآية ٧ .

ينبّه الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) الناس إلى حقيقة العزة في جملة قصيرة فيقول :

« ليس الغنى عن كثرة العَرَضِ ، ولكنّ الغنى غنى النفس »^(١) .

وسئل سيد الأحرار الحسين بن علي (عليه السلام) :
« فما عَزَّ المرء ؟ قال (عليه السلام) استغناؤه عن الناس » .

ويقول (لوكروس) :

« تصوّروا للحظة أغنى الناس في فراش المرض ، وتمثّلوا وضعه ، واصبروا حتى تصل درجة الحمّى فيه إلى الدرجة العليا الشديدة التي كأنّها تذيب الجسد ، ثم أفرغوا عليه قنطاراً من الذهب والفضة ، بل انقلوه من فراشه الصوف إلى فراش من خمل الحرير ، فإن استطاعت هذه الثروة والجمال أن تؤثر في بؤسه ويأسه شيئاً فلكم أن تدّعوا أثر الثروة في السعادة ، أمّا والثروة لا تستطيع أن تؤثر في صحة الجسم شيئاً فكيف تتمكّن من أن تطلق الروح عن الألم والغمّ ، وأن تصل بها إلى السعادة والنشاط »^(٢) .

وكتب الدكتور (ماردن) يقول :

« لو كانت سعادتنا مبنية على اللوازم المادية لتحطمت وتلاشت بسرعة ، فإنّ العالم المادّي متغيّر وفانٍ ، ونعيمها كالبرق الخاطف أو قل هي غير ثابتة على حال كالبخار ، أو هي كالنار تشتعل وتترزّل ، ومن نافلة القول بل من الواضح أنّه لا يمكن أن تتحقق السعادة بالنعيم الفاني بل الآبي .

إنّ الذي يتوقع الراحة والهناء من اللوازم المادّية كمن هو نائم على قطعة كبيرة من الثلوج تلج الفؤاد عن تغيّرات الحياة ، ولا يمرّ شيء حتى يلذوب

(١) نهج الفصاحة : ٥٤ .

(٢) بالفارسية : تلقين بنفس : ١٩ .

الثلج ، فيغط ذلك البائس الغافل بين الأمواج الهوجاء المجنونة .

إنَّ الثروة وسيلة لقضاء الحاجات ، وليست رأسمال للسعادة . وإنَّ ما يُسعدنا هو سكون النفس الذي لا أثر للوازم المادية فيه . لا تظنّوا أنّي أعيب المال ، فإنَّ المال لو كان قريناً باعتدال العقل والأحوال كان من لوازم سكون الخاطر أيضاً .

ولكن من المسلّم به أننا لو أفرطنا في السعي وراء اللوازم المادية لاختلّ التوازن فينا ، ولا ينقضي شيء حتى يسيطر الحسد والحقد والغضب على أرواحنا . إنَّ الاعتدال في طلب المال من لوازم السعادة وحسن الحال ، وعلينا أن نراقب أنفسنا دائماً كي لا نتمايل في طريق الحياة إلى إفراط أو تفريط .

وقد قرأنا في القصص الدينية : أنّ المجرمين يمرون في الآخرة عن طريق أحرّ من النار وأحدّ من السيف وأدقّ من الشعر . وإنَّ طريق الحياة نموذج من ذلك الطريق ، ولو غفلنا للحظة واحدة انحرفنا عنه ، وهو حادّ كالسيف فلو تركنا الاحتياط جانباً فوا ويلاه ، وهو محرق كالنار وتكفي لحظة من الإهمال والمساهمة حتى نحترق بتلك النار .

إنّكم إذا أردتم أن تكونوا سعداء فلا تكونوا كالنار طاغية عاتية طامعة ، فإنَّ السعادة لا تنسجم مع الحرص والطمع ، وإنَّ الطبيعة الحريضة كالبحر الهائج ، والذي يتمنى الراحة والسكون من الأمواج الهائجة فهو حقاً مسكين بائس»^(١) .

إنَّ من أهمّ تكاليف أيّ مسلم يُحبّ الحفاظ على شؤونهِ ويريد أن يحرّر نفسه من الإطارات الضيقة ، هو أن يجتنب الذلّة والحقارة . وإنَّ قادة الإسلام قد رغبوا الناس في الابتعاد عن الأهداف الدنيئة التي لا تتفق مع شؤون المسلمين .

(١) بالفارسية : أسرار نيگ بخنى : ٩٨ - ١٠١ .

فعن الإمام الحادي عشر الحسن العسكري (عليه السلام) قال :
« ما أقبح بالمؤمن أن تكون له رغبة تذله »^(١) .

لا ينبغي أن يلتف الإنسان إلى الطلبات التي لا تحتوي على قيمة أكثر من
الحّد اللائق والمناسب ، وأن يهواها وكأنّها ليس وراءها شيء سواها ، فإنّ ذلك
يؤدّي إلى انحطاط الفكر وجوده ، وتصبح العواطف والأحاسيس تحت تأثير أمور
لا قيمة لها ، وذلك يقلّل من قيمة الإنسان وأهمّيته وعظمته .

فعن علي (عليه السلام) قال :

« عظموا أقداركم بالتغافل عن الدنيّ من الأمور »^(٢) .

إنّ بعض الأفراد تستولي روح النفعيّة على وجودهم بحيث يلوّثون شرفهم
بشدّة للوصول إلى منافع مادّيّة ، ويخضعون لكلّ ذلّ ودناءة ، وحيث تصبح حالة
طلب النفع عندهم من كلّ من يتصلون به كأنّها حاجة روحية فيهم ، لذلك
فهم يتخذون تكتيكاً خاصّاً في ساحة الحياة وفي معاشراتهم مع الناس ، يعتادون
الاحترام والتعظيم في غير محلّه بحيث لا معنى له في الحقيقة سوى إظهار الذلّ
والضغار ، وهم يعملون ببرنامجهم هذا بإصرار مفرط . إنّ ما يتّخذه هؤلاء من
سلوك في حياتهم إنّما هو ردّ فعل منعكس عمّا ينجّبه في ضميرهم من لوث ودناءة
لها جذور عميقة .

وقد روي عن علي (عليه السلام) أنّه قال :

« ساعة ذلّ لا تفنى بعزّ الدّهر »^(٣) .

ويقول (إمرسون) :

« الرجال ذوو التجارب يعلمون جيّداً أنّ الأفضل أن يدفعوا بإزاء كل

(١) تحف العقول : ٤٨٩ .

(٢) تحف العقول : ٢٢٤ .

(٣) غرر الحكم : ٤٣٤ .

« قيمة » اجتماعية أو موقفية شيئاً من « مصارفه » وإلا فعليه أن يدفع عوض الماكسة في هذا السبيل كفارة كبرى ، فإن ذلك دين على عاتق أفراد المجتمع . أهمل نقول : قد انتفع من رأى آلاف الرحمات من أقرانه ولم يردّ عليهم بالجميل ؟ أهمل من انتفع طويلاً من أموال جيرانه بالاستعارة منهم بلا خجل ولا استحياء ، هل هذا قد انتفع من ذلك حقاً ؟ . إن كل أمر من هذا القبيل يجب أن يكون مقروناً بشكر النعمة من ناحية وبالاعتراف بالجميل من ناحية أخرى ، فكل معاملة من هذا القبيل ينبغي أن يبقى أثرها في فكر الطرفين حتى تنوبها معاملة أخرى مكان تلك السابقة ، فتغير مناسباتهم حسب الكيفية الجديدة . إن الذي يسافر بسيارة جاره إذ يجعل نفسه حكماً حقيقياً واقعياً يرى أنه لو كانت تنكسر كل أضلاعه كان أفضل من عار الاستعارة ؛ فإن ذل السؤال أثقل قيمة يمكن أن يدفعها الإنسان لاكتساب موقفية ما^(١) .

غنى النفس

إن حالة الغنى وعلو الهمة تخص من قد أدرك قيمته الإنسانية جيداً ، وإن المسلم الملهم بتعاليم الإسلام القيمة ، إذا واجه أزمة مالية ، استمر مع هذه الوضعية الأليمة في عيشته الاعتيادية من دون أن يخضع تحت نير الذلة والحقارة .

مع أن الإسلام قد أكد كثيراً على السعي والنشاط لطلب الرزق الحلال ، لتقترن عيشة الإنسان المسلم بالعزة والكرامة ، مع ذلك قد حذر الناس بصورة قاطعة من طلب الزيادة كثيراً المؤدي إلى أن يصبح عبداً للعالم والدين في يده شيء منها ؛ فإن الحاجة والفاقة إلى الآخرين ، وكذلك الانقياد لأسر المال والثراء ، كلاهما موجبان للذلة وإضاعة الشرف الإنساني .

(١) بالفارسية : فلسفه اجتماعي : ٣٨٧ .

ويذكر أمير المؤمنين علي (عليه السلام) الذلّة والحقارة في الموردين
فيقول :

« السؤال يضعف لسان المتكلم ، ويكسر لبّ الشجاع البطل ،
ويوقف الحر العزيز موقف العبد الذليل ، ويذهب بهاء الوجه ويمحق
الرزق »^(١) .

وعنه (عليه السلام) قال :
« كم من فقير غنيّ ، وغنيّ مفتقر »^(٢) .

وعنه (عليه السلام) قال :
« ربّ غنيّ أذلّ من فقر »^(٣) .

والقرآن الكريم يصف الفقراء الشرفاء فيقول : ﴿ يحسبهم الجاهل أغنياء
من التعفّف تعرفهم بسيماهم ، لا يسألون الناس إلحافاً ﴾^(٤) .

وعن الإمام علي بن الحسين زين العابدين وسيد الساجدين أنّه قال :
« ما أحبّ أن لي بذلّ نفسي حمر النعم »^(٥) .

إنّ الإسلام قد أعدّ الشكر والتقدير من السجايا الحميدة والصفات
البارزة ، ولكنه لا يسمح أن يصل الشخص في شكره وتقديره لغيره إلى حدّ
التملّق له بعنوان تقديره ، وأن يسحق شرفه بعنوان التمجيد من الآخرين ؛ فإنّه
لا يحقّ لأيّ مسلم أن يلوّث نفسه بالتملّق المنافي لشرف النفس وحرّيتها .

· بل إنّ الشرط الأساس في تقديم التقدير والشكر للآخرين هو سكون
النفس واستقلال الروح في الشاكر ، وأن لا يتقدم بذلك إلّا عند وجوبه أو
استحبابه حسب الأدب الإنساني .

(١) (٣، ٢، ١) غرر الحكم : ٥٥٢ ، ٩٨ ، ٤١٤ .

(٤) سورة البقرة : ٢٧٣ .

(٥) مستدرک الوسائل ٢ : ٣٦٤ ط قديم .

ولكن هناك من فيه ضعف النفس والأخلاق يحاول أن يخفي ذلكم الذاتية وحقارته ومهانته بتقدير غيره بصورة ذليلة متملقة . ولا شك أن هذه الحالة - وهي رد فعل لضعف النفس ودليل على العجز والذلة والمهانة - لا قيمة لها أخلاقياً وتربوياً .

يصرّح الإمام أمير المؤمنين علي (عليه السلام) في جملة قصيرة بأنّ للتقدير المزيح بالتملق أثرين ضارين : فهو من ناحية يذهب بعزة نفس المتملق ، ومن ناحية أخرى يصيب الطرف المقابل بالغرور والتكبر المنفر :
« كثرة الثناء ملقٌ يُحدث الزهو ويُدني من العزة »^(١) .

إنّ الشخصيات ذوات النفوس الشريفة مهما بلغوا من الشهرة والموقعية الاجتماعية ، لا يفتقدون أنفسهم ، بينما من لا حظّ له من شرف النفس إذا اكتسب أقلّ مقام أو منزلة اجتماعية افتقد نفسه وضلّ وأضلّ .

ولقد بين هذه النقطة الإمام علي (عليه السلام) في عبارة قصيرة بصورة جميلة فقال :

« ذو الشرف لا تُبْطِره منزلة نالها وإن عظمت ، كالجلبل الذي لا تزعزعه الرياح ، والدنيّ تُبْطِره أدنى منزلة كالكلأ الذي يحركه مَرُّ النسيم »^(٢) .

النظرة المستقبلية

إنّ على كل أحد أن يمعن النظر في عاقبة الأمر من قبل اتّخاذ القرار ، ولا يقدم على أيّ عمل إلّا مع لحاظ شرفه وعزة نفسه ، إنّ أولئك الذين انطفأت أفكارهم وأظلمت أرواحهم يخضعون لأيّ عبودية وذلة في سبيل أهدافهم

(١) غرر الحكم : ٥٦٣ .

(٢) غرر الحكم : ٤٠٧ .

ومقاصدهم الدنيئة ، ولأجل الوصول إلى أهدافهم الحقيرة لا يألون جهداً في أيّ عمل من الأعمال مهما كان ، ولكن هل إنّ هذه الأعمال وبهذه الأهداف تليق بإنسان شريف النفس ؟ ! .

« إنّ رجلاً أتى النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) فقال له : يا رسول الله أوصني . فقال له رسول الله :

فهل أنت مستوص إن أنا أوصيتك ؟ حتى قال له ذلك ثلاثاً وفي كلها يقول له الرجل : نعم يا رسول الله فقال له رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : فإني أوصيك إذا أنت هممت بأمر فتدبّر عاقبته فإنّ يك رشداً فأمضه ، وإن يك غيياً فانته عنه »^(١) .

وكتب أحد العلماء الغربيين يقول :

« يجب أن ننظر قبل حين العمل ظهره وبطنه ، وأن نقيس خير الأمور وشرّها ، فهل هذا الهدف مثلاً يليق بكل هذه التضحية والمفاداة أولاً ؟ وإن كانت الأفكار والنظريات مختلفة ، وكلّ يرى هدفه ومقصوده أفضل وأنبّل وأعلى وأسمى من أهداف الآخرين ومقاصدهم ، كما يقول (ماركوس) : « إنّ العنكبوت يفرح بصيده الذباب كما يفرح الصياد من صيد الطيبي والغزال » . . إذن فلكل منا نظره ورأيه .

إنّ الشهرة يجب أن تكون شهرة بالفخار وإلاّ فلا ثمرة فيها . هناك في تاريخ السلف أناس معروفون بالشرّ والرذالة كما تعرف الشمس بالضوء والنار بالحرارة ، فهل لهم من شهرتهم هذه سوى اللعنة والعذاب ؟ ! .

إنّ كبار الرجال الذين صرفوا أعمارهم في سبيل نشر العدالة والفضيلة وتقدم الحضارة أحياء خالدون ، ولا تصل يد الدهور إلى بناء عظمتهم وكيانهم ، إنّ هؤلاء يرتقون بأعمالهم المضيئة عن حدود الزمان والمكان ،

(١) روضة الكافي ٨ : ١٤٩ ح ١٣٠ .

فأسماؤهم على الألسن وصورهم في القلوب في جميع الأعصار والقرون ، ويرتفع صيت عظمتهم يوماً فيوماً .

إنّ التاريخ لا شغل له بأجساد المشاهير ، بل هو يشيد بأرواحهم في طبّات أعمالهم المفيدة . إنّ لرجال الأعمال همم كقمم الجبال ، وأرواح عظيمة كعظم البحار ، فهممهم تنفذ في كلّ شيء ، وأرواحهم تطوي كل شيء ، لا يعرفون اليأس والقنوط ، ولا يعبأون بما قد يعرض لهم من نكسة أو هزيمة ، وفضلاً عن هذا كلّهم أفعالهم دقيقة ، ويعرفون قيمة الفرص جيّداً ويعلمون جيّداً كيف يفيدون منها^(١) .

الحرية الحقيقية

إنّ الإنسان أرقى وأسمى الموجودات في الأرض ، وهو ذو إرادة وقدرة إيجابية فعالة يمكنه أن يتكامل بكل قواه في مختلف الجهات والجوانب والأبعاد .

فلو صرف الإنسان كل نشاطاته ومساعيه وفعالياته للتوصّل إلى المطالبات الدانية ، وركّز كل همّته على هكذا مواضيع ، فكيف يتمكن من أن يحقق طيبته الإنسانية الواقعية ؟ .

إنّ على الإنسان من أجل أن يرتقي درجات الكمال أن لا يصل تسافله إلى درجة تعوقه عن الرقي والتسامي . إنّ اختيار الأهداف غير المناسبة وتعقيها يستنفذ كل القوى المدخرة ولا يبقى للإنسان قدرة تكفي لتكامله ، وحيث إنّ تنحطّ النفس وتنزل إلى درجة من الإدراك والشعور ، بحيث إذا تجدد عارض على طريق أهدافه الدنيئة الحقيرة أصرّ على التسافل والانحطاط أكثر من ذي قبل .

إنّ النفس المتكاملة التي تسامت في مراتب الإنسانية ، تتمتع بحرية خاصة ، والذي يتوصّل إلى الحرية الحقيقية لا يذلّ نفسه ولا يحقرّ الكرامة

(١) بالفارسية در آغوش خوشبختی : ١١٤ و ١١٥ .

الإنسانية ، بل هو يُحسّ بأنّ للحياة أهدافاً عالية هي أخرى بالتحقق ،
والرغبات المختلفة لا تسيطر على هكذا إنسان بحيث تحرّكه حيث أرادت ، بل
الرغبات تطيعه وتسمع قوله ، وفي نفس الوقت تؤدّي استعداداته الحيّة والجياشة
تكاليفها الأصيلة في جميع جوانب الحياة بصورة صحيحة .

إنّ الإنسان ذا القيم الراقية يتمتّع بروح طاهرة وهمّة عالية وأهداف
سامية ، وإنّما يجب أن تقدّر موقعيّة كل أحد ومقامه في الإنسانية بهذه المعايير :
فكلما تعالت هممه سمت به قواعده ، كما روى الأمدي في (غرر الحكم) عن
علي (عليه السلام) قال :

« قدر الرجل على قدر همّته »^(١) .

وفيه عنه (عليه السلام) قال :

« ينبغي لمن عرف شرف نفسه أن ينزّهاها عن دناءة الدنيا »^(٢) .

تقدير الأهداف على مستوى القدرة

على الإنسان في اختياره لأهدافه أن يلاحظ حدود قدراته وقواه
واستعداداته ، وأن يجتنب الانتفاخ اللامعقول الذي لا يثمر سوى الحرمان وخيبة
الآمال . وقد نبّه أمير المؤمنين ومولى المتّقين علي (عليه السلام) إلى هذه النقطة
الجميلة بقوله :

« من سئل فوق قدره استحقّ الحرمان »^(٣) .

أو قال (عليه السلام) :

« من سئل ما لا يستحقّ قبول بالحرمان »^(٤) .

(١) غرر الحكم : ٦٦٥ .

(٢) نفس المصدر .

(٣) نفس المصدر

(٤) نفس المصدر .

إنَّ من علل الحرمان في علم النفس التسامي في غير محله بحيث لا تتناسب الأهداف مع استعداداته الشخصية ، كما قالوا : « إنَّ علل الحرمان إمَّا في نفس الإنسان أو في الظروف والأوضاع والأحوال المحيطة به أو كليهما . أمَّا الظروف الداخلية للحرمان التي تتعلق بنفس الشخص فهي القدرة الفكرية والجسدية وسائر الظروف الداخلية عبارة عن الأهداف الشخصية .

ويتفاوت الأفراد في قدرتهم على مواجهة المشاكل ، وكثير من الناس من لا يتجاوز المشاكل لعجز في استعداداته وطاقاته ، ونجد علل الحرمان في الشخص فيما إذا توقَّع الشخص لقضاء حاجاته فوق طاقاته . فمثلاً أحمد شاب سالم رياضي يشترك في أكثر ألعاب كليته ، وبإمكانه أن يكون له أصدقاء كثيرون يلتذُّ بهم ، ولكنَّه دائماً مغموم مهموم متألِّم ، لأنَّه يتصوَّر أنَّ الناس لا يقدرُّونه كما ينبغي له ، وما أُعطي غيره من المداليات حُرِّم هو منها لغير سبب ، والصحف لم تطبع صورته في صفحاتها الأولى لا لشيء ! وهكذا .

إنَّ ما يتوقَّعه وينتظره أحمد فوق ما تسمح به قواه وقدراته وطاقاته ، وهذا الألم الذي حصل لأحمد وإنَّما أحدثته أفكاره هو ، نراه في كثير من الناس ولا سيَّما الشباب منهم ، فإنَّما لو لاحظنا جيِّداً لرأينا أنَّ كثيراً من الناس غير راضين عن أعمالهم ، وتوقَّعاتهم وانتظاراتهم أكثر من استعداداتهم .

وإنَّ الذين يتوقَّعون من الدنيا وينتظرون منها كثيراً سوف لا يكونوا رجالاً سُعداء في راحة نفسية ؛ ولو كانت قدراتهم الذاتية بحيث تمكِّنهم من أن يحققوا توقَّعاتهم لتحققت توقَّعاتهم وانتظاراتهم أيضاً ، إلَّا أنَّ المهمَّ هو أنَّ انتظاراتهم وتوقَّعاتهم أكثر من قواهم واستعداداتهم . علَّمونا أن بإمكان الإنسان أن يصل إلى ما يريد ، ولم علَّمونا أن ذلك إنَّما هو حسب الاستعدادات والقدرات ، نعم لا بدَّ من السعي في كل الأمور ، ولا ينبغي للنكسة أن تمنع من استمرار المساعي ، إنَّ على كل أحد أن يسعى من أجل الوصول إلى أهدافه ، ولكن يجب أن يختار الهدف طبقاً لقواه وطاقاته «^(١) .

(١) بالفارسية : روانشناسی برای زیستی : ٣٣٧ - ٣٣٩ .

الشعور بالذلة من التلوث بالذنوب

إنّ من الموارد التي تصاب فيها عزة النفس في الإنسان بخلل شديد هي موارد ارتكابه للذنوب والآثام ؛ فإنّ الذي يتجاوز حدود القوانين ويلوث يديه بأعمال هي خلاف الشرف والفضيلة ، يُحسّ في نفسه بالذلة والحقارة ، إنّ اللوم الدائم الذي يكون من نصيب المذنب بسبب ذنوبه ، تجرح شخصيته وعزة نفسه بشدة ، أمّا الذين يسيطرون على أهوائهم ويتحكّمون في ميولهم ، ويصنونون أنفسهم من الوقوع في ورطة الأخطاء والأرجاس ولا يحومون حول الجرائم ، هؤلاء يتمتعون بعزة نفس وسكون خاص ، ولكنهم في كل مجتمع إنّما هم في أقلية مطلقة ، في حين أنّ أكثر الناس في طول حياتهم ينجرّون إلى طرق الرذيلة ، ويسيطر ظلام الذنوب على صفحات قلوبهم .

وكما أنّ هناك علاجاً للأدواء الجسدية ، كذلك هناك طرق لعلاج الروح فيما إذا أصيبت بالأمراض النفسية ، وقد بينّ الإسلام طرق علاج هذه الأمراض ، وقد فتح طريق العودة نحو الفضائل والسعادة بالتوبة ، وقد بشر له برحمة الله وفضله الواسع .

إنّ رسل الله وأنبياءه الذين لا تجد عوامل القبائح مجالاً في أجواء حياتهم ، قد أمّلوا المذنبين بعفو الخالق وتجاوزه ، وذلك من أجل إنقاذهم ونجاتهم من الانحطاط والشقاء وتحريرهم من آثارهما النفسية الخطرة وضغط ضمير اللاشعور ، لعلّهم يظهرون الندم على ما فرط منهم بلسان الاعتذار في رحاب عبادة الله الواحد الأحد ، ويتخلّون عن لوث الرذائل ، ويسعون ليسترّوا على ما فاتهم من أخطاء ، ويحاولوا ما أمكنهم أن يزيلوا آثار الجرائم ، وبالتالي يتخلّصون من لوم الضمير وضغط الوجدان ، فإنّ الشعور برجس الرذائل والذنوب بصورة مستمرة يكون منهكاً للنفس ، وإنّ لليأس والقنوط عن العفو وتطهير الضمير مفاسد لا يمكن تداركها ومخاطر كثيرة ، لنفس الشخص الملوّث والمجتمع الذي يعيش فيه .

إنَّ الإنسانَ الذي يحبُّ شرفه وسعادة نفسه ، ما أنْ انجرَّ بجهله وبفعل
العوامل النفسية إلى ورطة جريمة ، وارتكب خلافاً وتمرداً عن أوامر الربِّ
سبحانه وتعالى ، فعليه أن يشعر بثقل الذنوب على عاتقه ، وبإدراكه لتلوثه
وعصيانته عليه أن يسرع إلى المغفرة الإلهية ، ويطلب إليه العفو والتجاوز متوجهاً
إلى عظمته تعالى . والقرآن الكريم يعدّ هذه الخصيصة من مميّزات المتّقين
فيقول : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاجِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا
لِذُنُوبِهِمْ ، وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ
يَعْلَمُونَ ﴾ (١) .

أمّا من تعود تكرار الذنوب قد توغل في ظلام الآثام ولا يشعر بتمرد
وقبحه ، ويطرّد في طريق الرذائل حتى لحظات سكرات الموت ، فهو غافل عن
عظمة ربّه ورجس نفسه ، ولا يمنح ما يمنح لأهل التقوى فلا تقبل منه توبته .

إنَّ أمير المؤمنين عليّاً (عليه السلام) يرى التقوى واجتناب الذنوب من
أسباب حصول عزّة النفس وشرفها إذ قال (عليه السلام) :
« من كرّمت عليه نفسه لم يهنأ بالمعصية » (٢) .

وعنه (عليه السلام) أيضاً قال :
« إذا طلبت العزّ فاطلبه بالطاعة » (٣) .

إنَّ الإقرار بالذنوب وطلب العفو والمغفرة من ساحة قدس الله سبحانه
وتعالى ، يذهب بلوث الذنوب من على وجه النفس وعزّتها ، ويستعيد السكون
المفقود .

وقد روى الكليني في (الكافي) عن الإمام الباقر (عليه السلام) قال :
« والله ما ينجو من الذنب إلّا من أقرّ به » (٤) .

(١) سورة آل عمران : ١٣٤ .

(٢، ٣) غرر الحكم : ٧٥٧ و ٣١٤ .

(٤) أصول الكافي ٢ : ٤٢٦ ط آخوندی .

إذن فالتوبة والاعتراف بالذنوب أمام الله تعالى يستعيد السكون المفقود إلى النفس ، ويقوّيه على تعويض أخطائه واكتساب الفضائل والشخصية المعنوية .

نقص كبير

إنّ من النقائص الأخلاقية الكبرى في الإنسان شكاواه الدائمة والمستمرة من الزمان ، واستعراضه لمشاكل الحياة وشدائدها لدى الناس ؛ فإنّ الإنسان ينزل من خلال ذلك مستوى قيمته الاجتماعية ويصغر نفسه ويحتقرها ولا يبقى لها قدراً عندهم ولا لعزّة نفسه أثراً في نظرهم .

روى الكشي في رجاله عن مفضل بن قيس بن رمانة قال : دخلت على أبي عبد الله فشكوت إليه بعض حالي وسألته الدّعاء ، فقال : يا جارية هاتي الكيس الذي وصلنا به أبو جعفر ، فجاءت بكيس فقال : هذا كيس فيه أربعمئة دينار فاستعن به . قال : قلت : والله جعلت فداك ما أردت هذا ، ولكن أردت الدّعاء لي ، فقال لي : ولا أدع الدّعاء ، ولكن لا تخبر الناس بكلّ ما أنت فيه فتبهون عليهم»^(١) .

وفي (غرر الحكم) عن علي (عليه السلام) قال :
« رضي بالذلّ من كشف ضرّه لغيره »^(٢) .

وكتب (جلت برگس) يقول :

« لماذا يفتتح كثير من الناس الكلام وبحثون عن نكساتهم ونقائصهم بكلّ جدّية وإرادة ، مع أنّ السكوت عنها أنفع لهم ؟ ذلك بعدة أدلّة لعلّ أكثرها تبتنى على الخطأ والخطأ :

قد يخيّل لبعضهم أنّ يتصيّدوا ثناء الآخرين ومدحهم ، ويختارون كمقدمة

(١) رجال الكشي : ١٨٤ ط شهر برقم ٣٢٢ .

(٢) غرر الحكم : ٤٢٢ .

لذلك طريق الشكوى من نفوسهم . وقد يكون هذا العمل عند آخرين أثراً من آثار تأثرهم وأسفهم على نفوسهم ، قد تحوّل لديهم إلى مرض مزمن . إنّ القول : بأنّي قد تحطّمت ، ولا أدري كيف أدير أمور الدّار إلى آخر الشهر ، نموذج يمثّل عقدة تحقير النفس لدى الشخص .

فضلاً عمّا للامتناع عن بيان النقائص والآلام من فوائد ، فإنّ لضبط النفس أثراً بارزاً في تحسّن أخلاقكم ، فكما أنّ القدر إذ يفور ولا منفذ له يجد بخاراً أقوى ، كذلك ضبط النفس يسبّب للشخص قوةً وقدرة أكثر ، ويزيد في كرامتكم لدى أنفسكم . إنّ الولد المصاب بنقص عضو ولا يشكو من ذلك ولا يشير إليه ، والرجل المتنكس المهزم الذي يتلقّى ذلك بابتسامة ، كلّ هؤلاء يقاومون المشاكل بروحية أقوى وأخلاق أقوم ممّن لا يسيطرون على ألسنتهم فيشكون دهرهم دائماً ، وأيضاً تزداد قيمتهم الاجتماعية وتزيد قدراتهم وعقولهم وآثارهم»^(١) .

(١) بالفارسية ؛ كليد های خوشبختی : ١٠١ . ١٠٢ .

الخلل والثغور في نظرة المغرور

- * العُجب والخيلاء .
- * دور الثروة في إيجاد الغرور .
- * خطر الغرور العلمي .
- * نشاطات تخريبية .
- * سلامة النفس .
- * الغفلة عن عيوب النفس .
- * حبّ النفس لا عبادتها .
- * الحبّ الحقّ ، والودّ الخالد .
- * الشعور بالتفوّق الخاص .

العجب والخيلاء

إنَّ سعة نفوذ الضمير اللاشعور أو الشعور الباطنيّ أعمق وأقوى ، وفي نفس الوقت أعقد ، من ساحة نشاط الضمير الواعي . إنَّ تلك الدراسات من علم النفس التي تتعلّق باللاشعور ، تثبت أن البشر لا يعي أكثر من ٩٠٪ من عمل ضميره الباطني . إنَّ هناك عوامل كثيرة تحكم وجود الإنسان سوى ما يريده هو واعياً له ، وتحمله على كثير من الأمور ممّا لا علم لشعوره الواعي به ، وفي أغلب الأوقات يكون التمرد عن أوامر تلك القوى التي تحكم الإنسان من باطنه غير مقدور في الواقع .

ربّ تلوثات وانحرافات مختلفة وعادات ضارّة هي في الحقيقة من نشاطات الضمير اللاواعي ، وهي شاهد صدق على تلك النفس المتناقضة للبشر . ومن الممكن أن تقوم الدوافع الخفية في جهاز نفس الإنسان بما يصلحه ينفعه أو يضرّه . وبكلمة : من الممكن أن تكون للآمال والأفكار والدوافع في اللاشعور دورٌ بناء في سلوك الإنسان ، فتلطف أفعاله وسلوكه ، كذلك لها قدرة إخلال وتخريب قويّ .

من الممكن أن يرسم الإنسان لنفسه في ذهنه صورة يرتضيها في ظروف خاصّة ، ولكن كثيراً ما يتفق أن هذه الصورة الذهنية له لا تنطبق على الواقع . وإنَّ هذه الصورة ترتبط تماماً بقلقه واضطرابه أو سكونه وانبساط خاطره ، مرضه أو صحته النفسية والروحية ، وتظهر في الكيفيات المختلفة من أعمال الناس وآثارهم . إنَّ في المجتمع البشري أفراداً كثيرين مصابين بالعجب والخيلاء عن

أنفسهم . وهذا واقع نفسي لا يقبل الإنكار .

حينما تفتقد مرآة الذهن توازنها يصبح عجب المرء بنفسه غير واقعي وبإفراط وإغراق كثير . ومن الممكن أن يتكوّن هذا العجب في الإنسان منذ طفولته ، فقبل أن يبلغ الطفل مرحلة الوعي والشعور وتنفيذ إرادته لحياة أفضل ، تكون لردود الفعل الصادرة حوله من أهله أثر كبير في مصيره وجهازه النفسي ورؤيته الكونية ، وكذلك في نموّ العجب فيه والانحراف ، وبالتالي فقد ينمو مدللاً يفتقد قدرة التكيف مع محيطه ومجتمعه ، أو إنطوائياً منزوياً . وبكلمة : إنّ لمختلف أنماط السلوك أثراً في الأطفال لا يوصف ، إيجابياً أو سلبياً بناءً أو مخرباً .

إنّ أكثر من يبدو للنظر سليماً هادئاً هو في الواقع تحت ضغوط نفسية كثيرة ، من الممكن أن لا يبدو من ذلك إلّا قليلاً من العلائم والسمات ، ممّا لا يبدو مهماً في نظر نفسه أو غيره ، ولهذا فلا يُحسب لها حساب ، بينما من الممكن أن تكون هذه العلائم علائم مرض نفسي خطير . كثيراً ما يتفق أن يبدو عمل غير متوقّع ممّن لا يتوقّع منه فيسبّب إعجاباً من الناس ، إنّ هذا العمل يُبدي ردّ فعل القوى الباطنية القويّة بكل وضوح وصراحة ، تلك القوى تأخذ بأزمة إرادة الإنسان وتسيطر على سلوكه في الحياة .

* * *

إنّ القيام بأيّ عمل غالباً ما يكون عملاً بعادة هي جزء من طبيعة الإنسان وطيّنته ، وقد أثبتت التجارب العامّة أنّه حينما يتقوى ميل شديد في الإنسان فإنّه يسحق بقوّته سائر الميول والأحاسيس ، ويغضّ البعض عندئذٍ نظره عن جميع الملاحظات والقيود .

إنّ الفرد المغرور يصنع في ذهنه قالباً كاملاً ونموذجاً تامّاً لكل سلوك ومقال له ، ويصطنع نموذجاً عالياً لا نقص فيه لإشباع شعوره بالتفوّق ، ويحاول أن

يجعل كل فعّالياته وأحاسيسه وفقاً لذلك القالب المصطنع ، فهو يحسب صفاته ومزاياه عالية بحيث لن يصدّق أبداً أن يجد النقص مصداقاً في وجوده ، ولذلك فليس له أن يتحمّل أصغر نقد بالنسبة لها ، فإذا وضع أحد إصبعه على نقص فيها بكل إنصاف وبلا أيّ غرض غضب عليه كالمجنون ، وزعم أنّه عدوّ مغرض وحقوق ويريد به السوء .

إنّ هذه الظواهر الأليمة تحدث في نفس الشخص المغرور عاصفة ، فهو يبدأ بصبّ جام غضبه بعناد شديد ليستخفّ بالناقد ويكسر حرمة ، بذلك يهدّئ عواطفه المتهيجّة .

هناك قوة رمزيّة في اللاشعور منه تحمله على أن يخطّط لإثبات تفوّقه على الآخرين ، وهو لذلك لا يقصّر عن أيّ إقدام يورث تفوّقه وظهوره على الساحة ، فأكثر عشرته ونشاطاته ، وحتى أعماله الاجتماعية المفيدة ليست في الدرجة الأولى لعلاقته بتلك الأعمال وحبّه لها ، بل لأنّه يريد أن يعرفوه رجلاً كفوّاً لائقاً ، ولتتحسّن نظرتهم بالنسبة إليه ، فهو دائماً في حالة خوف ووحشة وضغط مؤلم مخافة أن لا يعرفه الآخرون كما يحبّ ويرضى .

ويقول الفيلسوف الغربي (اسبينوزا) :

« إنّ الغرور ، سرور ينشأ من الإفراط في حسن اعتقاد الشخص بنفسه ، والمغرور يسعى جاهداً مهما أمكنه في تنمية هذه الفكرة ، فهو لذلك يحبّ حضور الطفيليين والمتملّقين ، ويبرأ من حضور أصحاب السلوك السيّئ والسيرة الحسنة الصالحة ، الذين يرونه كما هو وعلى ما هو عليه .

إنّ تعداد سرور الغرور يستلزم صرف وقت كثير ، ذلك أنّ المغرور يتأثر بكل عاطفة وإحساس إلّا أنّ أقل عاطفة تسيطر عليه هي الحبّ والرحمة .

وبإدراك هذه النقطة بالإمكان الإدراك جيّداً أنّ المغرور حسود بالضرورة ، وأبغض الناس إليه من يُحمدون كثيراً لفضلهم ، وأيضاً يستنبط من ذلك أنّ انزعاجه منهم لا يزول بالودّ والحبّ ببسرٍ وسهولة ، وإنّما يتحقّق سروره

بحضور من يضحكون على ضعفه فيجرونه من ورطة الحماقة إلى وادي الجنون»^(١).

إنّ أكثر الذين ينبغون من الطبقة السافلة في المجتمع فيحصلون على موقع فيه يصابون بغرور ونخوة، وهم بذلك يريدون أن يسدّوا ويجبروا عقدة احتقارهم التي لازمتهم من ناحية النقص الذي يشعرونه في أسرهم وعوائلهم.

إنّ الروح الكبيرة لا ترضى بعيشة في حياة قصيرة، وإذا كان هدف الإنسان سامياً عالياً توسعت بنفس النسبة مساعيه ومحاولاته. وإنّما يصاب الشخص بالجمود والركود ويتوقّف التقدّم فيما إذا توقّفت مطالبه العالية. إنّ صاحب الهمة العالية يكون دائماً في سعي وفعالية، ليني شخصيته على القاعدة الإنسانية والمزايا الواقعية، ويتمكن بذلك من الاستقرار على مدارج الفخار الحقيقي، ولن يرتضي أبداً أن يكبر نفسه ويقيمها ويقيم شخصيتها من خلال الغرور، ذلك أنّه يعلم أنّ الغرور لا يمنح أحداً رفعةً وعظمة، والرجل كلّ الرجل هو من يُعرف بنفسه ويتقدم في جميع الأعمال بسرعة البرق، لا أن يتكبر واهماً على الآخرين متوقّعاً منهم الثناء والمديح.

دور الثروة في إيجاد الغرور

إنّ ممّا يصيب الإنسان بالعجب والغرور هو الثروة الكثيرة، والذي يتأسّر بهذه الطريقة بيد «الأنّا» ينظر إلى البؤساء نظرة تحقير وازدراء، ولا يرى قيمة لوجودهم بل متطفّلين على الحياة، غافلاً عن أنّ الثروة لا تنحصر في الدراهم والدنانير واكتناز الأموال. كثير من الناس يعيشون في الفقر المادّي، إلّا أنّهم بالنظر إلى ما لهم من رساميل معنوية وفضائل روحية من كبار الأثرياء، وكثيراً ما يقع هؤلاء بما لهم من ثروة معنوية مورد احترام أصحاب الثروات الطائلة. وتصدق هذه الحقيقة بشأن الأمم أيضاً، فالصحيح أن نعدّ الأمة التي تحتوي

(١) بالفارسية: فلسفه نظری: ١٠٦

على أناس سعداء وعلماء كبار أغنى من سائر الأمم .

إنّ الثروة المادية لا تصلح لأن تمنح الإنسان السعادة والراحة ، وإنّ أكثر آلام الناس واضطراباتهم هي نتائج التكاثر فيهم ، وكثير من الناس لا راحة لهم وهم ينامون على أكداس الأموال المكتنزة ، بل من الممكن كثيراً أن يصبح المال نفسه مصدر كل فتنة وآفة ، ويزيد فؤاد صاحبه اسوداداً ويجرّه إلى التلوث بالردائل والذنوب ، ويؤدّي به إلى أن تودي به الذنوب وتقلع أساس سعادته كسيل جارف .

إنّ الثروة الماديّة من مقدّمات الراحة لا حقيقتها ، وبالإمكان أن نقول : إنّ المال سلسلة زنجير لا نهاية لحلقاتها يأخذ بها العاقل ، والجاهل يخضع برقبته تحت هذه السلسلة الثقيلة ! .

قد يتصوّر البعض أنّ بالإمكان الوصول إلى الأمن والراحة بالثروة الطائلة ، ولا يعلمون أنّ الإنسان كلّما تقدّم لتحصيل المنافع الطائلة ابتعد عن نفسه أكثر من ذي قبل ، وبالتالي فإنّه يفقد أحاسيسه الطاهرة في هذا الطريق الملتوي ، ففي الأكثر ما إن يتقدم الإنسان على أقرانه في ماله حتى يحمله الغرور على قطع أواصر المحبة معهم .

ويقول (أبيكتاتوس) :

« يقول أصدقائي : لماذا لا تتصدّى لاكتساب المال كي يكون لنا نصيب منه أيضاً ؟ وأقول لهم : ليتني كنت أتمكن من أن أقرن بين المال والوفاء بحبّكم ، بمعنى أن أكون ثرياً وأكون معكم وفيّاً بحبكم أيضاً ، لكنّي أسف أنّ الثروة تحرمني من صحبتكم . ولا شك أنّه لو يبقّى صديقكم صفر اليد وفيّاً رحيماً ، ذلك أفضل من أن يكون ذا مال مغروراً متكبراً ، إذن فلماذا تريدون أن تفتقدوا صديقكم وتفصلوا بيني وبينكم وتبعدوني عنكم ؟ » .

خطر الغرور العلميّ

إنّ من أخطر مراحل الحياة في سبيل التقدّم لاكتساب الكمال ، ممّا يمكن أن يصيب الإنسان فيه الغرور ، هو مرحلة حصول شيء من العلم لديه ، إذ يتجلّى ذلك لدى حامله مهمّاً وذا قيمة كثيرة بحيث يتصوّر أنّ درجته العلمية ومزايه فيه أعلى من كل أحد دونه ، والطريف أن أكثر الذين يصابون بالغرور العلميّ ويزعمون أنهم على حق ، أن يكونوا ذوي ميزات عالية ، إنّما هم ممّن هم من حيث المستوى العلميّ في المستوى الهابط أو المتوسط .

ذلك أنّه كلما توسّعت علوم الإنسان تعرّف على جهله وحقارته أكثر فأكثر ، والذي يبلغ في العلم إلى أنّه يجهل الكثير فإنّه قد توصّل إلى معرفة نفسه ، ولهذا فإنّ العلماء الواقعيين لا يقعون في مصيدة الغرور والتصورات الباطلة بسهولة .

كاتب هذه السطور يعرف من هو من حيث المستوى العلميّ في الحدّ المتوسط ، ولعلّ قيمته الوجودية قليلة ، ولكنّه متى ما دار الكلام عن خدمات الآخرين وعلومهم وتحذّث أحد الحاضرين بموضوع عن ذلك ، فإنّه لا يؤيد حديثه إلّا بابتسامة ساخرة ، بينما إذا بدأ هو بالحديث عن إقدام له على خدمة صغرى شرح الموضوع بمقدمات طويلة ، وكأن لم يعمل أحد في المجتمع خدمة أولى وأعلى ممّا قام به هو !! .

يقول أحد علماء العرب :

«الحقيقة أنّ معلوماتنا بالنسبة إلى مجهولاتنا ليست إلّا نسبة مئوية مختصرة ، فأبّ العناصر نعرفه جيّداً ونعلم بجميع فوائده وموارد استعماله ؟ وأبّ من النباتات والحيوانات نعلم بتاريخه من البداية حتى النهاية ؟ نحن نعيش بين قوى مختلفة لا نعلم عنها شيئاً ، وإنّ الستار المظلم الذي كان ولا زال طوال القرون المديدة يحجب عيوننا عن معرفة الأشياء ، لا زال غير مهتوك ، ولا نزال نحن في

المدرسة الكبرى للطبيعة بمنزلة أطفال مبتدئين ، نرى كثيراً من الأشياء ولا خبر عندنا عن أسرارها .

إنّ عالم الفكر كالبحر من يقف على ساحله يلتذّ بأمواله وما يتجلّى منه ، والذين قد زلّت بهم أقدامهم ووقعوا فيه يضطربون فيه بأيديهم وأرجلهم ولا يصلون إلى الساحل منه . إنّ الإنسان يسعى دائماً أن يرفع الستار عن وجه الحقيقة وأن يخطو في طريق العلم والمعرفة خطوات أكثر ، ولكن كلّما خطونا في هذا الطريق كثرت مشاكلنا أكثر من ذي قبل .

إنّ علومنا كقطب الدائرة ومجھولاتنا كمحيطها ، فكلمنا وسّعنا قطب الدائرة توسّع محيطها أكثر ، ولعلّ أبناءنا في المستقبل يستطيعون أن يتقدموا في هذا الطريق أكثر ممّا ويكتشفوا حقائق جديدة من أسرار الكائنات ، ولكننا مضطرون وللأسف ومع كل ما لنا من عجب وغرور أن نعرّف بأننا لا نعلم شيئاً بهذا الخصوص ولا خبر لدينا عن سرّ الوجود ، ولماذا نبتعد كثيراً؟ نحن لا نعرف أنفسنا ولا ندري ماذا نحن وما هي علاقتنا بالطبيعة . نعم نحن لا نعلم شيئاً ولذلك فنحن مضطرون أن نترك على كل شيء علامة استفهام ونتجاوزه»^(١) .

إنّ أولى شروط البحث عن الحقيقة وفهم أيّ موضوع هو أن لا يقصد الإنسان من بحثه فيه الجدل والمناقشة الفارغة ساعياً الاستفادة من كلمات الآخرين للاستمرار في المناقشة والبحث فقط بنفس الطريقة الدميمة ، فهو لا ينظر في الحقيقة إلى كشف الحقيقة بل هو يريد أن يثبت مهارته وفنّه وعلمه من خلال المناقشة فقط .

من أجل أن نصل إلى مرحلة معرفة النفس ، من اللازم علينا في المرتبة الأولى أن نكتشف الحقائق من مسارها الصحيح فنؤمن بصحتها إيماناً كاملاً ، وهكذا نصل إلى حقيقة الموضوع لا بالجدال المتعصّب غير المرن ، يجب أن يكون هدفنا الأساسي من إدراك الواقع هو أن تلك الأمور التي إنّما فهمناها بصورة

(١) بالفارسية : در جستجوی خوشبختی : ٢١٩ و ٥٨ .

إجالية ولم نطلع على كميتها وكيفيتها ، نخرجها عن صورة الإيهام والتعقيد
وندرکها عارية صريحة .

نشاط تخريبي

إن آثار الغرور الضارة ستسود في كثير من شؤون الحياة ومواردها ، مما
يستدعي الالتفات إلى ذلك تأملاً أكثر في مكافحة هذه الحالة النفسية الضارة ،
بجدية أكثر منها أمكن .

إننا لو قللنا ما أمكن من تدخل الغرور والنخوة في المكالمات والمناقشات
والأبحاث ، لقلّ الكثير من الخصومات والاختلافات هي بنفسها ، فإن كثيراً من
المنازعات الفارغة التي تقع بين الأفراد ومختلف الطبقات ، ليس إلا طاعة
للغرور ، وهم من وراء هذا الانتفاع الظاهري يصابون بزلّات وعثرات تضرهم
في الواقع وتضرّ غيرهم ، وهم بالتالي لا يمكنهم أن يبادروا إلى حلّ المشاكل
بالتفاهم والمنطق السليم عن الأغراض .

من الممكن أن يصاب المغرور بصفات من سوء الخلق أخرى كالحسد
والبخل وسوء الظنّ ، فيسيطر عليه من قرنه إلى قدمه حسد يؤمل به خيبة
الآخرين ، وإذا رأى غيره أفضل منه في عمل امتلأ قلبه من الشعور بالغيرة ،
فيحسده حتى في الفروع التي لا علاقة لها بفرعه أو عمله ، ويشعر بهذا
الإحساس بصورة أليمة لا تتحمل عادة بحيث تبعث فيه وتسلط عليه روح
العداء ، وتجعل الهدف من جميع مساعيه الإنتاجية تحت تأثير من حبه للغلبة على
خصمه ، والخلاصة أنّ أهدافه في الحياة تخرج عن كونها أهدافاً ، بل يصبح
هدفه النهائي هو انتكاس الخصم وهزيمته . وحيث يغلب عامل التخريب على
أعماله فإنّ قواه الجسمية والفكرية تذهب هدرًا ، وأينما حصل على فرصة مناسبة
فلنّ يشبع في نفسه تلك الشعلة الحارقة الموجودة في نيّته وضميره بأية وسيلة
ممكنة .

كما أن الجهال المغرورين يبرأون من التواضع عندما يقيسون أنفسهم بالآخرين ، كذلك من الطبيعي أن ينزعج العقلاء من المعاشرة مع هؤلاء . إنَّ ما في هؤلاء من التكبر والمغرور يقطع أثمن الروابط وأمتنها . هذه حقيقة لا يمكن إنكارها أنَّ عدم الاعتناء بعواطف الناس والسلوك المهين لهم يولد فيهم ردود فعل مما يجعل المهين مُهاناً كذلك . إنَّ المغرور ينظر إلى ما يتوقعه هو في حين أنه يغفل أو يتغافل عن رعاية موقعية الآخرين وملاحظة شؤونهم ، وهذا التوقع من جانب واحد يؤدي إلى حدوث مضادة شديدة بين ميول المغرور من ناحية والسلوك المهين وعدم الاعتناء والاعتداد به بصورة لا تطاق من قبل الآخرين بالنسبة إليه من ناحية أخرى ، فهو يضطر إلى أن يتحمل ما يخالف توقعاته وانتظاراته وعدم الاعتناء والاعتداد به المستمر والذي يجرح غروره ، كل ذلك بروح منكسرة وقلب مضطرب .

إنَّ السلوك الجميل الذي له نوع علاقة بأخلاق الإنسان الباطنية ، ليس له الأثر المطلوب في حياة صاحبه فحسب ، بل يترك في قلوب الناس أيضاً أثراً عميقاً . إنَّ الذين يتمتعون بصورة واقعية بمزايا عالية وفضائل أخلاقية سامية ، يروون النفوس العطشى من معاشريهم كينبوع عذب مريء . والأدب والتواضع الواقعي إنما يتحقق فيما إذا كان منسجماً ومتناغماً مع الطبيعة ، وإلا فلو توسَّل أحد بالوسائل الصناعية فقد خدع نفسه ، وإنَّ نفسية كل أحد وأسلوب تفكيره يبدو واضحاً من خلال سلوكه ، ولا يمكن تغطية هذا الدليل البين بأية وسيلة أو أي سائر .

سلامة النفس

إنَّ الحياة كلها سعي ونشاط ، فقد يظفر الإنسان في خضمِّ هذه المساعي والمحاولات بالتوفيق إلى أمله ، وقد يخيب ، فالذين يتوقفون في صعيد الحياة من الممكن أن يحيط بهم الغرور والنخوة على أثر توفيقهم المحدود في شغلهم وعملهم ، والذين يواجهون بالحياة والنكسة في بعض أمورهم من الممكن أحياناً

أن يتلقوا نكستهم معلولاً عن سوء حظهم أو اختلاق العراقييل من حقد الأعداء ، ثم يستسلمون لخيبة أمل مؤلمة .

وخيبة الأمل والنكسة مهما كانت مرةً غير مستساغة ، والموقفية مهما كانت عذبة هنيئةً ، لا ينبغي أن نغترّ في بلوغ الأمل بعقولنا ومهارتنا ، وخيبة الأمل أيضاً لا ينبغي أن تصيب روح الإنسان باليأس والحسرة الدائمة .

إننا لو كنّا في حين بلوغنا أهدافنا أو انتكاستنا نجعل شعارنا : النظرة الواقعية ، لكننا نصل إلى الحدّ الوسط الذهبيّ بين هذين القطبين : الإفراط والتفريط ، ألا وهو « سلامة النفس » وطبيعي أنّ الوصول إلى هذا الحدّ من الاعتدال والتوازن مستلزم لجهد جادّ وشديد مع النفس .

إنّ جهاز حياة الإنسان النفسية - ككل الأشياء الأخرى - لم يُصنع ولم يُؤسّس بظرفية وسعة غير محدودة بل إنّ ظرفية تحمّله محدودة ، فمن الممكن أن تتكدّس ضغوط الانتكاسات والهزائم والحرمان وتختفي في اللاشعور ثم يحدث تغيير في كينيّتها فتبدأ بالطغيان والتخريب .

إنّ مشكلة معرفة النفس والجهل بحاجاتها الروحية حقيقة لا يمكن إنكارها ، في حين أنّ الجهال يظنون أنهم يعرفونها أفضل من كل أحد ، وأنهم مطلعون على علل دوافعها وسلوكها وأفكارها ، وبالتالي فهم مطلعون على باطنهم تماماً .

إنّ مشكلة معرفة النفس هي العلة لكثير من الأخطاء وسوء الفهم وإصدار الأحكام الظالمة ، ممّا يستدعي أن يرى الإنسان أساس أكثر هذه المشاكل في الجهل بالإمكانات وكميّتها وكينيّتها ، التي أودعتها يد الخلقة في وجود كل أحد ، والدور الذي تؤدّيه الوراثة والتربية والمحيط والبيئة في نظام الحياة النفسية ، وكذلك سيطرة الأهواء والنقائص على الإنسان .

كما كان قدماء الفلاسفة يؤكّدون على معرفة النفس ضمن الأمور التي ترتبط منها بالإنسان ، كذلك في العهد الحاضر يُعدّ تعلّم أصول معرفة النفس

من أهمّ المواضيع في علم الطبّ النفسي ، هذا والعصر الحاضر عهد الدراسات العميقة والطريفة بشأن الطبيعة الإنسانية ، وعصر ظهور سلسلة من البحوث القيمة بشأن علم النفس بالمعنى الفني الاختصاصي والعام .

إنّ تربية الخصائص والخصال الإنسانية الجميلة في النفس تستلزم أن يكون الشخص عارفاً بالحاجات الروحية والنفسية وأسلوب العمل في هذا الجهاز ، وبالأحاسيس والعواطف التي كل واحدة منها من أفعال النفس وردودها ، وأن يكون له الإطلاع على التهيّجات الناتجة عن مسير مجاري معقّدة في النفس ، كي يتمكن من خلال ذلك أن يميّز الأهواء المضلّة عن الغرائز والمُنى الواقعية ، فيدافع عن نفسه أمام المخاطر التي تهدّد دائماً شخصيّته وسلامة نفسه ، وليراقب نفسه كي لا يهمل زمام أموره بيد الأوهام الخادعة والأحلام الواهية سعياً وراء سعادة موهومة .

إنّ كل الذين يصابون بالعقد والآلام النفسية ، أو يعانون كابوس اليأس والقنوط ، هم في الواقع أناس غير مطلّعين على استعداداتهم وإمكاناتهم وطاقاتهم الكامنة فيهم ، كي يسدّوا عوزهم بالإفادة ممّا فيهم من قوى وطاقات ، ويستبدلوا ما فيهم من نقص بالكمال ، ولذا فمن الضروري لهؤلاء السعي الحثيث والشامل لاكتشاف أنفسهم .

إنّ كل مشكل يمنع الإنسان من إشباع رغباته وتحقيق آماله ، فبمقتضى رغبات الإنسان وحاجاته يؤلمه ذلك كثيراً ، ويكره بشدة كلّ سدّ أو عائق مادّي أو معنوي يعوقه عن تحقيق ميوله ورغباته أو يمنع عن استيلائه على الأمور لوحده وهو يزعم أنّ ذلك من حقّه . وهذه العوائق والموانع توجب حدوث الأحقاد وروح العدوان فيه ، فإنّ الرغبات الفانية والأهواء الشريرة والمثهبة يمكنها أن تلبس الأمر على الإنسان بكل سهولة ويُسّر .

ولهذا فإنّ الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) ينبّه الناس إلى أن يجتنبوا اتّباع الهوى فيقول :

«إياكم والهوى ، فإن الهوى يُعمي ويُصم»^(١) .

الغفلة عن عيوب النفس

إنَّ الغرور وحبَّ الغلب والارتفاع غالباً ما يمنع الإنسان من أن يدرك حدود نقائصه ومن أن يقف على حدود قدراته وطاقاته ، وإنَّ الأمر الذي يمنع من نموّ استقلالية شخصيته ، ويسبب في توقّف نموّه النفسي وجوده ، هو عدم اطلاعه على ما في وجوده من نقائص ، ممّا يجعل الإنسان لا يهتمّ أبداً بسدّ تلك النقائص وترميمها وكثيراً يكون ذلك سهلاً يسيراً .

كما في (غرر الحكم) عن علي (عليه السلام) قال :

«الراضي عن نفسه مستور عنه عيبه ، ولو عرف فضل غيره كفاه ما به من النقص والخسران»^(٢) .

وفي خبر آخر عنه (عليه السلام) يرى أن اغترار الشخص ورضاه عن نفسه دليل على نقصٍ في عقولهم إذ قال :

« رضا العبد عن نفسه بُرهان سخافة عقله »^(٣) .

وعنه (عليه السلام) أيضاً قال :

« العُجب يفسد العقل »^(٤) .

ويقول الفيلسوف الأوروبي الشهير (اسپينوزا) :

« من يجهل نفسه يجهل أساس كل الفضائل ولا يطلع على أية فضيلة ، وليس العمل وفق أية فضيلة سوى العمل وفق العقل ، ومن يعمل وفق العقل

(١) نهج الفصاحة : ٢٠١ .

(٢) غرر الحكم : ٩٥ .

(٣) غرر الحكم : ٤٢٤ .

(٤) غرر الحكم : ٢٦ .

فقد جعل العقل قائده . فالذي يجهل نفسه وبالتالي - كما أسلفنا - يجهل كل الفضائل ، لا يمكنه أن يعمل وفق الفضيلة أي إنه مُصاب بقلّة أو ضعف العقل . وبناءً على هذا فإنّ أعلى درجات الغرور أعلى درجات ضعف العقل»^(١) .

من الممكن أن تكون بعض الأمور التي تتجلّى عندنا وكأنّها حقيقة معقولة ، لا تكون في الواقع من الحقيقة في شيء ، فإنّا بعقولنا يمكننا أن نعرف الواقع والحقيقة عن غيرها . والذين تضعف لديهم قوة أبصارهم يتوسّلون لتسديد هذا الضعف بالعوينات الطّبيّة ، ولكنّ من يُصاب بضعف العقل لا يمكنه أن يرفع ذلك الضّعف بالعوينات ، بل من أجل سدّ ذلك النقص علينا أن نلتفت إلى أنفسنا فنحلّلها وندرسها ، فنعرف الاستعدادات الواقعية عن الأهواء الساحرة الضّارة ، بكل دقة ومراقبة .

وكثير أولئك الذين يتلفون طاقاتهم الروحية من دون أن يفيدوا منها في تحسين وضعهم الشخصي والاجتماعي ، ومن دون أن يكون لهم أدنى إطلاع عن القوى الغريبة والطاقات العجيبة في نفوسهم ، اللهم إلّا أن تتفق أرضية مساعدة لهم على إبراز استعداداتهم وطاقاتهم المثمرة ، وكم من قدرات مفيدة تذهب هدرًا على أثر عدم إطلاع أصحابها عن كيفية ومستوى اقتدارها وثراها .

وإذا أدرك شخص نواقصه وعيوبه لم يهتم أو حسبها بما يمكن غمض العين وصرف النظر عنها ، فهو في حكم أن يرى تلك النقائص لازمةً لوجوده . وطبيعيّ أنّ اختبار أحوال الباطن يستلزم الدقة وصرف الوقت الكافي لذلك .

وإذا تصوّر أحد أنّه يمكنه أن يدرك خصائص نفسه ونقاط ضعفه ونقصه في مدّة قصيرة ، فإنّ ذلك تصوّر باطل ؛ فإنّ دراسة النفس وتحمل مشاهدتها بعض الصور الباطنية الموحشة تستلزم شجاعة كثيرة وقوّة في البصيرة ، وهذا ما

(١) بالفارسية : فلسفه نظری : ١٠٦ .

لا يحصل إلا بالتدريج وبالمراقبة المستمرة ، ومع ذلك فإن الإنسان في كفاحه مع الرذائل كثيراً ما ينال توفيقاً إلى أن يحدث تغييراً في نفسه لصالحه ، بقدرة فكره وإرادته .

كما في (غرر الحكم) عن علي (عليه السلام) قال :
« من طلب عيباً وجده »^(١) .

حُب النفس لا عبادتها

إن الإسلام قد جعل في متناول الإنسان أساليب تامة ومطمئنة لإشباع الحاجات النفسية ، ويحاول إصلاح الفطرة وتهذيبها عن طريق برامج شاملة ومستوعبة لجميع الجوانب . إن الضوابط التي جعلها الإسلام لتعديل الرغبات وتنظيمها وتحديدتها تُجَلِّي النفس الإنسانية وتبلغ بعقله إلى الحقيقة والواقع . ذلك أن الأحاسيس والعواطف لو كانت بدون انتظام فإنها لا تضرّ الآخرين فقط بل تبعث في داخل النفس على اضطراب وعواصف ، وذلك يؤدي إلى انحطاط الإنسان وسقوطه .

إن حُب النفس من العوامل التي لا يمكن تجاهل ما لها من أهمية عجيبة في حياة الإنسان ، وأنها لو اتجهت نحو مقاصد سامية فسوف تحمل الإنسان على اكتساب الفضائل .

طبعي أن هناك تفاوتاً واختلافاً فاحشاً بين حُب النفس وبين عبادتها ، فإن حُب النفس لا ينافي عظمة الروح وسعة الشخصية ، وقد يحمل الإنسان على التواضع ونكران الذات ، بينما عبادة النفس تضيق من أفق الفكر وتجبر طبع الإنسان إلى الرذالة والمهانة .

ففي (غرر الحكم) عن علي (عليه السلام) قال :

(١) غرر الحكم : ٦١٤ .

« أكبر الناس ضعة من تعاطم في نفسه »^(١) .

ويقول (راكو) :

إنَّ عبادة النفس عبارة عن جعل الآخرين ضحيةً للوصول إلى الآمال والسعادة الشخصية ، في حين أنَّ معرفة النفس من الحالات الروحية التي تنبعث بسبب تصميم الشخص على توسعة شخصيته ، إنَّ عبادة النفس ترافق ضعفاً مفرطاً في الشخصية بينما معرفة النفس تلازم قوَّةً فائقة .

إنَّكم إذا صمَّتم على أن تمتنعوا عن تحميل إرادة الآخرين على أنفسكم فيما إذا كانت تخالف سلامتكم وقدرتكم ونفوذ كلمتكم ، فإنَّكم إذاً مَن قد تعرَّف على نفسه ورآها وأحبَّها .

ولكن ليس معنى كلامنا هذا أن لا تبدوا من أنفسكم أيَّ حساسية أو تأثر من ضعف الآخرين وتعاستهم وشقائهم ، وإنَّما نوصيكم أن تدَّخروا قواكم لمواقع اللزوم بدلاً من أن تصرفوها في مختلف الجهات غير الضرورية . إنَّ معرفة النفس لا تبعث على انعدام الاستعداد للتضحية بها بل تجعل ذلك وفقاً لقواعد معينة ، ويستعد الإنسان بل يشاق إلى إدخال السرور على قلب حبيبه أو الأخذ بأيدي المضطَّرين .

إنَّ من لا تكفي طاقاته لحفظ هدوء أعصابه في بحابح المشاكل ، عليه أن يتعد عن الضَّعفاء ويدخل في زمرة الأقوياء ، وإلاَّ فإنَّه سيشعر في نفسه بضعف ينشأ منه ضعف عنصره وقلة شجاعته . وهناك مقياس ساذج بسيط لقياس المستوى الصحيح من حبِّ النفس والتضحية بها ، وذلك عبارة عن السعي للعمل ، سواء لنفسه أو الآخرين .

لا ريب في أنَّ أفراد أمة لو حاولوا توسعة شخصياتهم ، لحظَّوا بتوازن في النشاط والفعاليات ، وعلى هذا فلا شيء أقرب إلى العدل من التريية

(١) غرر الحكم : ١٩٥ .

الروحية ، إنّ معرفة النفس هي التي تربّي في كيان الإنسان روحية التضحية والفداء ، بل الأخلاق بصورة عامّة تتوالد من التوازن الروحي «^(١)» .

إنّ الإسلام لا يعدّ حبّ النفس شعوراً محطّماً نابعاً من الشهوة ، بل يرى أن من يسلم زمام أموره بيد هذا الإحساس من دون تربيته له ، فإنّه يزلزل بذلك أساس سعادته ، وستكون له خاتمة مملّة .

إنّ الإسلام يرى حبّ النفس شريطة أن يكون على الصراط المستقيم بعيداً عن أيّ انحراف وضلال وغير مغلّ بحكم العقل ، جارياً في سبيل يضمن له في ظلاله سعادة الدنيا والآخرة بما لا يتصور أفضل منه . والمسلم الذي يدرك الحقيقة بفكر متفتح ورؤية واضحة لن يرضى أن يستبدل الدار الخالدة بهذه اللذائذ الفانية التي يشوب الإفادة منها أنواع الآلام . وليس مقتضى الحبّ الحقيقي للنفس أن يطأطأ رأس الذلّ والعبودية أمام الشهوات المحطّمة ، وبالتالي يتلى بالعذاب الأليم الخالد ، إنّ هذا ليس حبّاً مناسباً لمقام الإنسانية .

الحبّ الحقّ والودّ الخالد

إنّ الإسلام يبدأ بإفاضة المحبة الإلهية على أرواح الناس ونفوسهم ، ويعلمهم أن يفضلوا حبّ الربّ سبحانه على حبّ أي شيء أو أمر آخر ، ذلك هو الحبّ الذي هو العمود الفقريّ للحياة الحقيقية ، والله هو الواهب لجميع القوى والمزايا ، ومع الالتفات إلى عطفه ولطفه لا شيء ولا أحد أولى منه في مقام الألوهية لإعلان الإخلاص والحبّ له . وتتجلّى هذه الحقيقة لنا كاملة فيما إذا التفتنا إلى جميع مراتب الحبّ والودّ من الحبّ العارض غير الثابت حتى الحبّ الحقيقي والودّ الخالد .

وبعد حبّ الربّ جعل لأفراد المجتمع سهماً من الحبّ والعلاقة القلبية العميقة من بعضهم لبعض ، فالذين خلقهم الله « من نفس واحدة » ينبغي أن

(١) بالفارسية : قدرت إرادة : ٧٠ ، ٧١ .

يحبّ بعضهم بعضاً ، وينثروا عواطفهم وأحاسيسهم النزيهة على بعضهم البعض ، فإنّهم إخوة في أصل الخلقة وفي المصالح المشتركة والإسلام ينبّه إلى حقّ هذه الأخوة بحيث يهزّ الضمير والوجدان ، ويعرض لدفع البشر إلى هذه المحبة الصافية النزيهة بواعث وأشواقاً ، ولذلك أوجد في ضمير الإنسان حبّاً للذات متوازناً ومتناغماً ، ويبلغ به في تعاليمه إلى قاعدة ينطلق في ظلّها من قيود الغرور وعبادة الذات ، وبحيث لا يظهر فيه اتّجاه مفرط في حبه لذاته .

إنّ الكبرياء يختص بذات الله الذي لا يتطرق إليه الفقر والحاجة ، بل تحتاج إليه جميع الموجودات من جميع الجهات : ﴿ يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغنيّ الحميد ﴾^(١) .

وإن الإصابة بالنخوة والغرور إنّما هي انحراف عن البرامج الإلهية . والقرآن الكريم يلفت نظر المغرور إلى عجزه واحتقاره وبذلك يهبط بروح النخوة فيه من قمة الخيالات الواهية إلى الهاوية فيقول : ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ، إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴾^(٢) .

إنّ من لا ينصرف عن النظر إلى المبدأ الأعلى للوجود لا تسيطر عليه في مواقع الرفاهية والنعمة حالة الإغترار ؛ إذ أنّ الإسلام يدعو إلى التواضع والاعتدال ، ولا يحبّ الكبر والاستعلاء :

﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾^(٣) .

الشعور بالتفوّق الخاص

إنّ الشعور بالرفعة في المسلم لا يرتبط بتوقيفه في الحياة الدنيا ومستوى

(١) سورة آل عمران : الآية ١٥ .

(٢) سورة الإسراء : الآية ٣٧ .

(٣) سورة لقمان : ١٧ .

عدد ساعات راحته وهنائه ، بل هو يشعر بالرفعة والفضيلة منذ أن يستقر الإيمان في كانون قلبه منذ اللحظة الأولى منه ، وإنّ القيم البشرية الخداعة والكاذبة لا تضعضع منه شيئاً ، فهو متنبه إلى واقع الحياة وحقيقتها ، وروحه المتحررة وذات البصيرة قد أوجدت فيه توازناً يستطيع به أن يعرج بنفسه من المستوى الماديّ الرديّ إلى قمة الرفعة ، وأن لا يستغرق في المتع الأرضية للإفادة من عالم المادّة .

ولا يمكن للقيم الكاذبة أن تسيطر على روحه ومدرّكاته من القيم الإلهية ، فإنّ هذه القيم الكاذبة أصغر وأحقّر من أن تبعثه على الاستعلاء والتكبر ، وكذلك ليس هو ذليلاً خاضعاً عاجزاً ، فهو يجتنب كل خضوع مذلّ له تنزّل شخصيّته لدى غيره ، وإنّما هو خاضع أمام ذات الكبرياء المقدسة ، وهو في سائر حالاته قوي مقتدر ثابت .

والله تعالى يوصي أهل الإيمان أن يحتفظوا بهذه المزيّة الإيمانية الخاصة في جميع المواقع وكلّ المراحل : ﴿ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (١) .

والقرآن الكريم يذكرهم بهذه الرفعة حينما أصابتهم النكسة في حرب أحد وانتصر عليهم أعداؤهم من مشركي قريش ، ذلك أنّ هذه الرفعة نابعة من الإيمان بالله والإرتباط بمبدأ الوجود ، وهذا هو الذي جعلهم قوّة نشطة ، وليست هي رفعة ناشئة من انتصارهم على أعدائهم كي يفقدوها .

إنّهم كانوا يفوقون سواهم لاعتقادهم بأنّ الإيمان بالله هو من أهمّ المميّزات للإنسان وهو رأسماله للدارين ، وبفعل النشاط الإيماني كانوا يشعرون بإنطلاقيهم من كل حصار محيط بهم ، وكان هذا الشعور نابعاً من هداية القرآن الكريم وسنة النبي العظيم .

إنّ الغرور والرضا عن النفس يسدّ سبيل الرقيّ والكمال ويمنع من التقدم في الحياة ، وإن رضا المغرور عن أعماله يسبّب له الركود والجمود والتأخر بل

(١) سورة آل عمران : ١٣٩ .

التقهقر ، كما أنّ عدم الرضا عن النفس مع همّة متعالية يبعث على الرقيّ والتكامل المتصاعد في الحياة .

وقد بينّ أمير المؤمنين علي (عليه السلام) هذه النقطة المهمة في جملٍ قصيرة إذ قال :

« الإعجاب يمنع الإزدياد »^(١) .

« ومن أنف عن عمله اضطرّه ذلك إلى عمل خير منه »^(٢) .

« ومن أعجب بحسن حالته قصرّ عن تحسين حليته »^(٣) .

وكتب الباحث المعروف (ويليام جون ريلي) يقول :

إنّي قد توصّلت إلى هذه النتيجة : وهي أنّ هناك في غيّ أفكار ضارّة تبعث على الألم والحزن أكثر من آراء الآخرين ، تلك هي الأفكار التي ترتبط بنفسني . والآن كيف أمثل لهذا الموضوع ؟ حسنٌ ، اسمحوا لي أن أنقل لكم رأيي بشأن صوتي : الشيء الوحيد الذي كنت مطمئناً بأنّي أمتلكه هو صوت جميل .

وقد كنت ألقيت عدّة خطابات في اجتماعات كثيرة ، وحتى أنّي كنت في الثامنة عشر من عمري عندما حصلت على مدالية ذهبية جائزة على حسن خطابي ، ولذلك كنت أعتقد أنّ صوتي جميل الإيقاع منظم طيّب النغمة .

حتى أخذت يوماً شريط مسجّل الصوت الذي كنت قد سجّلت فيه حديثاً للراديو ، واستمعت إليه تماماً كما يستمع إليه الآخرون ، وكانت هذه هي المرة الأولى التي أستمع فيها إلى صوتي كمستمع . لا أراكم الله مكروهاً ! بهت واضطربت ، كان صوتي أضعف ممّا كنت أعتقد ، كان كحنين خفيف ، غير

(١) نهج البلاغة

(٢) غرر الحكم : ٦٦٨ .

(٣) غرر الحكم : ٦٧٨ .

مرتّب ولا متناسب ، لا لون له ولا طعم ، بل كان يجرح الآذان . والذي كان يضاعف ألمي هو أنّه كان معي في الغرفة إذ كنت أستمع إلى صوتي عدد آخرون ، فتألّمت كثيراً وقدمت اعتذاراً إلى هؤلاء الحضور بأنّي كنت في حين إلقائي هذا الخطاب غير مرتاح ، وحينما سجّلوا صوتي هذا لم أكن أعرف شيئاً عن فن الراديو والمسجّل .

ومرة أخرى ومن دون سابق إطلاع أذاعوا شرائط صوتية أخرى مسجّلة مني بنفس الصوت الكريه الذي كان يُقَطّع نياط القلوب . وبالتالي بعد سماعي لكثير من شرائط صوتي كان عليّ أن أتقبّل أنّي إذ كنت أرى أنّ صوتي جميل كنت على خطأ في ذلك . ولأول مرّة تركت الرضا عن النفس جانباً وجهدت كثيراً أن أحسّن صوتي ، ولا زلت أفعل ذلك .

هذه التجربة لصوتي علّمتني شيئاً ، وهو أنّه من الممكن أن يستلزم تحسين شيء من أنفسنا جدّاً طويلاً ، وما لم أتحمّل خِفة قبول هذا النقص فيّ لم أكن لأبدأ بالرقّيّ والتقدم في إصلاح نفسي .

إنّ كسر الغرور الباطل والرضا عن النفس يبلغ بالإنسان إلى رؤية الواقع والحقيقة ، ويبعث على التقدم والرقّيّ . حينما نلتفت إلى الحقائق وتبعد عن أنفسنا الأفكار الواهية ، حينذاك يتحقق عمل الإصلاح والتقدم فيه ، وإلّا فسنبقى في الجهل والظلام ونعوق أنفسنا التي نجّيتها عن الرقيّ والإصلاح»^(١) .

إنّ المغترّ بنفسه يصاب بخلل في رؤيته ولذلك فهو قد ينسب إلى نفسه كمالاً يفتقده هو في الواقع :

كما عن الصادق (عليه السلام) أنّه قال :

« من أعجب بنفسه وفعله فقد ضلّ عن نهج الرشيد وادّعى ما ليس فيه »^(٢) .

(١) بالفارسية : تفكر صحيح : ٥٠ - ٥٣ .

(٢) سفينة البحار ٢ : ١٦١ .

إنّ المغرور الذي يعبد هوى نفسه يكون كدود القزّ محصوراً بين الخطوط
التي نسجها هو حول نفسه ، فهو سكران من خمر الكبر والغرور بحيث يتصور
أنّه قطب رحي الوجود .

كما في (غرر الحكم) عن علي (عليه السلام) قال :
« سكر الغفلة والغرور أبعد إفاقةً من سكر الخمر »^(١) .

(١) غرر الحكم : ٤٤٠ .

غرائب أمر الإرادة

- * نقاط التحول في رجال التاريخ .
- * آفة التوفيق ضعف الإرادة .
- * اليقظة في ظل المشاكل .
- * سعة الإمكانيات البشرية .
- * مقياس المسؤولية في نظر الإسلام .
- * المستند الثابت للإرادة .
- * الصرامة تخلق الانتصار .
- * تلقين النفس .

نقاط التحوّل في رجال التاريخ

هناك نوابغ لمعوا في أعماق الظلام من أدوار الحياة البشرية بحيث ثبتت أسماؤهم على صفحات التاريخ وفي سجل الفخار ، هؤلاء رجال التاريخ تمكّنوا بما فيهم من خصائص روحية أن يُحدثوا تحولات عظيمة في صعيد الحياة البشرية ، ويحيروا العالم بأعمالهم ، وكأنّهم حتى اليوم كشموع مشتعلة دائماً لا تنطفئ أبداً .

وقد تكون التحوّلات التي يحدثها كبار الرجال الذين يدخلون صعيد المجتمع من بابها الأوسع ، قد تكون هذه التحوّلات من السعة بحيث تشمل كل المجتمعات البشرية ، وتهزّ أفكار الإنسانية هزة شديدة . هذه الوجوه الوضّاءة اللامعة هي التي تبدّل صورة العالم في الحقيقة ، وهي التي تجرّ الطباع الضعيفة والعاجزة خلفها متأثرة بها ، وتمنحها ضوء الأمل الوضّاء .

وعلى العكس من هؤلاء هناك كثير آخرون لا فعالية لهم في الحياة إلّا في حدود قصيرة ، وتختتم حياة هؤلاء بحركات خفيفة ثم ينقطع حبل حياتهم وينتهي إلى الأبد ، وتنطفئ شمعة حياتهم الضعيفة الضئيلة في ظلام مطلق مطبق .

علينا أن نبحث عن علل اختلاف هذين النمطين من الشخصية في روحياتهم ، فإنّ تباين الشخصية واختلافها ترتبط بسعة الروح أو ضيقها ومستوى القدرة الذاتية في أصحابها .

ولنرى ما هي علاقة الشخصيات بالحوادث ؟ هل الحوادث العالمية هي التي تربى الشخصيات في حجرها ؟ أو أنّ الشخصيات هي التي تخلق الحوادث ؟ والتجارب العلمية الاجتماعية تثبت : أنّ الفرد يؤثر في المجتمع والمجتمع يؤثر في الفرد أثراً متبادلاً ، كما أن المحيط يؤثر في الإنسان والإنسان يؤثر في المحيط ، ولذلك فلا يمكن دراسة الشخص خارجاً عن محيط حياته الاجتماعية ، وفي نفس الوقت ، هؤلاء هم أفراد الشخصيات التي تغير من وضع المحيط والمجتمع بما لهما من قدرة روحية .

إنّ العامل الأساس في جميع التحوّلات والثورات الاجتماعية هو « الإرادة » سواء كانت فردية أو اجتماعية ، إلّا أنّ قيمة الفرد أكثر ، ذلك أنّ القادة هم الذين يهدون طاقات أممهم نحو الأهداف المقصودة والسعيدة ، ويجرّون مصير المجتمع نحو مستقبل وضاء عظيم .

من أجل أن ننفذ أوامر العقل منحتنا أرواحنا قدرة باسم « الإرادة » وإنّ إرادة الإنسان هي نتيجة توازن بين محرّكات الدوافع الغريزية ، ونفوذ الدراية والعقل الإنساني .

إنّ العجز الناتج من ضعف الإرادة إنّما هو نتيجة الدوافع المضادة في باطن الإنسان ، وليس العجز عبارة عن فقد الشخص لقدرة التصميم بصورة كاملة ، بل هو قادر على الإقدام على أي عمل يراه ، ولكن لا قدرة له على أن ينقل نيّاته من مرحلة الذهن إلى الواقع الخارجي .

هناك أفراد كثيرون لا تنقصهم الطاقات المودعة فيهم ، وكذلك هم يتمتّعون بإمكانات واسعة في الحياة ، ولكنهم على الرغم من استعداداتهم وما لهم ولمواقعهم الخاصة من قيمة خاصة ، لا يبذلون من أنفسهم كفاءة لما هم بصدد . إنهم يطمحون إلى مستوى عال في الحياة ولكنهم يعوزهم التصميم على الصعود في مدارج الرقي والتقدم ، وكأنهم ينتظرون أن يتكفل لهم الآخرون بالأعمال الشاقة التي هي سبل الرقي والعلو . هؤلاء إن لم يبدأوا الحركة والنهضة

لتحقيق مطالبهم ، ولم يضحوا في سبيل ذلك ، فما الذي يمكنه أن يحقق
أماهم ؟ ! .

وربما تكون لهم أطروحات نافعة ومفيدة ، ولكن لا يعود إليهم شيء
منها ، وما أكثر ما يؤملون من هذه الأطروحات الكبيرة ولكنها لا تصل مرحلة
التنفيذ أبداً .

آفة التوفيق ضعف الإرادة

إن حياة الإنسان ستنتهي إلى النكسة والهزيمة في مختلف الشؤون بسبب
ضعف الإرادة ، وتعين التعاسة بهمود الإرادة وجهودها ، ولا يمكن لأي استعداد
أو نبوغ أن يحل محل الإرادة القوية ، وما فائدة أن يكون للإنسان مواهب
واستعدادات غير اعتيادية ثم لا يفيد منها في سبيل الوصول إلى مقاصده
وأهدافه ، وكذلك العلوم والمعارف لا تفيد إلا أن يوظفها حاملها بقوة إرادته في
سبيل الوصول إلى أهدافه ، لنفكر فيما لو كان الإنسان فاقداً للإرادة والعزيمة
ماذا كانت حالته ؟ وكيف كانت صورة هذه الكرة الترابية ؟ وكيف كان قانون
الرقى والتكامل ؟ .

بالدراسة التاريخية تتجلى هذه الحقيقة ، وهي أن كل الاكتشافات
والاختراعات البشرية مرهونة لإرادة رجال رفعوا الموانع والمشاكل من طريقهم
بعزم راسخ ثابت ، وبالتالي توصلوا إلى انتصارات لامعة ، وإن الشدائد
والمشاكل محكومة بالفناء أمام إرادة من لا يعرف الهزيمة بل النبوغ والعزيمة .

حينما أراد (نابليون) أن يعبر بجيشه الكثيف من مضيق (سن پُنارد)
الخطير ، شاور مشاوريه العسكريين وسألهم : هل ترون العبور من هذا المضيق
ممكناً ؟ وأخذ المشاورون يفكرون ولم يردوا جوابه إلا بترديد وتشكيك ، قالوا :

لعل من الممكن باحتمال ضعيف العبور من هذا المضيق ! .

وبعد أن سمع نابليون هذه الكلمات اتخذ تصميمًا صارمًا ، وأصدر أمراً

بالتقدم نحو المضيق بإرادة قوية حديدية ، ومن دون أن يتلف شيئاً من الوقت .

ورأى الإنجليز والسويد هذا القرار من الحاكم الفرنسي النافذ الكلمة نوعاً من الجنون ومجانبة التفكير ، فإنه لم يكن يُتصور أن يمكنه العبور بكل جهازه العسكريّ وستين ألف جندي مع المدافع الثقيلة وذلك عبر جبال (آلپ) الشاهقة ، ولكنّ ناپليون كان يفكر في حصار مدينة (ماسه ناد) في مقاطعة (ثرن) والقوات السويدية كانت تهدّد مدينة (نيس) .

وحينما توفّق ناپليون أن يعمل هذا العمل الخطير والعسير للغاية وأن يعبر بجيشه من جبال (آلپ) قال جماعة : إنّ ما أقدم عليه ناپليون لم يكن عملاً عسيراً ! وقال آخرون : أنّهم لو كانوا مقدمين على ذلك قبل ناپليون لكانوا يتوفّقون له كذلك قطعاً ! .

أجل ، إنّ كثيراً من القادة كانت لهم قوات واستعدادات تكفي لمثل هذا العمل المحير ، ولكنهم فقط كانوا يفتقدون « الإرادة » اللازمة لمثل هذا العمل ، فالقلق والاضطراب والشك والتردد فيهم كان يسبّب لهم أن يمتنعوا عن الجّد في الإقدام على هذا العمل والإفادة من الفرصة المناسبة ، فكان يسبّب لهم أن يتقهقروا بدل أن يتقدّموا . إنّ التصميم الصّارم والإقدام العاجل والسريع لناپليون جعل هذا القائد الفرنسي الكبير يصيب العالم بالعجب والحيرة بفتوحاته المحيرة للعقول ، وإنّ مقدار عمله اليوميّ كان يحير كل من كان يعرفه ويعرف عمله ، إنّه كان مقتدراً من أن يحمل أضعف الجنود على الحركة والنهوض ، وأن ينفث روح الشجاعة في أخوف الأفراد وأكثرهم احتياطاً وحفاظة ، وكان قد يتفق أن يسهر الليالي الباردة ليقراً التقارير الوافدة والأجوبة الصادرة على الرسائل الواردة ! .

ليس للسعادة والتوفيق قانون، خاص يكشفه أحد في الخفاء ، بل إنّ التوفيق هو النتيجة الطبيعية للسعي والمحاولات في سبيل الأعمال . وإنّما يتقدم في الصفوف الأولى في هذه الحياة ويتجاوزون الموانع والمشاكل رجال ذووا إرادة

قوية ، هم كالصقور يستمدّون من العواصف للتحليق إلى النقاط المرتفعة ،
بالنسبة إلى هؤلاء لا توجد أيّ مشكلة تورث الوهن في تصميمهم ، بل هم
يجعلون الانتكاسات قواعد للإنتصار ، أرواحهم تنمو في مضائق الشدائد ،
وبإمكانهم أن يجدوا لأنفسهم مجالاً في هذا العالم في أيّ مرحلة كانوا من
أعمارهم .

اليقظة في ظل المشاكل

إنّ بعض الناس لا يستيقظون ولا يلتفتون إلى أنفسهم ما لم يواجهوا
المشاكل ، والشجرة التي اضطرت أن تفتح طريقها بين الصخور تتحوّل إلى
شجرة قوية صلبة بفعل كفاحها المستمر ضدّ ما كان يعارضها من العوامل
المحيطة بها ، فهي تقاوم العواصف القاصفة وتقارعها .

يقول أحد علماء النفس :

يجب أن نعلم الشباب أنّهم ليس لهم أن يتوقّعوا طيّ الطريق للوصول إلى
أهدافهم وما يصبون إليه في طرق معبّدة مستقيمة ، فقلّما وصل شخصٌ إلى
بعض مراحل الكمال من دون اصطدام بالعراقيل المعوّقة . نحن إذا واجهنا
المشاكل بكيفيّة صحيحة لم تكن المشاكل تمنعنا وتعوقنا بل تساعدنا للرقى
والتقدم ، ولا تدريب أنفع من السعي لتجاوز المشاكل والعوائق .

* * *

لقد أثبت علماء النفس أنّ الأفراد العاديين لا يفيدون من أعمارهم أكثر من
نسبة خمس وثلاثين بالمئة ، وحتى أولئك الذين بلغوا مراحل من الفعالية والنشاط
ملفتة للنظر والذين تفتّحت بوجوههم أبواب السعادة والهناء ، إنّما يفيدون من
خمسين بالمئة من أعمارهم .

هناك بعض الناس إذا توصّلوا إلى مرحلة معيّنة من التقدم توقف نموهم

عن أكثر من ذلك ، ولا يستطيعون أن يوسّعوا في نشاطهم وفعالياتهم ، فيتجاوزوا تلك المرحلة التي هم فيها إلى مرحلة أعلى وأرقى وآفاق أبعد منها .

هؤلاء لا حظّ لهم في الحقيقة من المزايا التي هي أساس الارتفاع بالقيم الإنسانية إلّا قليلاً ، ولا قابلية لهم للتقدم إلّا في حدود معينة . إنّ إرادة الفرد وصلاحيته أكبر رأسمال للرفقّ والسموّ والتعالى ، وبإمكانه أن يفترقه أو يضيف إليه شيئاً فشيئاً .

إنّ أيّ إقدام يقوم به الإنسان إنّما هو نتيجة رأيّه وعزمه وإرادته ، فلو كانت هذه الأمور منه ضعيفة غير ذي أهمية لم يكن أيّ قيمة لذلك العمل ، إنّ ذوي الإرادة الضعيفة الواهنة حينما يتّخذون قراراً يصابون بالشك والترديد والتضعع بحيث يستعدّون ليغيّروا آراءهم وأطروحاتهم بأصغر عبارة ممكنة من جهة الناقدين . إنّ الرجل ذا الإرادة الواهنة المتحير بين وجوه الآراء ، يبدى بترديده أنّه لا يملك زمام نفسه ، وأنّه يجب أن يكون تابعاً لإرادة الآخرين دائماً ، وأن يكون كأوراق الأشجار يقودها الريح أينما شاء وأراد . وإنّ التريث والترديد يساوي النكسة والهزيمة في كثير من الأحيان .

إنّ من يُتلف أوقاته دائماً في جزئيات الأمور والتحقيق في مواضيع لا أهمية لها ، وإنّما يشتغل بتحليل مشاكله بدوافع مختلفة من دون أن يقدم على عمل نافع في هذا المجال ، لا شك في أنّه بتعلّله يتلف وقته وقواه ثم يبقى محروماً عن التوصل إلى توفيق في حلّ مشاكله .

ما أكثر الأوقات الثمينة والاستعدادات القيّمة التي انعدمت على أثر التعلّل والتردد الباطل وبلا داعي ، مما بدّل حياة صاحبه من حياة موفّقة إلى حياة نكسات وهزائم ، إذ لو كان الإنسان أسيراً لروحية ترددية عاطلة فبالاستناد إلى آية قوّة أو قدرة يستطيع أن يقاوم مشاكل حياته ؟ وتصوّروا عكس هذا أيضاً من لا تتغيّر آراؤه بسرعة ، بل هو ثابت في قراراته وراسخ ، ولا يتلف وقته بانتظار الحوادث المستقبلية بل بفضل إيمانه القوي بقدرته الشخصية لا يرفع يده عن

هدفه الصحيح بضوضاء المعارضين ، وليس لأي سبب أو عامل أن يردّه عن طريقه الذي رآه صحيحاً وسلّكه ، بل هو يردّ كل فكر وتصميم يخطر بباله يخالف فكره وتصميمه . إنّ من يواجه هكذا إنسان يستطيع أن يدرك جيّداً مستوى قدرته وإرادته وقيمة العمل الذي يتابعه هو في رأيه ونظره .

وبكلمة : فإنّه لا يمكن حصول التوفيق من دون صرامة وقاطعية في الإرادة ، بل إنّ الإيمان بالتوفيق هو بنفسه نوع من التوفيق ، والنصر لمن أراد النصر وعزم عليه .

رأينا كثيراً من الناس لا يتابعون أي عمل حتى الوصول إلى النتائج لعدم الجدّيّة والصرامة في الإرادة ، فمثلاً إذا اقتنعوا بمنافع عمل أو حرفة بادروا إلى ذلك العمل أو تلك الحرفة لمدة بكل اشتياق وعلاقة ، ولكن ما أن واجهوا فيه مشاكله ذهب كل اشتياقهم ورغبتهم ، وأصيبوا بفتور وبرودة كاسرة ، ثم بادروا إلى عمل آخر كان فيه التقدم والتوفيق لآخرين .

وهكذا هم يبقون في كل أعمارهم متزلزلين مردّدين يبدّلون أعمالهم كل فترة ، ولكنهم لا يوظفون أفكارهم وعقولهم والقوى المدركة والحاكمة فيهم في حين اختيارهم لتلك الأعمال كي يدركوا رمز موفّقية الآخرين في تلك الأمور ، وفجأة يلتفتون إلى أنّهم قد قضوا أعمارهم في تعلّم الأشغال المختلفة وتركها ، ولأنّهم لم يتمكّنوا من أن يقطعوا على قرار بصرامة فيتابعوه حتى المرحلة النهائية وأخذ النتائج المرجوة ، فإنّهم قد افتقدوا كل الفرص والمواقع المناسبة التي كانت لهم بندرة في طول حياتهم .

إنّ من المصائب التي تصيب ذا الإرادة الواهية هو أنّه دائماً يكون ألعبوبة بيد الأهواء ، فمن الممكن أن يشخّص الطريق الصحيح حقّاً ولكنه مع ذلك يختار الطريق المنحرف ، ذلك أنّه إنّما يسير في طريقه ما لم تحمله الأهواء على الإنصراف والعدول على الطريق الذي سلّكه ، أضف إلى ذلك أنّ مفاجأة أية حادثة صغيرة تكفي لتعجيزه وتركيعه .

إننا للمقاومة أمام ضغوط الأهواء المحطّمة بحاجة ماسّة إلى إرادة قويّة .
ثابتة ، والشرط الأساس لاستنتاج النتائج الصحيحة المحمودة من إرادتنا هو أن
تكون إرادتنا دائماً تابعة لأحكام عقولنا ، فإنّ هناك فواصل كثيرة بين الإرادة
العالية التي تستند إلى العقل والوجدان ، وبين الإرادة المستلهمة من الغرور
والنخوة والعواطف والأحاسيس والمشاعر الجياشة ، تلك الأولى رأسمال لسعادة
الإنسان وقاعدة لتوفيقه في الحياة ، وهذه الأخرى تسبّب له التعاسة والشقاء
والفناء والسقوط .

ذلك الذي يوظّف إرادته لارتكاب أعمال تخالف الشرف الإنساني ، وذلك
حبّاً لنفسه بل عبادة لها وإرضاء وإشباعاً لها ، ذلك محروم من الحرية في الحقيقة
أسير بيد الأهواء النفسانية ، ونرى نحن في صفحات تاريخ الإنسانية لطخات
دموية ونقاطاً سوداء هي من آثار الإرادة التائهة .

إنّ من يختار طريق الانتحار حينما يصطدم بأصغر مصيبة في الحياة مصابّ
بضعف العقل ، وهو فاقد لروح الرجولة والشجاعة ، ذلك أنّه سقط عاجزاً أمام
مشكلة واحدة من خضمّ مشاكل الحياة المحيطة بجميع شؤون الإنسان ، وهو
بذلك يوقع على سند ذلّه واحتقاره .

سعة الإمكانيات البشرية

على كل شيء في عالم الوجود أن يبدأ بسيره من خطّ نمّوه الخاصّ ، أخذاً
طريق الكمال ، حتى يصل إلى أعلى مراتب استعداده وقابليّته والإنسان لا يستثنى
من هذه القاعدة أيضاً .

وإنّ من المسائل الأساسية لنوع الإنسان هو أنّه كيف ينمّي ويربّي جوهره
وجوده في مختلف أدوار حياته كي يصل إلى أعلى درجات الكمال ، وإلى قمة
الإنسانية .

على الإنسان قبل كل شيء أن يطّلع على استعداداته وسعة إمكانياته

الموجودة فيه ، ويعلم أنه أولى من كل أحد بأن يمتلك بركات أكبر ما ملكه الله إياه ووهبه له في كيانه . وحينئذ يترسخ في وجوده اعتياده وثقته بنفسه ، والقوى المودعة في وجوده تستيقظ وتبدأ بالعمل ، تلك القوى المقتدرة اقتداراً عظيماً لتوسعة إمكانات الحياة والمستعدة للنمو والعلو إلى حد الكفاية .

إنَّ عدم ثقة أكثر الناس ليس من فقد الإمكانات ، بل هو من عدم معرفتهم بأنفسهم . كثيراً ما يتفق أن الأفراد يصلون إلى آراء ونظريات علمية نافعة ومفيدة ، ولكنهم لعدم ثقتهم بمواهبهم الذاتية واستعداداتهم ، لا يبدون تلك النظريات والآراء . إنَّ خوف النكسة هو نكسة وإنكسار ، وإنَّ عدم الثقة هذا كم أحبط من أفكار مبتكرة ، وكم دفن من آراء أصيلة وعميقة وابتكارات كبرى تحت غبار النسيان .

حينما يدرك الإنسان أن كل فعالية ونشاط يشتمل على قوة جديدة لم يكن - قبل أن يطلع عليها - يتصور أن يكون تحت تصرفه رأسمال كهذا ، إنَّ تجلّي هذا المعنى يسبّب أن يتعبّد الطريق له لتقدم ورقّي أكثر ، ويستعد الإنسان لتحصيل قوى أهمّ . فالذي يسعى للاستفادة من الحياة مهما أمكن وأن يحصل من كل فرصة على فائدة ، عليه أن يحصل في الدرجة الأولى الثقة بالنفس والإرادة الجادة ، ثم يأخذ في تربيتها وتقويتها .

يقول البروفيسور (كاريل) :

« لا يكفي لحفظ الحياة السعي للاحتفاظ بها فقط ، بل يجب أن نجعلها أبسط وأعمق وأكثر سعيًا ونشاطًا وشرفاً ، أي أن نضيف في الفعاليات البدنية والنفسية شدةً وكميّةً وكيفيةً . إنَّ ما نحتاجه من قوة وقدرة لا تشبه القوة الجسدية لرياضي أو القدرة الروحية لزاهد مُرتاض أو القدرة الفكرية لفيلسوف أو عالم . . بل إنَّ ما نطلبه من قوة وقدرة هو الإتّسع لتحملّ الأتعاب والتغيرات الجويّة والجوع والعطش والغموم والأحزان ، وبكلمة : أن تكون لنا إرادة وأمل وعمل ، وقوة جسدية ونفسية لا تنكسر ، وفرح يملأ نفوسنا .

أما كيف الحصول على هذه القدرات ؟ الطريقة الوحيدة إليها هو السعي اليوميّ الراتب والمعتدل ، بمعنى السعي غير الإرادي في جميع الأجهزة البدنية ، بالإضافة إلى السعي الإراديّ للفكر والإرادة . وعلينا أن نتعلم بالتدريب اليومي تدريجياً أننا كيف نقرّر النظام في حياتنا ؟ وكيف نتبع الأصول الموضوعية ؟ وكيف نمتلك نفوسنا أيضاً ؟ .

كذلك يجب أن نجد السيطرة على الغضب والعصبية والتألمات النفسية ، وعلى الجمود والحمود والهمود والكسل ، وعلى الغرور والأمنيات والأتعاب والآلام ، وذلك ببركة المحاولات الممتدة ، وإنّ هذا التدريب ضروري لكل مثقف متحضّر متمدّن ، ويكمن الخطأ الكبير في التعليم والتربية اليوم في تناسي هذا التدريب ، إذ لا يمكن توسعة قدرات الحياة إلّا بتقوية الإرادة فقط»^(١) .

إنّ بعض الناس لا يريدون أن يدفعوا الثمن العادل لحياة مشرقة وضّاءة ، هم دائماً يبحثون عن وسائل ساذجة وسريعة النتائج في نفس الوقت مهما كانت قليلة الكميّة والقيمة ، ويعرضون عمّا يمكن أن يصبح نقطة عطف إلى حياة فاخرة مشرقة ، بل هم يهربون من المسؤوليات التي لها الدور الأساسي في تهذيب نفوسهم وتطهير أرواحهم ، وتنمية أفكارهم ، وفي تمهيد صعيد الموفقية لهم .

ولا ريب أن من يربّي نفسه لتقبّل مختلف المسؤوليات يصبح أسرع وأنشط حركةً ، وإنّ مقامه وموقعه في المجتمع سيكون أفضل وأقدم ممّن جعل حياته حول محور المسؤوليات الصغيرة ، فإنّ بإمكان الأول أن يخلق في فضاء أوسع فيطوي مدارج الرقيّ والكمال واحدة بعد الأخرى .

مهما كان الإنسان ذا همّة عالية كانت له قوى تبّلغه هدفه ، نعم على مدى ثقته بنفسه وهدفه وبنسبة سعيه وفعاليته ونشاطه ، وبمقدار محاولاته وإقدامه نحوه ، وبكلمة : فإنّ علينا أن نبحث عن سرّ تفوّق الإنسان على الشدائد والمشاكل والعراقيل في هذا الموضوع بالذات .

(١) بالفارسية : راه ورسم زندگي : ٨٧ .

لا يكفي معرفة الخير والشر وإدراك الفضائل والسيئات لنيل السعادة والهناء ، بل إن ما له تمام الأهمية هو الحصول على قوة العمل في الحياة .

من الممكن أن يعرف الفرد الخير والشر تماماً ، ويرى نفسه مسؤولاً عما يحيط به من وظائف وتكاليف ، ويشعر بضرورة القيام بأعمالها ، ولكنه يفتقد القدرة على أداء التكليف واتخاذ القرار الضروري لتنفيذ نواياه في الحياة .

إنّ التكليف الأصلي لكل أحد أن يراقب سلوكه بصورة دائمة ومستمرة ، فيدعم القوى المثمرة في وجوده ويتقي العوامل السلبية التي تحطم القوى الإيجابية فيه ، حتى يصبح من عادته - الثانوية - أن يستند إلى إرادته عند الضرورة ، فالإرادة الثابتة هي التي تقدر على أن تدعم خطواتنا وتحفظنا عن الزلّة والسقوط في اللحظات الحساسة من الحياة في حين اتخاذ القرارات ، في ذلك الوقت الذي يمكن لأقل ضعف أو تهاون أن يُصيبنا بأخطار كبيرة .

لا ينبغي للإنسان أن يبدأ بعمله من دون النظر في عواقب العمل والإيمان في جوانبه وإلاّ كان كقائد سفينة في البحر بلا بوصلة جغرافية ، ومن الخطأ قيادة سفينة الحياة بلا بوصلة هداية ، إذ عليه أن يعلم إلى أين يتّجه ويتقدم وما هي نتائج عمله وإقدامه ؟ .

مقياس المسؤولية في الإسلام

«الإرادة» هي مقياس المسؤولية ومحور أمور البشر في نظر الإسلام ، وهو الحدّ الذي يفصل بين الإنسان وسائر أنواع الحيوان ، والوسيلة الوحيدة للحدّ من إفراط الأهواء النفسية هي الإرادة ، فيها يمكن للإنسان أن يقاوم أمام دوافعها المختلفة ، وأن يسوق طاقاته بالاتّجاه الذي يرى الصلاح فيه . وبكلمة : فهو حُرّ في أن يتسلّط على النفس الطاغية فيحصل على كماله الواقعي ، أو أن يدخل في عالم الحيوانات فيتمتّع في مرتع الأهواء تماماً كالحيوانات المطلقة وبلا نظام .

وإذ جعل الإسلام عامل الإرادة مقياساً وملاكاً لامتياز الإنسان عن سائر أنواع الحيوان ، فإنه لم يتجه ذلك اتّجهاً جزافاً ، فليس معنى الإنسانية سوى ذلك ، وأمّا الأفراد غير ذوي الإرادة فليسوا من الإنسانية في شيء ! .

إنّ الإسلام لا يغفل عن حقيقة الطبيعة البشرية وعن أنواع القوى المركّبة فيه ، وهو فيما طلب منه من تكاليف ينظر إلى قدرته على التسامي وإمكاناته لأداء تلك التكاليف ، ببصيرة خاصة وبصورة دقيقة ، فهو يدعو الإنسان بما له من أجهزة إلى أن يتسامى على المستوى الحيواني في ظلّ إرادته ، ويطلب منه أن يبلغ نفسه إلى الحدّ الممكن له من الكمال بما له من قوى واستعدادات . فالذي يفتقد أصل مقياس الامتياز الإنساني فيسلم زمام أموره بيد الأهواء الباطنية المخربة ، يحطّم بذلك قواه أو يخلّ بها وبفكرته بالخصوص ، وبالنتيجة فهو يبقى عاجزاً عن تأمين أهدافه الواقعية في الحياة .

إنّ رياضة الرّوح تبدو شائكة في بداية الأمر ، إلّا أنّ الإشكال في الأمر سيرتفع تدريجياً مع تدريب النفس عليه ، وسينفتح الطريق لأداء مختلف التكاليف أمامه . إنّ الإرادة التي تضمن للإنسان الرقيّ في الحياة وهي وسيلة للسموّ والتقدم إلى الأمام ، حينما تُصرف في سبيل الإخلاص والفداء والتضحية وكل شعور وإحساس لطيف وسلوك مهذب ، كانت ملاكاً لعظمة الإنسان ، وإذا بدأ الإنسان أعماله في أيّ ساحة في الحياة بهذه الروحية كانت لها نتائج عجيبة ، وسيخلّد في صفحات لامعة من العظمة في كتاب حياته بما فيه من صفحات كثيرة .

إنّ أفراد المجتمع بفضل برامج الإسلام التهذيبية ، تنبعث في ضمائرهم دوافع تحملهم على أن يستمدّوا من إرادتهم في سبيل الوصول إلى الأهداف السامية في الحياة . والإرادة من منظار علم النفس هي نتيجة ذلك الدافع الدّاتي الذي له جاذبية إيجابية أقوى .

يقول (مان) في كتابه في أصول علم النفس :

« إنَّ ما يُدعى بقوة الإرادة إنّما هو في نظر علماء النفس : ما يبيّن عن القدرة النسبية للدوافع الدّاتية ، وإنَّ اتّخاذ القرار في كل مورد نتيجة لتلك الدّوافع التي لها قوة إيجابية أكثر .

وبعبارة أخرى : أنّا نختار في كل مورد طريقة للعمل أكثر تجاوباً وإشباعاً للدوافع الدّاتية بالنظر إلى السوابق الفطرية والتجارب السالفة . فمثلاً : الجندي الياباني حينما ينكسر في الحرب ويرى أنّ المقاومة غير نافعة ، يواجه طريقين لحل المشكلة :

أحدهما : أن يستسلم للنكسة والهزيمة ويريح نفسه . إلّا أنّ تربيته منذ طفولته لم تكن كذلك بل كانت تعلّمه أنّه لو يستسلم فإنّ حرمة ذاته وشرفه ينثلم .

ثانيهما : أن ينتحر ، فيحصل على الشرف والحرمة الأبدية في الحياة بعد الموت كما وعدوه ، فيرجّح أن ينتحر . . أمّا نحن فحيث أنّ تربيتنا تختلف مع تربية الرجل الياباني لذلك لا نتمكّن من أن ندرك أسلوب تفكيره جيّداً والحقيقة هي أنّ كل أحد كان خاضعاً لنفس التربية اليابانية والعوامل والدوافع التي تدفعه ، لم يكن يعمل سوى ما عمل^(١) .

المستند الثابت للإرادة

في القيام بأيّ عمل تحتاج قوة الإرادة إلى مستند ثابت والمستند الثابت والقويّ للإرادة هو « الإيمان » إنّ الإرادة لازمة للإيمان والإيمان هو ملزوم الإرادة فالنسبة بينهما لازم وملزوم . ولو كان هناك من يؤمن بأمر ولكنّه لا يستمدّ من الإرادة لتحقيق مصاديق ما يؤمن به ولا يقوم بأيّ فعالية أو نشاط في ذلك ، فإنّه لا يصل إلى هدفه قطعاً ، فإنّ توفيق كل رجل رهنٌ بسعيه ونشاطه والقرآن

(١) بالفارسية : أصول روانشناسی : ١٤٥

الكريم يقول بهذا الشأن : ﴿ وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴾ (١) .

ومن جانب آخر لو كان الإنسان يتمتع بقوة الإرادة ولكنه غير مجهّز بسلاح الإيمان ، فإنه لا يدع السعي والعمل ما لم يصل في الحياة إلى الطريق المسدود ، أمّا إذا رأى أبواب العلل والعوامل الطبيعية موصدة بوجهه وواجه مشاكل لا تُحلّ انطفأت شعل الأمل والثقة في نفسه شيئاً فشيئاً .

في هذه الأحوال والأوضاع الشديدة والمنهكة للقوى لا شيء - سوى الإيمان بالقدرة والأزلية الإلهية - بإمكانه أن ينجّيه من الاضطراب والقلق وتشويش الخاطر ، إنّ المؤمن الذي يتوكّل على الله تعالى في أشدّ الظروف واللحظات وبما له من العزم الراسخ والإرادة الثابتة ، لن تنطفئ في نفسه شعل الأمل ، بل هو يستمدّ من عناية ربّه لحلّ مشاكله .

والله تعالى يأمر رسوله الكريم بالتوكّل عليه فيقول : ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ (٢) .

وإذا أدرك الإنسان هذه الحقيقة واعتقد بأنّه مهما عمل من عمل صالح فإنّه يستمدّ الفيض والمدد والدعم فيه من الله العليّ القدير الذي كلّ شيء بحكمه وأمره ، وتابع طريق الهدف بسعي مستمر ومتواصل ، لتوصّل بذلك إلى أصل التوفيق ؛ فإنّه بهذه الروحية يتغلّب في ميدان اختياره العملي على جميع الشدائد التي تقطع طريق التقدم على الآخرين ، بحيث كأنّ المشاكل مدارج لرقية وسموه وتعاليه ، فالخطر يزداد في جرأته على الإقدام ، والنكسات تضاعف في جهوده ومساعيه ومحاولاته ، فهو مهما واجه من مشاكل لا يعدل عمّا سلكه من سبيل ! .

وبدراسة التاريخ نصل إلى حقيقة هي : أننا على رأس الذين أعانوا

(١) سورة النجم : الآية ٣٨ .

(٢) سورة آل عمران : الآية ١٨ .

الإنسانية على السعادة والتقدم بعزم ثابت وهمّة عالية ، ولم يألوا جهداً في سبيل تقدم الأمم ورقّيها ، بل إنهم فتحوا طريقهم بين المشكلات والتعسّفات . . يجب أن نتعرف فيهم على أولياء الله وأصفيائه رجال التحرّر والفضائل . وإنّ الشهامة والمتابعة والإرادة غير المتزلزلة التي كانت هذه الفرقة تواصلها في سبيل إنقاذ الإنسان ، دروس سامية لأمّة لنوع الإنسانية عموماً ولا سيّما أتباع هؤلاء رجال الحق والحقيقة ؛ ولذلك نجد اليوم المجتمع البشريّ يقّدر سيّما زعماء الدين بعد كل ما راوه من معاصريهم من الألم والعذاب .

ونجد عليّاً (عليه السلام) - وهو النموذج الكامل للرجال الذين لا يهزمون في التاريخ - نجده يقول في إحدى كلماته القيّمة :

« والله لو تظاهرت العرب على قتالي لما وليت عنها »^(١) .

وفي (بحار الأنوار) عنه (عليه السلام) قال لهّام :

« يا هّام المؤمن نفسه أصلب من الصّلد »^(٢) .

وحينما استعد جيش الغدر في البصرة لحربه ، دفع الرّاية لابنه محمد ابن الحنفية ، وقوّى عزيمته بكلمات ضمّنها دروساً في الصّرامة فقال :

« تزول الجبال ولا تزُلْ ، عُصّ على ناجذك ، أعير الله جمجمتك ، تَدُ في الأرض قدمك ، إرم ببصرك أقصى القوم أو غُصّ ببصرك ، وأعلم بأنّ النّصر من عند الله سبحانه »^(٣) .

الصّرامة تخلق النّصر

من الممكن للتصميم والإرادة الصّارمة في الحوادث المهمة أن تغيّر مجرى

(١) نهج البلاغة : ٤١٨ ط الصالح .

(٢) بحار الأنوار ١٥ : ٩٤ .

(٣) نهج البلاغة ١ : ٥٥ ط الصالح ، الخطبة ١١ .

الحوادث فجأة ومن حيث لا يحتسب ، وأن تدفع الناس إلى حركة ونشاط غربيين ، إن صرامة هؤلاء الرجال في تقدّمهم نحو أهدافهم تذيب جبال المشاكل في طريقهم ، وكأنهم قد أودعت فيهم قطع من الحديد والفولاذ ، وكأنّ نجدتهم وسرعة إقدامهم تنقذهم من الأزمات الخطيرة جدّاً ، بينما كان من الممكن أن يكون أقلّ تأمل وترديد يؤدّي بهم وبمن معهم إلى الهلاك والدمار .

في فتح الأندلس من بلاد إسبانيا كانت القيادة العامة للقوات الإسلامية لجهة إفريقيا - مع « موسى بن نصير » فوجّه جيشاً صغيراً مع مولاه « طارق بن زياد » لفتح الأندلس من إسبانيا ، فلما وصل طارق مع قواته القليلة إلى المحل الموعود وفتش عن مواضع العدو وأوضاعهم وأحوالهم فرأى الوضع مناسباً للهجوم عليهم ، وفكر أنّه لو أراد أن يبلغ ذلك إلى مولاه موسى بن نصير وينتظر أمره ربّما ينتبه العدو للشرّ ويستعد للمواجهة ، ولذلك صمّم على الهجوم .

ومن أجل قطع أعين جنوده عن الرجوع أمر أن يحرقوا جميع سفنهم التي عبروا بها ، فلما احترقت انعدم أمل العودة فيهم ، وحينما اعترض عليه بعضهم قال في جوابهم : ليس المسلم طيراً يأوي إلى وكرة ! ثم قام في سفح الجبل المعروف اليوم باسمه « جبل الطارق » وألقى خطاباً نارياً أمام أمواج البحر العاتية فقال ما فحواه : « هذا البحر خلفكم وجيش العدو أمامكم ، وقد امتلأت خزائنهم من السلاح والعتاد والدّخيرة والطعام ، وأنتم لا شيء لكم ، إلّا ما استخلصتموه من أيديهم بعزائمكم ، وليس لكم سلاح سوى سيوفكم ، فها أنتم وهذا العدو » .

وقد منحت هذه الكلمات الهائجة والخطابة الملهبة لطارق ، منحت جنوده عزيمة صارمة وشهامة خاصة للجلاد ، ثم بدأوا الصولة الثقيلة ولم يقعدوا دون الانتصار الحاسم النهائي ! .

تلقيّن النفس

إنّ تلقيّن النفس من عوامل دعم الإرادة للوصول إلى المقاصد ، وإنّ حمل
الآمال العالية ومدّ العين إلى الآفاق المشرقة في الحياة ، يبعث على أن يبدأ
الإنسان سعياً حثيثاً بإرادة جادة للوصول إلى تلك الأهداف .

وفي (غرر الحكم) عن علي (عليه السلام) قال :
« تنافسوا في الأخلاق الرّغبية والأحلام العظيمة والأخطار الجليلة
يَعْظُم لكم الجزاء »^(١) .

ويقول (جاكو) :

« ما دمت لا تتصوّرون انتصاركم ولا تستوعبون النصر لكم ، فإنّ احتمال
توفيقكم قليل جدّاً ، فإنّكم بهذه الحالة تطفثون ما كان يمكن أن يكون لكم من
الجدارة واللياقة . وبالعكس ، فلو كان الرجل في المتوسّط من حيث الفكر
والاستعداد ولكن له الثقة التامة بنفسه ، فإنّه يتوفّق . إنّهُ يتوفّق لأنّه في بحثه
ومساعيه لتحقيق أفكاره يجد المنبع الصافي للصفات التي هو بحاجة إليها ،
ويتوفّق للثقة التي له بتقدّمه ورقبّه ، ولا يبعث عدم التوفيق للآخرين أيّ وهن
في إرادته الجادة ، إنّهُ يبدأ بعمله حسب تجاربه ، وثقوا بتوفيقه أسرع وأفضل ممّا
كان يتصوّر .

من أجل أن تتجرّأوا أبعدوا عنكم الشكّ والترديد ، ولعلّ الآخرين
يحاولون أن يشكّكوا فيكم وفي إمكاناتكم عن محبة بكم واحتياط عليكم ،
ولكنّكم ألا تشكّون في صحّة ما يقول أولئك ، وهل تسمحون لكل أحد أن
يلقّنكم ما يشاء وكيف يشاء ؟ .

اسمعوا ما يقول لكم الآخرون بكل يقظة وحذر ، واستمروا في جرأة
وثبات واستقرار ، انظروا إلى من يتّصف بهذه الصفة وادرسوه وحلّلوا حياته

(١) غرر الحكم : ٣٥٥ .

وحاولوا تقليده ، ولقنوا أنفسكم كل ليلة وباتوا في عالم من الخيال وكأنكم من الأبطال الشجعان ، وكلما سنحت لكم فرصة حاولوا أن تبدووا من أنفسكم جرأة وجسارة ، واتخذوا عملاً يستوجب اتخاذ قرارات وتصميمات ، وحينما يحاولون أن تمتحنوا أنفسكم تذكروا « أنكم تريدون وتقدرتون » وإذا تقرّر أن تتخذوا قراراً على عمل تعرفون ما فيه من مشاكل فقولوا في أنفسكم أنكم ستتعودون عليها»^(١) .

كما أنّ الطيرة بالشرّ - في علم النفس - نوع من التلقين المؤلم الموجب لتشويش الفكر وقلق الخاطر ، كذلك الفأل بالخير تلقين يفيد دعم المعنويات وجبر ما في الإرادة من ثلّة ، كما في (غرر الحكم) عن علي (عليه السلام) قال :

« تفأل بالخير تنجح »^(٢) .

(١) بالفارسية : تلقين بنفس : ٢١٢ - ٢١٣ .

(٢) غرر الحكم : ٣٦٧ .

العناية بمعاشرة الآخرين

- ✳ سلامة النفس في معاشرة الآخرين .
- ✳ علينا أن نعرف قيمة الصداقة .
- ✳ الحساسية ورهافة الشعور .
- ✳ تحذير لمن يصادق المتلوثين ! .
- ✳ إرشاد المتلوثين .
- ✳ الحيلة والحذر في الصداقة .
- ✳ الرياء والمراء .
- ✳ الوحدة والإنزواء .
- ✳ الكتاب من أئمن الأحباب .

فمثلاً حينما تصقّف امرأة بائعة شعرها مثل (گريو) فليس ذلك لأنّ هناك قوة فيها بإسم التقليد تبعثها على ذلك ؛ بل هي تبادر إلى ذلك لأنّها ترى هذا العمل طريقاً للوصول إلى طريقة حياة (گريو) أو سائر النساء القهرمانات التي تمثّلهن گريو^(١) .

وإنّ كانت ملاحظة موضوع المعاشرة ضروريةً في جميع أدوار الحياة ، إلّا أنّها تتمتّع بأهميّة أكبر للشباب الذي قد طوى طور الطفولة ودخل في رحاب الحياة الجادّة والمعاشرات الاجتماعية فإنّه بدلاً من أن يتعرّف على أخلاق ونفسيات من يريد أن يخطو معهم في طرق الحياة ، يفتح على نفسه أبواب الصداقة مع الآخرين بشوق شديد وميل أكيد وعلى أساس العوامل العاطفية والدوافع الزائفة الزائلة ، قبل أن يطّلع على صلاحيّتهم وأسلوب تفكيرهم ، وقلة الالتفات هذا إلى المصلحة العقلية من الممكن أن تصد الشاب عن الطريق القويم في الحياة وتجرّه إلى وادي الفساد والضلال ، ولهذا فلا ينبغي أن نغضّ النظر عن ميوله وأنّجهااته الطبيعية في تكثير الروابط والاتّصالات بأقرانه ، فنقصّر عن هدايته وإرشاده بصورة منطقية بليغة طيّبة تريد له الخير ، كي يبقى في صيانة عن أيّ تأثير غير ميمون من قبل العناصر غير الصالحة وبعيداً عن أيّ تحريف تربوية .

في هذه المرحلة التي هي سنيّ قلقه واضطرابه ، تتجه شخصيّته نحو الاستقلال ، وحبّه للأبطال والقهرمانات تحكي عن حاجته إلى الإرشاد والهداية وأنّه بصدد تقليد أولئك الأبطال واستلھامهم لحياته ، كما أنّ ما يستولي عليه من حالة الوسواس والتردد إنّما ينشأ عن نقص في قواه الفكرية في معرفة الأمور وعن سعيه للوصول إلى الاستقلال الفكري .

وبالنظر إلى أنّ الشباب في دور الهيجان والاتّجاهات ، وأن قلبه مستعد لتقبّل أن تصميم بكل صفاء وبلا كدورة ، يمكننا أن ندرك جيّداً ما للصديق في هذه المرحلة الحسّاسة من الدور الكبير في تعليمه وتربية القوى النفسية والعاطفية

(١) بالفارسية : روانشناسی اجتماعی : ٤٩٤ .

فيه ، ولذلك فإن وقايته من كثير من الانحرافات والنكسات والهزائم تستلزم أن يتعرف الشباب على أصول الصداقة المثمرة والصحيحة ، وأن ينقاد لقيادة صالحة باتجاه تنمية حقيقية لشخصيته .

علينا أن نعرف قيمة الصداقة

علينا أن نوظف في اختيار الصديق حسن التشخيص بحرية كاملة عن أسر العواطف ، ونسعى في الحصول على مقاييس للتقييم الواقعي ، ونتعرف على نقاط ضعفه ونقصه ، ندرك أنه فيم يفكر وماذا يشعر ويحس ، ومما يتأذى ويتألم ، وبالتالي ندرك في أعماق روحه وزواياها تلك المزايا الإنسانية والمحبة ، مما يمكننا أن نقبّس من تلك المزايا والفضائل .

بإمكاننا أن نتعرف على كثير من المزايا الأخلاقية السامية في أشخاص لا يدلّ ظاهريهم عليها ، وعلى أثر المرافقة والصداقة المستمرة مع النفسيات الطاهرة والقيّمة ، تتغير صور شخصياتنا وأشكالها ، وتدخل قوانا الحيوية بذلك في مجاري جديدة وتجد لها صوراً أخرى جديدة أيضاً ، وتؤثر في أن تصبح إرادة الإنسان منشأ نشاط وخلاقية وابتكار . ومن جانب آخر فإن عدم الرعاية التامة وعدم الاعتناء بهذا الموضوع من أكبر المؤثرات التي يمكن أن يرتكبها أيّ إنسان فيحطم بذلك أساس سعادته .

يقول العالم الإنجليزي الشهير (آويوري) :

« من العجيب حقاً أننا إذا أردنا أن نشترى فرساً بحثنا بحثاً كثيراً عن نجابة نجاده وأساليب تدريبه ، ولكننا هل نعمل بهذه الدقة في انتقاء الأصدقاء ؟ أم ليس لأصدقائنا من الآثار في حياتنا ما للفرس ؟ ! »

قلت وأكرر القول بأن علينا أن نؤمن النظر في انتقاء الأصدقاء ، فإن أكثر مصائبنا تحدث نتيجة لمعاشرة غير صالحة . إن الإنسان حينما يخطو من مهده إلى معركة الحياة يتعرف في ميدان المجتمع على مختلف الطبقات ، وحسب

وبعد ذلك تساءلت : هل يحق لي واقعاً أن يكون لي مثل هذا التوقع والانتظار في زمن الحرب ؟ أو أن توقّعي هذا إنمّا ينشأ من حبّ الذات بصورة حمقاء ؟!

وفهمت فوراً أنّ هذا الانتظار توقّع في غير محله ، فبينما يكون أخوتي تحت وابل الرصاص والنار فإنّ ما يخصّهم مقدّم بالأولوية على أيّ شيء آخر .

وبمحض ما تبين لي الموضوع بهذه الصورة واقتنعت بأنّه لا ينبغي لي أن أتوقع ذلك ، لم أتألم بعد ذلك من تلك المقاعد الضالعة والمؤلمة بل قضيت مدة السفر بالقراءة في بعض كتبي والحديث مع سائر المسافرين وبكل سرور ، ولم يبد لي طول المسافة ، في حين أنّه لم يتبدّل أيّ شيء فلم يصبح المقعد وثيراً ولا قصرت مدة السفر .

إنّ الراضين عن أنفسهم غير الملتزمين بالحقائق قد يعقّبون من معاشرتهم مع الآخرين أهدافاً خاصة ، فيجعلون كل مناسباتهم واتّصالاتهم بالآخرين وسيلة لرفع حاجاتهم ، وهم دائماً يبحثون عن أصدقاء يعودون عليهم بالنفع الماديّ فقط ، في حين أنّ الصداقة يجب أن تكون مستقلة عن المقاصد الشخصية النفعيّة الضيّقة .

هؤلاء لا يعقدون المودّة مع من لهم نيات صادقة وأحاسيس طاهرة من دون أن تترتب على صداقتهم فوائد ماديّة ، ولذلك فإنّ علاقاتهم مع أصدقائهم إنّما تبقى ثابتة فيما إذا جلبت لهم نفعاً مادياً . أمّا إذا لم يتوصّلوا إلى أهدافهم المطلوبة لهم من خلال هذه الصداقة ورأوا أنّ تلك الصداقة لا تدور حول أقطاب أهدافهم ، فإنّ برودة أو فتوراً خاصّاً يخلف مكان العلاقة الحميمة السابقة ، بل يقطعون جبل نفاقهم القصير .

وحينما يكون التلوّث وعدم الثبات سائداً في جميع شؤون الحياة الاجتماعيّة ، فطبيعي أنّ هذا الستار سيُزاح عن وجه الحقيقة بالتدريج ، وسيواجهه الآخرون بعد تعرفهم على نفسيته كضيف متطفّل ، وسيدفعونه عن

أنفسهم كما يدفع الباعة المسكوكات المزورة عن أنفسهم .

يقول (أرسون) :

« نحن نعرف كما نحن كذلك في الواقع ، وقد يظن الناس أنهم يبدون فضائلهم أو رذائلهم بأعمالهم الظاهرة ، ولا يدرون أن الفضائل والرذائل تبدي نفسها كل حين في كل حركة وسكون تماماً كالنفس المتردد .

هناك انسجام خاص في أعمال كل إنسان مهما كان ومهما كانت بحيث أن كل عمل من أعماله طبيعي في وقته ومكانه ، والأعمال التي تصدر عن إرادة واحدة تكون متوافقة في الواقع فمهما كانت هي غير متماثلة في الظاهر لكنها إذا نظرنا إليها في عالم الفكر من مسافة بعيدة ومن موقف مُشرف ارتفع ما كان يبدو فيها من اختلاف وربط بينها رباط معنوي خاص . كما أن خط السير لأحسن سفينة يبدو خطأً معوجاً بمئات من الانحرافات ، ولكنها إذا نظر إليها من مسافة بعيدة بدت وكأنها مستقيمة تماماً »^(١) .

تحذير لمن يصادق المتلوثين

بإمكان الإنسان بصورة عامة أن يسلك أحد سبيلين ؛ أحدهما : أن يستسلم للقوى الطبيعية في جسده ويجعل روحه أسيرة بيد الأهواء والغرائز .
وثانيهما : أن يستجيب لنداء الروح وتمنياتها السماوية ويتجه اتجاهاتها العالية اتّجهاً عميقاً ، وبذلك يكون قد أدرك قيمة هذه الجوهرة الثمينة .

إنّ الإنسان بين تجاذب من قطبي الفضائل والرذائل دائماً ، وعليه أن يلتفت إلى ما عليه من رسالة عظيمة في هذا الاضطراب الروحي ، فيختار لنفسه ما هو جدير بالإنسان ، وأن يخطو في طرق هي أكثر طمأنينة للوصول إلى الأهداف الإنسانية السامية .

(١) بالفارسية : فلسفه اجتماعي : ٣١٣ .

وبشأن التقليد والمحاكاة أجرى علماء الاجتماع عدّة تجارب كانت نتائجها جاذبة للإنتباه محيرة للعقول : « في الربيع من عام ١٩٥٣ م عرضوا فئة قوامها مئة رجل من الذين تقدّموا لإحراز مناصب قيادية وإدارية ، عرضوهم لاختبار صلاحياتهم الروحية في كلية العلوم النفسية لجامعة كاليفورنيا لمدة ثلاثة أيام . واليوم الثالث كان قد عُيّن من قبل للتقدير الدقيق لمستوى تأثر شخصياتهم بعقول الآخرين ولا سيما العقل الجماعي ، فقسّموهم إلى فئتين كل فئة خمسون رجلاً ، فخمسون رجلاً يُختبرون وخمسون يشرفون عليهم ويشاهدون . ثم قسّموا فئة الاختبار إلى فئات ذوات خمسة أشخاص ، ثم جعلوا أمام كل واحد منهم جهازاً كان بإمكانهم أن يطلّعوا بوسيلة ذلك الجهاز على إجابات أصحابهم ، بينما كانت الإجابة التي تنعكس على صفحة ذلك الجهاز تتبع إرادة المختبرين لا الإجابات الواقعية لأصحابهم . وفي الواقع كان المختبرون يحدّعون الذين يختبرونهم من خلال إيجاد إجابات تمثّل أكثرية مصطنعة مختلقة ، وكان أولئك الذين هم في معرض الامتحان يظنون أنّ ما يرونه على صفحة الجهاز يمثل نظر أكثرية أصحابهم ، فكانوا غالباً يتابعون تلك الإجابات بصورة تلقائية عمياء ، كان تسع وسبعون بالمئة منهم يتابعون إجابة غير صحيحة وغير منطقية هي إجابة الأكثرية المختلقة في حلّ مسألة رياضية »^(١) .

إرشاد المتلوّثين

ينبغي ملاحظة أنّه لو كان الهدف من الارتباط بالمتلوّثين هو إرشادهم والأخذ بأيديهم من مهاوي السقوط والشقاء والتعاسة ، فذلك أمر محمود وممدوح ، والإسلام يدعو إلى أن يوفّر المسلم أسباب النجاة لمن تجاوزوا حدود الفضيلة والأخلاق من خلال الاتصال بهم وإرشادهم بما ينفعهم ويؤثّر فيهم .
طبيعي أنّ هذا العمل يجب أن ينفذ بأسلوب خاص ، فإنّه لا ينتج النقد

(١) بالفارسية : رازكرشمه ها : ٣٩ .

النتيجة المتوخاة إلا فيما إذا كان نقداً خفيفاً لطيفاً . نعم في كثير من الموارد لا يخلو هذا الأسلوب من الأثر المطلوب ، بل قد تكون له نتائج إيجابية باعثة على عملية تغييرية جذرية ، فمن الممكن أن الانتباه بتنبيه لطيف خفيف يؤدي إلى سعيه الخيث في سبيل اكتساب مقام الإنسانية والطهارة والفلاح ، وحيث يكون قد منحه الشرف الواقعي والمكانة الحقيقة وأدى حق الصداقة بأحسن الوجوه .

وقد روي عن الإمام الصادق (عليه السلام) أنه قال :
« من رأى أخاه على أمر يكرهه فلم يردعه عنه وهو يقدر عليه فقد خانته »^(١) .

وقديماً قالوا : النصيحة مُرة ، وهذه حقيقة ، ولذلك فعلى الناصح المشفق أن ينطق قولاً لئناً ، ويضع إصبعه على نقاط الضعف والتقصير الخلقي لمخاطبه بصورة مرضية ، ويفهمه بلسان الحب والحنان أن لا نهاية لما يسلكه من سبيل إلا الهلاك والشقاء ، ويسعى للحصول على اعتماد الصديق وإطمئنانه إلى نظرياته ، ويحاول أن يعمل كل ذلك بعيداً عن عيون الآخرين .

ومن الممكن أن ينصح الصديق الجاهل خليله بكيفية تنتج نتائج معكوسة ، بينما العاقل حتى ولو كان هو ملوثاً ما دامت نصائحه ممزوجة بالذكاء والفطنة والفن تكون ثمرة نافعة .

وفي (غرر الحكم) عن أمير المؤمنين علي (عليه السلام) ينبّه إلى نقطة مهمة فيقول :

« نُصْحُكَ بَيْنَ الْمَلَأِ تَقْرِيعٌ »^(٢) .

ويقول (دايل كارينجي) :

« إذا أردتم أن تثبتوا أمراً فاعملوا بلباقة ومهارة بحيث لا يفهم أحد ما هو

(١) بحار الأنوار ١٥ : ٥٢ ط قديم .

(٢) غرر الحكم : ٧٧٥ .

سأطمنن إلى توفيقى نوعاً مّا دون الحالة الأولى ، حينما يكتبون في الكلمات المعسولة أرى نفسي مجرداً أعزل بلا سلاح ولا صيانة أمام أعدائي وجهاً لوجه .

بل بصورة عامّة : كل شرّ ما لم يحطّمننا وينكبنا بنكبته فهو خيرٌ لنا . كما كان سكنة جزيرة ساندويج حينما يقتلون أعداءهم يظنّون أنّ قوّة أولئك القتل تحلّ في قاتليهم ، علينا نحن أن نعتقد أيضاً أنّ قوّة معاندينا ستتحول إلى نفوسنا في نهاية الأمر»^(١) .

إنّ من أضرّ الصّداقات صداقة الجاهلين والحمقى ؛ فإنّه يؤدّي إلى تأخّر الإنسان وربّما إلى شقائه وتعاسته ، وقد يكون الخطر والضرر الذي يصيب الإنسان من ناحية صديقه الأحقّ أكثر من الخطر الموجه إليه من قبل عدوّه ، فإنّ الصديق باعتباره مورد ثقة لا يستعد الإنسان للدفاع عن نفسه بالنسبة إليه ، فمن الممكن أن يفاجأ على حين غفلة ، ولا يستيقظ إلّا بعد أن انسدّ بوجهه طريق العودة ، في حين أنّ الإنسان أمام عدوّه يتخذ حالة الدفاع لمواجهة الخطر المحتمل ، ويكون على استعداد للمقابلة .

وقد تكون المعرفة الناقصة وإرادة الخير معها هي التي تجرّ الصديق إلى طرق مغلوبة ، ولكن - لقلّة المعرفة - ربّما يتفق أن يوصي باتّخاذ قرار يوجب المتاعب والإنكسار لأصدقائه جهلاً لا عمدأ .

وبالنظر إلى ذلك فإنّ المحبّة والوفاء في العلاقة والرابطة بين اثنين لا يكفيان لانتقاء الأصدقاء ، بل ينبغي أن نجعل علمنا بميزان عقولهم ومعارفهم في الدرجة الأولى من الأهميّة . ولذلك فإنّ أولئك الذين يبرأون من اجتذاب مودة البلهاء إليهم يُعدّون في عداد العقلاء المدبّرين .

وقد جاء في (غرر الحكم) عن علي (عليه السلام) قال :

« لا تصحبنّ من لا عقل له »^(٢) .

(١) بالفارسية : فلسفه اجتماعى : ٣٩١

(٢) غرر الحكم : ٨٠٠ .

وقد عرّفنا الإمام الباقر (عليه السلام) بالعناصر غير المرغوب فيهم الذين لا يستحقون الصداقة والمعاشرة ، ونبّهنا إلى النتائج الضارة لهذا ارتباطات لا معقولة فقال :

« لا تقارن ولا تواخ أربعة : الأحمق والبخيل والجبان والكذاب : أما الأحمق فإنه يريد أن ينفعك فيضرك ، وأما البخيل فإنه يأخذ منك ولا يعطيك ، وأما الجبان يهرب عنك وعن والديه ، وأما الكذاب فإنه يصدق ولا يصدق »^(١) .

إن الفكر الناقص وغير الناضج ، وعدم الالتفات إلى عواقب الأمور يؤدي بالإنسان إلى التلوّث وأخيراً إلى الشقاء والتعاسة ، وكثيراً ما رأينا أناساً ينعطفون انعطافاً ليئساً أمام دعوة أصدقائهم الحمقى الذين يحاولون أن يجعلوهم مثلهم ويشاركوهم في جرائمهم ، وباشتراك هؤلاء في مجالس المعاصي يلوّثون سعادتهم ويسقطون في حضيض الضلال .

ومن الممكن أن يدرك هؤلاء أنهم يُجرّون من قبل أصدقائهم إلى طرق خطيرة ولكنهم يخافون أن يُتهموا بالتعصّب وعدم الهمة ، ولردّ هذه التهمة عن أنفسهم يخضعون لتبعيتهم ويستسلمون لطلب أصدقائهم الفاسدين من دون أية مقاومة ، ويسرحون على صخرة الحياة والخنجل منهم وينحدرون إلى أعماق هوة الرذيلة وفساد الأخلاق .

وسيّأتي اليوم الذي يدركون فيه خطأهم في ذلك التقليد الأعمى بلا تعقّل ولا تدبّر ؛ ولكنّ يا للأسف - أنّ هذه اليقظة والانتباهة إنّما تتحقق بعد ما قد خلّف مراحل طويلة من عمره ، وأفسد حياته في سواد وظلام . وربما امتدت حالة الغفلة والغفوة لديهم حتى نهايات حياتهم ، وانتهت إلى الحسرة الأبديّة عليهم .

(١) بحار الأنوار ١٥ : ٥٢ ط قديم .

والقرآن الكريم يقول عن لسان المتحسر الضالّ يوم القيامة : ﴿ يا ويلتا ليتني لم أتخذ فلاناً خليلاً ﴾ (١) .

وأمر المؤمنين يعرفنا بجماعة ليسوا أهلاً للمعاشرة وينبغي الإحتراز عن الإرتباط بهم فيقول :

« لا تصحبنّ أبناء الدنيا فإنّك إن أقلت استقلوك ، وإن أكثرت حسدوك » (٢) .

وفي (غرر الحكم) عنه (عليه السلام) أيضاً قال :

« لا تصحب من يحفظ مساويك وينسى معاليك » (٣) .

وفيه عنه (عليه السلام) قال :

« لا تؤاخ من يستر مناقبك وينشر مثالبك » (٤) .

وفيه عنه (عليه السلام) أيضاً قال :

« لا تصحب المالتق فيزيّن لك فعله ، ويودّ أنّك مثله » (٥) .

وفيه عنه (عليه السلام) أيضاً قال :

« من لم يصحبك معيّنًا على نفسك فصحبته وبال عليك إن علمت » (٦) .

الحيطة والحذر في الصداقة

إنّ رعاية حدود الصداقة وموازينها والأخذ بجانب الحزم والاحتياط من منطق العقلاء ودأب المدبّرين ، والإفراط في الصداقة وتجاوز حدود الاعتدال فيها من الممكن أن يؤدي إلى نتائج تحتوي على الحسرة ، وتسبّب ندماً مؤلماً ؛ إذ أنّ أواصر الوحدة وحرارة المحبة لا تثبت في جميع الأحوال والأوضاع والظروف ،

(١) سورة الفرقان : الآية ٢٨ .

(٢) غرر الحكم : ٦٠٥ ، ٤٠٣ ، ٧٠٧ ، ٨١١ ، ٨٢٧ .

فلعلّ بعض الحوادث أو تصادم المصالح والمنافع تسبّب في ظهور الاختلاف في العلاقة بين الطرفين ، فيكدر صفو سماء المودة الصافية فيجعلها مظلمة سوداء قائمة .

ربّ حبّ بحرارة وشوق انجرّ إلى عدااء حادٍ وخشن وغضب وانتقام ، والصديق السابق بما له من اطلاع على نقاط ضعف صديقه وأسراره صدمه بضربات بلا رحمة ، في حين أنّه لم يكن وقوع هكذا اختلاف مؤلم في العلاقة بين الطرفين ممّا كان يمكن توقّع حدوثه .

بينما العلاقات المعقولة وفي حدّ الاعتدال غالباً ما تبقى ثابتة بالإضافة إلى عدم اشتغالها على أيّ خطر . وبالنظر إلى هذه الجوانب الظرفية نرى الإمام الصادق (عليه السلام) قد منع من الإفراط في مراتب المحبة والمودة في الصداقة إلى حدّ إفشاء الأسرار الخاصّة :

« لا يطلع صديقك من سرّك إلّا على ما لو أطلع عليه عدوك لم يضرّك ، فإنّ الصديق ربّما كان عدوّاً »^(١) .

ويقول أحد علماء الغرب :

« وإذا تجاوزنا هذه المرحلة يأتي دور موضوع كيفية العشرة والصداقة مع الأصدقاء ، هناك كثير من الناس لا يزالون مضطربين قلقين ، يفضون بأخصّ أسرارهم إلى أصدقائهم ، فما أن تنقطع أواصر الصداقة والمحبة حتى ينتهي الأمر إلى العدااء ، وبالسلاح الذي أعطى من قبل من أسرار صديقه يدمّره تدميراً .

ويخطئ آخرون من طريق آخر : فهم لا يألون جهداً في العدااء مع أعدائهم ، وبعد لأي من الزمن حينما تتفشّح سحب الغضب والكدر وتهمد نيران العدوان ، يحترقون بنار الألم والحسرة والحجل على ما قاموا به من عمل »^(٢) .

(١) وسائل الشيعة ٨ : ٥٠٢ ح ٦ عن مجالس الشيخ الطوسي .

(٢) أغوش خوشبختي : ٦٦ .

علينا أن نعمل هنا بكلمة الإمام علي (عليه السلام) المليئة بالحكمة إذ قال :

« أحب حبيبك هوناً ما عسى أن يكون بغيضك يوماً ما ، وأبغض بغيضك هوناً ما فعسى أن يكون حبيبك يوماً ما »^(١) .

الرّياء والمراء

لعلكم قد واجهتم في المجتمع أناساً يندمجون مع كل أحد ويتلقّونه بكل شوق وحرارة ، وإنّما هم يحاولون من خلال ذلك أن يلفتوا أنظار الناس إليهم ، وبذلك يرفعون من قيمتهم في المجتمع ، ومع أنّ قلوبهم تخلو من العاطفة والمحبة يخفون حقيقتهم تحت ستار من الحبّ والعاطفة ، ويتوسّلون بالملق وحسن الخلق المصطنع ويرون المراءة والمظاهرة بالقيم الواقعية وسيلة يتوصّلون بها إلى إقناع المجتمع على حسب المقتضيات الزّمنية . وهذه الظاهرة تشمل كلّ سلوكهم وأفعالهم وأعمالهم وأفكارهم ، وهم ينسون أنّ الفضائل النفسانية الإنسانية تفضل على نظرة الآخرين بالنسبة إلى الإنسان ألف مرة ، وليس الأوّل يساوي الأخير ولا يدخل معه في القياس أبداً .

وحيثما يرى الإنسان أن كلّ محاولات هذه الجماعة بدل أن تصرف في سبيل تلبية نداء الضمير والوجدان ، تصرف لإشباع أهوائهم النفسية ، حينذاك يدرك جيّداً كيف أنّ هؤلاء مصابون بغريزة المراءة لم يتخلّصوا منها .

إنّ نظرات الآخرين بالنسبة إلى الإنسان لا تصل من الأهمية إلى حيث يكون لها الأثر في سعادة الإنسان ، ويجب أن لا نفرط في تقييم نظرات الناس وأحاسيسهم ، بل أن نتوقف في تقييمها على حدّها المعقول ، ونتفهّم أن أصول السعادة متمكّنة في ضمير الإنسان نفسه ، لا في نظرات الآخرين ، وإلّا فلو

(١) وسائل الشيعة ٨ : ٥٠٢ .

اعتاد الإنسان على فكرة الاهتمام بآراء الآخرين ونظراتهم بالنسبة إليه لأصبح أسيراً بل عبداً لآرائهم ونظراتهم ، وفقد استقلاله وحرية نفسه .

ثم إن أحكام الناس بعضهم بالنسبة إلى البعض الآخر تستند في الأكثر إلى المنافع الشخصية المغرضة ، وتتغير على أساس اختلاف الظروف والمقتضيات الزمنية . ونحن إذا تذكرنا هذه النقطة المهمة أدركنا جيداً مقياس أحكام الناس بهذا الصدد .

وعلى هذا فلو اختار الإنسان في الحياة طريقاً صحيحاً لا يرتضيه الآخرون ، بل يجعلونه هدفاً لنقدهم الباطل بسبب انحازة ذلك النهج الموضوعي ، فلا ينبغي أن يصاب بألم ثقيل بفعل مقالاتهم الباطلة .

كما في (غرر الحكم) عن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال :

« لا يسوؤنك ما يقول الناس فيك ، فإنه إن كان كما يقولون كان ذنباً عجلت عقوبته ، وإن كان على خلاف ما قالوا كانت حسنة لم تعملها »^(١) .

ويقول (برتراند راسل) :

« إن الخوف من أفكار الآخرين - كسائر أقسام الخوف - يمنع من النمو والرقى ، فهو شاق عاق ، وما دام لهذا القبيل من الخوف فعالية فإن الحصول على أي عظمة أو تقدم اجتماعي صعب جداً ، بل محال في هذه الحالة أن يحصل للإنسان تحرر الفكر والروح والذي منه تنشأ السعادة الواقعية ، إذ أن الشرط اللازم للسعادة أن تكون طريقتنا في الحياة تبنى على دوافعنا الذاتية لا أن تكون منوطة مشروطة بالميل الزائفة للآخرين وسليقتهم »^(٢) .

وكتب الباحث الأمريكي (ويليام جون ريلي) بهذا الشأن يقول :

(١) غرر الحكم : ٨٢٠ .

(٢) بالفارسية : شاهراه خوشبختی : ١٥٩ .

« لا أحد أكثر خواءً وفراغاً وفقداناً للشخصية من أولئك الرجال الراضين عن أنفسهم بينما هم أناس مشككون مرددون لا على حرارة ولا برودة ولا على جفاف ولا بلل ، بل هم دائماً يفكرون فيما يقوله الآخرون بشأنهم ، ولذلك فهم دائماً بصدد أن يقوموا بأعمال يرتضيها الآخرون .

هؤلاء الأفراد يضخون في الحقيقة بشخصيتهم وإرادتهم فداءً لميول الآخرين . إنكم إذا سمحتم لأنفسكم أن تكونوا تحت نفوذ الآخرين وتأثيرهم فسوف لا تكون لكم الجرأة على القيام بأي عمل ، ولا توفقون لشيء ولا تحظون ولا تسعدون .

طبيعي أن ليس لهذا الكلام مفهوم يعني أن يغض الإنسان بصره عن الاقتراحات النافعة والمفيدة والمخلصة ولا يفيد منها ، بل ينبغي أن يتذكر الإنسان دائماً أن يتقبل تلك الاقتراحات التي يراها أكثر قيمة وفائدة ، والتي تبدو فيها حلول أكمل وأصح ، فيعمل بها ، فإنكم إن أنتم تابعتكم الأماني الخاصة للآخرين دخلتم بذلك إلى هرج ومرج في الشؤون الاجتماعية . فكونوا ثابتين على ما لكم من أفكار ترونها وتعتقدون بأنها مفيدة ونافعة ، وبذلك تكونوا على راحة واطمئنان وقوة معنوية واستقلال فكري .

إن متابعة أغراض الآخرين وقراراتهم تغير الميول الواقعية لكم وأفكاركم القيمة ، وتسلبكم حريتكم واستقلالكم الفردي وشخصيتكم وإرادتكم بتمام معنى الكلمة ، ولا تستطيعون أن تكونوا أنفسكم أبداً ، وإذا افتقدتم حريتكم الفكرية افتقدتم كل شيء .

إن العقل الجماعي والرأي العام والأوضاع والأحوال العامة متغيرة بل مختلفة إلى حد التناقض ، فكلمة ألحتم للحصول على موافقة الرأي العام لم تصلوا إلى نتيجة ملموسة ، وكلمة قللت من الإصرار على ذلك ولم تستسلموا لهم ولم تلتفتوا إليهم استسلم لكم الرأي العام . فمن طبيعة العالم أنه يثني على الرجل ذي الجرأة والشهامة على اتخاذ القرار ، والذي يتمتع بإرادة قوية حاسمة

صارمة»^(١) .

حالة الوحدة والإنزواء

إنَّ من علل الوحدة والإنزواء والإنزعاج من معاشرة الآخرين هو ظهور الشعور بظنِّ السوء في النفس البشرية ، ممَّا يسبِّب توقف النموِّ العاطفي والاجتماعي للإنسان ، وتبدُّل معه أحلام المعاشية السلمية إلى كابوس موحش مع إحساس بالعجز عن ذلك ، كما في (غرر الحكم) عن أمير المؤمنين علي (عليه السلام) أنَّه قال :

« من لم يُحسن ظنَّه استوحش من كلِّ أحد »^(٢) .

وكتب عالم النفس المعروف (شناختر) يقول :

« يجب كل أحد أن يختلط مع الآخرين ، ويأمل أن يكون بين المجتمع محبوباً سعيداً محظوظاً مُلفتاً للنظر ، ولكن حينما لا تقضى هذه الحاجة يُخيَّل إلى النفس أنَّ الفرار من الناس أسهل من المعاشية معهم . في حين أنَّ الحقيقة غير هذا ، فلو كان الفرار من المعاشية والمعاشرة يسكِّن الألم بصورة مؤقتة لم يكن ليقضي الحاجة الغريزية والميل الطبيعيِّ فينا ، فهو لا يعالج الداء .

وللإنزواء والفرار من الناس مراتب ودرجات قد تصل إلى حدٍّ أن يترك الشخص أصدقاءه وأسرته والعالم كله ويعترهم في ناحية خائبة خاسراً ، ولكن من حسن الحظَّ أنَّ أكثر الناس غير الاجتماعيين لا يصلون إلى هذه الدرجة من سوء الظن والتشاؤم والاعتزال .

كنت أعرف مهندساً ذا درجة عالية في الدراسة ، وهو أستاذ كامل في فنِّه ، ولكنه كان في المصنع مع العمَّال الذين هم تحت أمره في غاية الجفاء

(١) بالفارسية : تفكر صحيح : ١٢٢ .

(٢) غرر الحكم : ٧١٢ .

والخشونة ، كان يأكل وحده ولا يشارك الآخرين في أحاديثهم وأنسهم ، ولا ترسم على شفثيه ابتسامة أو مزاح ، ولا يسمح لأحد بالنقد . ونحن كُنّا نعلم أنه في قرارة نفسه متألم من وضعه هذا ، ويأمل أن يتمكن من أن يتحدث إلى الآخرين ويشاركهم في الطعام والضحك ، وأن يعاملهم كأصدقاء بل كإخوة ! .

وحينما حقق الأستاذ عالم النفس فيه وفي أحواله وأوضاعه ، علم أنّ هذا المهندس يشك - من حيث لا يشعر - في طاعة عمّاله له ، ويتصوّر أنّهم لا يرونه أهلاً لأن يكون رئيسهم ، وعليه أن يحمل نفسه عليهم بالشدة والخشونة»^(١) .

الكتاب ، صديق قيّم

ويمكننا اختيار صديق قيّم لنا عند وحدتنا ، ذلك هو « الكتاب » والتفكير في أمور تورث نموّ الفكر وتساميه ، من خلال الإمعان في آثار كبار الرجال الماضين ، نطلع من خلال ذلك على مستوى علومهم وقيمتهم الحقيقية ، ونفيد من تعاليمهم .

إنّ التقدم والرقىّ العجيب الذي قام به الإنسان في مختلف العلوم والفنون ليس نتيجة طفرة فجائية ، بل هو ناتج من تجاربه طيّ القرون المتتالية ، التي انتقلت إلى الأجيال التالية من خلال الكتب والرسائل ، مع أنّ شخصيات المفكرين قد اختفت في ظلمات التاريخ ، إلّا أنّ خلاصة أفكارهم وآثارهم بقيت محفوظة في حصار « الكتب » .

فأنتم بدراسة هذه الآثار كأنّكم تعبرون فواصل القرون وتتعرفون على تلك العناصر الكريمة التي لم يبق منها اليوم أعيانها ، ولكنكم بالبحث في زوايا آثارهم بإمكانكم أن تصلوا إلى حقائق ناصعة .

ومن مزايا مطالعة آثار العلماء هو أن كلّ أحد - سواء كان ثريّاً أو فقيراً -

(١) بالفارسية : رشد شخصيت : ١١١ .

بإمكانه أن يتمتع بمقابلة أولئك الشخصيات الكبار على السواء ، ويقضي فصولاً من أوقاته في مقابلة أولئك الأبطال الكبار ، وبكلمة : كل من حصل على شهادة القراءة بإمكانه أن يقابل هؤلاء . وبالمطالعة يمكن أن ننقذ أنفسنا من ألم الوحدة بكل سكون وراحة .

كما في (غرر الحكم) عن أمير المؤمنين علي (عليه السلام) قال :
« من تسلى بالكتب لم تفتته سلوة »^(١) .

وفيه عنه (عليه السلام) أيضاً قال :
« من خلا بالعلم لم توحشه خلوة »^(٢) .

ويقول أحد العلماء الأوربيين :

« إن الإنسان بمقتضى فطرته يهرب من الوحدة وينزعج من العزلة ، ويريد دائماً أن يختلط مع إخوانه وأحبائه ويعاشرهم ، كأنه ناقص في وجوده وكأنّ هناك خطأ أو خيوطاً لا ترى تربطه بالآخرين لا قرار له بدونهم . ولا شك أنّ الكتاب خير مؤنس وصاحب ، فإنّ صحبة الكتاب تذهب بنا من محيط الناس العاديين إلى عالم من الأفكار والتصورات العالية ، وتقابلنا بكبار مشاهير الرجال ومعارفهم .

بل لا صاحب ولا مؤنس لأيام الوحدة أفضل وأوفى من الكتاب ، فإنّ مصاحبة أبناء الزمان لا تخلو من أضرار من حيث محاولتهم لجرنّا معهم حيث ميولهم وأهوائهم ، وبالتالي فإنّهم يجروننا إلى وديان الفساد ، بينما الكتاب يعظنا كشيخ مجرب محنك ، وهو بكلماته الحكيمة يطرد نفوذ الأهواء عن نفوسنا » .

ويقول (تايلر) :

« إنّ الكتاب هادٍ للشباب يجرّهم نحو الفضائل والشرف ، فإنّ دور

(٢،١) غرر الحكم : ٦٣٦ .

الشباب مزيج من الغرور والهيجان . وهو للشيوخ تسليّة تحرّره من محنة التعاسة والشقاء ، فإنّ الشيخوخة دور الوحدة والوحشة في الحياة»^(١) .

وإنّ مطالعة تاريخ حياة العناصر التي أحدثت في العالم العمليات التغييرية النافعة فغيّروا مجريات بل مصائر البشر ، إنّ ذلك لا يخلو من أثر في تزكية النفس ، فإنّ من الممكن أن يكون ذلك يفيد الإنسان في معرفة حقيقة الحياة ، ويمنحه نماذج قيّمة من المزايا الروحية .

إنّ دراسة الحوادث التاريخية وأطوار سلوك الشخصيات الخالدة ، لو كانت ممّعة جاذبة تحدث في قارئها الشوق إلى المطالعة ، فذلك غالباً بسبب ما لها من ارتباط بأفكار القائمين بتلك الحوادث .

وكما أنّ من الممكن الإطلاع على السلوك الأخلاقي لكل أحد من خلال التعرّف على أحوال أحبائه ومصاحبيه ، فإنّ نوع الكتب التي يختارها كل أحد ويحبّها تمثّل قناة يمكن الإطلاع من خلالها على أسلوب تفكيره وعمق نفسه .

وكما أنّ علينا أن نكون متنبّهين في اختيار الأصدقاء للإبتعاد عن أخطار الإرتباطات والإتصالات غير المناسبة ، كذلك علينا أن نكون في اختيار الكتاب يقظين واعين ، فليس كل كتاب يليق للقراءة ولا لصرف الوقت عليه ، فكثير من هذه المطالعات لا تفيد شيئاً ، بل إنّ بعض الأفكار المسمومة المبتوثة في بعض الكتب بإمكانها أن تسمّم كثيراً من الأرواح والنفوس الطاهرة ، لا سيما الشباب والذين لم تستقرّ في نفوسهم الأسس والمباني الأخلاقية ، فنفسهم مستعدة لتقبّل أيّ تصميم أو هندسة ، هؤلاء يستسلمون لمحتويات الكتب بسرعة ومن خلال ذلك يُسحبون إلى السقوط في طرق الضلال والضياع .

ومن المؤسف أنه قد شاعت في عصرنا هذا تلك الكتب الخاوية الفارغة الضالة والمضلة ، والتي لا تخفي آثارها الضارّة ونتائجها المشؤومة للشباب وعلى

(١) بالفارسية : در آغوش خوشبختی : ٤٦ - ٤٨ .

الجميع ، هذه الكتب هي بمثابة قُطَاع الطرق المختبئين ليهجموا على قلوب الشباب وأفكارهم ، ويسارعوا إلى تفتيت الفضائل الإنسانية وتوهين أسس العقائد لدى الشباب قرّاء تلك الكتب .

في الأعم الأغلب نرى أنّ من جملة وسائل التسلية لفئة كثيرة من الشباب هي الكتب الرذيلة والرخيصة ، ولذلك فإنّهم يوماً بعد يوم يزدادون اتّجهاً إلى الجوانب المادية للحياة ، ولا يهتمّ هؤلاء محتوى الكتاب من حيث التربية والتعليم ، بل الأساس لاختيارهم الكتاب عدد من المواضيع القصصية الغرامية المسكرة .

وطبيعي أنّه حينما لا تختار المطالعات على أساس الدراسة والدقة والملاحظة بكل دراية وبصيرة ، وكانت فائدة القارئ من مطالعته التسلية والبحث عن الأهواء ، فإنّما تصبح هذه القراءة سبباً للضلال وفساد الأخلاق ، وهدر الطاقات البناءة .

يقول عالم النفس الغربي (ريموند بيج) :

« على الشباب أن يدرسوا نوعية ما يقرأون ؛ فإنّنا اليوم قلّما نواجه عقولاً وأفكاراً راقية بينما نرى أنواع المنشورات الأسبوعية والشهرية وغيرها تمثّل منابعاً مختلفت للقراءات للشباب .

حينما يختار الفتیان والفتيات الكتب الخفيفة الفارغة والحاوية للمطالعة ، فإنّهم بالتدريج يفقدون ذائقة التعرف على ما هو أقوم وأجمل وأعلى وأنبل ، فإنّ هذه الكتب السيئة تثير عواطف الغضب والعصبية للقارئ ، وتقربه إلى هوة نهايتها مهاوي فساد الأخلاق ، وهي توهن إرادة قارئها وتحث لديه التعويد على عدم الجدّة في الأفكار ، وبكلمة : تبدّل الحياة المعنوية لدى قارئها إلى حياة رذيلة رديئة »^(١) .

(١) بالفارسية : ما وفرزندان ما : ٨٣ .

إذن فقراءة الكتب القيمة المفيدة بالإضافة إلى أنها تمنح قارئها وضوحاً خاصاً في بصيرته ، من الممكن لها أن تفتح فصلاً جديداً في حياة البشر ، وتجعل سلسلة نشاطاتهم وفعالياتهم ومجاهداتهم في نهج جديد يخلق من نفوسهم شخصيات نافعة مثمرة ، وما أكثر أولئك الأفراد من المجتمع البشري الذين اكتسبوا قواهم الأخلاقية والروحية ودرايتهم ومعارفهم من هذه المنابع الفياضة ، وبذلك اندفعوا إلى الأعلى ونحو المجد الأنبل .

يقول (غاس هود) :

« إنَّ ميلي الطبيعي إلى مطالعة الكتب أنقذت سفينة حياتي في أوائل عمري من الغرق في أمواج الجهالة وفساد الأخلاق ، في حين أنَّ من كان مثلي محروماً في سنيَّ الطفولة عن نعمة مراقبة الوالدين وإخلاصهم ، قلَّما يتفق أن ينجو من أمواج الضلال والضياع .

كانت كتبي هذه تمنعني من التلوث بالقمار والخمور ، والتردد على المجالس غير المناسبة . وحقاً إنَّ من يكتسب الكمال من الأفكار السامية والكلمات القيِّمة لكبار الرجال ، فمحال أن يرغب في معايشرة الأشرار والأرذال والأندال وأن يصاحب الأوباش»^(١) .

(١) بالفارسية : أخلاق صموئيل : ١٢٤ .

الثقة بالنفس ؛ ثقة بالحقّ

- * من حق الإنسان التوفيق في الحياة .
- * الاتكال على الآمال الخدّاعة .
- * من الدروس التي علمها الرسول الأكرم (ص) .
- * لا ثقة للمتشائمين .
- * الإسلام والاستقلال الذاتي .
- * المسؤولية الفردية .
- * بماذا نقيس الأعمال ؟ .
- * القياس بالنفس .
- * آثار التوكّل على الله .

من حقّ الإنسان التوفيق في الحياة

إنّ ما حظي به الإنسان من التقدّم والرقىّ المحيّر والمثير للإعجاب في جميع الشؤون الفنية والاقتصادية والاجتماعية ، وكذلك الانتصارات اللامعة لكبار الرجال في تاريخ العالم ، إنّما حصلت في ظلّ الثقة بالنفس والنشاطات المستمرة ولا يقدر أحد أن يصعد إلى أعلى من الحدّ الذي هو فيه بدون الثقة بالنفس ، فما لم يكن لأحد ثقة بنفسه وبقدرته لم يقدر على أيّ عمل ، وإنّما في ظلّ الإيمان بالموفقية نستطيع أن نصل إلى أهدافنا ، فإنّ الإيمان بالموفقية هو الخطوة الأولى في طريق التوفيق ، إذ العمل الذي يعمل به الإنسان إنّما هو حصيلة إرادته وثقته ونظرياته وآرائه ، فلو كانت هذه الأمور لديه ناقصة قاصرة كانت نتائج أعماله أيضاً ناقصة قاصرة .

لا ينبغي أبداً أن نحدّد أفكارنا في الحدود الواسعة أو الضيقة للأعمال ، بل بصرف النظر عن صغرها وكبرها علينا أن نتابع كل عمل بالثقة بالنفس وفي غاية العناية والإخلاص ، حتى نهاية ذلك العمل . هناك في مختلف المجتمعات أفراد هم صانعوا أنفسهم يفيدون من مزاياهم الباطنية وذخائرهم الروحية لتحقيق الأهداف الإنسانية السامية ، وكلما استفيد من هذه المبادئ الإنسانية الشريفة نبعت أكثر من ذي قبل ، هذه الإفادة من تلك الخصائص النفسية في مواقعها هي التي جعلتهم في عداد الرجال الكبار البارزين المتميّزين ، وأدّت إلى الانتصارات اللامعة والموفقية لهم في مختلف مراحل أعمارهم .

إنّ خيبة الأمل وضعف النفس يسببان الجمود فالسقوط ، وإنّ الذين لا

يثقون بإرادتهم وعملهم ، ويعلقون آمالهم للحصول على السعادة المادية والمعنوية على غيرهم ، ويشعرون بحاجة إلى ذي قدرة ليكونوا في ظل حمايته ، إن هؤلاء توصل في وجوههم أبواب الموفقية ، وأمواج الحياة تتقهقر بهم .

إذا استقرّ في ذهن أحدنا عدم الثقة بنفسه والذي ينشأ من الإيمان بعجزه عن القيام بأعماله ، فإنه لا يقدر على أن يدخل في أي شيء ، ولا أن نأمل له الرقي والكمال .

ما أكثر الاستعدادات التي انطفأت وهي في مهدها على أثر قلة الثقة بالنفس ، وما أكثر الأماني والآمال الوضّاء والبناءة التي بقيت عقيمة وبلا نتيجة لقلة الثقة لو كان الاستعداد من المستوى المتوسط ولكن يصاحبه ثقة بالنفس لا تهزم لكانت الموفقية التي تحصل بذلك أكثر بكثير من الاستعداد العالي ولكن في وجود متزلزل لا ثقة له ؛ ذلك أنه لا يتمكن من أن يبذل قدرة يستطيع بها أن يقاوم المعوقات والعراقيل ، ولا يتمكن من أن يبذل الطاقة والسعي المستمر الضروري واللازم لأن ينقذ نفسه من مشكلة معقدة .

كثير أولئك الذين كانوا من حيث الاستعداد في المستوى المتوسط ، ولكنهم تقدموا بما لهم من روح الثقة بالنفس في الحياة ، واكتسبوا انتصارات لامعة ، وفي المواقع الحرجة حيث اقتضت الضرورة لجأوا إلى ما في ضميرهم من قوى باطنية أصيلة للتحرّر من الأخطار ، ولذلك فقد بقوا مصونين منها .

والمشاكل المعقدة لا تحدث تغييراً لهؤلاء في مصائرهم ، ذلك أن النفس المصمّمة تحدث في مخّ صاحبها قوة إيجابية ثابتة ، وكلّ ما كان يقلل من الإرادة الإيجابية كان بطبيعة الحال يقلل من القوى السلبية التي هي نقطة نقيض للنشاط والثقة بالنفس .

الذي تنبع الإرادة الصارمة من ذاته سيطرد الأفكار السلبية بكل قوة ولا يتقبّل الضعف والعجز الكاذب بالنسبة إلى نفسه ، ولا يمكن رده عن الطريقة

الصحيحة التي اختارها بآية وسيلة ، ولا يمكن صرفه عن هدفه الذي يؤمن به ، وهو يؤمن أن الله سبحانه لم يحرم أحداً من منابع الموفقية والسعادة ، وأن هذا العجز والحرمان إنما هو وليد أفكار البشر أنفسهم ، فمن حق الإنسان الموفقية ، ومن القطعي وصول الإنسان إلى هدفه فيها إذا كان ذا عقل إيجابي بناء وكان يتابع هدفه بإيمان وانتظام .

يقول العالم الغربي (الدكتور ماردن) :

« إن الإيمان والثقة بالنفس قوة مبدعة ، وعدم الإيمان قوة سلبية مُوهنة ومخرّبة بل محطّمة وقاتلة .

إنّ الشعور بالثقة بالنفس ينفي ويطرد التزلزل وعدم الثبات ، ويمكن الإنسان من أن يتقدم إلى الأمام من دون توقّف وتلكؤ وبدون صرف قوى زائدة وبكل متانة وثبات . إنّ جميع المخترعين والمصلحين والسيّاحين والكاشفين والفاصلين كانوا ذوي ثقة وإيمان باستعداداتهم وقدراتهم وطاقاتهم وإمكاناتهم ، وفي إزاء هؤلاء لو استعرضنا شخصية العاجزين والمنكسرين المنهزمين لتوصّلنا إلى أنّ أكثرهم كانوا لا يتمتّعون بالثبات لعدم الثقة بأنفسهم .

نحن لا ندري ما الذي أودعه الله في أولئك الأشخاص الذين لهم الاستعداد التام للقيام بمهام الأعمال الكبرى ، وإنّما نعلم أنّ الثقة المطلقة للإنسان بتوقيفه في عمله دليل بارز على استعداداته التام ، وأنّ من جهّزه الله بسلاح الإيمان والثقة المطلقة بنفسه ، سيساعده ليتفوق في أعماله أيضاً . فلا تحرموا أنفسكم من الثقة بها ولا تسمّحوا للآخرين بأن يشكّوكم بها ، فإنّ أساس جميع التوفيقات الكبرى ، فإن تضرّر هذا الأساس تحطّم ما عليه من البنيان أيضاً ، وإن بقي هذا الأساس سليماً بقيت أبواب الآمال مفتوحة بوجهنا» (١) .

(١) بالفارسية : پیروزی فکر : ٨٣ .

إنَّ أسلوب الفكر مسري ، وله أثر كبير في حياة الإنسان ومختلف العلاقات الاجتماعية ، فلو كانت تسود أفكاركم الجرأة والثقة لكنتم تصحبون معكم الثقة والطمأنينة أينما قدمتم وخطوتم وحللتهم ، وكذلك العكس ، أي لو كانت الحالة الثابتة لأفكاركم حالة الوسوسة والتزلزل وكانت ثقتكم بأنفسكم بلغت درجة الصفر ، فلا محالة ستكونون تلقنون غيركم الضعف والعجز أيضاً .

لبعضنا استعداد تام من أجل أن يسمم الفضاء والجو الذي يحيط به ، وينفذ الشك والترديد في الأذهان المستعدة للسعادة والتحرر ، إنَّ الناس السليبين كالخشيخ في مزرعة المجتمع لا شغل لهم سوى تضعيف معنويات الآخرين ، وطبيعي أنه إذا كثر في محيط ما هؤلاء الأفراد فليس أنه لا تنمو السعادة والتوفيق هنالك فقط بل تنعدم هنالك الثقة بالنفس والإرادة الحاسمة ، وينتفي الميل إلى العمل أيضاً .

ومن ناحية أخرى : تصبح الحياة بصورة لا تطاق لأولئك النشطين والمتحركين المضطرين بأن يكونوا على اتصال هؤلاء السليبين بصورة مباشرة ومنتظمة ، وإذا ابتعد أولئك عن هؤلاء فكأنه قد ارتفع عن كواهلهم حمل ثقيل .

إنكم تواجهون في المجتمع فئة أخرى قد تعودوا على « ضعف النفس » بحيث لا قدرة لهم على أن يتخذوا « القرار الثابت » حتى بشأن أبسط الأعمال ، وحتى أنهم في اللحظات الحساسة التي تستدعي أن يتخذوا فيها قرارات لا يعدلون عنها ، ومن الممكن لتلك الأوضاع والأحوال أن تغير مجرى حياتهم ، مع ذلك تراهم هنالك يصابون بالتزلزل وعدم الثبات بحيث لو سمعوا أقل ملاحظة أو نقد من أي أحد بدلوا قرارهم ولو كان صحيحاً منطقياً .

إنَّ وسواس العجز وعدم التوفيق يبعث على الإستسلام لأفكار الآخرين وتلقيناتهم بلا أي قيد أو شرط ومن دون الدقة في تشخيص صحة تلك الأفكار وسقمها ، وحتى أنهم يتركون أعمالهم التي بدأوا بها .

ولا ريب أنَّ هذا العيب والنقص الروحي الكبير لا يثمر سوى التوقف والجمود في محيط دائرة محدودة من الحياة .

وكَلِّمًا كانت ثقة الشخص نفسه قويّة كانت ثقة الناس به أوسع وأشمل ، وإنَّ أثر أيّ أحد على غيره يرتبط بمدى ثقته وإيمانه هو بنفسه ، فإنَّكم إن كانت لكم ثقة بأنفسكم وكنتم مطمئنّين من صحة عملكم استطعتم أن تجتذبوا إلى أنفسكم ثقة من تقابلونه وترتبطون به في ذلك العمل ، وبمحض ما تتلهم ثقتكم بأنفسكم ويتسرّب التردد والتشكيك إلى أذهانكم فإنَّكم ستغيّرون بالطبع اعتماد الآخرين وثقتهم بكم أيضاً .

وبكلمة : إنَّ كلّ حركة منكم بأيّ من الحالتين الثقة أو التردد ستعود إليكم ردود فعلها من قبل الآخرين .

الإتيكال على الآمال الخدّاعة

إنَّ الثقة بالنفس والاعتماد على السعي المتواصل في سبيل الوصول إلى هدف السعادة من أكبر عوامل الموقية ، ولكن الإتيكال على الآمال التي لا أساس لها ، وترسيم الأماني التي لا تتحقّق في صفحة الضمير ، بدل السعي والفعالية ، إنّما ذلك ابتعاد عن واقعيات الحياة . إنّ الأحلام الحلوة والخيالات الخدّاعة قد تترك من الآثار في أعماق روح الإنسان ما يغرق الإنسان فيها ، ويبقى بعيداً عن إدراك الحقائق ورؤية الواقع ، وهكذا أناس لن يبلغوا السعادة والكمال أبداً .

وفي (غرر الحكم) عن أمير المؤمنين علي (عليه السلام) قال :
« اكذبِ الأمل ولا تثق به فإنّه غرور وصاحبه مغرور »^(١) .

إنَّ من أخطار الإتيكال على الآمال الخدّاعة غير المتناسبة إحداث عقدة في

(١) غرر الحكم : ١١٣ .

نفس الإنسان تتواجد بعلة خيبة بعض الآمال .

وهكذا يرى الإمام أمير المؤمنين علي (عليه السلام) حدوث الخيبة في الآمال من عوامل تواجد عقدة نفسية في إحدى كلماته حيث يقول :

« ذل الرجال في خيبة الآمال »^(١) .

وعلماء النفس كذلك يرون خيبة الأمل من العوامل المهمة في حدوث الشعور بالحقارة وانعدام الثقة بالنفس ، ويقولون :

« لعله ليس هناك أي عامل يلحق الضرر بقيمة شخصية الإنسان مثل النكسات واللوم على أثرها ، فإنّ النكسة تبعث على أن يرى الإنسان نفسه أقلّ من الآخرين ، حينما يواجه الإنسان فشلاً يفكر في أنه أقلّ من الآخرين وأذلّ ، إنّ الفشل يذهب بالثقة بالنفس ويبدّلها باليأس والقنوط . وعلى هذا فالأطفال والشبيبة حينما ينهزمون ويفشلون بصورة مستمرة ستحدث فيهم عقدة الحقارة ويرون أنفسهم حقراء »^(٢) .

من الدروس التي علّمها الرسول الأكرم (ص)

إنّ من أساليب رسول الإسلام (صلى الله عليه وآله وسلم) لبناء الإنسان هو تنمية روح الإتكال على الأعمال في أتباعه ، فالمسلمون أتصفوا في ضوء تعاليم قائد مدرسة الهداية والإرشاد النبويّ بالثقة العميقة والهمة العالية وعزم راسخ وأهداف سامية ، من دون أن يركبوا أمواج الشهوات وتخدعهم الميول والأهواء ، ثم كانوا في أعمالهم دائماً يستعينون بمبدأ الخيرات الله سبحانه .

روى الشيخ الكليني في (الكافي) بسنده عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال :

(١) غرر الحكم : ٤٠٥ .

(٢) بالفارسية : روانشناسی برای زیستی : ٢٤٧ - ٢٥٢ .

« اشتدت حال رجل من أصحاب النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ، فقالت له امرأته : لو أتيت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فسألته . فجاء إلى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ، فلما رآه النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : « من سألنا أعطيناه ، ومن استغنى أغناه الله » فقال الرجل : ما يعني غيري . فرجع إلى امرأته فأعلمها فقالت : إن رسول الله بشر فأعلمه . فأتاه ، فلما رآه رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : « من سألنا أعطيناه ومن استغنى أغناه الله » حتى فعل الرجل ذلك ثلاثاً .

ثم ذهب الرجل فاستعار معولاً ثم أتى الجبل فصعده فقطع حطباً ، ثم جاء به فباعه بنصف مدٍّ من دقيق ، فرجع به فأكله ، ثم ذهب من الغد فجاء بأكثر من ذلك فباعه ، فلم يزل يعمل ويجمع حتى اشترى معولاً ، ثم جمع حتى اشترى بكرين وغلاماً ، ثم اشترى حتى أيسر ، فجاء إلى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فأعلمه كيف جاء يسأله وكيف سمع النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ، فقال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) : قلت لك : من سألنا أعطيناه ومن استغنى أغناه الله »^(١) .

وكتب العالم الشهير (صموئيل أسايلز) يقول :

« إن الثقة بالنفس أساس لكل فلاح ولكل تقدم ، لو تزيّنت بها أكثرية أمة لأصبحت تلك الأمة كبيرة مقتدرة ، ولا سرّ لرقيتها وقدرتها سوى تلك الخصلة الكريمة ، ذلك أن عزيمة الإنسان تقوى مع الثقة بالنفس وتضعف بالاعتماد على الآخرين .

إن المساعدات التي تصل الإنسان من غيره في الغالب تذهب بمتابعته للأعمال وتوهن ما عنده من قوة جهادية وكفاحية ؛ فإن الإنسان لا يجد في هذه الحالة موجباً للسعي والمحاولة ، ولا سيما إذا تجاوزت المساعدات الخارجية عن

(١) أصول الكافي ٢ : ١٣٩ ط آخوندى .

حدّ اللزوم والضرورة فعندئذٍ تضعف في الإنسان شبكة أعصابه وتموت فيه روح العزيمة والمُضاد .

إنَّ أفضل الشرائع والقوانين تجعل الإنسان مختاراً في الحياة وتمنحه الحرية ، لكي يستند إلى نفسه ويدير بنفسه شؤون حياته . بينما يتصور البشر أنَّ على عاتق القوانين أن تضمن له الراحة والسعادة ، لا سلوكه ومساعدته هو .

لو تدبّرنا قليلاً لرأينا أنَّ ما ننسبه من المفاصد أو النواقص إلى أمة من الأمم أو شعب من الشعوب ، هي في الحقيقة مفاصد تمكّنت في وجود عدد من أفراد تلك الأمة ، وما لم تتغيّر طبائع تلك الأمة وروحانياتها وأردنا أن نمنع من ظهور أو وجود تلك المفاصد من خلال القوانين ويسببها ، لأخرجت رأسها مرة أخرى من ناحية أخرى أو جانب آخر^(١) .

ويقول أمير المؤمنين علي (عليه السلام) :
« مَنْ لَمْ يَنْجِدْ لَمْ يَنْجَدْ »^(٢) .

وعنه (عليه السلام) قال :
« من عجز عن أعماله أدبر في أحواله »^(٣) .

ويقول أحد المفكرين الغربيين :

« إنَّ الطبيعة لا تسمح لأيّ شيء بالبقاء في محيطها إلا إذا كان بإمكانه أن يدافع عن نفسه ويساعدها . وإنَّ تكوين أية نجمة وتعيّن مدارها وثباتها في ذلك المدار ، والشجرة الراكعة التي تنقذ نفسها من شرور الرياح العاصفة ، ومنابع الحياة في كل حيوان ونبات ، كل ذلك مظاهر من روح الثقة بالنفس .
أمّا نحن فنُشبه جماعة بلا انتظام لا يلتزم كل واحد منهم بحدّه ، ولا

(١) بالفارسية : اعتياد بنفس : ١٤ - ١٦ .

(٢) غرر الحكم .

(٣) غرر الحكم .

يوظف أيّ واحد منهم نبوغه في فكره ولا يغور في غمار ذاته ، بل يخرج يديه ليطلب شربة ماء من أيدي الناس .

أما شبائنا فلو اقترنت بدايات كفاحهم في الحياة بعدم التوفيق فإنهم ينهزمون في أنفسهم ، ولو أصيب شاب تاجر بالكسر في تجارته عدّه الناس في الهالكين ، ولو درس من يتمتع بنبوغ عال في إحدى الكليات ولم يوظف بعد إكمال دراسته في مدة أعلاها سنة كان هو وأصحابه يرونه على حق أن يثن من حظّه ويقتط حتى آخر عمره ! .

إنّ شاباً معانداً من (ورمونت) أفضل من مئة من هؤلاء الظرفاء المدنيين ، حيث يجرب جميع الحرف تقريباً طول سنين عديدة بصورة رتيبة ، فمثلاً يتخذ مزرعة فيحراثها ويزرع ، ويتركها ليصبح بائعاً متجولاً ، ويترك ذلك ليكون مديراً لمدرسة أطفال ، ويدعها ليصبح واعظاً دينياً ، يتم يتعهد بسكرتارية جريدة ، ثم يشتري قطعة أرض وهكذا . . كلما سقط عن شيء تلقى الأرض بيديه ورجليه كالقطن الذكي فقام بلا إصابة .

هذا الشاب يتقدم مع الزمن ، ولا ينجل لعجله في اختيار الأعمال ، فإنه لا يرضى بتأخير في أمور معيشته وحياته ، بل هو يفيد من كل دقيقة منها ، فله بدل الفرصة مئات الفرص ، دع الرواقين يفتحوا أبواب المواهب بوجه الإنسان ويقولوا له : إنه ليس شجرة تهتز لكل ريح ، بل له القدرة على أن يخرج من مختلف الضغوط سالماً ، وهو بفضل قوة الثقة بالنفس تظهر له قدرات جديدة»^(١) .

مع أنّ الثقة بالنفس من أكبر الفضائل الأخلاقية وأنفعها ، ولكن علينا أن نتنبّه إلى أنّ لا تلبس هذه الفضيلة الأخلاقية بالنخوة والرضى عن النفس ، فإنّ بين الرضى عن النفس والنظرة الواقعية فواصل بعيدة جداً .

(١) بالفارسية : فلسفه اجتماعى : ٣٢٤ - ٣٢٨ .

إنّ الذي يثق بنفسه أكثر من مستوى طاقته والحدّ المعقول ، ويغالي في ذلك ويبالغ فيه ، ويسلك سبيل الإفراط والجفاف في رضاه عن نفسه ، فهو مصاب بالنخوة والغرور ، وفي عالم الغرور سيرتكب أخطاء كثيرة ، فإنّ المغرور يعتمد على إمكاناته وقدراته الخيالية ، وعلى أثر عدم رؤيته أو مساحته في التقييم الواقعي للمشاكل لا يعدّ نفسه ولا يجهّزها لمقاومتها ، ولهذا فهو حين احتكاك التجارب لا يقدر على إثبات حنكته ولياقته .

وعلى العكس منه الإنسان ذو النظرة الواقعية فإنّه يكون ناظراً في العواقب ، وهو يتمتع برؤية متفائلة طبيعية سليمة ، وللوصول إلى المقاصد والأهداف يقيّم قواه في بدء العمل بكل دقة ، فلا يتجاوز حدود قدراته وطاقاته .

لا ثقة للمتشائمين

كما أنّ من له ثقة بنفسه تنمو فيه طاقاته وقدراته ، وهو بذلك يتمكّن من أن يعيش سعيداً حرّاً وينال الرقي والتقدم ، كذلك من كان متأثراً بالأفكار السلبية فإنّه تضعف فيه قواه البناءة بل ينعدم فيه النشاط والفعالية .

والذي يئنّ دائماً من سوء الزمان ومشاكل الأمور وضغط الحياة يفتح على نفسه أبواب الفشل وخيبة الأمل ، وبدل أن يتصرف في مصيره بإرادته يصبح أسيراً بيد الأحداث ، وأمواج الحياة تتقهقر به إلى الوراء ، وسوف لا يتمكن من أن يقترب إلى آماله وأمانه .

النفسية السلبية من الخصائص البارزة للذين يعوزهم الثقة بأنفسهم .

يقول علماء النفس :

« قد يوجد من المتشائمين من يردّ من يرجو منه شيئاً لقلة ثقته بنفسه ، فهم غير مطمئنين بأنفسهم ، بل يروا فيها عوزاً ونقصاً ، غير واثقين بأنهم إذا

حول إليهم عمل من الأعمال أو طلب إليهم ذلك استطاعوا أن يقوموا به ، فهم يخافون أنهم إذا أجابوا بالإثبات لم يستطيعوا أن يخرجوا من عهدة ذلك العمل ، ولم يتفهم الآخرون عدم قدرتهم عليه ، فتكون النتيجة أن يقل قدرهم لدى الناس . فهم لذلك يؤطرون أنفسهم بكلمة « لا » وهم بذلك يحافظون على أنفسهم ، فإنهم إذا قالوا « لا » أراحوا أنفسهم .

إن المتشائم يرى كل شيء من جانبه السلبي ، وله الجانب السلبي في كيفية سلوكه ونظرته بالنسبة إلى الأشخاص والأشياء ، ولذلك فهو قلماً يلتذ بشيء أو شخص ، وهو دائماً ينتقد ويتابع العيوب ويبحث عنها وعن النقائص ، وهو في كل ذلك يتكبر على غيره ، يتنفر من الأفكار القديمة ولا يثق بالأفكار الحديثة .

وللمتشائمين نظرة مخالفة بل عداوة مع من لا يعرفونه ، وإذا واجهوا أناساً في مجمع لأول مرة لم يقبلوا عليهم إلا بتكلف شديد .

وقد تترسخ هذه الحالة في بعض الناس بحيث لا ينظرون إلى أحد إلا بسوء ، وينتقدون كل فكر ونظرية قبل أن يصلوا إلى ماهيتها ، ولذلك فهم قلماً يصادفون أحداً .

وإنما يتجهون إلى من يشبههم ، وذلك حيث يتصورون أن صداقتهم مع أولئك يبعث على نشر أفكارهم ونظرياتهم وعقائدهم فقط^(١) .

الإسلام واستقلال النفس

إن حب الاستقلال الشخصي ينبع من عمق الشعور البشري ، وهذه الحاجة الفطرية إنما تقضي فيما تأسست أساليب العمل على أساس هذه الغريزة الفطرية .

(١) بالفارسية : روانشناسی برای زیستی : ٢٠٠ .

إنَّ الإسلام ينظر إلى مبادئ الميول الإنسانية بنظرة صادقة ونزيهة ، وليس أنه لا يأمر بقهر الدوافع البناءة والميول الأصلية الذاتية ولا ينهي عن ظهورها في ميدان الشعور فحسب ، بل يستمدّ منها للرقى نحو الأهداف الإنسانية السامية ، ولكنه بلحاظ واحد يجمع بين النظر إلى القوى المحركة من جانب وإلى الأصول التي تحكم تلك القوى بالنظم والانضباط من ناحية أخرى .

بهذه الرؤية الشاملة يكون بالإمكان أن نجعل النفس الإنسانية في موازنة سليمة من مختلف جوانبها ، وأن نوظف قواها في ظروفها المناسبة والنافعة ، كي يتمكن الإنسان من أن يخطو خطوات ثابتة وقوية على مدارج الكمال ، ويصرف طاقاته المتراكمة في سبيل تأمين الهدف الأساسي للحياة والحصول على المقام اللائق للإنسان .

إنَّ الرقي والتقدم من الأهداف الإنسانية ، والبشر حيث قواه محدودة ومحال عليه أن يصرف كل ما لديه في سبيل الوصول إلى المقاصد الدنيئة ومع ذلك يبقى له مجال للتجوال في سبيل الكمال ، ويتمكن من أن يجد السبيل إلى العالم العلوي معرفة وارتباطاً .

إنَّ الإستجابة الدائمة والمستمرة للدوافع الدنيئة هي العامل المهم في سقوط الإنسان ، ويشكل جداً مع هذه الحالة أن يبدي من نفسه نشاطاً وفعالية مهمة في الترفع نحو الأمور القيّمة .

إنَّ الإسلام يعبّئ القوى الإيجابية في الإنسان لمقاومة المشاكل ، ليقف في الحوادث الشديدة ويسيطر على كل شيء بمتابعة الكفاح ضدّ العوائق والعراقيل ، وكذلك ليبقى ثابتاً أمام الأقوياء يحافظ على مكانته ، وهكذا ترتفع همم الإنسان ويصبح ذا قوة روحية قوية وعجيبة .

إنَّ شرف الإنسان واستقلاله رهين بأن يصرف في معترك الحياة همه تكفي للمهام ، ويحل مشاكله بالثقة بالنفس ، وإنما يتحقّق هذا الأمل فيما إذا أوقف الإنسان بكل قواه على قدميه في سبيل تأمين السعادة المادية والمعنوية لنفسه .

وفي (غرر الحكم) عن أمير المؤمنين علي (عليه السلام) قال :
« من رقى درجات الهمم عظّمتها الأمم »^(١) .

إنّ من يفقد الثقة بنفسه واستقلال شخصيّته فهو يفتش عن مستند يستند إليه ويستظل بظله في مشاكل الحياة ، إنّما هو كالطفيليات التي تحلّق بفروعها اللطيفة حول الأشجار المرتفعة ، لتبقى من خلال ذلك وفي ظل تلك الشجرة مصونة من أذى الأعاصير والحوادث .

من الممكن أن تنتهي النفس المتشائمة إلى عبودية ذليلة أمام الأقوياء ، وإذا احتقر الإنسان نفسه هكذا افتقد شخصيته بالمرّة ، وسيفتقد قدرة اتّخاذ القرار فإنّه سيصبح تابعاً لا يملك نفسه ولا حرّيته ، وما دام هذا الأسلوب من الفكر يسيطر عليه فمحال أن يتمتع بالمزايا الإنسانية .
وفي (غرر الحكم) عن علي (عليه السلام) قال :
« من احتجت إليه هنت عليه »^(٢) .

المسؤولية الفردية

إنّ التوصل إلى السعادة المعنوية الأبدية في النظام الإسلامي يتوقّف على عمل الشخص لنفسه ، بل إنّ المسؤولية الفردية تشكل أساس التعاليم الإسلامية ، والتكاليف التي وضعها على عاتق الإنسان في جميع الشؤون الدينية والدنيوية يجب أن تؤدّى بالعمل المباشر ، وعلى الأساس نفسه يبتنى الثواب والعقاب ، فالقرآن الكريم ينّه إلى ﴿ أن ليس للإنسان إلّا ما سعى ﴾ و ﴿ كل نفس بما كسبت رهينة ﴾^(٣) و ﴿ من عمل صالحاً من ذكر وأنثى وهو مؤمن ، فلنحبيّته حياة طيبة ، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾^(٤) . وفي

(١) غرر الحكم : ٦٦١ .

(٢) غرر الحكم : ٦٦٨ .

(٣) سورة المدثر : الآية ٣٧ .

(٤) سورة النحل : الآية ٩٧ .

هذه الدنيا أيضاً إنما يستوفي الإنسان نتائج أعماله :

ففي (نهج الفصاحة) عن رسول الإسلام (صلى الله عليه وآله وسلم) قال :

« من عمل سوءً يجزيه في الدنيا »^(١) .

وفيه عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) قال :

« من يزرع خيراً يحصد رغبة ، ومن يزرع شراً يحصد ندامة »^(٢) .

وكتب الفيلسوف الأمريكي (أمرسون) يقول :

« إنَّ العالم بمثابة جدول ضرب أو معادلة رياضية كيفما يعادلونها تعتدل وتوازن ويكون جوابها واحداً دائماً ، إننا أيّ طريقة نختارها لحلّ مسألة رياضية فإنَّ أعداد النتائج ستكون واحدة لا محالة ، والطبيعة بسكوته تفشي كل سرّ بطريقة متقنة ، وتجازي كل جريمة ، وتثيب على كل فضيلة .

إنَّ ما نسمّيه نحن عقوبة إنما هي حاجة عالمية يطالع بموجبها في كل مورد الكلّي في قميص الجزئي ، تماماً كما لو نرى دخاناً نعلم بأنّه قائم من نار ، ولو نشاهد يداً ورجلاً علمنا بجسد وراءه ، كذلك كل عمل يستتبع جزاءه معه ، أو قلّ إنّه حسب القانون الذي تحدّثنا عنه يستكمل نفسه من طريقتين : الأولى : التفاعل في الطبيعة الواقعية لنفس الفعل والعمل والثاني : الطريقة العلنية لظاهرة . والكيفية العلنية هي التي تسمّى الجزاء والعقاب . العقاب الذاتي يرى بالعين المجردة في الشيء نفسه ، والعقاب الكيفي يرى ببصيرة الفهم .

هذه العقوبة الخاصة من الممكن أن تبدو بعد أعوام عديدة من وقوع الحادثة ، ولكنها تستتبعها وتلازمها حتماً ، إنَّ الجريمة والجزاء أغصان شجرة واحدة ، والجزاء ثمرة تنضج وتظهر فجأة من باطن زهرة اللّذة التي سترتها

(١) نهج الفصاحة : ٥٩٢ .

(٢) نهج الفصاحة : ٦٢٢ .

وغطتها»^(١) .

بماذا نقيس الأعمال ؟

إنّ الإسلام قد نظر إلى الدوافع الذاتية الأصيلة التي تدفع الإنسان نظرة موضوعية أصيلة ، وبنى الأعمال على أساس « النية » وقال : « الأعمال بالنيات » .

لكل عمل جانبان ولكل منها حساب مستقل على حدة ، فمن الممكن أن يكون عمل خيراً من جهة ولا قيمة له من جهة أخرى ، فهنا يجب أن ينظر إلى ما حمل فاعله عليه من الدوافع النفسية والروحية ، وأنه أيّ هدف كان يتابعه في نظامه العقائدي والفكري .

إن حكمنا في هذه الموارد يستند إلى القيم الخاصة الاجتماعية والخارجية للعمل ، ولا موضوعية لنية الفاعل من هذا المنظار ، فلا يفترق لدينا أن يكون هدف المحسن من إحسانه الرياء والمنافع المادية ، أو يكون له في عمله دافع قيم ، وأن تكون هناك نية طاهرة نزيهة في قالب عمله . فالعمل الصالح في النظام الاجتماعي هو ما يكون نافعا للمجتمع ، ولا علاقة له بما فيه للفرد من تكامل معنوي ، وأنه بادر إلى ذلك العمل بتأثر من أيّ عامل أو دافع ؟ .

بينما في نظام الله لا ينظر إلى كمية العمل ، بل الذي يتقبله الله تعالى هو كيفية العمل وأثره النفسي والذاتي في شخص الفاعل ، هنا الحساب يتبع ما بين الفعل والفاعل من الرابطة ، وبأيّ نية وهدف أقدم على ذلك العمل ، فلو كان قد بادر إلى ذلك العمل الصالح بدافع الرياء فإنّ نفسه لم تتقرب بذلك إلى الله تعالى بل ابتعد وتنزل ، ولا يكفي لتلقي العمل صالحاً لديه أن يكون مفيداً للمجتمع فحسب .

(١) بالفارسية : فلسفه اجتماعي : ٣٧٨ .

بل العمل الاجتماعي المفيد إنما يكون نافعا بالنظر إلى التكامل المعنوي فيها
إذا كان ملكوتياً في القصد والنية ، وكانت الروح خارجة عن حصار الرياء
والأهواء إلى الصفاء والخلوص .

فقد قال الله تعالى في القرآن الكريم : ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا الله
مخلصين له الدين ﴾ (١) .

وفي (نهج الفصاحة) عن الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله) :
« إنما الأعمال بالنيات » (٢) .

على هذا الأساس الثابت والمعين تتعين درجة قبول الأعمال وقيمتها ،
فالعامل الذي يسبب رفع الدرجات وقبول الأعمال هو الهدف الطاهر والشريف
الملحوظ فيه طلب رضا الله سبحانه وتعالى وعز وجل .

وإن أثبت سمة لثبات الإيمان بالله هي النية المعنوية ، وعندئذ يتصف
العمل بالقيمة والمزية الخاصة ، وسيكون صاحب هذا العمل مورد لطف الله
وعنايته وحمايته ، ولا يخرج هذا الملاك القيم والقويم والقوي عن حدود عمل
الإنسان وتحمله وإدراكه وإحساسه وعواطفه .

إن الذي لم تسطع أشعة الله على روحه فهو خالٍ من الإيمان
والإخلاص ، إنما يدفعه إلى القيام بالأعمال الميول النفسانية والشهرة الفانية ، إنه
يبدأ عمله خلواً من روح الحقيقة وينهيه ليحترموه مثلاً ويروه ذا فضائل إنسانية
ظاهرة .

هذا الهدف غير القيم يكون السبب في ردّ عمله ، ولا قيمة لعمل هذا
الفرد في محضر الرب ، ولا تعود عليه منه عائدة سوى ذلك الهدف المحدود الذي
كان يهدف إليه .

(١) سورة البينة : الآية ٤ .

(٢) نهج الفصاحة : ١٩٠ .

أما الذين يتمتّعون بالثقة بأنفسهم ويعتمدون على أعمالهم فلا يشعرون
بحاجة في أنفسهم إلى الرياء ، فالرياء إنما هو من دأب من لا عمل لهم أو لا ثقة
لهم بأنفسهم ويعانون من مرض نفسي .

وفي (غرر الحكم) عن أمير المؤمنين علي (عليه السلام) بشأن هؤلاء :
« لسان المرائي جميل ، وفي قلبه داء دخيل »^(١) .

وفيه عنه (عليه السلام) قال :
« الافتخار من صغر الأقدار »^(٢) .

ويقول العالم النفسي الشهير (شاختر) :

« من الوسائل التي نتوسّل بها لجلب انتباه الآخرين عند الفشل وخيبة
الأمل وعدم التوفيق ، هو الإطراء في الثناء على أنفسنا ، نتصوّر الأعمال التي
نحبّ لو كنّا نعملها والموفّقيات التي نأمل لو كنّا نحصل عليها ، وكأنّها كانت
وحصلت ، فننسبها إلى أنفسنا ، أو نقنع من أنفسنا أن نتحدّث دائماً عن الأفعال
التي عملناها وأن نعظمها مهما كانت صغيرة وحقيرة بدلاً عن الأعمال التي لم
نعملها والموفّقيات التي لم نحصل عليها .

هذا النمط من الناس ينخدعون بجزافاتهم ويرضون عن أنفسهم
مخدوعين بحيث تفوتهم أية فرصة للسعي والموفقية . ولو كان الثناء على النفس
يريح القائل من عذاب عدم الموفقية في الأعمال وعدم اجتذاب انتباه الناس إلى
نفسه ، فيخدع بذلك المستمعين بصورة مؤقتة ، فإنّ ذلك لن يعالج الداء
الأصيل .

إنّ من يستطيع أن يعمل الصالحات ويكون موفّقاً في ذلك ويحصل بذلك
على موقعية في قلوب الآخرين فلا حاجة له إلى الثناء على نفسه ، فهو بدل ذلك

(٢،١) غرر الحكم : ١٠٦ ، ٦١٠ .

يسعى ويعمل ، ويحصل كل يوم على أصدقاء أكثر وموفقية أكبر»^(١) .

ويقول (شوينهاور) :

« إنَّ الشَّاءَ على النفس يولِّد الإنزعاج لدى الآخرين ، فهو من جانب قد يشتمل على شيء من الكذب والتزوير ، ومن جانب آخر هو ينشأ من الجهل والحماقة ، إنَّ من يتحدث عن صفة خاصة بصورة مستمرة قد يكون هو فاقداً لها . واعلموا أنَّ الذين يتحدثون دائماً عن موفقياتهم ومظاهر عقولهم وتدبيرهم وقواهم يفقدون كل هذه المزايا ، ولا ينبغي أن ننسى أنَّ الكذب والقول الجزاف سوف لا يدوم كثيراً حتى ترتفع الحجب والستائر عن وجه الحقيقة ، وحينئذٍ يفقد المرء كل مكانته ووجاهته »^(٢) .

القياس بالنفس

إذا كان الشخص ملوثاً فإنَّه يقيس سلوك الآخرين وأعمالهم على أساس مقاصده ونيَّاته الملوثة وغير النزيهة ، كما في (غرر الحكم) عن علي (عليه السلام) قال :

« الرجل السوء لا يظنَّ بأحد خيراً ؛ لأنَّه لا يراه إلاَّ بطبع نفسه »^(٣) .

وهذه هي حقيقة علمية ، يقول عنها علماء علم النفس :

« حينما تمتلئ الدنيا بعواطفنا وميولنا وأفكارنا ، فمن المقطوع به أنَّنا ننظر إلى كل شيء منها بنظرنا الشخصية ، وكأنَّ أحاسيسنا تظلل على رؤوس الكائنات ، فالعواصف تصيب باليأس والقنوط ، والنسيم الغضَّ الطَّري يورثنا الرضا والسكون ، وهكذا فنحن نرى الطبيعة من نافذة عواطفنا وأحاسيسنا ،

(١) بالفارسية : رشد شخصيت : ٩٢ .

(٢) بالفارسية : أفكار شوينهاور : ٩٢ .

(٣) غرر الحكم : ١٠٤ .

وحسب أحاسيسنا من الممكن أن نرى الهرّ حيواناً محبوباً ظريفاً أو حيواناً مؤذياً مزعجاً . العواطف والأحاسيس تغيّر الدنيا التي نعيش فيها بصورة كلية .

يعلم الحقوقيون والقضاة أنّه قلما يتفق أن يشهد الشهود لحادثة بسيطة ساذجة شاهدوها من قريب ، بشهادة واحدة تماماً ، حتى بالنسبة إلى الأمور التي لا تثير فينا العاطفة نشاهد جيداً كيف تختلف أفكارنا وأنظارتنا ، فبالأولى حينها تكون الحادثة عاطفية أيضاً فإنّ نتائج أذهاننا ستكون مردّدة أو مشكوكة»^(١) .

آثار التوكل على الله

إنّ الثقة بالنفس ليست أنّها لا تنافي الاتكال على الله تعالى فقط ، بل إنّ الاعتماد على ربّ العالمين والاستمداد من القدرة الإلهية الأزليّة سيؤدّي إلى قوّة النفس والشخصية .

إنّ المؤمن مع تمّتع بثقته بنفسه واستقلال شخصيته ، ومع إفادته من كل الإمكانات التي هي تحت تصرّفه بصورة تامّة ودقيقة ، ولا يفوّت على نفسه فرصة ، مع ذلك لا يحصر روحه بين العلل والعوامل المادية ، ولا تتوقف إنسانيته على المادة ، بل إنّ التعالي والتسامي إلى القمة مفتوح عليه ويرى عمله أبعد من حدود المادة ، فهو يربط بين نشاطاته وفعالياته وأهداف الحياة العالية .

إنّ من يطمئن قلبه بالإيمان فإنّ اعتماده وثقته سيكون بالله تعالى الذي بيده تدبير كل الأمور وحده لا شريك له ﴿ ما يفتح الله من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده ، وهو العزيز الحكيم ﴾^(٢) .

إلى أين يتمكن أن يلجأ البشر فيكون خارجاً عن حوزة قدرة الله تعالى ؟ إنّ اللجوء إلى ما سوى الله لا ينتج سوى الذلّة والحقارة ، وأنّى لمخلوق عاجز لا

(١) بالفارسية : روانشناسی برای همه : ٢٥٩ .

(٢) سورة الفاطر : الآية ٢ .

منجاً ولا ملجأ له إلا الله بل هو فقير في كل شيء إليه ولا يملك من أمره شيئاً ، كيف له أن يمتلك أمر غيره ؟ .

وعلى هذا فلا شيء أفضل وأجمل من أن يعيش الإنسان في كنف لطف الله وحمايته ، الذي بيده تدبير جميع الأمور . إنَّ العبودية والخضوع أمام الله في الضراء والسرء ، والإعتقاد الجازم الراسخ بسيادة القدرة المطلقة الإلهية فوق جميع القدرات والعلل والعوامل المادية ، يترك في نفس المؤمن آثاراً عجيبة من الطمأنينة بحيث لا يفترق قيمته وثقله أمام أيِّ حادث ، ولا يضطرب ولا يقلق لأيِّ شيء كبيراً كان أو صغيراً .

وإذا سلّم الإنسان نفسه وإدراكه إلى الحقّ سبحانه امتلأت روحه من الإذعان بطاعة الله والتسليم له حسب ظرفيته ، فلا يرتفع أنينه من الحوادث الأليمة ، ولا يغترّ ولا يسكر ببلوغ مناه ، وبكلمة : كلّ ما يورث الآخرين غروراً وتيهياً لأنفسهم لا يؤثر فيه أثراً غير مرغوب فيه ، وبما فيهم من عزيمة راسخة وروح ملىء بالإيمان والطمأنينة فهم لا يستسلمون لليأس والقنوط ، وهو منشأ كثير من الفشل وخيبة الأمل والهزائم والنكسات .

إنَّ الاتكال على الله لن يؤدي إلى العجز أو الضعف والوهن ، بل هو ثقة واعتقاد يوثق قوة الإرادة ، ويقطع جذور أي وسوسة أو تردد من القلوب .

إنَّ الكفاح الدائم والمستمر للرجال الإلهيين ضد عوامل التخريب والانحراف في المجتمع والأفكار المنحطّة فيه ، مع أنّه كان في أوضاع ومحيط غير مساعد ، ولكنّه كان يستمدّ من الحقيقة اللاحدودة ، فهم كانوا يستعينون بهذا المدد اللامرئي لتنفيذ برامجهم الإصلاحية وإرشاد العباد إلى نهج الرشاد ، وحيث كانت لأرواحهم ارتباط غير منقطع بقدرة الله الأزلية ، فإنّهم كانوا يتابعون أهدافهم حتى المرحلة النهائية بكل صراحة وقاطعية .

ليس للثقة بالنفس بدون الاتكال على الله أن تنقذ روح الإنسان في الأحوال الحرجة والمنهكة للقوى من الألم والقلق والإضطراب ، فإنّ الشدائد

والعوامل المعاكسة في الحياة تهزم روح العاري من الاعتماد على الله والذي لا تتجاوز بصيرته عن حدود الماديات ، وهو بهذه الحالة لا يتمكن من أن يخطو أية خطوة في مدارج الكمال وأن يدرك الحقائق الكبيرة حتى لو كانت بيّنة واضحة ، وربما أصيب بآلم ثقيل من حادث غير جليل .

إنّ ملاحظة كيفية روحية المسلمين الأوائل في صدر الإسلام تثبت لنا هذا المعنى ، إذ كانوا هم أفضل نموذج للاعتماد على الله والتوكّل عليه .

لا يمكننا أن ننسب العجز والوهن والحالة السلبية واللاعتماد ، إلى من كان دأبهم السعي والتضحية في سبيل العقيدة ، والفعالية والنشاط الدائم بهدف بناء مجتمع جديد سعيد ، في تلك الأوضاع الشديدة جدّاً .

أولئك الذين تربّوا في تلك المدرسة الإسلامية الأولى النشطة ، لم يسيطر عليهم حالة عدم الثقة أبداً ، وهذه الإرادة الثابتة المطمئنة هي التي فتحت عليهم طريق التقدم ، بحيث أحدثوا ذلك المجتمع الوحيد الذي لا نظير له في التاريخ .

* * *

على كل أحد أن يقيّم موقعه في الحياة ، ويعرف أنّ ما اختاره من طريق في الحياة هل هو إلى خير وسعادة أم إلى الشقاء والنكبات . وبالتعرّف على الحاجات النفسية نستطيع أن نكافح ضد العوامل التي توجب اضطراب التوازن الروحي ، وأن لا ندع تلك العوامل والظروف تجتمع وتتكاتف على ضرر الإنسان . أمّا بعد أن علمنا بأنّ النقص مسيطر على وجود إنسان ما فما لم يتعيّن منشأه فليس بالإمكان العلاج القطعي .

إنّ أفضل شيء للمصابين بعدم الثقة والذين يخافون أن يبدأوا بأيّ عمل مخافة أن لا يوفّقوا فيه لو بدأوا فيه ، هو أن يدرسوا عوامل هذا النقص الروحي ؛ إذ من الضروري اللازم لعلاج أيّ مرض في المرحلة الأولى أن نتعرّف

على علله وعوامله ، ومن خلال ذلك نتمكّن من أن ننفذ إلى أعماق وجودنا ونجد بذلك مفاتيح العلاج .

ولا شك أنّه مع ثبوت عدم سلامة حالات شخص ما ، فنسبة السعي في اجتثاث تلك النواقص تعود إليه توفيقات كثيرة ، ولا ريب أن ظرفية الإنسان وقدرته تسع الكفاح ضد العوامل النفسية المضادة والمعاكسة للكمال .

إنّ كل عادة سيئة علامة عن ضعف إرادة حصل للإنسان على أثر تكرار عمل ما ، حتى أصبح مرضاً مضرّاً مزمنّاً . وتغيير العادة وإن كان يبدو لأوّل وهلة مشكلاً جدّاً ، إلّا أنّه بالتمرين والتدريب والممارسة المستمرة من الممكن أن تغير مجرى العادة ومسيرها بحيث تختلف عن العادة السيئة السابقة . وإنّ الانتصار على أية عادة ضارة للبلوغ إلى السجيا النفسية الطاهرة ، هو انتصار كبير .

وفي (غرر الحكم) عن علي (عليه السلام) قال :
« بلغة العادات الوصول إلى أشرف المقامات »^(١) .

(١) غرر الحكم : ٣٣٥ .

الخوف والرجاء

- * غريزة الخوف .
- * لا الجبن ولا الوقاحة .
- * عدم المعرفة برموز الحياة .
- * تركيب الخوف والرجاء في الإنسان .
- * ضعف الإرادة .
- * الشجاعة بمعناها الواسع .
- * الرياء صورة من الخوف .

غريزة الخوف

إنّ الخوف من الغرائز الأساسية ، وهو جزء من الكيفيات البديهية لأيّ موجود حيّ ، تعرض له هذه الحالة حينما يواجه خطراً . في كفاح الحياة ، حينما يقع الإنسان على مفترق طرق : الفرار أو الإنعدام أو الإصابة ، يمنحه الخوف دافعاً كافياً لترجيح جانب الحياة ، إذن فالهدف من الخوف هو السعي في سبيل النجاة من المخاطر .

لو كان الإنسان ما قبل التاريخ لا يحترز من مختلف المخاطر ، لم يكن بإمكان العنصر البشري أن يستمر في الحياة .

لا تصحّ هذه الحالة فيما إذا كانت حياة الإنسان مهدّدة بالخطر فقط ، بل كلّما كان الإنسان في معرض إصابةٍ ما وجد الخوف دافعاً له للابتعاد عن موقع الخطر . وقد أثبتت التجارب العامّة أنّ خطر الوقوع تحت سلطة الآخرين أكثر شيء يوجب الخوف في البشر ، والخوف الذي يصيب الإنسان من ذلك من الممكن أن يشلّ حركة الإنسان لعدة شهور أو سنين .

هذا الخوف في الحقيقة ينشأ من مخاطرة شخصية الإنسان ، والذي يقع موقع هذا التهديد يشعر بأنّه سلب اختياره لاتخاذ القرار ، وسيضطر إلى أن يستمد من غيره كيفية سلوكه في الحياة .

وكّلما كان التلقين النفسيّ فيه بافتقاده شخصيته أقوى وأشد ، آلمته وحشته أكثر ، وقد تصل هذه الحالة إلى مرحلة الجنون .

وما يقولون من أنّ الخوف من الغرائز الذاتية وهو مفيد لاستمرار الحياة إنّما هو فيها إذا لم يخرج عن حدّ الاعتدال ، أمّا إذا أفرط فيه فهو مُضرّ قطعاً ؛ فإنّ الخوف الخيالي الذي هو نوع من الوسوسة وتوهم التعاسة والشقاء والألم قبل وقوعه ، فهو نوع مرض من نفسي مؤلم ومعذب ، يوهن الذهن ويضعف الفكر ، وقد دلّت دراسات الأخصائيين على أنّ كثيراً من الناس يفقدون سلامة أنفسهم بآثر من هذا العامل ، ليس هذا فقط بل قد يضرّهم أكثر من ذلك إن كان هناك شيء أكثر قيمة من صحة الإنسان وسلامته .

فكثيراً ما رأينا أنّ أزمات الخوف الشديد أصبحت سبباً لموت الفجأة ، فمن الممكن لخوف فجائي أن يزلزل ميكانيزم الحياة في الإنسان فيوقّف حياته .

وقد تكون حالة الخوف والوسوسة مقدمة لمرض نفسي شديد ، ومسبباً عن تحوّل شديد في نفس الإنسان ، وإلاّ فإنّ الإنسان الطبيعي لا يصاب بهذه الحالات بهذه السرعة ، بل يتعادل في نفسه في كمال الوعي واليقظة .

وقد يصاب بعض الناس بوحشة مبهمة مجهولة المنشأ والمصدر ومن دون أن يقدرُوا على أن يبيّنوا ممّ يخافون ، ومن دون أن يطلع أقرب الناس إليهم على الألم الخفيّ الذي يعانونه ، طبعاً هذا الخوف من مميّزات دور الطفولة ، وكل من خلّف دور الطفولة فقد قضاه بقليل أو كثير من حالة الشك والخوف في نفسه حتى بلغ دور التمييز والتشخيص ، ذلك سواء شاء أو أبى .

وبالتالي فإنّ هذا العيب الكبير يُعَدُّ عناصر الموقية والرقّي والتقدم في الإنسان ، ويقلل من نشاط الفكر والبدن وفعاليتهما ، وله آثار في جميع الأعمال التي تتحقق على يد الإنسان .

عدا عن أنّ هذا الخوف لا ينفع شيئاً ، وسواء تحققت تلك المخاطر أم لا ، فإنّ هذا الخوف لا يعود منه على الإنسان سوى إتلاف الوقت وتقليل القوى البدنية والمعنوية ، ولا يُبقي فيه لحين مقابلة الشدائد والمشقّات آية قدرة أو جرأة على المقاومة .

إنّ حالة الخوف والهلع تظهر في أشكال وصور عديدة ومختلفة ، كما يقول
الدكتور (كولز) :

« أليست لك ثقة بنفسك ولا ترى نفسك قادرة على مواجهة شدائد
الحياة ؟ أليست تشكو من خجل شديد ومؤلم ؟ أفهل تتألم في الاجتماعات وإذا
قابلت من لم تكن تعرفه من قبل تصاب بالتشويش والاضطراب ؟ أليست مرتاحاً
حتى تكون وحدك ؟ إذن فأنت خائف . .

هل تشعر بأنّ الناس يرونك غير فاهم ؟ فهم لا يفهمونك جيداً ولذلك
فهم يخالفونك ، هل تفكر في الماضي وما فات منك وتأمل كثيراً ؟ هل تشعر
بالتقصير والذنب بالنسبة إلى شيء أو شخص معين في الماضي السحيق
البعيد ؟ .

هل تفكر دائماً فيما حولك وأنت قلق لما يحدث لك ؟ هل يؤثر فيك كلام
الناس ولو كان باطلاً ؟ هل تخشى إذا غضبت واشتعلت فيك نيران الغضب من
أن لا تسيطر على نفسك وتعجز عن إخماد لهيبه ؟ هل أنت متزعج من معاشرة
الناس وتتعبص للشيء كثيراً ؟ هل ترى لنفسك مشكلة في إيجاد العلاقة
والرابطة بينك وبين الآخرين ؟ أجل ، هذه كلها صور مختلفة من الخوف « (١) » .

إذا كان الشخص مصمماً على الصرامة والقاطعية بالنسبة إلى ما يلتزم به
من أصول وقواعد في الحياة ، فإنه سيتحمل الشدائد والمصائب بروح شجاعة ،
ويحارب المشاكل ، ولا يجرؤ اليأس والقنوط على أن يجد له مكاناً في نفسه .

ربّ أناس ذوي إمكانيات وطاقات كامنة كان بإمكانهم أن يكتسبوا بها
موقعاً حسّاساً في المجتمع ، وكانت لهم القدرة الكافية لطرد روح الخوف عن
نفوسهم ، ولكنهم لعدم الشجاعة الكافية لديهم لم يتمكنوا أن يبدأوا بالسعي
اللازم في هذا المجال ، ولذلك فقد بقوا غير منفتحين .

(١) بالفارسية : غلبه برترس وخستگي : ٦٤ ، ٦٥ .

إنّ ما يسبّب خروج أزمة الحياة من يد الإنسان هو أن يبقى بلا تكليف أو بلا تصميم أو يتخذ قرارات ناقصة ، وإن إتلاف الوقت بالفكر في سوانح وحوادث من الممكن أن لا نواجهها أبداً ، خطر حاضر لا يجبر بشيء .

يقول (شكسبير) :

« من يخاف لسعة النحل فإنه لا يستحق أن يمتلكه » .

إنّ طرد الخوف والتصورات الواهية من الذهن ، وتبديلها بالأفكار والآمال الصحيحة ، من الممكن لكل أحد في كل زمان ومكان ، ولكن مهما كان الشخص قوياً في قراراته وكان هدفه كريماً عالياً مع ذلك قد لا يتمكن من أن يعدم بعض العادات دفعة واحدة ، بل ينبغي دفع هذه العادات بصورة تدريجية ، ولا يكفي في ذلك أن يطلع الإنسان على أنّ خيالاته هذه لا أساس لها ، بل يجب أن يقوم بنشاط وفعالية فكرية مستمرة للدفاع عن شخصيته أمام هذه الخيالات ، ولتغيير مجاري الأفكار المؤلمة ، ولا بدّ أن يفتح نوافذ فكره للأفكار الإيجابية ، وهكذا تتهيأ الأرضية لاكتساب المواقف الكبيرة .

كما أنّه ما لم يضغط أحد على زرّ المصباح الكهربائي فإنه لا يتقد ، وما لم يضغط عليه مرة أخرى لا ينطفئ ، على الإنسان إذا استوعبت ظلمة الوحشة روحه أن يوقد مصباح فكره على أضواء الحياة ليتحرّر خاطره من ثقل الخوف في غير محله .

إنّ من يتلى بكثير من الأفكار الواهية حتى في جزئيات الأمور ، عليه أن يدرس هذه الأفكار التي تذهب بتوازن ذهنه وروحه ، ليدرك أنّه لا يمكن أن يتحقق أي عمل بالخوف والهلع ، بل يجب أن يجد السبيل إلى ذلك العمل ، وعوضاً عن التصورات الباطلة عليه أن يغرس فسيل الأمل والطمأنينة في حديقة روحه ، ثم يهتم بتربيتها وريّها كبستانيّ ماهر .

لا ريب أنّ الخوف والوحشة من نتائج الخيال البشري ، ولا وجود له خارج ذهنه ، وحينما يدرك الإنسان هذه الحقيقة يقدر على أن يتغلب على الخوف

إلى حدّ كبير ، فيحصل على السكون والراحة .

لا الخوف ولا الوقاحة

« الفضيلة » في علم الأخلاق هي الحدّ الوسط^(١) بين الإفراط والتفريط ، و « الشجاعة » فضيلة بين الوقاحة والتهور وبين الخوف والجبن ، فمن كان بعيداً عن الخوف والوقاحة كان شجاعاً . وإنّ اكتشاف المنابع الحيوية القيمة واكتشاف القارات . . كل ذلك رهين لشجاعة الشجعان ، والعلوم كذلك تكاملت من خلال ذلك .

وبصورة عامة فإن الطاقات الروحية عامل أصلي في رقيّ الإنسان وتقدّمه ، ومن كان في ساحة الحياة يتمتع بروحية أقوى كانت توفيقاته أكثر .

لولا الشهامة لما كانت الثورات الفكرية والاجتماعية تنتج شيئاً ، وإنّ الدور الذي تؤدّيه هذه المزيّة الروحية في التطورات المادية والمعنوية للبشر ، وما حصل للإنسان من نتائج التجارب العملية ، تفرض الإذعان على أكثر البشر قتامة في النظرة وتشاؤماً ، ويؤكد ذلك ما يجري أمام أعيننا من مظاهر نفاذ قدرات الرّجال الإيجابيين .

إنّ كبار رجال التاريخ الذين قد أدّوا دوراً مؤثّراً في إنقاذ أممهم ، فأنجّوهم من الأوضاع والظروف المضنية ، كانوا بصورة عامة أناساً متحركين ذوي شهامة ، بل إنّ تكامل هذه الصفة تؤدّي إلى نمّو سائر الاستعدادات أيضاً .

وعلى هذا فمن المسؤولية الأخلاقية على كل أحد في قبال نفسه أن يعتني

(١) نظرية الحدّ الوسط في الأخلاق هي النظرية القديمة اليونانية الإسلامية ، وهي مورد مناقشة ونقض وإبرام بين العلماء المسلمين ولا سيما المتأخرين منهم فكثير منهم لا يدّعون بها ويقول بدلهما بميزان الشرع كما هو المنقول عن الشهيد الصدر (قدّه) العرب .

أكثر فأكثر باكتساب هذه المزية الأخلاقية الكبرى التي هي من أنفع الفضائل ، فإنّ ما يجب أن يحل من مشاكل ، وما يجب أن يتحقق من أعمال ، وما يمكن أن ينتج من نتائج ، أصول كل ذلك منوطة بالشجاعة الفردية ، مهما كان ذلك يختلف من فردٍ لآخر .

ما أكثر الإقتراحات والنظريات الإصلاحية والآراء العملية والنافعة التي تصل إليها أفكار كثيرين من الناس ، ولكن لا تبرز من حجب أفكارهم بسبب ما فيهم من حالة الخوف والوحشة ، إنهم في الحقيقة واجدون للكفاءة واللياقة والاستعداد التام ، ولكنهم تعوزهم روح الشهامة ، فمع ما لهم من إيمان تام في كثير من الأحيان بأصالة آرائهم ونظرياتهم واقتراحاتهم وابتكاراتهم الفكرية ، مع ذلك ليست لهم الشهامة اللازمة ليرزوا نظرياتهم بكل طمأنينة وسكون .

وإذا اقتضت الضرورة أن يعرضوا تصميماً أو أطروحة على الآخرين استعجلوا فيها واضطربوا ، وكأَنهم لا يحسنون الظن بأنفسهم بل يتهمونها بشيء . وحتى في المباحثات العلمية أو الاجتماعية بمحض ما يواجهون برأي مخالف يختارون التقاعد عن آرائهم من دون أقل دفاع عنها بل يعتذرون بما قدّموا من دلائل ، مهما كانت آرائهم أكثر منطقية وأقوى استدلالاً من الآخرين وكانت مبتنية على أسس صحيحة ومبتينة .

إنّ العلل والعوامل التي تسبّب لهذه الحالة في الأشخاص ، يجب أن تدرس وتبحث فما لم تُعرف تلك العوامل لن يجدوا سكوناً في أفكارهم ولا شهامة في أنفسهم . من الممكن أن يكون الشخص في دور طفولته ذا أمل وهمة عالية ، إلّا أنّ بعض الحوادث منعت من نمو تلك الطاقات ، أو قد يكون الأولياء والمربّون له هم الذين قمعوا فيه تلك الأفكار النافعة المفيدة غفلة وجهالة .

وإذا علمنا أنّ قوة بناءة في شخص ما أصبحت ضعيفة موهونة لأمر ما ، فمن الممكن أن نفثّش عن طريق علاج من الطرق الأساسية ، فإن استطاع هو أن يطرد عن وجوده ما استولى عليه من الخوف الباطل ، تزايدت طمأنينته وثقته

بنفسه تدريجيّاً كذلك ، وإنما يكون من آثار قوة الشهامة البناء أن تنعدم حالة التردد والوسواس في النفس ، ويعوّض عنها بالأمن والسكون .

الجهل برموز الحياة

إنّ إحدى العوامل الأساسية التي توجب شدّة القلق وتبدّله إلى خوف خطير ، هو الجهل وعدم الإطلاع برموز الحياة . إنّ الرجل الشهم يعلم جيداً أن حياة البشر خليط بأنواع الشدائد والمصائب ، فكلماً واجه مشكلة حافظ على برودة أعصابه ودمه .

لهذا السبب يقال أنّه لا بدّ أن يعدّ الإنسان نفسه لتحملّ الحوادث قبل أن يواجهها ، فإنّ الإنسان إذا فكّر في الحوادث قبل وقوعها استطاع أن يتحضّر ويتجهّز لتقبّلها نوعاً ما ، وحينئذٍ فإذا تحقّقت الحادثة سوف لا يكون لها أثر كبير عليه ، على العكس ممّن لم يكن مستعدّاً لتقبّل بعض الحوادث فإنّه إذا وقعت الواقعة كانت عليه كضربة ثقيلة فجائية تقع على هامته ، فتغيّر من أوضاعه كل شيء . إنّ الغفلة عن احتمال وقوع الحادث تجعل منها حوادث موحشة مميتة ، أمّا الاستعداد لتقبّل الحوادث فيسبّب في أن يفكر الإنسان في مراحل من الممكن أن تؤثر في تعديل آثارها ونتائجها ، وأن تمهّد الدرب لمقابلتها ومقاومتها .

يقول (وولتر) :

« يجب على الإنسان أن يتقدم في طريق الحياة بضرب السيف والسلاح ، ولا يستسلم للموت إلّا والسلاح بيده ، إنّما أولئك هم الناس العجزة والفاصلون في أفكارهم الذين يسقطون بعواصف الحوادث ، وإنّما هم الضعفاء الذين تراهم يشكون دائماً من مصائب الحياة وشدائدها ومشاكلها . ما دمتم متردّدين شاكين محتملين لوقوع حادثة ما ، وما زال لكم الأمل في رفع وقع تلك الحادثة فلا تبدوا من أنفسكم الضعف والوهن ، بل قاوموا الحوادث ثابتين مهما أمكن »^(١) .

(١) بالفارسية : افكار شوينهاور : ٩٧ .

إنَّ المعرفة والإطلاع على كيفية الحوادث من الطرق الأساسية لتقليل الخوف بشكل عام ، والإنسان يقل عليه ضغط ما فيه من خوف باطل بالتدريج موازياً لتقدم العلم ورفي المعرفة لديه وتكامل عقله ونموّ رشده ، ولهذا فإنّ كثيراً من العوامل التي كانت في مختلف أدوار حياة البشر أسباباً لخوفه حينما كان وحشياً أو نصف وحشي ، لا معنى للخوف منها لمن يتمتع اليوم من الناس بشار تكامل العلم ورشد العقل .

لقد أثبتت التجارب أنّ نفس المعرفة تبدّل الوحشة المحطّمة بالطمأنينة والسكون ، وعلى أساس هذه الحقيقة الواقعة يرى جميع علماء النفس أن نفس معرفة الشيء المجهول والتعرف على سبب ظهور الخوف المؤلم مقدمة ضرورية لعلاج الخيالات الموحشة والاضطراب الفكري والقلق .

ولا ينبغي أن ننسى نقطة مهمّة هنا هي أنّ الخوف القديم وإن قلّ كثيراً بتقدم العلوم ، لكنّه من ناحية أخرى حدثت أنواع جديدة من الخوف والفرع مكان الخوف القديم متزامنة مع ما حدث في حياة الناس من التطورات الصناعية الجديدة ، ففي المجتمعات الصناعية التي تشكلت من أفراد لا يعرف بعضهم الآخر لا يزال سكّانها يستوحشون يوماً بعد يوم بالرغم من تركز الناس وكثافة السكّان ، ويحرمون من الإقتراب والتآلف والتعارف بين أرواحهم ، قد تبدّلت المعاشية والمعاشرة التي كانت تسود علاقات الناس بالأمس إلى الشعور بالغربة والوحدة ، فكثافة السكّان وتمركزهم أحدث فيهم الابتعاد الروحي والاغتراب فيما بينهم ، ومع أنّهم يعيشون مقتربين لا يعرف بعضهم الآخر من قريب وبصورة عميقة جذرية ، وعند اللزوم يبخلون عن عون الآخرين ومساعدتهم .

وإنّ التنكّر للعواطف ، وللعادل والإحسان ، والابتعاد عن التكاليف والتقوى ، يسبّب الخوف والدُعر ، فالخوف - في الحقيقة - من التبعات التي يعاقب الإنسان بها بسبب انحرافه عن مسيرة الفضائل .

يقول أحد المفكرين الأمريكيين :

« إنَّ أيَّ نقض للمحبة أو المواساة في الروابط الاجتماعية والعلاقات يوجب جزاءً شديداً ، هو - كما سنرى - الخوف والدَّعر ، فما دامت لي مناسبات حسنة مع أقربائي أو أقراني فإنَّه لا يصيبني أيَّ شيء عند لقائهم ، بل نفوسنا تتلاقى فيما بينها وفقاً لما يسود في الطبيعة من الاختلاط والامتزاج والانتشار والتفاعل ، كما يتلاقى الماء بالماء ، ويختلط الهواء بالهواء . ولكن بمحض ما يعدل أهدنا عن البساطة والسذاجة والوضوح ، ويبدأ السعي للانفصام ، فمثلاً يتأذى خاطر جاري لأنِّي لم أرض له شيئاً رضيته لنفسي ، فإنَّه يبتعد مني بمقدار ما ابتعدت أنا عنه ، فعيونُه لا تفتش بعدُ عني ، وتبدأ الحرب بيننا ويظهر فيه الإنزعاج ويكمن في الخوف .

وجميع أنواع الظلم الاجتماعي أعمّ من أن تكون عامّة أو خاصّة ، وجميع مظاهر اكتناز الثروة والقوة ، كل ذلك سيقع مورد انتقام في الطبيعة ، فإنما يظهر خوف يوجد فساد ، وهذه هي أكبر موعظة للخوف . إنَّ الخوف ضبع يفتش عن الأموات فحضوره علامة عن وجود ميتة . إنَّ الخوف قد نفذ منذ قرون في قوانيننا وطبقاتنا ، وهو منذ قرون أيضاً قد أظّل بظله على حكوماتنا أيضاً ، وليس وجود هذا الحيوان المشؤوم بلا سبب ، بل بالتحقيق إنَّه يؤكّد وجود ظلمات يجب أن ترفع وتزول »^(١) .

الخوف والرجاء في فطرة الإنسان

قد تركّب في فطرة الإنسان « الخوف والرجاء » وهما يولدان مع الإنسان وينموان معه ، فالخوف من المرض والألم والفقر والضعف ، شعور ينشأ من باطن الإنسان ، ومن جانب آخر هو يأمل في الأمن والراحة والدّعة والتمكّن . . . وكلّما تحققت أمنية نبتت أمنية أخرى في قلبه وملأت مكان الأمنية المقضيّة .

إنَّ الخوف والرجاء معاً يرسمان لنا أفكارنا وأهدافنا وأبعاد الحياة ، والإنسان يختار طريقه في الحياة وفقاً لنوعيّتهما ومستواهما ، فالذي قد أشغل فكره

أمل المال والقدرة والمقام يرسم أهدافه على هذه الأسس ، فهو يقدم على أعمال يأمل أن توصله إليها ، ويصرف همته في اختيار الوسائل التي يأمل أن يصل بها إلى آماله تلك في أسرع وقت ممكن .

أما الذي قد حرّر نفسه من قيود هذه الميول وضغوطها ، لن يصرف قواه في سبيل هذه الأهداف من دون أي قيد أو شرط ، إذ هو يملك نفسه وهو متحرر عن عبودية هذه الميول والأهواء والمشتتهات .

والإسلام باستناده على الخوف والرجاء ، يرفع عن كاهل نفس المؤمن ثقل ذلك الخوف الذي لا أثر له في تغيير حقيقة الأمر وإنما هو ثقل على عاتق نفس الإنسان ، فإن الخوف الذي لا يقلل شيئاً من الواقع المرّخوف باطل ، وهكذا قد حرّر نفس المؤمن من الخوف من أمور الأرض والتعلّق بمتع الحياة الزائلة ، وهو يحمل الإنسان على السعي في سوم العمل ، وينفي كل أمل ضالّ مضل عن ضمير الإنسان ، وهكذا يمنع النفس عن الضلال ولكي ينطلق الإنسان نحو حياة قيمة أخرى ، ولا يعتمد أي شيء سوى قدرة الله الأزلية .

الإسلام يرى أن آتياً من عوامل الرعب العادي ليس هو الضر والنافع ولا مدد له من نفسه ، ولذلك فهو لا يستحق الخوف ، وإنما يستحق الخوف ذلك القاهر فوق عباده الذي بيده كل شيء وهو على كل شيء قدير ، وهو اللطيف الخبير ، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة فقال :

﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ؟ أَمْ مَنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ ؟ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ ، وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ؟ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ؟ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ ، فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ (١) .

ومن جانب آخر حيث يمدّ الإنسان عينيه طبعاً إلى كثير من النعم واللذائذ الجسدية ، لذلك لم يحرم الإسلام أحداً من المتع واللذائذ الطاهرة والنزيهة ، ولم

(١) سورة يونس : الآية ٣٠ .

يقسره على الإنصراف عن أمور الدنيا ، ولكنه يحاول أن يصرف أمله بالقيم الكاذبة إلى الآمال والقيم الواقعية الحقّة ، وهو ينبّه الإنسان إلى أن لا تخدعه المتع الفانية ، وأن لا يغرق في الشهوات الفانية ، بحيث يحرم من المتع الحقيقية الخالدة ، ويقوده دائماً إلى أن يطلب رضا الله سبحانه :

﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ (١) .

إنّ ما ورد في التعاليم الإسلامية من التأكيد على الخوف من الله تعالى يرجع في الحقيقة إلى المخافة من عاقبة أعمال الإنسان نفسه ، وهذا الخوف ليس غير ضار فقط بل فيه فوائد كثيرة ومنافع واسعة تشمل جميع أعمال الإنسان . إنّ الخوف من العواقب المؤلمة للأعمال السيئة يزيد في حزم الإنسان وحيطة وحذره ، ويؤدّي إلى تنظيم الغرائز الضارّة وانضباطها ، ويجعل من الإنسان موجوداً منتظماً جدّاً .

إنّ الرجاء من الله سبحانه ورحمته الواسعة من دون الخوف منه ، يؤدّي إلى مفاسد كثيرة .

إنّ الإنسان إذا كان قلبه فيّاضاً بالأمل بالله تعالى ، كان يبادر إلى ارتكاب أيّ عمل بلا وجل وهو لا زال يأمل ويرجو ، ومن الممكن أن يغرق في الضلال بكل أعماله ولا يقل شيء من أمله .

إذن فعدم وجود الخوف من الله تعالى يؤدّي إلى الضلال في الأعمال ، ولهذا نرى الأوامر الدينية قد أكّدت على أن يكون الإنسان في منزلة بين الخوف والرجاء ، ففي حين هو يأمل رحمة الله الواسعة يخاف عقوبة أعماله ، وحينئذٍ فهو لا يصاب بالغرور من أعماله الصالحة .

روى (الفيض الكاشاني) في موسوعته الأخلاقية (المحجة البيضاء في تهذيب الأحياء) عن الإمام الصادق (عليه السلام) (والظاهر أنّه عن كتاب

(١) سورة العنكبوت : الآية ٦٣ .

(مصباح الشريعة) المنسوب إلى الإمام الصادق (عليه السلام) أنه قال :

« الخوف رقيب القلب ، والرجاء شفيق النفس ، ومن كان بالله عارفاً كان من الله خائفاً وإليه راجياً ، وهما جناحان للإيمان ، يطير بهما العبد المحقّ إلى رضوان الله ، وعينا عقله يبصر بهما إلى وعد الله ووعيده والخوف طالع عدل الله باتقاء وعيده ، والرجاء داعي فضل الله ، وهو يحيي القلب ، والخوف يميت النفس » (١) .

إنّ العامل المحرّك للمسلّحين بسلاح العلم والإيمان الذين يخافون جزاء الله العادل ، العامل المحرّك لهم في عملهم بالأوامر الإلهية ، هو نفس إطاعة أوامر الله ونواهيه . إنّ الخوف من عواقب الأمور بمثابة الإنذار بالخطر إذ يحمل الإنسان على أن يفكر في الوقاية ، ويجرّه إلى رعاية جميع جوانب مسؤولياته ، ويردعه عن التلوّث بأرجاس المعاصي ، ويكون السبب في أن يلاحظ الإنسان في كل حال سعادته الواقعية الحقيقية في الآخرة .

والقرآن الكريم يرى أنّ العلم مادّة الخشية من الله تعالى تلك الخشية التي تبصّر المؤمن المتقي بمخاطره : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ (٢) .

ولا شك أنّ العلم الذي يجعل الإنسان في عداد العلماء عند الله ، ويكون وسيلة لطهارة الباطن وتزكية النفس ، هو العلم الذي يوظّف في سبيل تكامل النفس ، ويقود العالم إلى عبادة الله والتوجّه إلى قدرته المطلقة ، هذا العلم لا يدع العقل والوجدان يتلوّثان بالآثام ، بل هو من أهمّ أسباب يقظة الفكر للتفكير حول خلقه نظام الوجود وتذكّر عظمة الله تعالى :

﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ، وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ ، فَقِنَا عَذَابَ

(١) المحجة البيضاء ٧ : ٢٨٣ .

(٢) سورة الفاطر . الآية ٣٥ .

النار ﴿١﴾ .

بل يرى القرآن الكريم أنّ الهداية والبصيرة أيضاً من بركات حالة الخشية من الله تعالى :

﴿ سيذكر من يخشى ﴾ (٢) .

سألت عائشة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قالت : يا رسول الله ! قول الله : ﴿ والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة ﴾ (٣) . أهو الرجل يزني ويسرق ويشرب الخمر وهو مع ذلك يخاف الله ؟ فقال (صلى الله عليه وآله وسلم) : لا ، ولكن الرجل يصوم ويتصدق ويصلي وهو مع ذلك يخاف الله أن لا يتقبل منه (٤) .

وروى الشيخ الطبرسي في (مجمع البيان) عن الصادق (عليه السلام) قال :

« معناه : خائفة أن لا يُقبل منهم » (٥) .

إنّ الخوف المذموم الضار هو الخوف الناشئ من الضعف والعجز ، والذي ليس غير محرّك الإنسان إلى الإقدام المفيد بل هو مانع من التقدّم والرقى ويسد سبيل السعادة على صاحبه ، ولذلك فقد كان أئمة الإسلام يحاولون أن يحرّروا أتباعهم حسب برامج تربوية من أسر الخوف الباطل الذي يزلزل عزيمة الإنسان وإرادته ويعدم اعتماده على نفسه وثقته بها ، وذلك بالإفادة والاستعانة من قوّة العقل والإيمان في المؤمن .

لما عزم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) على المسير إلى

(١) سورة آل عمران : الآية ١٩ .

(٢) سورة الأعلى : الآية ٩ .

(٣) سورة المؤمنون : الآية ٦١ .

(٤) الميزان ١٨ : ٥٠ نقلاً عن الدر المنثور

(٥) الميزان ١٨ : ٥٠ .

الخوارج تقدم إليه بعض دهاقين دسائيق الطريق وقال : يا أمير المؤمنين إن سرت في هذا الوقت خشيت أن لا تنظفر بمرادك ، من طريق علم النجوم . فقال (عليه السلام) :

« أتزعـم أنك تهـدي إلى الساعـة الـتي من سار فيها صُرف عنه السوء ، وتخوَّف من الساعـة الـتي من سار فيها حاق به الضرُّ ؟ فمن صدَّقك بهذا فقد كَذَّب بالقرآن واستغنى عن الإستعانة بالله في نيل المحبوب ودفع المكروه ، وتبتغي في قولك للعامل بأمرك أن يوليَّك الحمد دون ربِّه ، لأنَّك بزعمك أنت هديته إلى الساعـة الـتي نال فيها النفع وأمن الضرُّ !! .

ثم أقبل (عليه السلام) على الناس فقال :
« أيها الناس إياكم وتعلَّم النجوم إلَّا ما يُتدى به في برٍّ أو بحر ، فإنَّها تدعو إلى الكهانة والمنجم كالكاهن والكاهن كالساحر والساحر كالكاfer والكافر في النار . سيروا على إسم الله » (١) .

هكذا أمر أمير المؤمنين عسكره أن يسيروا إلى جبهة الحرب متكلين على الله تعالى ، من دون أن يعتد بهذا الكلام الذي لا أساس له ولا أن يرتب أثراً على تنبؤاته . وكانت العاقبة أن انتهت الوقعة بانكسار الخوارج وانتصار جيش الإمام (عليه السلام) .

وفي (غرر الحكم) يعلم الإمام (عليه السلام) أصحابه في إحدى كلماته قائلاً :

« إذا خفت صعوبة أمر فاصعب له يذلّ لك ، وخادع الناس عن أمثاله يهنُّ عليك » (٢) .

ويقول علماء النفس :

(١) نهج البلاغة ١ : ١٠٥ ط الصالح .

(٢) غرر الحكم : ٣١٩ .

« في حياتنا اليومية نلاقي كثيراً من الناس ممن قعد بهم الخوف ، وقد سمحوا للخوف أن يأخذ منهم هذا المآخذ .

ما أكثر أولئك الذين امتنعوا عن الإشتراك والمساهمة في الفعاليات والنشاطات الاجتماعية على أثر خوفهم وحذرهم ، ولذلك فقد تخلّوا عن حمل ثقل المسؤوليات مقهورين لذعرهم .

كثير من الطلاب يسألون أساتذتهم رعباً ورهبة ، ويستولي عليهم ذلك في الإمتحانات أيضاً بحيث لا يستطيعون معه أن يبيّنوا أو يكتبوا ما كانوا يعلمونه ، ونرى كثيراً من الناس لا يعترفون بأخطائهم لخوفهم ، وهناك كثير من الناس لا جرأة لهم على أن يقولوا «لا» أي يخافون أنهم لو امتنعوا بحق عن الطاعة غير المفترضة يحدث لهم شيء يرهّبونه .

هذا النوع من السلوك يبعث على أن يفسح المجال للخوف بأن يسيطر على الإنسان ، فيقلل من قدرته للتفوّق والتغلّب على الخوف نفسه تدريجياً ، وتزداد مشاكله اليومية يوماً بعد يوم .

وكل أحد في حياته يحتاج إلى الشجاعة والشهامة بشكل وآخر ، والأفضل أن تحصل هذه الجرأة في الطفولة ، فمن أراد أن يكون له بلوغ رشيد كان عليه أن يخلق في نفسه الجرأة والشجاعة ، وإذا حصلنا على الشجاعة في وجودنا في حينها فإنّها تزداد حينما نحتاج إليها .

علينا أن نعمل بكل ما هو ضروري ولازم للتفوق والتغلّب على الخوف والرعب ، فإنّه تتفق لكثير منّا توفيقات للقيام بمهام أعمال امتنعنا عن القيام بها على أثر الخوف الخفي أو الظاهر .

فمثلاً قد اتفق لكم فرص في الصفّ لتساهموا في إلقاء الكلمات ولكنكم لم تفعلوا ذلك ، لأنكم خفتم أو هبتم ، أو أن صاحبكم قد تقدم إليكم في ذلك باقتراح كان يختلف مع ما تقبلتموه أنتم من أصول أو قواعد ومقرّرات ولكنكم خوفاً وحذراً من أن يتألم منكم صاحبكم لم تصرّحوا له بالنفي «لا» أو أنكم

ارتكبتم خطأ وأنكم لم تعترفوا به خوفاً وخجلاً ورعباً ، كل هذا من الخوف والرعب .

فلو عرفتم ذلك وعملت ما كان ينبغي أن تفعلوه ، استطعتم بذلك أن تخلقوا أو تنموا في وجودكم الشجاعة ، وهذه هي طريقة إيجاد الشهامة ، وكلما كررتم هذه العملية زدت بها على شجاعتكم شيئاً فشيئاً ، وبذلك تتمكنون من أن تغلبوا على خوفكم ورهبتكم ، وبحصولكم على الجرأة اللازمة واستقرارها فيكم تقدرون على حل مشاكلكم»^(١) .

والبشر اليوم على الرغم مما حصل عليه من الانتصار على الكثير من العوامل الطبيعية فهو في وحشة دائمة مستمرة من المستقبل والمرض وخيبة الأمل والإنكسار في الحياة .

وما أكثر الأدمغة النشطة والمبدعة التي أصابها الخوف والرعب والذعر والرغبة من الحوادث والمواضيع التي تتعلق بالحياة والمعيشة ، وبالتالي أصابها ذلك بالجمود والركود ، وما أكثر الآراء الأصلية والإبداعات القيمة التي دفنها الخوف تحت غبار النسيان .

وفي (نهج الفصاحة) عن الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) أنه قال :

« شرّ ما في الرجل شحّ هالع وجبن خالع »^(٢) .

ضعف الإرادة

إنّ ضعف الإرادة وليد الخوف اللامعقول ، ومن الممكن أن تصبح حالة الشك والتردد مقدمة لخوف عميق ، وأينما حلّ الوسواس والتردد خرج الإيمان

(١) بالفارسية : روانشناسی برای زیستی : ٢٩٩ .

(٢) نهج الفصاحة : ٣٨٢ .

من ذلك الميدان ، ولذلك فإنّ الذي لم يصل إلى حدّ الإيمان الكامل يصبح دائماً مورداً لهجوم سهام الشك والتردد ، ويصبح التزلزل والتردد من خصائصه العادية ، بينما المؤمن لا يصاب بالتزلزل والتردد ، ولا يجد الخوف المؤلم منفذاً إلى علمه وعقله .

إنّ الإنسان المؤمن الفياض قلبه من الإيمان والخلوص ، والذي هو مرتبط بقدرة الله ارتباطاً لا ينقطع ، هو أقوى من أية قدرة فاسدة ، فلو اضمحلت قواه المادية أمام قوى الباطل وأصيبت بالإنكسار والفشل ، فإنّه لا يجد نفسه وحيداً لا ملجأ له ، إذ هو متكامل بكل وجوده على قدرة الله العظيمة ، وهو يهتدي بهداه .

ومن العناصر الأصلية في العقيدة الإسلامية أنّه يتمكن من إرشاد الضالين إلى الصراط المستقيم ويستولي على كل ضلال وضياع في نفس الإنسان ، والإنسان المؤمن بالإستعانة من القدرة الإلهية الأزلية يستطيع أن يسيطر على مختلف القوى المادية ، وهي ليست القوى الوحيدة في واقع الحياة .

ومن هنا نرى أمير المؤمنين عليّاً (عليه السلام) في كتابه إلى أهل مصر مع مالك بن الأشتر النخعي يصفه لهم بالشهامة والقوة المعنوية فيقول :

« أمّا بعد ، فقد بعثت إليكم عبداً من عباد الله ، لا ينام أيام الخوف ، ولا ينكّل عن الأعداء ساعات الرّدع ، أشدّ على الفجّار من حريق النار ، وهو مالك بن الحارث أخو مذجج ، فاسمعوا له وأطيعوا أمره فيما طابى الحق ، فإنّه سيف من سيوف الله لا كليل الطّبّة ولا نأبى الضّريبة »^(١) .

وفي وقعة « صفين » حين تصرّف عساكر معاوية في « الشريعة » فمنعوها عن أصحاب علي (عليه السلام) ، حاول أمير المؤمنين أن يحلّ المشكل عن طريق المفاوضات ويتّقي فيها القتال ما أمكن ، ولكنّ معاوية الذي كان يرى

(١) نهج البلاغة : ٤١١ ط الصالح الكتاب ٣٨ .

استيلاءً عسكرياً على الماء نصراً كبيراً له انتهز الفرصة ولم يرضخ للمفاوضات ،
ولذلك فقد بقي أصحاب علي (عليه السلام) في ضائقة من المياه ، ولهذا وقف
(عليه السلام) بينهم خطيباً وقال :

« قد استطعموكم القتال ، فأقروا على مذلة وتأخير محلة ، أورووا
السيوف من الماء تُرووا من الماء ، فالموت في حياتكم مقهورين
والحياة في موتكم قاهرين ، ألا وأن معاوية قاذلة من الغواه وعمس
عليهم الخبر حتى جعلوا غورهم أغراض المنية » (١) .

هذه الخطابة النارية أثارت في نفوس الجنود عاصفة بل ثورة فوّارة ، وفار
في عروقهم دم الشهامة والشجاعة ، فدفعوا عن الشريعة عسكر معاوية بحملة
واحدة واستولوا عليها ، ثم سمحوا - بكل عفو وبغاية الفتوة - لأعدائهم أن
يتنفعوا من الماء حسب حاجتهم إليه .

الشجاعة بمعناها الواسع

ولا ينبغي أن نرى الشجاعة محصورة بميادين الحرب ، بل يمكننا أن نراها
في مراحل الحياة ، وأن نفيد منها كذلك .

وبشأن قيمة هذه المزية الروحية يقول الدكتور (ماردن) :

« أنت بحاجة إلى شجاعة إن كنت تلبس ملابس قطنية بينما أصدقاؤك
يلبسون الماهوت ، وأنت بحاجة إلى شجاعة إن كنت تعيش بفقر معه تقوى
وصبر في حين أن الآخرين يكتنزون الثروة زوراً وتزويراً ، أنت بحاجة إلى
شجاعة إن كنت تقول « لا » في حين أن كل من معك يقول « نعم » أنت
بحاجة إلى شجاعة إن كان الآخرون يكتنزون الثروة بنقضهم لعهودهم المقدسة
وأنت تؤدّي وظيفتك بسكوت . أنت بحاجة إلى شجاعة من أجل أن لا تبدي

(١) نهج البلاغة ١ : ٨٨ ط الصالح . الخطبة ٥١ .

من نفسك خلاف ما أنت عليه بل تبديها على ما هي عليها وعلى علانها « سقط عديم » أي أنت بحاجة إلى شجاعة من أجل أن تتحمل الإنكسار والإستهزاء . والشاب الذي يخاف في بدء أمره أن يبدي للآخرين ما هو يفكر فيه ، سيخاف في نهاية الأمر حتى من التفكير فيما يريد .

ما أكثر وحشتنا من الإقدام على أعمال وفق ما نريد ، ونريد أن نعيش كما يعيش الآخرون ، فمثلاً يجب أن يكون الزيّ والملابس ، والسكنى ، والسيارة ، وكل شيء على وفق الموديل الحديث ، وإلاّ فنشعر بالطرد من المجتمع ، وتلزمنا الجراءة لئلا يرضخ الرجل ويركع في المجتمع أمام ما يتعصّب له العامة والسوقة ، وليعصي ولا يتابع ما هو مرسوم ولكنه يضرّ بالصحة والأخلاق^(١) .

أجل ، إنّ عدم الاعتداد بأرباب القدرة والتزوير وحتى الخلفاء الغاصبين الطاغين المستبدين ، كان من الخصائص البارزة لمن تربّى في مدرسة الإسلام التربوية ، بحيث أنهم كانوا يحافظون على قواهم المعنوية والروحية حتى في أشدّ الظروف (وإن كان في بعضهم انحرافات من ناحية أخرى) .

فقد نقل المحدث القميّ في (سفينة البحار) عن (الكشكول) للشيخ البهائي نقلاً عن (إحياء العلوم) للغزالي ، روى أنّه : قدم هشام بن عبد الملك حاجاً أيام خلافته فقال : إيتوني برجل من الصحابة . فقيل : قد تفانوا . فقال : فمن التابعين . فأقبطاوس اليماني . فلما دخل عليه خلع نعليه بحاشية بساطه ، ولم يسلم عليه بإمرة المؤمنين بل قال : السلام عليك ، ولم يُكنّه ، ولكن جلس بإزائه وقال : كيف حالك يا هشام ؟ .

فغضب هشام غضباً شديداً وقال : يا طاوس ؛ ما الذي حملك على ما صنعت ؟ قال : وما صنعت ؟ فازداد غضبه وقال : خلعت نعليك بحاشية بساطي ، ولم تسلم عليّ بإمرة المؤمنين ولم تكُنّي ، وجلست بإزائي وقلت : كيف أنت يا هشام .

(١) بالفارسية : أسرار كميّاي : ١٤ .

فقال طاوس : أما خلع نعلي بحاشية بساطك ، فإنّي أخلعها بين يدي ربّ العزة كل يوم خمس مرّات ولا يغضب عليّ لذلك . وأمّا قولك « لم تسلّم عليّ بإمرة المؤمنين » فليس كل الناس راضين بإمرتك ، فكرهت أن أكذب وأمّا قولك « لم تكنّي » فإنّ الله عزّ وجلّ سمّى أوليائه فقال : يا داود ، ويا يحيى ، ويا عيسى ، وكفى أعداءه فقال « تبّت يدا أبي هب » وأمّا قولك « جلست بإزائي » فإنّي سمعت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) يقول :

« إذا أردت أن تنظر إلى رجل من أهل النار فانظر إلى رجل جالس وحوله قوم قيام » .

فقال هشام : عظمي . فقال طاوس : سمعت من أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) :
« إنّ في جهنّم حياّت كالثلّال ، وعقارب كالبيغال تلدغ كلّ أمير لا يعدل في رعيّته » ثم هرب !^(١) .

الرياء صورة من الخوف

إنّ الرياء انعكاس من حالة الخوف الخفيّ في ضمير المرّائي ، والشهامة تنقذ الإنسان من أسر هذا الرياء ، وتربطه بالحقيقة والواقع .
ويقول (والدو إمرسون) :

« لتتخذ في أنفسنا حالة حربيّة ، ودعنا نشير في كيّاننا الشجاعة والاستقامة ، وعليّنا أن نعمل بمظاهر ذلك في ساعات السكون والراحة والدّعة في معيشتنا وذلك بالتزام قول الحقيقة ، أوقفوا الكرم الكاذب في استضافة المزيد من الضيوف ، وأجمعوا هذه المظاهر من الحبّ الكاذب ، ولا تعيشوا بعد اليوم

(١) سفينة البحار ٢ : ٩٥ عن الكشكول نقلا عن الإحياء للغزالي .

كما يعيش الناس المخدوعين والخادعين المخالطين لنا والمعشرين معنا ، وقولوا لهم : أنا عشت إلى اليوم متقيّداً بالمحافظة على ظواهر المجاملات ، ولكنني قرّرت منذ الحين أن أكون من أبناء الحقائق ، واعلموا أنّي فيما يأتي من عمري سوف لا أطيع أيّ قانون أقل من القانون الأزليّ الأبدي ، فإن استطعتم أن تحبّوني كما أنا فإنّي سأعيش بسرور أكثر ، وإلاّ فأمل أن يصل يوم استحقّق فيه حبّكم لي . إنّني أعتقد بقداسة ما في ضميري وما يكون سبباً لسرور الضمير وموافقاً لحبّ القلب فإنّي سأعمل به ليل نهار وبكل اقتدار .

لعلّكم تقولون : إنّ هذا السلوك ثقيل على الأصدقاء . وأنتم صادقون في ذلك ، ولكننا لا يمكننا أن نضحّي بحريّتنا وقدراتنا وطاقاتنا فداءً لحساسيتهم ، وقد يصل الوقت الذي يتعقّل فيه الناس في أمور الحياة ، وحينها يدخلون حوزة الحقيقة المطلقة فإنهم سيرون ويعتقدون بصحة عقيدتي اليوم ، وسيكون ذلك لا محالة»^(١) .

إنّ نسبة الشهامة إلى الاستعداد الذاتي كنسبة الإرادة إلى القابلية والطاقة ، فكما أنّ الإنسان مهما كانت له قابلية وإمكانية القيام بأعمال ما لم يستمد من إرادته فإنّه لن يتوفّق للقيام بأيّ عمل ؛ كذلك من كان قويّ الإدراك حادّ الذهن والفكر فما لم يقترن استعداده الذاتي بالنشاط والفعالية والشهامة لن يصل إلى أيّ هدف قيّم وكبير . والشجاع لا يتحدّث عن الضعف إذا وقف أمام الشدائد والمشاكل ، بل يتحمّل مصائب الحياة - التي لا بدّ منها - بروح الرجولة والتضحية والفداء .

المضطرّ المسكين من كانت آماله طويلاً من دون أن تكون له شهامة لتحقيقها . يعلم العلماء والمفكّرون جيّداً أنّ علينا أن نخرج أنفسنا من حدود الآمال والأمان وأن نقترّب مهما أمكن من العمل ، وإلاّ فإنّ الضعف والوهن يبدل الأمور الممكنة إلى أمور غير ممكنة في نظر الإنسان .

(١) بالفارسية : فلسفه اجتماعي : ٣٢٥ .

وعليّنا أن نلتفت إلى أنّه كما عليّنا في بعض مواقف الحياة أن نقف ونحارب ، كذلك عليّنا في بعض المواقف الأخرى أن نرجع التراجع والتنازل على المنازلة والصراع ، إنّ أولئك الذين يقرّرون أن لا يبدو وهناً من أنفسهم ولا يحترزوا من المخاطر حفظاً لشؤونهم الشخصية ، من الممكن أن يحافظوا بذلك على شؤونهم ويبلغون بذلك إلى آمالهم ، ولكنهم لا يحتفظون بحياتهم .

إنّ أبرز ما يقوم به الأبطال هو أنّهم يثبتون أنّهم متصرون متغلبون على الخوف ، وأنّهم يقاومون الخوف بما أوتوا من قدرة وقوة من دون أن يقللوا من قيمته في استمرار الحياة .

من الممكن أن يحصل الإنسان من خلال عدم إظهار الخوف على توفيقات وأن يستثمر من ذلك بعض النتائج ، وذلك يرتبط بمستوى نشاطه وفعاليّته للامتناع عن إظهار الخوف ، ولكنه قد يكون يبدأ بسعي متواصل لإنجاز عمل مُحال ، وحيث لا يصل إلى هدفه يرى نفسه لا كفاءة له ، وبالتالي يفقد ثقته بنفسه ، أضف أنّه يهدر كمية كبيرة من طاقاته وقدراته كان من الممكن أن توظّف في مواضع أخرى فتفيد وتثمر .

روي عن الإمام الحادي عشر أبي المنتظر يقول :

« . . وللحزم مقداراً فإن زاد عليه فهو جبن وللشجاعة مقداراً فإن زاد عليه فهو تهوّر »^(١) .

هناك تفاوت واختلاف بينّ وأساسيّ بين حالة الخوف وبين التدبير والحزم ، ينبّه إلى ذلك أمير المؤمنين علي (عليه السلام) فيقول :

« إذا كان القدر لا يُرد فالإحتراز باطل »^(٢) .

وعنه (عليه السلام) قال :

« إذا اقترن العزم بالحزم كملت السعادة »^(٣) .

(١) بحار الأنوار ١٧ : ٢١٨ ط قديم
(٢، ٣) غرر الحكم : ٣١٥ .

ويقول (برتراند راسل) :

« إن المخاطر تحيط بالحياة ، والإنسان العاقل يتجاهل منها ما لا بدّ منه ، وما منه بدّ ومفترّ يحتاج منه بدون تهيج العواطف والأحاسيس . أنتم ليس بإمكانكم أن تفروا من الموت ولكن يمكنكم أن تفروا من الموت بلا وصية ، إذن فاكتبوا وصيتكم ، ولا تنسوا أنكم تموتون حتماً . إنّ الاحتياط المعقول شيء غير الخوف تماماً ، فالاحتياط حكمة والخوف عبودية .

إن كنتم لا تتمكّنون من أن تتجنبوا الخوف فحاولوا أن لا يظن أطفالكم ذلك بكم ، بل حاولوا أن توسّعوا آفاق نظراته ل تمنعوا من أن يصاب في المراحل الآتية من الحياة بالشقاء ، هذه هي الطريقة الوحيدة من أجل أن تصنعوا منه رجلاً متحرراً في هذا العالم .

فيما يحاول الفكر أن يكتشف السلوك الصحيح يشكل الخوف آفة وقلقاً واضطراباً ، إذن فنحن بحاجة إلى أن نتمكن من تنبؤ حدوث الشرّ من دون الشعور بالخوف ، فنوظف عقولنا للإجتناّب عمّا يمكن الاجتناب منه ، إذ علينا أن نتعامل مع الشرور التي يمكن اجتنابها بروح الشجاعة المحضة ^(١) .

الشيء المسلّم به هو أنّ ليس بالإمكان أن نتوفّق في حلّ مشاكل الحياة بالخوف والاضطراب ، بل نحن بحاجة إلى خاطر مرتاح ونفس قوية وروح شهمة حتى نتمكن من حلّ عقد الشدائد ، والذي يكون فكره في معرض أن يتصوّر الكابوس الرهيب يرى العالم مظلماً رهيباً .

والذين يفتقدون الشهامة لا يدرون إلى من وأين يلجأون في أعاصير الحياة وهم على خطر أن يبادروا إلى الإنتحار من أجل أن يتحرّروا من عذاب الخوف والرعب .

تمّ الكتاب بعون الملك الوهاب

والحمد لله ربّ العالمين

١٢/١٢/٤٠٨ هـ ق .

(١) بالفارسيه : در تربيت ٨٣ و ٢٠١

المحتويات

٧	تقديم
١٣	طبيعة الإنسان والقوى المودعة فيه
١٥	اتجاه الإنسان إلى الكمال
١٧	تزكية النفس عامل الكمال
٢١	دراسة علل الجرائم
٢٢	أسمى تكاليف الإنسان
٢٦	هل في البشر مجرمون بالفطرة ؟
٣٠	الفطرة الطاهرة غير الملوثة
٣٦	الحرية ، والقيود
٣٨	العادات ودورها البناء والهدّام
٤٢	النظام التربوي في الإسلام
٤٥	الطفولة والعادات
٤٧	لسعادة الإنسان رصيدان : هما العقل والوجدان
٤٩	الميزة الكبرى للبشر
٥٢	أبعاد العقل
٥٦	هل الضمير هو الغرائز المكبوتة ؟

٥٩	أبعاد أحكام الوجدان
٦١	القرآن الكريم ونداء الفطرة
٦٨	رصيد العقل والضمير
٧١	السفسطة وأخلاق الذرائع والحجج
٧٥	تربية الشخصية .. وتكاملها
٧٧	مقياس تقييم الإنسان
٨٤	أصالة العامل النفسي في التربية
٨٧	تكامل الشخصية في النظام التربوي الإسلامي
٩٠	أثر العقل والإيمان في بناء الإسلام
١٠٢	اضرار الأفكار الشريرة
١٠٥	علاقة الأهداف بنمو الشخصية
١٠٦	علاقة النشاطات النفسانية والفيسيولوجية
١١١	دوران الحياة على محور التكاليف
١١٣	الإنسان في حصار التكاليف
١١٥	العمل من أجل تحقيق الأهداف السامية
١١٧	كيفية الاستفادة الصحيحة من الإرادة
١١٩	دور الإيمان في الشعور بالمسؤولية
١٢٤	دروس علّمها لقمان الحكيم
١٢٥	مراتب العبادة والشعور بالمسؤولية
١٣١	أين منبع الأمن والطمأنينة ؟
١٣٢	بحر الحياة المتلاطم
١٣٤	عوامل الآلام الروحية
١٣٦	التفكير المفرط في المستقبل المجهول
١٤١	الأساليب المنحرفة
١٤٤	أثر الآلام النفسية

- أثر الإيمان في طمأنينة النفس ١٤٧
- تسليم الأمر إلى الله والرضا بقضائه ١٥٠
- الأماني والآمال غير المحدودة ١٥٥
- الإكثار من التفكير في المستقبل المجهول ١٥٧
- الحل المطلوب للعقد النفسية ١٦٢
- إظهار السرور ١٦٤
- تجليّ الخيرات في آفاق الحياة ١٦٧
- قاعدة التعاون الاجتماعي ١٦٨
- أسمى اللذائذ الروحية ١٧١
- التغاضي عن حاجات الآخرين ١٧٢
- الإسلام والعلاقات الاجتماعية ١٧٤
- عنوان الخيرات في الإسلام ١٧٦
- عنوان الخيرات في الغرب ١٧٩
- من المحبوب عند الله ؟ ١٨٢
- الحب والإحسان للامحدودين ١٨٣
- التقدير عامل كبير في تحرك المجتمع نحو الخير ١٨٥
- عوز الروح الإنسانية ١٨٦
- آثار المديح والتحسين البالغة ١٨٨
- النقد الأصولي يختلف عن سرد السلبات ١٩٠
- التملق المذموم ١٩٣
- أطروحة الإسلام بشأن نشر الطهر والنزاهة ١٩٥
- أضرار عدم الشكر والتقدير ١٩٨
- مكافحة أنواع الفساد ٢٠٥
- الصبر جسر النصر ٢٠٩
- أقصر طرق الموفقية ٢١٠

٢١٣	المنبع الفياض بالقوة
٢١٤	ضرورة المعرفة بأصول الحياة
٢١٥	الدرس الذي يجب أن نتعلمه من النكسة
٢١٧	سبل الرقي إلى الكمال
٢٢٠	واجب الانضباط في الأعمال
٢٢٢	الإسلام وحدة ليس عامل النصر
٢٢٥	عاملان قويان لتربية الإنسان
٢٣٠	مزية إنسانية سامية
٢٣١	التغطية على الضعف والعجز
٢٣٥	حقيقة العزة والكرامة
٢٣٧	حاجة نفسية
٢٣٩	الامتيازات المفتعلة
٢٤٣	حقيقة العزة في الإسلام
٢٤٥	الابتعاد عن الذلة والحقارة
٢٤٩	غنى النفس
٢٥١	الرؤية المستقبلية
٢٥٣	الحرية الحقيقية
٢٥٤	تطبيق الأهداف على مقياس القوى
٢٥٦	الشعور بالذلة من التلوث بالذنوب
٢٥٨	نقص كبير
٢٦١	الخلل والثغور في نظرة المغرور
٢٦١	العجب والخيلاء
٢٦٦	دور الثروة في إيجاد الغرور
٢٦٨	خطر الغرور العلمي
٢٧٠	نشاطات تخريرية
٢٧١	سلامة النفس

٢٧٤ الغفلة عن عيوب النفس
٢٧٦ حب النفس لا عبادتها
٢٧٨ الحب الحق والود الخالد
٢٧٩ الشعور بالتفوق الخاص
٢٨٥ غرائب أمر الإرادة
٢٨٧ نقاط التحول في رحال التاريخ
٢٨٩ آفة التوفيق ضعف الإرادة
٢٩١ اليقظة في ظل المشاكل
٢٩٤ سعة الإمكانيات البشرية
٢٩٧ مقياس المسؤولية في نظر الإسلام
٢٩٩ المستند الثابت للإرادة
٣٠١ الصرامة تخلق الانتصار
٣٠٣ تلقين النفس
٣٠٥ العناية بمعاشرة الآخرين
٣٠٦ سلامة النفس في معاشرة الآخرين
٣٠٩ علينا أن نعرف قيمة الصداقة
٣١٠ الحساسية ورهافة الشعور
٣١٣ تحذير لمن يصادق المتلوثين
٣١٦ إرشاد المتلوثين
٣٢٢ الحيلة والحذر في الصداقة
٣٢٤ الرياء والمرء
٣٢٧ الوحدة والإنزواء
٣٢٨ الكتاب من أئمن الأحباب
٣٣٣ الثقة بالنفس ، ثقة بالحق
٣٣٤ من حق الإنسان التوفيق في الحياة

٣٣٨	الإتيكال على الآمال الخداعة
٣٣٩	من الدروس التي علمها الرسول الأكرم (ص)
٣٤٣	لا ثقة للمتشائمين
٣٤٤	الإسلام والاستقلال الذاتي
٣٤٦	المسؤولية الفردية
٣٤٨	بماذا نقيس الأعمال ؟
٣٥١	القياس بالنفس
٣٥٢	آثار التوكل على الله
٣٥٦	الخوف والرجاء
٣٥٧	غريزة الخوف
٣٦١	لا الجبن ولا الوقاحة
٣٦٣	عدم المعرفة برموز الحياة
٣٦٥	تركيب الخوف والرجاء في الإنسان
٣٧٢	ضعف الإرادة
٣٧٤	الشجاعة بمعناها الواسع
٣٧٦	الرياء صورة من الخوف
٣٨٠	محتويات الكتاب





